

ISSN: 2321-7928

الرقم الدولي:

# مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 5 العددان: 1-2

يناير- يونيو 2016م

مدير التحرير

د. أورك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد أنيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد أندييل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. بشرى زيدان (مصر)	أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند)
السيد محمد دانث الأَعْظي (البحرين)	د. صالح البلوشي (عمان)

هيئة التحرير

محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)	د. أورنك زيب الأَعْظي (مدير التحرير)
محمد معتصم الأَعْظي (عضو)	د. هيفاء شاكري (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

[aurang11zeb@yahoo.co.in](mailto:aurang11zeb@yahoo.co.in) (1)

[azebazmi@gmail.com](mailto:azebazmi@gmail.com) (2)

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للأساتذة والمكتبات)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند، مولانا آزاد أندييل  
إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية، رقم البريد-731235

## في هذا العدد

الصفحة		الافتتاحية
10-7	د. أورنك زيب الأعظمي	مقالات وبحوث:
36-11	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	تدبر القرآن (10)
72-37	- د. أورنك زيب الأعظمي	الأحاديث شارحة للقرآن
94-73	- رشأ علي عمر علي الشعري	دراسة صوتية لسورة القمر
108-95	- محمد خواجه معين الدين	الملا علي القاري وتفسيره "أنوار القرآن وأسرار الفرقان"
147-109	- محمد فضل الرحمن ماندال	الحديث النبوي وأثره في النثر العربي، دراسة تحليلية ونقدية
161-148	- د. أورنك زيب الأعظمي	عصر العرب وأحوالهم السياسية والاجتماعية والدينية قبل الإسلام
169-162	- أ. د. أُلطاف أحمد الأعظمي ترجمة: د. هيفاء شاكري	الدولة الإسلامية
198-170	- د. ك. م. ع. أحمد زبير	العلاقات الهندية-العربية بالتركيز على ولاية تامل نادو
203-199	- أ. د. فيضان الله الفاروقي	العلاقات بين الجامعات الهندية والمدارس الإسلامية بخصوص تطور اللغة العربية وأدائها في الهند

225-204	- أ. د. أمين يوسف عودة	الخطاب الصوفي الإسلامي وأثره في روحنة الإنسانية والتقريب بين الأنا والآخر
233-226	- د. محمد حميد الله الحيدرآبادي ترجمة: د. هيفاء شاكري	دور اللغة العربية في نشأة اللغة الفرنسية
241-234	- أ. د. محمد زبير الصديقي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	بیمارستانات الهند خلال العهد الإسلامي
253-242	- د. أورنك زيب الأعظمي	رسائل شبلي النعماني حول علاقته بندوق العلماء
263-254	- أ. د. غلام يحيى أنجم ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	العلامة فضل حق الخيرآبادي وخدماته الأدبية
286-264	- د. هيفاء شاكري	دور جائزة الملك فيصل ودورها في نشر اللغة العربية وآدابها- أبو الحسن علي الندوي نموذجًا
292-287	- أ. د. وزير حسن	سوهاس تشاندرا بوس
299-293	- أ. د. فيضان الله الفاروقي	الشيخ حبيب ریحان خان الندوي الأزهري عالمًا ربانيًا
340-300	- أبو محفوظ الكريم معصومي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	رجال السند والهند إلى القرن السابع- تاريخ علمي ثقافي للسند الهند
355-341	- الشيخ عبد الله المعروفي ترجمة: د. هيفاء شاكري	التاريخ العلمي للسند والهند
383-356	- بدر جمال الإصلاحي	الكلب

### استعراض كتاب:

- 403-384 - د. محمد فضل الله شريف "القيظ" حلقة ثالثة لسلسلة الرواية (الرواسي الشامخات والنفط الفرات)، دراسة تحليلية
- 407-404 - محمد معصم الأعظمي - شاعر الحب والجمال ابن زيدون

### قصص وحكايات

- 421-408 - بريم تشاندر - مباراة الكركت
- ترجمة: د. هيفاء شاكري

### قصائد ومنظومات:

- 424-422 - الشيخ نظام الدين أحمد الفاروقي - قصيدة في مدح النبي ﷺ

### أخبار وتقارير:

- 433-425 - د.ك.ع.م. أحمد زبير - الندوة العالمية حول القيم الإنسانية في الأدب العربي
- 436-434 - د. أورك زيب الأعظمي - الدكتورة هيفاء شاكري تنال جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمتها للغة العربية للسنة 2015م



## الافتتاحية

انتهى المجلد الرابع والحمد لله على ذلك، ولقد نشرنا في المجلدات السابقة كتابات الهنود والعرب على السواء، وهذا لكي يتبادل العلماء والباحثون أفكارهم وآراءهم عن الدراسات العربية والإسلامية.

نبدأ هذا المجلد بعدد مزدوج ونشر عدد من وذلك لأننا استلمنا مقالات وبحوثاً عديدة وكان أصحابها في عجلة عاجلة ففضلنا أن ننشر عددًا مزدوجًا.

هذا العدد يحتوي على عشرين مقالة وبحثاً علمياً واستعراض لكتابين وقصة قصيرة وقصيدة في مدح النبي ﷺ وتقرير لندوة علمية وخبر علي.

فالمقالة الأولى ترجمة لتفسير "تدبر قرآن" للشيخ الإصلاحي وهي حلقة عاشره وتقدم تفسير سورة البقرة (104-121)، والمقالة الثانية تناقش قضية تفسير القرآن استعانة بالأحاديث النبوية، ولا شك أن الأحاديث تعين المفسر في شرح محتويات القرآن الكريم، والمقالة الثالثة تقدم دراسة صوتية لسورة القمر لكاتبة من عجمان، ندعو الباحثين أن يدرسوها فيدلوا بأرائهم البناءة عنها، والمقالة الرابعة لصديقنا الخواجه معين الدين أحمد في "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" للملا علي القاري، والمقالة الخامسة تقدم دراسة تحليلية ونقدية لأثر الحديث النبوي في النثر العربي، والمقالة السادسة تلقي بعض الأضواء على عصر العرب وأحوالهم السياسية والاجتماعية والدينية قبل الإسلام وتلك في ضوء الشعر العربي خاصة، والمقالة

السابعة هي حلقة أولى لترجمة كتاب أردوي قيّم "اسلامي رياست" (الدولة الإسلامية) الذي ألفه الكاتب الجليل الأستاذ أطفاف أحمد الأعظمي وهو يقدم أفكارًا وآراء جديدة في الموضوع. ستتحمّل الدكتورة هيفاء شاكري هذا العبء العلمي فنشكرها على مبادرتها هذه، والمقالة الثامنة عن العلاقات الهندية-العربية بالتركيز على ولاية تامل نادو للدكتور أحمد زبير من كيرالا وهو يكتب كثيرًا عما حدث ويحدث من الأنشطة العلمية في منطقتة، والمقالة التاسعة لشيخنا الجليل الأستاذ فيضان الفاروقي عن العلاقات بين الجامعات الهندية والمدارس الإسلامية بخصوص تطور اللغة العربية وآدابها في الهند، ولو أن هذه المقالة وجيزة ولكنها تحتوي على نقاط لو فصلت لأصبحت كتابًا ضخماً، والمقالة العاشرة تتحدث عن الخطاب الصوفي الإسلامي وأثره في روحنة الإنسانية والتقريب بين الأنا والآخر، وهي كتبت بقلم أستاذ عربي له دراسات خاصة في الموضوع، والمقالة الحادية عشرة للمحقق الشهير الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي في دور اللغة العربية في نشأة اللغة الفرنسية وهذه خواطر للمحقق الفاضل، وتفتح أبوابًا جديدة للدراسة التحقيق، والمقالة الثانية عشرة تنطق عن وجود البيمارستانات في الهند خلال العهد الإسلامي، والمقالة الثالثة عشرة تبحث عن علاقة العلامة شبلي بندوة العلماء في ضوء رسائله، والواقع أن الندوة لم تقدّره خير تقدير بل هي أساءت إلى محسنها هذا، والمقالة الرابعة عشرة لكاتب الموسوعة عن سلاسل التصوف الأستاذ غلام يحيى أنجم. في هذه المقالة المعنونة بالعلامة فضل حق الخيرآبادي وخدماته الأدبية قدّم الأستاذ المحترم جهود العلامة فضل في تحرير البلاد كما أشار إلى جهود العلماء المسلمين عامة في هذا المجال، والمقالة الخامسة عشرة تسلّط الضوء على ما لعبته جائزة الملك فيصل

العالمية من دور فعّال في نشر اللغة العربية وآدابها وتقَدّم أبا الحسن علي الندوي كنموذج، ألقى هذه المقالة في المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية بدبي ونشرها هنا لإفادة قرائنا، والمقالة السادسة عشرة عن سوبهاش تشاندرا بوس للأستاذ وزير حسن وهي تقدّم معلومات أولية عن الشخصية وتفتح المجال لكتابة المزيد عن الموضوع، والمقالة السابعة عشرة عن شخصية الشيخ حبيب ربحان خان الندوي الأزهري، كتبها شيخنا الجليل العالم الموسوعي والمتضلع من اللغات العديدة الأستاذ فيضان الله الفاروقي، والمقالة الثامنة عشرة دراسة نقدية للكتاب القيم "رجال السند والهند إلى القرن السابع" للباحث الكبير أبي محفوظ الكريم معصومي وبما أن المعصومي قد وهم في العديد من تعليقاته على هذا الكتاب فذيلناها بمقالة أخرى تنبّه على زلاته وأوهامه، وقام بكتابتها الشيخ عبد الله المعروفي، والمقالة العشرون عن الكلب وأهميته لدى البشر للشيخ بدر جمال الإصلاحي الذي يتخصص بالحيوانات، علمًا بأننا نشرنا من قبلُ مقالاته العديدة عن الحيوانات مثل الأسد والوبر والفيل والبقرة والمها وغيرها.

وقفينا بهذه المقالات استعراضًا لكتابين أحدهما رواية لكاتب عماني له علاقة وطيدة مع وطننا الهند، إن هذه الرواية تقدّم عمان كيف كانت تبدو في القبط، والثاني للدكتورة هيفاء شاكري عن شعر ابن زيدون، والأخير أول كتاب من نوعه صدر عن الهند في هذا الموضوع، وقصة قصيرة عن مباراة الكركت وهي آخر قصة لبريم تشاندرا ترجمتها الدكتورة هيفاء شاكري بلغة عربية جميلة، وقصيدة في مدح النبي ﷺ، وهذه القصيدة تباري قصيدة كعب بن زهير وهذا دليل على أن شعراءنا الهنود ليسوا بأقلّ من الشعراء العرب، وتقديرًا لندوة علمية انعقدت في كيرالا، وخبرًا علميًا عن نيل

## مجلة الهند

الدكتورة هيفاء شاكري على جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمتها للغة العربية وأدائها. وهذا خبر سار لنا خصوصاً أن الدكتورة عضو لهيئة التحرير لهذه المجلة. وأخيراً ولا آخرًا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للمزيد من خدمة العلم والأدب والفن شاكرين كل من أعاننا في إصدار هذين العددين لاسيما الدكتورة هيفاء شاكري التي شرفتنا بمشوراتها الثمينة وساعدتنا في إعادة النظر في البحوث والترجمات. اللهم اجزها عنا وعن كل من تفيده المجلة خير الجزاء.

د. أورك زيب الأعظمي

## تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي<sup>2</sup>

(الحلقة العاشرة)

### 44- تفسير الآيات (104-121)

وفيما يلي نُبِّهَ المسلمون على أنواع من شرِّ اليهود، كانوا يمارسونها لكي يحرّموا بني إسماعيل عامة والمسلمين خاصة من سعادتهم بالإيمان بالقرآن الكريم والنبي الخاتم، ومن خلال هذا الحديث نقلت اعتراضات لليهود ثم ردّ عليها. وهذه الاعتراضات لم يثيروها إلا لكي يشكّكوا قلوب المسلمين، وكذا أرشد إلى ما إذا اختاره المسلمون فيمكن لهم أن لا يقعوا في هذه الفتنة ويسقيموها على الصراط الذي هم فيه سالكون. قال الله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّثْلَهَا أَمْ تَلْمِزُنَا أَنْ تَلَّمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا

<sup>1</sup> كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

<sup>2</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧٨﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ  
الْحَقُّ فَاعْقَبُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٨٠﴾  
وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ﴿١٨١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ  
شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٨٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ  
فِي خَرَابِهَا ۗ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۗ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۗ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ ۗ وَقَالُوا  
أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ وَلَئِن سُبْحَنَهُ ۗ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١٨٥﴾ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ۗ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا  
اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يُوقِنُونَ ﴿١٨٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۗ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٨٨﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ  
عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِاللَّهِ أَنْ يُضَلِّيَ ۗ وَلَوْ كَرِهَ الْغَافِقُونَ ﴿١٨٩﴾  
بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۗ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ  
يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩١﴾

#### 45- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩١﴾  
رَاعِنَا أمر من مراعاة فإن لم يفهم المخاطب كلام المتكلم جيداً فيلغته المخاطب إليه مرة  
أخرى بكلمة "رَاعِنَا" بالعربية أي اعتن بنا وأعد كلامك أو كرر ما تريد أن تقول أو كلمات

أخرى كما نقول بالإنجليزية "I beg your pardon". ولمثل هذا الموقع يستخدم بالعربية كلمة "أنظرنا" وهو أمر من النظر وهذا يعني الرؤية والإمهال والانتظار والتوقف. وقد مضى آنفاً أن في هذه الآيات إشارة إلى أنواع من شر واعتراض اليهود، كانوا يمارسونها ضد الرسول الأبي وكتابه المنزل عليه لكي يثلجوا صدورهم بها ويحرموا المسلمين، إن استطاعوا، نعمة الإسلام العظمى، ويبدو من النظر في سياق الحديث وسباقه أن بعض اليهود كانوا يحضرون جلسات النبي ﷺ لأغراض ملؤها النفاق واستخدموا كلمة "راعنا" لإبداء رغبتهم في الاستفادة والاستفاضة لكي يؤثروا في الحضور أن هؤلاء راغبون في العلم ومعظمون قدره والحال أنهم كانوا يستخدمون هذه الكلمة لكي يهتكوا عزة الرسول بشيء من لسان ويجعل "راعنا" "راعينا" الكلمة التي تعني "راعي الغنم". وقد أشار القرآن إلى شرّ اليهود هذا في غير موضع منه فقال "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَتَأْتِيَ بِلِسَانِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ" (سورة النساء: 46) فيبدو من هذه الآية أنهم كانوا يقومون بليّ اللسان فيجعلون "راعنا" "راعينا" وكذا جعلوا "عصينا" "أطعنا" و"اسمع" غير مسمع" بشيء من لسان وتصريف الكلام. لم يكن المراد من هذه الطريقة إلا هزءاً بالدين وصاحبه.

وبما أن اليهود كانوا يقومون بهذا الهزء، كما مضى آنفاً، لإثلاج صدورهم وهتك عزة الرسول والنيل من قدره أمام المسلمين فقد أنهى الله هذه الكلمة من جلسات المسلمين وأقام مقامها كلمة أخرى كانت بعيدة عن مثل هذا الشر وهي "أنظرنا" ولنلاحظ نفسية الكلمات أنها لو كانت تطوي روحاً للفساد أو أدخلت فيها تلك الروح الفاسدة لسوء استخدامها فالصيانة كل الصيانة أن نبتعد عن استخدامها وإلا فهي يمكن أن تسلّل في مستخدمها وعياً أو بدون وعي ولصيانة المسلمين عن هذه العدوى نهاهم الله تعالى عن استخدامها.

وقد أفاد هذا المنع بأنه فرّق بين من هو مخلص ومن هو مليئ بالنفاق وأنه لا يجترئ على استخدامها إلا من هو مليئ بالحسد والبغض ولا يقدر على إخفائها جهد المستطاع. ففي هذه الآية كلمة "اسمعوا" استخدمت لمعناها الحقيقي التام أي أنصتوا لما يقول لكم النبي لكيلا تحتاجوا إلى لفته إليكم مرارًا وتكرارًا، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن اليهود ما جاءوا للاستماع ولا قدموا للفهم بل أتوا لمجرد إثلاج صدورهم باستخدام كلمة "راعنا".

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِمَّن رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾

هذه الآية تعكس ما بطن لدى معاندي الإسلام إلا أن الخطاب موجّه إلى المسلمين وذلك لأن القضية ليست قضية استخدام كلمة وعدم استخدامها بل اليهود والمشركون كلاهما يغلى غضبهما ويمتلآن حسدًا على أنكم كيف استحققتم هذا الخير العظيم من قبل الله جل جلاله فهم كانوا يرون أنهم كانوا هم ورثة هذا الخير والشرف بإسرها فلم تكونوا، أيها المسلمون الصاغرون البائسون، جديرين بهما ولكنهم حينما يرون أن هذا الخير العظيم ينتقل إليكم بدلًا من انتقاله إليهم وأنتم كدتم أن تحملوه فجعلوا يخوضون في مثل هذه الحركات الدنية لكي يقلّوا، إذا استطاعوا، قدر الإسلام والنبي الخاتم فيحرموكم هذه النعمة كما حرموها فلتكونوا على حذر من تدايبرهم تلك ولا تقعوا في شبكة حيلهم فيتحقق أملهم الباطل ثم قال إن الله لا جعل اليهود متعبدين بفضله ورحمته ولا جعل القریش ممتلكين هذه الثروة بل هو مستقل بفضله وقسمته ويعطيه من يشاء طبق متطلبات حكمته.

﴿١٥﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّنَّهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾

"النسخ" تعني دفع الشيء أو محوه فقد جاء في القرآن الكريم "فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته" (سورة الحج: 52). هنا استخدمت الكلمة لإقامة قانون مقام قانون سابق وكلمة "الإنساء" تعني نسيان الشيء.

كانت اليهود يوسوسون في قلوب المسلمين أنه لما يعترف القرآن أن موسى نبي الله وأن التوراة كتابه فماذا تعني تبديل أحكام التوراة؟ هل يمكن للرب أن يغيّر ما صاغه من القوانين بقوانين مثلها أو خير منها وهل الآن اتضح للرب بعد الممارسة أنه أخطأ في وضع قانون فيقوم بإصلاحه؟

فبإثارة هذا النوع من الاعتراضات كانت اليهود يحاولون أن يشكّكوا في أذهان المسلمين عن القرآن والنبي الخاتم ﷺ فردّ القرآن على اعتراضاتهم تلك بأن حكمًا للتوراة يتم نسخه يعطى حكم خير منه وهكذا يقوم بإحياء أحكام التوراة التي نسبها اليهود وإن لم يتم الإحياء ويعرض عنها فتعطى أحكام تشبهها أي أن الله يطوّر عباده ويرقيهم من الحسن إلى الأحسن عن طريق هذا التبديل ويغيي الدين الذي تم ضياع ثروته بثروة أخرى جديدة ثمينة، وليس شئ مما سلف يستحق الاعتراض عليه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ هذا خطاب عامّ فهو موجّه إلى من كان يوسوس كما إلى من كان يتأثر بهذه الوسوسة فيقال لهم أن الله لم يقعد فارغًا عن قدرته وخياره، بعدما أعطى اليهود شريعته، بأنه لا يعطي أحدًا شريعته في هذه الدنيا كما لا يقوم بأي تبديل فيها ولا يحييها ولو أنهم يدّمرونها أصلًا بل هو يستقل بحكمه ولم يزل ولا يزال يصدر أحكامه طبقًا لحكمته.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾ وفي هذه الآية أيضًا وجّه الخطاب إلى من خوطبوا في الآية السالفة إلا أن الردّ جاء طبقًا للنفسية التي كانت تختفي في السؤال المذكور أعلاه وهنا جاء شئ من التفصيل فما كانت اليهود يوسوسونه في أذهان الساذجين من الناس عن طريق السؤال عن النسخ كان السبب الرئيسي وراءه أنهم قد فطنوا لأن نسخ أحكام التوراة وقيام أحكام أخرى مقامها ليس مجرد نسخ أحكام للتوراة بل تختفي وراءه رسالة عن عزل اليهود عن منصب الإمامة وقيام أمة مقامهم. والواقع أن هذا هو الغضب الذي كان يبغ عن منصب الإمامة وقيام أمة مقامهم.

أنفسهم وكانوا يستخدمون سؤال النسخ كحيله لذلك فكشف القرآن عن هذا الغطاء وردّ عليهم بأن ملك السماوات والأرض بيد الله وهو يمتلكهما فهو يقدر على أن يسلبه ممن يشاء فيعطيه لمن يشاء فإن أصبحتم غير جديرين بهذا المنصب الذي أعطاكموه فهذا من متطلبات حكمته أن يقيم أمة أخرى مقامكم، وهذا سيكون مفعولاً ولا أحد يقدر على أن يمسك بيد الله عن وقوعه.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣٨﴾

السؤال له معانٍ ومفاهيم فهي تعني سؤال شيء، وطلب شيء، ومطالبة شيء، وسؤالاً عن شيء، ومحاسبة شيء، وغيرها فهو ربما يكون من نوع الاعتراض فهو يعني الاعتراض كذلك وفي بعض الأحيان يتعلق بالتحقيق والتفتيش وفي هذه الصورة تستخدم هي مع صلة "عن" كما هي تعني الاستهزاء وفي هذه الصورة تأتي لها صلة "ب" فقال الله تعالى مثلاً "سأل سائل بعذاب واقع" (سورة المعارج: 1). قد استخدمت هذه الكلمة في القرآن لكافة تلك المعاني المذكورة أعلاه وبدل موقع الكلام على أنها استخدمت هنا للاعتراض.

وهنا خوطب ضعفاء المسلمين الذين قد تأثروا بالسؤال الذي ألقاه اليهود عليهم فقدموه إلى النبي الكريم ﷺ وهكذا فكانوا يمثلون اليهود في طرح هذا السؤال ونشره فيما بين المسلمين وقد ردّ القرآن على السؤال فيما سلف لكي يردّد على دعاية اليهود ولكنه كما نبّه في الآية السالفة اليهود وهكذا نبّه في هذه الآية من كان يمثلهم من بين المسلمين. هذه الأسئلة باعتبار نفسياتها ونوعيتها مثل الأسئلة التي كانت اليهود يطرحونها على موسى عليه السلام، وهذه العادة ليست عادة الإيمان والهداية بل هي عادة تبديل الإيمان بالكفر فمن يختار هذه العادة هم يضلّون عن جادة الحق كما ضلّت اليهود عنها.

وبما أن اليهود كانوا يلعبون دورًا قياديًا وراء هذا السؤال فقد أشار القرآن بقوله "إن مثل هذه الأسئلة قد طرحت على موسى من قبل" إشارة بليغة إلى هؤلاء اليهود لكي يتضح لهم أن الله ليس بغافل عن وسوساتهم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣٨﴾﴾

وفي هذه الآية نبه الله على أن ما يقوم به اليهود من الأنشطة ليست إلا أن يضلّوكم عن الإيمان إلى هوة الكفر فلا تظنوا أنما يقومون به من السعي المفرط ليس إلا لخيركم أم يصدّقون دينكم السابق مؤيدين له أم لهم سوء فهم بالنسبة للإسلام بل هي صرعة للحسد أصابهم لأجل حثّ أنفسهم على الرغم من أن حقيقة الإسلام قد تجلّت لهم. مسّت الحاجة إلى هذا التنبيه مخافة أن يقع بعض المسلمين الساذجين في سوء الفهم هذا بأن أهل الكتاب هؤلاء يسعون لخيرهم أم هم يؤدّون خدمة دينية بسعيهم عن إيمانهم فأزال القرآن سوء الفهم هذا بما يقوم به هؤلاء اليهود ليس إلا "حسدًا من عند أنفسهم" لا على عاطفة دينية ثارت في داخلهم.

فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره: العفو له معانٍ أحدها العفو من أعماق القلوب وثانيها الصفح عن أحد فقال تعالى مثلاً: "يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" (سورة المائدة: 15) والصفح يعني الإعراض عن كذا فيقول شاعر حماسي:

صفحنا عن بني ذهل      وقلنا القوم إخوان

فالآية تعني أن تعرضوا عن شر اليهود لمدة أيام حتى يصدر الله حكمه النهائي عنهم فهذه الآية كلها تهديد ووعيد لليهود وإجمال "بأمره" يحوي كل ما ظهر فيما بعد في صورة هزيمة اليهود وقتلهم ونفيمهم وأداء الجزية إثر الأمر بالحرب ضد اليهود.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

هذه طريقة علمها الله المسلمين لمواجهة مخالفة أعداء الإسلام أي إذا أردتم أن تغلبوا على تلك الفتن فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة فهما اللتان تربيانكم تربية روحية وخلقية تصونكم عن وسوسات الأعداء في جانب وفي جانب آخر توحدكم فتجعلكم كبنيان مرصوص فلا تستطيع أي قوة بالقضاء الضرر بكم، وقد اعتبرت الصلوة والزكوة، في القرآن، أساساً للدين كله وأصلاً للتربية والإصلاح بأسرهما ومصدراً للقوة كلها. وأما الأشياء كلها فهي تابعة لهما فقد أمر النبي بالتأكيد بالصلوة في السور المكية حيث أمر بالصبر والثبات ضد الأعداء فقد قال في هذه السورة بعد الأمر بتحويل القبلة حينما ضجت مكة بالصوت ضده "يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" (سورة البقرة: 153) وهكذا فقد أمر من يتعجل بالحرب قبل أن ينالوا بالتربية الصحيحة، بأن يربوا أنفسهم بالصبر والصلوة "كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ" (سورة النساء: 77) وكذا قال للمسلمين بعدما أمرهم بالحج "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِشَيْءٍ مِّنْ دِينِ اللَّهِ إِنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ" (سورة الحج: 78) فقد أمر بالصلوة والزكوة بهذا الجانب. وسنبحث عن هذا الأمر فيما بعد.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

هود جمع هائد وقد مضى تحقيق هذه الكلمة حين الكلام عن الآية 62. وكما أثير الاعتراض على النسخ لخلق الشك والريب في قلوب المسلمين وهكذا خلقت هذه الدعاية من قبل اليهود والنصارى بأنه لو كان هنك طريق لنيل النجاة فأن يعتنق المرء اليهودية أو النصرانية فإنهما دينان سماويان فلا حاجة إلى دين جديد ولا داعية إلى خياره ما دام رائجين في الأرض.

ولو أن اليهود والنصارى كانوا أعداء فيما بينهم فكانوا يسفكون الدماء بناءً على الدين ولكن يبدو أنهما قد اتحدا في عداوة الإسلام واتفقت كلمتهما على أن من يريد النجاة فليعتنق إما يهودية أو نصرانية فالدين الجديد ليس إلا فتنة للناس.

وقد اختارت اليهود معاملة المصانعة الدينية حتى في أمر المشركين كذلك وأما النصارى فكانوا إخوانهم في الدين الإلهي فقد ذكر القرآن عداوتهم للحق كما يلي: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا" (سورة النساء: 51).

ولعل هذه الدعاية قد عضّتها أن العرب كانوا يحسنون الظن بأهل الكتاب كما كانوا يقولون إن القرآن لا ينكر بكون اليهودية والنصرانية دينين سماويين وعلى هذا فقد قام القرآن بالرد عليه بشيء من التفصيل فقال "تلك أمانتهم" أي هذه أقوالهم المختلقة التي لا أساس لها فلم يصدر الله أي حكم بالنسبة لأي من اليهودية أو النصرانية بأن من تهوّد أو تنصّر فهو خالد في الجنة فإن يدّعوا بهذا فليأتوا بدليل على صدق دعواهم من كتابهم، هذه وأمثالها من أمانتهم وآمالهم التي جعلوها من الدين والعقيدة وأثبتوها في قلوبهم. ولو أن القرآن قد ذكر هنا واحدة منها ولكنه قد أشار إلى كل منها باستخدام كلمة الجمع وسنقوم بتفصيل تلك الأمانى خلال تفسير الآيات (78-81) لهذه السورة.

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٦﴾  
أي لأجل نيل النجاة والدخول في الجنة لا يشترط أن يكون المرء يهوديًا ونصرانيًا بل يجب عليه أن يكون مسلمًا ثم محسنًا والإسلام أن يفوض المرء نفسه إلى الله ولا يفرّق بين أنبيائه ورسله ويقضي حياته كلها طبقًا لشريعته. وأما الإحسان فهي تعني أن يعمل على الشريعة بكل إخلاص وأمانة وصدق تام فمن يؤدّ حق عبادة الله

وطاعته كما ذكر فلهم أجرهم عند الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهذه هي تعاليم كافة الأنبياء وكافة الصحف السماوية وهذه مما يقتضيه العقل والفترة. وقد مضى ما ذكرناه مفصلاً في آيات هذه السورة (78-81) فقد ناقشنا مختلف جوانبه بتوضيح تام.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٣﴾

أي قد اجتمعت اليهود والنصارى كلاهما على رصيف واحد لمعارضة الإسلام ويقرّر أحدهما الآخر منجياً وخالدًا في الجنة بكل رحابة صدورهما ولكنه حينما نراهما خارج هذا الرصيف فنجد أحدهما عدوّ للآخر فاليهود لا يعترفون بأصل للنصارى كما لا يعلم النصارى أي أصل لليهود والحال أن كليهما يدعي باتباع كتاب سماويّ فالتوراة كلمة سواء بينهما. فاتضح من هذا أن الوحدة التي نشهد بها اليوم فيما بين هذين الحزبين ليست هي لأجل صيانة الدين ولا مبنية على الإخلاص وحسن النية بل هي عاطفة لعداوة الإسلام، وحدثهما على رصيف واحد.

والمراد من "الذين لا يعلمون" مشركو بني إسماعيل فإنهم كانوا أميين لا يعرفون الكتاب والشريعة فقال فيهم إنهم قالوا مثلما قاله اليهود والنصارى أي هم أيضاً يرون سواهم على الباطل ولكن هؤلاء أيضاً اشتركوا في هذه الجبهة المتحدة لمعارضة الإسلام فاليهود والنصارى يؤدّون خدمة الدين هذه مدّعين بمعرفة كتاب سماويّ والعمل عليه بينما هؤلاء لا يمتلكون علمًا ولا عملاً ولكنهم يضمّون إليهم. فلو تبدو كلمتا "كذلك" و"مثل قومهم" تحتملان معنى واحدًا ولكنه حينما نتأملهما تبدّ لنا هذه الحقائق فالأولى تبدي دافعًا وراء هذا واتحاد العاطفة بينما الأخرى تبين جانب التعبير أي هم يحذون حذو اليهود والنصارى في نيتهم وعملهم كليهما.

وفي النهاية قال مهديًا إن نزاعهم هذا سيفصل عنه الله في الآخرة فهذا عزاء للنبي بأنك لست إلا مسؤولًا عن تبليغ الحق خلال هذا النزاع فلا تسئل عما يزيد على هذا ولا يقصر. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾

هذه إشارة إلى أعمال المدعين بالجنة، التي قاموا بها لتدمير معابدهم على أساس العناد والعداوة المتواجدة فيما بينهم فقد ثبت تاريخيًا أن الحروب الدامية قد وقعت بين اليهود والنصارى في رحاب بيت المقدس وخارجه لمنع أحدهما الآخر عن العبادة فيه فكلما وحيثما سنحت لهم الفرصة حاول أحدهما لتدمير معبد خصم الآخر وكذا ثبت تاريخيًا أن النصارى حاولوا أن يصدوا الناس عن حج بيت الله ولكنهم لما فشلوا في هذه المحاولة فحمل أبرهة على مكة هائمًا بتدمير بيت الله، الأمر الذي سبب نزول عذاب الله عليه.

والهدف وراء الإشارة إلى هذه الأحداث هو إلقاء الضوء على أن الذين اتحدوا في مخالفة الإسلام قد كان بلغ بهم سيل عصبيتهم الدينية كل مبلغ وقد خلفوا أعمالًا سيئة في تدمير مساجد الله ثم قال لإعلاء درجة المساجد أن أظلم رجل في العالم هو المدعي بالهدى والتقوى الذي يمنع الناس عن أن يذكروا الله في المساجد ويحاولوا تدميرها وخرابها فالبيت الذي يبني لعبادة الله هو بيت الله سبحانه وتعالى فلا يناسب أحدًا أن يدخل مسجد الله لتدميرها وخرابه فالطريقة الوحيدة للدخول في بيت الله هي أن يدخل فيه المرء متضرعًا وخائفًا منه تعالى فمن يعمل خلاف هذه الطريقة فلهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

طبقًا لهذا الأصل لاحترام المساجد لم يسمح المسلمون أن يقوموا بتدمير وإهانة كنائس ومعابد اليهود والنصارى في حالة القتال ضدهم، وهذا الأمر يلفت أنظار

المسلمين الذين يمنعون من لا يسلك مسلكهم ولا يذهب مذهبهم عن الدخول في مساجدهم وربما يجترئون على إهانة مساجد من لا يذهب مذهبهم.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

وهذه إشارة إلى ما سبب النزاع والخلاف بين اليهود والنصارى لإهانة المساجد والمعابد وخرابها فقد كانت قبلة اليهود والنصارى كليهما بيت المقدس ولكن النصارى خصّوا جانبه الشرقي بقبلتهم ولعل هذا لأجل أن مريم توجهت نحوه في اعتكافها فيبدو من خريطة بيت المقدس في ذلك العهد أن جانبه الذي كان مختصاً بعبادة النساء كان واقعاً في هذه الجهة، والقرآن يؤيد هذا الرأي فقد جاء في سورة مريم: "وَأذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا" (16) فخالفهم اليهود متخذين الجانب الغربي للبيت ولم يقعدوا إلى هذا الحد بل قسموا هذه القسمة في خارج البيت فاتخذت النصارى قبلتهم الجانب الشرقي بينما اليهود اتخذوها الجانب الغربي وأوغلوا في هذا الأمر إلى حدّ نشبت الحروب بينهما خارج بيت المقدس وداخله فقامت إحدى الطائفتين بإهانة معبد الأخرى وبالعكس.

ومشيراً إلى سبب هذا النزاع والخلاف فقد دلّ القرآن على كونه لغواً فكلا الجانبين لله شرقياً كان أو غربياً فأياً اتخذ العبد مخلصاً نيته لله فهو جانبه فهذا يعني أنه لو تقاتل عليه اليهود والنصارى فهدموا معبدهم فهذا جهلهم وحمقهم فلا نحصر الله في حدود الجوانب فأياً توجهوا متخذين بيت المقدس قبلتهم فيجدوا الله حاضراً فالله محيط بالكون بقدرته وعلمه.

وسنفضّل هذا الأمر حين الحديث عن تحويل القبلة.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾

الولد يعني هنا الأولاد فهذه الكلمة تستخدم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث كليهما وفيما سبق أشار إلى أعمال من كوّن جهة ضد الإسلام التي قاموا بها في خراب مساجد الله والآن أشار إلى عقائدهم المليئة بالشرك لكي ينكشف للقراء الجانب العقائدي

لهؤلاء المتعبدین بالهدى والنجاة. فقال إنهم يعتقدون بأن لله أولادًا وبناتٍ فاعتبرت اليهود العزيز ابن الله كما اعتبرت النصارى المسيح ابن الله وأما مشركو العرب فقد اتخذوا الملائكة بنات الله فردّ عليه القرآن قائلًا بأن الله بريء عن مثل هذه العلاقات البشرية فلا يشركه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في حقوقه بل كلُّ ما في السماوات والأرض مما خلقه وامتلك ناصيته فلا يتحرّر شيء عن عبوديته فكل تابع لأمره ولا غير.

بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

بَدَعَ شيئاً يبدعه بدعاً: أوجده إلى الوجود بدون مادة ونظير، ومن هنا جاءت كلمة "البدعة" التي تعني إيجاد شيء في الدين، لا أساس له ولا مصدر، ومنه البديع على وزن الفعيل بمعنى الفاعل.

هذا مزيد التوضيح لما مضى آنفاً عن تنزيه الله تعالى أي ما زعموه من الأولاد والبنات لله جل سبحانه زعموهم على أساس أن المرء كما يحتاج إلى شركاء وأعوان في مختلف أمور الحياة وشؤون المجتمع فكذلك الأمر مع الله الذي لا ينظم هذا الكون إلا مع هذه الأعوان وتلك الشركاء والحال أن الله بريء من مثل هؤلاء الشركاء والأعوان كلهم فهو أوجد السماوات والأرض وحيداً بقدرته وحكمته وعندما يريد إصدار أمر ما فهو يقول: كن فيكون ذلك الشيء فكيف لمن لا يحتاج إلى معونة ما وهو يفعل ما يفعل وحيداً، كيف يجمل بنا أن نجعل له أولادًا وبناتٍ؟!

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٧٩﴾

المراد من "الذين لا يعلمون"، كما تم التوضيح خلال تفسير الآية 112، هم مشركو بني إسماعيل فقد ذكر فيما سبق اعتراضات أهل الكتاب ووسوساتهم والآن يأتي ذكر ثالث أركان هذه الجبهة المتحدة لمخالفة الإسلام المشركين فيتم ذكر بعض متطلباتهم والرد عليها.

أول متطلباتهم أن محمداً ﷺ يدّعي بأن الله يكلمه فإن كان كذلك فلم اختاره الله من بيننا للكلام معه ولم لا يكلمنا نحن رؤساء القريش وأئمتهم والأكثر منه مآلاً وولداً؟ وقد ردّ القرآن على هذا الاعتراض في بعض مواضعه فقال مثلاً إنه لا يناسب بشراً أن يكلمه الله مباشرة فهو يكلمه عن الوحي أو من وراء حجاب". ثم أوضح بالنسبة عن الوحي والرسالة أنه لا يستحقهما كل جاءٍ وآتٍ فلا يعلم إلا الله من هو يستحقّ هذا المنصب الجليل، ولكنه لم يردّ على هذا الاعتراض الخاص. وذلك، كما نراه، يشير إلى أن هذا الاعتراض مليئ بالحماسة والوقاحة إلى حدّ أن الإعراض عن الردّ عليه هو الردّ عليه أصلاً فتفكّروا أن سكوت القرآن بهذه المناسبة قد وجّه أشدّ ضربة وأقساها إلى كبرياء سادة القريش.

وآخرها أنه لم لا تأتهم آية والمراد من الآية عندهم كان من نوع المعجزات المدركة التي حينما يراها الناس يعترفوا بأن من يريها هو رسول لله فمثلاً أن ينادي برسالته ملك أو يحيى بأمره الموتى أو تمشي الجبال بأمره أن تتحوّل الصحراء إلى الحديقة بمشيئته أو على الأقل أن يظهر نموذج من العذاب الرباني الذي يعده كل يوم.

وللرد على هذا الطلب قال:

1. إن الآيات التي يطلبها هؤلاء طلبها الأمم السابقة من أنبيائهم ورسلمهم فهم أيضاً قد حاولوا إدحاض رسلمهم بطلبهم مثل هذه الآيات بعدما اتضح لهم الحق فطلب هؤلاء أيضاً مثل طلب السالفين فقد اتضح لهم الحق تماماً ثم قال إن قلوبهم قد أصبحت مثل قلوب أولئك أي إن قلوبهم تعلوها ظلمة القساوة والعدوان وعداوة الحق وبالتالي فهم يصيهم العذاب مثلما أصابهم من الله القاهر العزيز.

2. وأما فيما يتعلق بكون رسالتك ودعوتك حقاً فقد بيّنا دلائله من الأفاق، والأنفس، والسماء، والأرض، والتاريخ، والآثار في القرآن وعن كل جهة فهذه الدلائل واضحة إلى حدّ أنه لا تبقى بعدها حاجة إلى آية أو معجزة ولكنها لا تفيد

إلا الموقنين وأما من لا يريد الإيقان فلا يقنعه شيء من هذا العالم فلا يؤمن مثل هؤلاء بعد أن يروا العذاب بأعينهم وحتى يكسر العذاب قواهم كلها.

3. وإن مسؤوليتك بعد بعثتك ليست إلا أن تنذر العذاب الأليم وتبشّر بالجنة ولا تقع عليك مسؤولية أخرى بعد تبليغ رسالة الربّ فقال "إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم". فتلبية حاجياتهم وإراءة الآيات والمعجزات طبق مشيئتهم لا تأتي تحت واجباتك. فلا تسئل إلا عن أداء واجب رسالتك فلا تسئل عن دخولهم في النار أو إيمانهم بالله والآخرة.

وكل ما ذكرنا آنفاً قد تمّ تبيينه في السور المكية بمختلف الأساليب من خلال قصص الأمم السابقة فلا نريد أن نتناولها بمزيد من التفصيل.

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾<sup>١٢</sup>

وبعدما أيأس النبي عن معاملة المشركين أوضح له معاملة اليهود والنصارى بأنهم لا يرضون عنك ما لم تتبع ملتهم أي اختر إما اليهودية أو النصرانية فإنهم لا يسألون عن توضيح الحق أو بروز الدلائل بل إصرارهم على طرقهم الخاصة فهم يتبعون أهوائهم أكثر مما يتبعون الحق، وبما أن الوحي الإلهي قد جاء وهو يقطع دابر أهوائهم فاصرح لهم القول بأن الهدى الحقة التي تأتي من الله تعالى لا ما هو عندكم فلا اتبع غير سبيل الله الذي تجلّى لي. وقد استخدم هنا كلمة "الأهواء" لما يتبعه اليهود والنصارى وذلك لأن من ظهر له الحق من الرب تعالى ثم يصرّ على طريقته فهو ليس إلا أن يتبع هواءه.

ولو أن الخطاب في "ولئن اتبعت" موجّه إلى النبي ﷺ ولكننا يختفي فيه من التنبيه والعتاب موجّه إلى اليهود والنصارى وستجد أمثلة عديدة لهذا النوع من الخطاب.

وكلمة "الملة" التي استخدمت في هذه الآية هي تعني "الطريقة" ولكن يراد بها طريقة رجل أو طائفة تبني على الدين أو روايات الدين.

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ  
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣٦﴾

وبعدما ذكر اليأس عن عامة أهل الكتاب رجع إلى أهل الكتاب الذين يؤمنون بكتابهم  
إيمانًا حقًا فقال فيهم إنهم سيؤمنون بالهدى الربانية التي تقدمها لهم.  
وقد أردنا بهم الصالحين من أهل الكتاب على وجوه تالية:

أنه تعالى قال فيهم "يتلونه حق تلاوته" وهو حال عن ضمير "ه" في "يتلونه" والمراد به  
إظهار أنهم قد قدروا الكتاب المنزل عليهم حق قدره فلم يكونوا كمن قيل فيهم "كَمَثَلِ  
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا" بل لم يزالوا يتدبرونه ويتفكرون فيه وكانوا يفعلون هذا  
للاستهداء لا لأجل الاستدلال على أهوائهم وأمانهم.

1. أنه قال فيهم إنهم سيؤمنون بالهدى التي أنزلها الله عن طريق الرسول الخاتم.  
2. أنه قد استخدم لهم "آتيناهم الكتاب" فيبدو من نظائر القرآن أن هذا الأسلوب  
حينما يستخدم لأهل الكتاب يراد به مدحهم فإليكم بعض الأمثلة:

1. "الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ" (سورة البقرة: 146)
2. "وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ" (سورة الأنعام: 114)
3. "وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ" (سورة الرعد: 36)
4. "الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ" (سورة القصص: 52)

فما يبرز في "والذين آتيناهم الكتاب" من جانب العناية مقابل "والذين أوتوا الكتاب"  
لا يختفي على لطافة أدبية وبلاغية لهذين الأسلوبين لمواقع الاستخدام بالعربية  
فصيغة المعروف في الأسلوب المذكور أعلاه يشير إلى أن الله قد أتى الكتاب، أصلاً، من  
قدره وأما من لم يقدره فكانه تعالى لم يؤتهم إياه. وعلى هذا فلم تستخدم صيغة  
"أوتوا الكتاب" للمدح إلا قليلاً وكذا "أولئك يؤمنون به" خبر لـ"الذين آتيناهم الكتاب"  
يتلونه حق تلاوته". أي لا يؤمن بهدى الله التي يقدمها الرسول إلا من يتلو كتابه حق

تلاوته وذلك لأن من سنة الله أنه لا يعطي بركاته الروحية إلا من يقدرها وأما من لا يقدرها فلا يؤتهم المزيد بل يسلمهم ما آتاهم من قبل. ونفس الميثاق قد عقده الله مع إبراهيم عليه السلام بالنسبة للشريعة النهائية أي لا يحظى بها إلا من صلح من ذريتك فيحرمها من هو ليس بصالح. ثم أوضح نفس الواقع لموسى عليه السلام حيث قال إنه لا يؤمن بهذا النبي الخاتم إلا من هو مستقيم على تقواه وكذا أوضح نفس الواقع المسيح عليه السلام بمختلف أساليبه وسنقراً تفاصيله في موقعها المناسب لها.

#### 46- حقيقة النسخ والحاجة إليه

وقد أشرنا إلى أهم إرشادات هذه المجموعة من الآيات خلال توضيح الآيات وهذا يكفي من يمعن النظر في تلك الآيات إلا أن قضية النسخ التي ذكرت في الآية 106 تحتاج إلى مزيد من التوضيح فنسلط الضوء، فيما يلي، على بعض جوانبها مستفيداً من فكرة أستاذي الإمام الفراهي فيها:

ألق نظرة سارحة على الآية التي مضت آنفاً فقال تعالى "ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها" وقد قررنا اتصالها بالأديان السابقة في ضوء سياقها وسبقها ونظم الكلام فقد أثار أهل الكتاب اعتراضاً بأنه لما يعترف القرآن بأن كتبنا سماوية فلم ينسخ تعاليمها فهذا ما ردّ عليه القرآن فالآن لنفكر في نوعية هذا الردّ ولننظر هل هذا معقول ومقنع من كل جهة أم لا؟ وحينما نتدبر الآية يتضح لنا جانبان لهذا الردّ كما يلي:

1. أن هذا النسخ من وجهة نظر العروج من الحسن إلى الأحسن وبعبارة أخرى أنه وفاء بميثاق الله الذي عقده مع موسى وعيسى عليهما السلام بأنه يبعث رسوله الخاتم الذي يتم شريعته ويحلّ الطيبات ويحرم الخبائث ويحرر الناس عن الأغلال التي هي الآن عليهم.

ولترسيخ هذه الحقيقة في الذهن لنضع أمام أعيننا ما يأتي من الأمور:

الألف: أن شريعة الله قد مرّت بدرجات للرفي حتى وصلت إلى غاية أن لها التمام والكمال وتلك الغاية هي التي نراها في صورة القرآن الكريم، والشئ الذي يقتضيه هذا الرفي التدريجي هو فطرة الإنسان فقد جعل الله فطرته بحيث إنه لا يبلغ إلا تدريجياً إلى الغاية التي يجدر عليها بحمل أمانة دين الله الكامل فما بلغه من الدين الإلهي قبل وصوله إلى هذه الدرجة كان هو الإسلام أصلاً ولكنه كان مصوغاً في ظاهره أو باعتبار شريعته في قالب كان وموافقاً بمقتضيات ذلك العهد الحضاري والاجتماعي والعقلي والذهني فلما اتضح كافة ما كان مختفياً في فطرته عن طريق التدرج وبلغ عقله غايته وبدأ هو يتفكر بعيداً عن قيود الإدراك والتقليد والعصبية القومية والقبلية فأنداك أعطاه الله الإسلام في صورة شريعته التي كانت توافق وفطرته فلا يقل عنها شيئاً ولا يزيد. وقد تطلب هذا الرفي أن يقع تبديل في كثير من الشرائع القديمة فتتضح عن طريق الإسلام في صورها التي هي صورها الفطرية المرادة.

البناء: وتشهد الصور الظاهرة للعديد من أحكام التوراة أنها كانت ناقصة حينما نزلت فكانت هي تنتظر أوأنا آخر لإتمامها فقد سدّ ذلك النقص ظهور الإسلام فهي بلغت تمامها فمثلاً أن الخمر لم تكن محرمة إلا على من يتولّى أمور المعابد. وهذا من البديهي أنها كانت إشارة إلى أنها خلاف للتقوى والطهارة وسيأتي يوم تكون هي محرمة على كل من يتبع الدين فقد اتخذ الإسلام بالنسبة لتحريمها أول خطوة من حيث أنه حرّمها وقت الصلاة حتى صدر الحكم بحرمتها تماماً، ويبدو من الروايات بل وحتى من إشارات القرآن أن أذكي المسلمين وأعرفهم بروح الدين قد فطنوا لجهة الأمر حينما جاء فتابوا عنها منذ ذلك الحين، وهكذا يبدو من التفكير على حلة وحرمة غيرها من الأطعمة والأشربة أن بعضها إما تمّ تحريمها نظراً لذوق بني إسرائيل القومي الخاص أو جزاءً على ما أكثروا من الأسئلة التافهة عنها مثل شحم بعض أعضاء الإبل أو الذبيحة فهذه التحريمات تدل بظاهرها على أنها مؤقتة فسيأتي يوم يرفع عنها القيد لما أنها تنافي الفطرة البشرية فقد أعلن دين الفطرة بقوله "اليوم أحلّ لكم الطيبات" بنسخ تلك القيود كلها، ويمكن لنا أن نقدّم أمثلة من التوراة ولكن المراد ليس تفصيل هذه التحريمات بل نريد بها مجرد الإشارة إليها.

الجيم: وقد صرح موسى وعيسى عليهما السلام بهذه الحاجة إلى الإتمام والتدرج فقال، مثلاً، موسى عليه السلام:

"يقيم الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لثلاث أموت، قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلهم وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه" (التثنية/18-15-20) فكما صرح في هذه الآيات بالوعد عن بعثة نبي خاتم فكذلك هي تشير أنه الذي يقوم بإتمام الدين فقد صرح بنو إسرائيل أنفسهم بحورب بأنهم لا يقدرّون على أن يحملوا المزيد من الشرائع فشيد الله باعترافهم بهذا الضعف ووعدهم بأنه سيبعث من بين إخوانهم نبياً مثل موسى، يتمّ دينه تعالى.

وقد بيّن عيسى عليه السلام هذا الواقع بكلمات أوضح منها فقال مثلاً:

"وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي لكن لأنني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق. لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزّي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبيّك العالم على خطيئة وعلى برّ وعلى دينونة. أما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي وأما على برّ فلأنني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين. إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية" (يوحنا/16-5-14)

فكلمات "المعزّي" و"روح الحق" أو "المعزّي" و"الوكيل" اللتين جاءتا في الترجمات الأخرى، من يصدقها سوى النبي محمد ﷺ؟ فلا ينطبق إلا على النبي الخاتم أنه "يرشدكم إلى جميع الحق" ولا يطابق إلا مع النبي الخاتم أنه "لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به"، وقد جاء نفس الشيء في القرآن بهذه الكلمات "ما ينطق عن الهوى

إن هو إلا وحى يوحى" وكذا تنبأ موسى عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي الموعود لا يقول إلا ما يجعل الله في فمه ويكون صادقاً فيما يقول هو".

وإلى هذه النبوءات الواردة في التوراة والإنجيل قد أشير في الآيات التالية لسورة الأعراف:

" قَالَ عَدَايَ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (سورة الأعراف: 155-156)

1. أن هذا النسخ حسب مقتضى تجديد وإحياء الدين وذلك أن الشريعة التي أعطيت لليهود والنصارى قد نسوا جزءاً منها كما صرح به القرآن فما اعتبره الله لازماً من بين ما نسوه من أجزاء الشريعة قام بتجديده عن طريق هذا الدين الكامل لكي يعاد مصوناً ما ضاع من الثروة عن خزينة الدين لأجل غفلة الحراس وعدم جدارتهم وكذا إذا لم يعتبر الله الحكيم جزءاً منها لازماً بل اقتضت حكمته أن يصرف النظر عن ذلك الجزء فبدلها بأحكام تعادلها درجة وأهمية.

فكلمة "الإنساء" التي استخدمت هنا تعني محو شئ عن ذهن أحد وقد نسب الله تعالى هذا الفعل إليه في هذه الآية، وهذه النسبة من نوع النسبة التي جاءت في قوله تعالى التالي "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم". إن هذا الأسلوب البياني يرفع القناع عن الواقع أن الله تعالى فعل بهم هذا طبق قانون حكمته وذلك لأنهم كانوا يستحقون ذلك لغفلتهم عن شريعته. ولكنه بما أن الشريعة الإلهية رأس المال المكتتب للبشر كلهم فكما أن أحكامها المؤقتة تم إتمامها بأحكام الإسلام الخالدة والسامية فكذلك تم إحياء أحكامها الضائعة والمنسية بأحكام تعادلها وتضاهي بها.

2. ذكرنا الحاجة إلى النسخ بالنسبة إلى تكميل الدين وإحياء الشريعة وهي واضحة إلى حد لم يجد اليهود والنصارى أي فرصة للإنكار بها ولكن القرآن لم يكتف بهذين الجانبين للنسخ بل ذكر الحاجة إليه عن جهة ثالثة وهي جهة تطهير الدين والشريعة أي تنزيه كتاب الله وشريعته عن البدع والتحريف التي ضمها إليهما أهل البدع ومتبعو الأهواء. وقد جاء ذكرها في آية سورة الحج التي أحلنا إليها من قبل وهي "فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته".

فإن تفكروا عن هذه الجهة تعلموا أن النسخ ذريعة كبرى لقطع دابر البدع والباطل فما ضمّه الأشرار والمفسدون إلى الصحف السماوية والشرائع الإلهية من البدع والأشياء المختلفة قام الأنبياء بتنزيه الدين عنه وأحيوا تعاليمه الحقّة وأقاموها فالأنبياء الذين بعثوا قبل النبي الخاتم ﷺ كان معظمهم من الأنبياء الذين لم يبعثوا بشريعة جديدة بل معظمهم كانوا قد بعثوا لتنزيه الشريعة الموجودة عن البدع والتحريفات وإعادتها إلى وضعها الأصلي وأما هذه الأمة فقد حمّل هذه الخدمة علماء الأمة من قبل الله ورسوله بأن ينزهوا الدين عن البدع والتحريفات ويعيدوا الأمة إلى الكتاب والسنة.

فما زيد الشرائع السابقة من أشياء هذا النوع فقام الإسلام بنسخها فقدّمها في صورتها الحقّة فنودّ أن ننقل فيما يلي نماذج يتضح بها الحاجة إلى النسخ وأهميته اتضحًا:

ومما زاده اليهود والنصارى إلى العقيدة والإيمان من اللغو والباطل فقام القرآن بإصلاحه أنهم أيقنوا أن الله ثالث ثلاثة أو أن اليهود أبناء الله وأحباؤه أو أن الله أصابه العنت بخلق السماوات والأرض فراح يوم السبت أو أن الله قد وعد أنهم لا يؤمنون بنبي ما دام أكلت ذبيحته النار من السماء أو أن موسى كان مصابًا بالبرص فقام القرآن بالرد على هذه الأباطيل كلها وكشف القناع عن أصولها.

وكذا قد أجازوا حياتهم المليئة بالفحش بحيث أضافوا إلى صحفهم روايات تافهة عن العديد من الأنبياء، كانت تنال من عزة تلك الأنبياء فقام القرآن بتبرئة الأنبياء من مثل هذه الاتهامات وقدم ألوان حياتهم الحقّة.

وقد مضت في هذه السورة نماذج من البدع التي خلقوها بالنسبة لأعمالهم كما سيأتي بعض من تلك الأمثلة فمثلاً معاملتهم التي قد مارسوها مع الأسارى من قومهم أو التي قد مارسوها بالنسبة للربى حتى حلّت النصرارى الخنازير والنطائح.

وهكذا فقد شوّهوا التاريخ وأحداثه فقدّموها حسبما شاءوا فمثلاً قد أخفوا معظم أجزاء تاريخ علاقة إبراهيم مع الكعبة لكيلا تثبت علاقته معها ويبدّلوا النبوءات التي تتعلق ببعثة النبي الخاتم وكذا قاموا بتحريفات عديدة فيما ذكر عن إسماعيل وهاجرة ولكن القرآن قام بكشف القناع عن هذه التحريفات كلها وبين ما كان حقاً وقد قام أستاذي الإمام الفراهي بذكر مفصّل لهذه الأشياء كلها وسننقل فيما يأتي ما يفيد القارئ من كتاباته.

فقد اتضح جلياً مما ذكر آنفاً من التفصيل أن آية سورة البقرة التي نحن بصدد البحث عنها تتعلق تماماً بالأديان السابقة وأن النسخ الذي أشير إليه في هذه الآية تتضح الحاجة إليه وأهميته إلى حدّ لا يمكن لمنصف عادل أن يجد فسحة من إنكارها، وأما السؤال: هل يجوز النسخ في الشريعة الإسلامية أم لا؟ فللرد على هذا السؤال تحزّبت العلماء إلى ثلاث جماعات إحداها متكونة ممن لا يقول بالنسخ فحسب بل يوسّعه إلى حدّ بعيد والجماعة الأخرى تنكره البتة وأما الجماعة الثالثة فهي ولو تقول به ولكنها تحدّده في أحكام معدودات.

فإن وسّعت الجماعة الأولى نطاقه إلى حدّ بعيد فلأن لها معنى خاصاً للنسخ فهم يقولون بالنسخ في كافة المواقع التي يعمّم شيء شيئاً خاصاً أو يخصّص شيء شيئاً عاماً، يفصّل أمر أمراً مجملاً أو يجمل أمر أمراً مفصلاً والحال أن نحاول في مثل هذه المواقع التطبيق بين العام والخاص أو المفصّل والمجمل بدلاً من أن نقول بالنسخ ويسهل لنا أن نقوم بمثل هذا التوفيق في مثل هذه المواقع.

فالجماعة التي تنكر بالنسخ تماماً ترى أن أحكام الشريعة الإسلامية تجري مع سير الأوضاع فالأحكام التي تم نسخها لم تنسخ إلا لأن الأوضاع التي نزلت فيها قد تحوّلت فإن عادت تلك الأوضاع فستكون تلك الأحكام تعود إلى عملها كما كانت من قبل

فالأحكام التي تبدو منسوخة ليست منسوخة في الواقع بل هي تعمل في أوضاعها الخاصة بها فتستدل هذه الجماعة في تدعيم وجهة نظرها بأن الشريعة الإسلامية قد تدرجت من الهوانة إلى الشدة فإذا تطلبت الأوضاع أن يعود الناصح إلى الهوانة فسيكون هذا العود أحسن في نظر الشريعة.

وعندنا يخطئ هذا الرأي من وجوه تالية:

أولها: أن هذه الدعوى بأن الشريعة كانت في البداية هيّنة واشتدّت فيما بعد، دعوى لا أساس لها أصلاً فيبدو من التفكير على القرآن أنه لو تدرجت من الهوانة إلى الشدة بالنسبة لبعض الأحكام مثل تحريم الخمر أو الأمر بالصيام فقد تنزّلت من الشدة إلى الهوانة بالنسبة لبعض الأحكام مثل صلوة الليل وعدد المقاتلين فاستنتاج شيء بالنسبة للنسخ على الخيال أن الشريعة قد تدرجت من الهوانة إلى الشدة، لا يخلو من المغالطة.

وثانيها: أن الفرق الموجود بين عهد النبي وعهدنا لم يعتن به هنا فلما دعا النبي ﷺ الناس إلى الشريعة الإسلامية فكانت تعاليم الإسلام آنذاك بديعة لم يكن لهم أي عهد بها كما كان الصحابة قليلاً عددهم وكان الناس مولعين بالتقاليد والسجيا الجاهلية إلى حدّ لم يكن لهم أن يخرجوا منها بسهولة وبالعكس من ذلك فقد تغيّرت الأوضاع في هذا العصر فالمسلمون في العالم يفوق عددهم الحصر، وأن أحكام الإسلام وقوانينه ليست بديعة ولا غريبة فقياس هذا العصر على ذلك العصر ثم تطبيق أحكام ذلك العصر على أوضاع هذا العصر لا يصحّ عندنا أبداً.

وثالثها: أنه إذا اعترفنا بجواز العودة إلى ما نسخ من الشرائع على عذر تغيّر الأوضاع فسيفتح لمن هو يميل إلى الشر بابّ للفرار عن الشريعة، لن يمكن أن نغلقه من بعد فيمكن أن يقوم رجالٌ يحبّون الهوانة بالاجتهاد بالنسبة للصيام والصلوة وتحريم الصيام وحدّ الزنا وغيرها من الواجبات وأنواع الجزاء على الشر مستدلين بهذا الأصل المزعوم وهكذا فيبقى الدين كله مجموعة أضداد والغاز وقد جرّب هذا الأصل الدعاة الضالون فيما مضى من العصر كما هم يمارسونه اليوم، وعلى هذا الأصل الباطل

قد أجاز أهل البدع لأتباعهم أشياءً حرّمتها الشريعة ومن ثم ابتعد عنهم الشعور بحرمة تلك الأشياء.

لا شك في أن الدعاة الأجياد في بعض الأحيان مارسوا سياسة الهوانة بالنسبة للشريعة لحق الحديثي العهد بالدخول في الدين في الجوّ الفاسد للغاية ولكن لم يريدوا بهذه الهوانة أنهم كانوا يقولون باختيار ما نسخ من الشرائع طبق تحوّل الأوضاع بل هو كان نوعاً من المسامحة والمصافحة من قبلهم، قد يمارسه المصلحون والمرشدون بالنسبة لأمر من أمور مرديهم وتلامذتهم الضعفاء والفاستدين فهذا النوع من المسامحة جزء للتربية الحكيمة وهو يتم خياره حينما يرجى إصلاح مثل هؤلاء الرجال عن طريق التربية المصاحبة والتربية تدريجياً وتدلّ التجربة على أن مثل هذا الأمل قد تحقّق في معظم الأحيان شريطة أن يتصف المرّبون والمرشدون بصفات التقوى فلا يشترّون بها ثمنًا قليلاً، فلا يصحّ عندنا أن نؤمن بأن هؤلاء كانوا يقولون بخيار ما نسخ من الشرائع طبق تبدّل الأوضاع.

وعلى تلك الوجوه لا نرى المذهبين المذكورين أعلاه قوين بشأن النسخ وأما المذهب الثالث أي مذهب من يرى أن بعض آيات القرآن منسوخة فهذا مذهب صحيح عندنا. وأما السؤال عن تعيين تلك الآيات التي تمّ نسخها وما هي البواعث على نسخها فلا يناسبنا هنا أن نردّ على تلك الأسئلة، وستأتي مثل تلك المباحث في المواضع المناسبة له فلنحفظ هنا ما يلي من الأمور:

أولها: أنه لو نسخ حكم من أحكام القرآن فقد نسخ بالقرآن وحده وكلا النسخ والمنسوخ موجود في القرآن ذاته فلا يصلح شيء آخر لأن ينسخ أي حكم من أحكامه، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الحديث يصلح لنسخ القرآن ولكن هذا المذهب منهم لا يصحّ عندنا، وأما ضعف هذا المذهب فهو واضح إلى حدّ لا نحتاج إلى الردّ عليه.

وثانها: أن هذا النسخ لا يتعلق إلا بالأحكام والقوانين فهو لا يمت بصلة إلى الأمور المتعلقة بالعقيدة والإيمان والأخلاق والصفات والوقائع والحقائق فليست أمور العقيدة والحدث

بما يتغيّر يومًا فيومًا فهي ثابتة تمامًا ولكنه إذا أراد المقتن أن يأتي بتغيير في قانونه فلا ينقص هذا التبديل هدف ذلك القانون شيئًا ما بل هو يقوّي هدفه الأصيل.

وثالثها: أن النسخ لم يحتج إليه بما أن الله ينقص علمه، نعوذ بالله من ذلك، فمست الحاجة إلى سدّه عن طريق التجارب والامتحانات بل السبب وراء ذلك هو وجود الخلل في فطرة العباد وضعفهم، الأمر الذي يحتاجون به إلى التدرج والتربية لقبول حكم ما وبما أن الله رحيم على عباده للغاية فأحب أن يكون في أحكامه وقوانينه نوع من التدرج.

يتضح هذا التدرج والتربية بالتفكير على أحكام القرآن الناسخة والمنسوخة، التي جاءت طبق مقتضيات العباد المختلفة فمثلاً:

ففي بعض الأحيان اقتضت التربية أن يصدر حكم مؤقت في أمر خاص طبقًا لمتطلبات أوضاع المجتمع البدائية وحينما يبلغ المجتمع غايته فيبدّل هذا الحكم المؤقت بحكم نهائي كامل فمثلاً أنه في البداية أمر بالوصية للحفاظ على حقوق الورثة، وأرشد إلى جزاء تصدره لجنة التحكيم لقطع دابر الزنى، وقد رفعت الأخوة بين الأنصار والمهاجرين من الأخوة الخلقية إلى الأخوة القانونية ولكنه لما قام المجتمع على قدم وساق كمجتمع إسلامي فقام قانون الإرث النهائي الأخير وحدّ الزنى المحدّد النهائي مقام هذين القانونين المؤقتين بعد نسخهما.

وفي بعض الأحوال قد اقتضت أن يعنى بالفطرة الإنسانية العامة فيتدرج قانون إلى حدّه النهائي فمثلاً أن الخمر التي كان العرب مولعين بها قد حرّمت، في البدء، حين إقامة الصلاة وأن الصيام الذي كان صعبًا للغاية على الدولة الحارة مثل جزيرة العرب قد سمح للمرء أن يفتدي به حين الارتحال أو المرض ولكنه حينما وطّدت الأنفس على هذه الأشياء فحرّمت الخمر تمامًا وأرشد إلى إتمام عدد صيام شهر رمضان ونسخت الفدية وهكذا فتّمّت الشرائع في هذا الشأن، ولم يسمح لأحد إلا حين الحاجة الملحة.

كما اقتضت هي أن يسمح النبي بالعمل على حكم من أحكام الشريعة السابقة لمدة من الزمن ولكنه فيما بعد نسخ ذلك الحكم وقام مقامه الحكم الإسلامي المستقل فمثلاً في أمر القبلة فالهدف وراء هذا، كما أشير إليه في القرآن، هو امتحان المسلمين

من منهم صادق في حبّ الله ورسوله ومن هو أعمى للآن في اتباع التقاليد القديمة، ولم يكن هذا الامتحان إلا جزءاً من التربية.

وكذا اقتضت في بعض الأحوال أن تصدر أحكام مؤقتة تعضد المسلمين وتجعلهم قابلين لحمل ما لا طاقة لهم به لسدّ نقص عدد المجتمع فمثلاً أمر المسلمون، في البدء، بالحفاظ على صلاة الليل، واعتبر مسلم واحد كفواً لعشرة كفار في ساحة الحرب، أمر بالصدقة قبل أن يسرّ أمراً إلى النبي نظراً لمتطلبات استحكام الجماعة وتطهيرها ولكنه لما كثرت عدد المسلمين فيما بعد وتحقّق الأمل المؤقت لتطهير الجماعة فجيئ بالتخفيف في هذه الأمور وأعيد لها ماضيها المتداول من قبل.

هنا أشرنا إلى بعض المبادئ فلا نريد استقصاء كافة الآيات الناسخة والمنسوخة وتوضيح مصالحتها فسيأتي تفصيلها في موقعها المناسب لها حين شرح الآيات المتعلقة بها.

اتضح من التفصيل المذكور أعلاه أن شريعة الله قد بلغت نهايتها في القرآن الكريم فلا مجال لنسخ ما وكذا تمّ تبين الرخص للأوضاع الصعبة والضرورة بجانب أحكامها وقوانينها فلا مجال للعود إلى الحكم المنسوخ على معذرة من تغيير الأوضاع إلا أن عملية نسخ الضلالات التي هي من صنع أيدي أهل البدع، لا تفنى ما دامت الأرض تبقى وهي يقوم بها علماء الإسلام والمصلحون فيه.

## الأحاديث شارحة للقرآن

- الدكتور أورنك زيب الأعظمي<sup>1</sup>

مدخل:

القرآن، كما نعلم، مجموعة الآيات والصور التي تم تنزيلها على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل الأمين عليه السلام. إنه يحوي كلمات ربانية وأحكاماً إلهية عن الإنسان وللإنسان وما يحيط به من الأجواء وما سيشهده من الجزاء يوم النشر في الآخرة.

وفي جانب آخر فالحديث، كما يعم، مجموعة ما تلقّظه الرسول العربي من الأقوال والآراء وما قام به من الأعمال والخدمات كما هو يشمل الأخبار والأنباء عن آل النبي وأصحابه ومن تعلّق به عن أي جهة مؤيداً كان أو معارضاً فهو كموسوعة لما حدث في عهد النبي وما قبله وما سيحدث في الأزمان التالية كذلك.

لم ينزل القرآن على الرسول العربي فحسب بل فوّض إليه حين نزول الوحي أن يقوم بتبليغ هذه الرسالة الخالدة وتبيينها بلسانه المبارك فقد قال الله تعالى:

"يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ"<sup>2</sup>.

وأيضاً قال جلّ مجده:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

<sup>2</sup> سورة المائدة: 67

<sup>3</sup> سورة الإسراء: 85

فبدا من هذا أنّ هناك علاقة وطيدة بين الله ورسوله أو بين القرآن والحديث فالآخر ثبت مبيناً لما يحويه الأول ويشمل ومجيباً على الاعتراضات الواردة عليه والأسئلة المطروحة عنه.

وفي الحديث القادم أتحدّث عن هذا الموضوع بشيء من التفضيل.

### تعليم القرآن من مسؤوليات الرسول العربي صلّى الله عليه وسلّم

كما أنزل الله القرآن على الرسول العربي فكذلك أمره بتعليمه وتبيينه فقال تعالى:

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"<sup>1</sup>.

وقال:

"وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ"<sup>2</sup>.

نظراً لهذه المسؤولية التي ألقاها الله جلّ مجده على عاتقيه كان الرسول العربي يعلم الصحابة القرآن الكريم فقد جاء في الحديث الشريف:

"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن"<sup>3</sup>.

وعلى هذا فقد اعتبر تعليم القرآن مما ورثه هو فقد جاء:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرّ بسوق المدينة فوقف عليها قال: يا أهل السوق: ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذلك يا أبا هريرة؟ قال: ذلك ميراث رسول الله يقسم، وأنتم ههنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: يا أبا هريرة: فقد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم. فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في

<sup>1</sup> سورة إبراهيم: 4

<sup>2</sup> سورة النحل: 44

<sup>3</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 903

المسجد أحدًا؟ قالوا: بلى. رأينا قومًا يصلّون، وقومًا يقرءون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلّم<sup>1</sup>.

وكذا أمر بتلاوة القرآن فقال:

"عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم (لأبي ذر): عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عزّ وجلّ فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض"<sup>2</sup>.

وقال كذلك:

"عن بريدة رضي الله عنه قال: كنت جالسًا عند النبي صلى الله عليه وسلّم فسمعتة يقول: إن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك وإنّ كل تاجر من وراء تجارته وإنّك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذه؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلًا"<sup>3</sup>.

ليس هذا فقط بل أشار ألا ينسوا تلاوته وهم في سبيل الله فقال:

"عن معاذ الجهني رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: من قرأ ألف آية في سبيل الله كتبه الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين"<sup>4</sup>.

ليس هذا فحسب بل كان يأمر من مهر فيه بأن يعلمه من لا علم له به فجاء:

<sup>1</sup> مجمع الزوائد: 331/1

<sup>2</sup> البيهقي، 4/242

<sup>3</sup> الفتح الرباني، 18/69

<sup>4</sup> الذهبي، 2/87

"عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلّموا القرآن وعلمّوه الناس وتعلّموا العلم وعلمّوه الناس وتعلّموا الفرائض وعلمّوها الناس فإنني امرؤ مقبوض وإنّ العلم سيُقبَضُ حتى يختلف الرجلان في الفريضة لا يجدان من يخبرهما بها"<sup>1</sup>.

بجانب الأمر بقراءة القرآن عدّد فضائل تلك القراءة فقال:

"عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ القرآن وتعلّمه وعمل به ألبس يوم القيامة تاجًا من نور ضوئه مثل ضوء الشمس ويكسى والديه حلتان لا يقوم بهما الدنيا فيقولان بما كسبنا هذا؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن"<sup>2</sup>.

"وعن معاذ الجبني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والداه تاجًا يوم القيامة، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنّكم بالذي عمل بهذا"<sup>3</sup>.

"وخيركم من تعلّم القرآن وعلمه"<sup>4</sup>.

وأحاديث أخرى أصرف عنها النظر<sup>5</sup>.

ليس هذا فحسب بل أشار على دارسيه أن يدرسوا هذا الكتاب الجليل في الوقت المناسب له وهو كما يلي:

"عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالتهار"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> البيهقي، 255/2

<sup>2</sup> الذهبي، 568/1

<sup>3</sup> سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 1453

<sup>4</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 2907

<sup>5</sup> راجع: الترغيب، 2/352 وصحيح مسلم، رقم الحديث: 1873 وصحيح البخاري، رقم الحديث: 75 وسنن

بن ماجه، رقم الحديث: 219 وجامع الترمذي، رقم الحديث: 2876 و2910 و2926 والذهبي، 555/1

<sup>6</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 6407

وقال أيضاً:

"عن جابر رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: من خشي منكم أن لا يستيقظ من آخر الليل فليوتر من أوله، ومن طمع منكم أن يقوم من آخر الليل فليوتر من آخر الليل فإن قراءة القرآن في آخر الليل محضورة وهي أفضل"<sup>1</sup>.

وهذا ما أشار إليه القرآن في سورة المزمل فقال:

"إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"---<sup>2</sup>

مشيراً إلى هذا قال النبي عن فضيلة قارئ القرآن:

"عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوة فشفّعني فيه ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفّعني فيه قال: فيشفعان"<sup>3</sup>.

كما أمر النبي أن يتلو الناس القرآن فكذلك أمرهم بأن يكتبوه فيحفظوه فقال:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنّ مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً وزّته أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته"<sup>4</sup>.

لم يرض النبي أن يُقرء القرآن لأجل القراءة المحضّة فقط كما يفعل المستشرقون الآن بل طلب من قرّائه ودارسيه أن يقرءوه بإمعان فيفهموه جيّداً فيعملوا عليه. جاء في الحديث التالي:

<sup>1</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 455

<sup>2</sup> سورة المزمل: 20

<sup>3</sup> مجمع الزوائد، 419/3

<sup>4</sup> سنن ابن ماجه، رقم الحديث: 242

"عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رب حامل فقه غير فقيه، ومن لم ينفعه علمه ضره جهله، اقرأ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلسنت تقرأه"<sup>1</sup>.

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ما أشكل عليهم من القرآن فجاء في حديث نبوي:

"عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أخبرني من يقوى على القيام يوم القيامة الذي قال الله عز وجل: يوم يقوم الناس لرب العالمين" فقال: يخفف على المؤمن حتى يكون عليه كالصلوة المكتوبة"<sup>2</sup>.

وكذا كان الصحابة يسألون فيما بينهم عن شيء حدث عن القرآن فقد جاء:

"عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ"قل هو الله أحد" فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبروه أن الله يحبه"<sup>3</sup>.

### مصادر دراسة القرآن في عصر النبي صلى الله عليه وسلم

يبدو مما كتبنا أنفاً أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتفكرون في القرآن ويدرسونه ويعلمونه وأما المصادر التي استخدموها في نيل هذا الهدف الجليل هي خمسة وهي كما يلي:

1. الله جل مجده: كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل جبريل عليه السلام ما أشكل عليه من معاني القرآن الكريم وجبريل كان يسأل عنها الله جل مجده الذي كان يبينه أمام جبريل وجبريل كان يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم. فقد قال تعالى:

<sup>1</sup> مجمع الزوائد، 440/1

<sup>2</sup> مشكوة المصابيح، رقم الحديث: 5563

<sup>3</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 7375

"لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۗ" <sup>١</sup>.

وإليه الإشارة في قول عائشة التالي:

"ما كان النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد علمهن إياه جبريل عليه السلام" <sup>2</sup>.

2. والقرآن الكريم: كان النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يتفكر في القرآن في ضوء نظائره كما كان يسأل الله تعالى عن طريق جبريل إذا أشكل عليه مفهوم آية. وتفسير القرآن بنفسه أصل مهم فقال النبي صَلَّى الله عليه وسلّم:

"إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فأمنوا به" <sup>3</sup>.

وإليه الإشارة في قول ابن كثير:

"إن أصحّ التفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر" <sup>4</sup>.

وأما الدليل على هذا فقد نقلناه في العنوان القادم.

3. والنبي صَلَّى الله عليه وسلّم: كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون النبي صَلَّى الله عليه وسلّم ما أشكل عليهم من آيات القرآن فهو كان يجيب عليهم ومثل هذه الأسئلة المذكورة في كتب الأحاديث فنكتفي بذكر سؤال واحد وهو عن مجيئ كلمة "ظلم" وخطورتها فيروى:

<sup>1</sup> سورة القيامة

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم، 7/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 354/1

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 4/1

"لما نزلت" الآية "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم" شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذين تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك".<sup>1</sup>

4. واللغة العربية: كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب كلهم وذلك لأنه ولد في قبيلة قريش ثم تعلم وتدرّب في بني سعد التي تعرف بعربيّتها وتضلعها من اللغة وإليه الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم:

"أنا أفصح العرب بعثت بجوامع الكلم"<sup>2</sup>

و"أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر"<sup>3</sup>

ويستبعد من تعلم لغة ولم يستفد منها في معرفة كتاب نزل بها.

5. وكتب اليهود والنصارى: كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل علماء اليهود والنصارى عما ذكر في القرآن من أمور متعلقة بهم وبشؤونهم الدينية<sup>4</sup> حتى لما شك في إخبارهم وإجابتهم على أسئلته أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه بأن يتعلم لغاتهم كي يسهل له الإستفادة والإجابة على تلك الشؤون الدينية.<sup>5</sup>

### قدر ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من التفاسير

روى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم كما بينوا ما لم يجدوه من عنده. يقول أبو اليقظان عطية الجبوري بعدما انتقد الآراء والأفكار عن كثرة ما روي عن النبي من التفاسير وقتلها:

<sup>1</sup> الإتيقان في علوم القرآن، 192/2

<sup>2</sup> سيرة النبي، 235/2

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 235/2

<sup>4</sup> وإن لم يكن هذا فلم يقل ما يأتي:

"إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في

القرآن مثلها". تفسير القرآن العظيم، 11/1

<sup>5</sup> المنهج التعليمي في العصر النبوي، ص 32

"إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبَيِّنُ الكثير من معاني الآيات لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحابة إلا أنه لم يبيِّن جميع معاني القرآن الكريم لأن من معانيه ما استأثر الله تبارك وتعالى بعلمها ومنها ما لا يعلمه إلا الرسول نفسه ومنها ما يعلمه العلماء ومنها ما علمته العرب من مجرد معرفتهم للغتهم فلم يكن هذا وذاك بحاجة إلى البيان".<sup>1</sup>

### مجالات شرح الرسول العربي للقرآن الكريم

والمصدر المهمّ لدراسة القرآن وتوضيح معانيه وتأويل آياته هو مجموعة الأحاديث التي وردت في توضيح مشتملات القرآن. إن هذه الأحاديث تفوق الحصر وذلك لأنني لا أريد بها كتب التفسير التي وصفها المحدثون في مجموعاتهم للأحاديث فهي قليلة ووجيزة للغاية بل إنني أريد بها كافة الأحاديث التي توضّح معنى من معاني القرآن وتتعلق بأي قضية من قضايا القرآن العلمية واللغوية والدينية<sup>2</sup> وهي أكثر من أن تحصى ولعل هذا هو السبب وراء قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه..."<sup>3</sup>

ولو درسنا مجموعات الأحاديث لوجدنا أنها تشتمل على أحاديث:

1. توضّح وتبيّن كلمة أو مصطلحًا من كلمات القرآن ومصطلحاته.
2. وتفصّل ما أجمل فيه كما توجز ما فصّل فيه من الأمور المهمة.
3. وتحدّد مفهومات القرآن وتذكر حدود أحكامه.
4. وتؤكّد ما جاء في القرآن وهذا كثير.
5. وتذكر ما نسخ من آياته وأحكامه.

<sup>1</sup> دراسات في التفسير ورجاله، ص 42

<sup>2</sup> تفسير تدبر قرآن 30/1

<sup>3</sup> تفسير القرطبي، 37/1

6. وتعطي أحكامًا زائدة على ما جاء في القرآن.

7. وتذكر أقوالًا وحكمًا وحقائق تأخذها من مشتملات القرآن.

ومن هذه الجهة أنها خير مصدر لتفسير القرآن الكريم وتوضيح محتوياته وتبيين معضلاته.

والآن أودُّ أن أذكر أنواع شرح الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن الكريم فأبدأ بالمفردات وأنتهي إلى المفاهيم ومن ثمَّ إلى الاستنباطات اللطيفة:

مفردات القرآن: مما قام به النبي الكريم من شرح القرآن الكريم بيان معاني مفرداته من الألفاظ العامة إلى الأسماء والمصطلحات فنذكر فيما يلي نماذج لشرح النبي الكريم لمفردات القرآن الكريم فقال النبي الكريم- مثلًا- يشرح كلمة "الصَّمَدُ"<sup>1</sup>:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قال الله عزَّ وجلَّ): كذَّبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، أما تكذَّبه إياي أن يقول: إني لن أعيده كما بدأت، وأما شتمه إياي أن يقول: اتخذ الله ولدًا، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوفًا أحد"<sup>2</sup>.

ويقول ما بيِّن كلمة "خَصَاصَةٌ"<sup>3</sup>:

"عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا صَلَّى بالناس يخرَّ رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة وهم أصحاب الصفة حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صَلَّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصرف إليهم، فقال: لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزادوا فاقة وحاجة قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> سورة الإخلاص: 2

<sup>2</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 4975

<sup>3</sup> سورة الحشر: 9

<sup>4</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 2368

وقال يشرح "المهد" في قوله تعالى: "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ"<sup>1</sup>  
"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تكلم أحد في صغره إلا  
عيسى وصاحب جريج"<sup>2</sup>.

وجاء في حديث آخر:

"لم يتكلم في المهد إلا ثلاث: عيسى وصبي كان في زمن جريج وصبي آخر"<sup>3</sup>.

وقال يشرح كلمة "القنوت" المستخدمة في كل مواضع القرآن<sup>4</sup>:

"كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة"<sup>5</sup>.

وقال يبين "حسابًا يسيرًا"<sup>6</sup>:

"عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في بعض  
صلواته: اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا فلما انصرف قلت: يا نبي الله! ما الحساب اليسير؟  
قال: أن يُنظر في كتابه فيُتجاوز عنه إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك"<sup>7</sup>.

وقال ما يشرح "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ"<sup>8</sup>:

<sup>1</sup> سورة آل عمران: 46

<sup>2</sup> تفسير القرآن العظيم، 372/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 372/1

<sup>4</sup> مثلًا قوله تعالى " وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ ۗ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ ﴿۱۳۱﴾ " (سورة  
البقرة)، وقوله تعالى "يَمْرُؤِمَۙ اِنَّ اللّٰهَ اَصْطَفٰكِ وَظَهَرَكَ وَاَصْطَفٰكَ عَلٰی نِسَاۤءِ الْعٰلَمِیْنَ ﴿۳۴﴾ يَمْرُؤِمَۙ اُقْنِیْ  
لِرَبِّكَ وَاَسْجُدِیْ وَاَرْكَعِیْ مَعَ الرَّاكِعِیْنَ ﴿۳۵﴾" (سورة آل عمران) وقوله تعالى " وَمَرْيَمَۙ اٰتَتْ عَمْرٰنَ الَّذِیْ اٰحْصٰنَتْ  
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِیْهِ مِنْ رُوْحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمٰتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا الْفَلْحَمٰتِیْنِ ﴿۱۲۱﴾ " (سورة التحريم)

<sup>5</sup> تفسير القرآن العظيم 371/1

<sup>6</sup> سورة الانشقاق: 8

<sup>7</sup> مسند أحمد، 48/6

<sup>8</sup> سورة البقرة: 97 وسورة المائدة: 46 و48

"عن يعقوب بن عاصم رحمه الله أنه سمع رجلين من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهما سمعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ما قال عبدٌ قط: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، مخلصاً بها روحه، مصدقاً بها قلبه لسانه إلا فُتق له أبواب السماء حتى ينظر الله إلى قائلها وحُقَّ لعبيدٍ نظر الله إليه أن يُعطيه سؤله"<sup>1</sup>.

وقال يشرح "رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ"<sup>2</sup>:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئةً نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله "كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"<sup>3</sup>.

وقال يبين "حُورٌ"<sup>4</sup> الجنة:

"عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، وملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها يعني الخمار خير من الدنيا وما فيها"<sup>5</sup>.

وقال ما يبين "ظِلٌّ مَمْدُودٌ"<sup>6</sup>:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إنَّ في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، واقراءوا إن شئتم "وظل ممدود"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> النسائي، رقم الحديث: 28

<sup>2</sup> سورة المطففين: 14

<sup>3</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3334

<sup>4</sup> سورة الرحمن: 72

<sup>5</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 6568

<sup>6</sup> سورة الواقعة: 30

<sup>7</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 4881

وقال يشرح كلمة "خَاتَمَ النَّبِيِّينَ<sup>1</sup>":

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"<sup>2</sup>.

وقال يشرح "الإِسْلَامِ"<sup>3</sup>:

"عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الإسلام أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة"<sup>4</sup>.

وقال يشرح "الإحسان"<sup>5</sup>:

"عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمدًا أخبرني عن الإسلام ---- قال فأخبرني عن الإسلام؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة ---"<sup>6</sup>.

وقال يشرح "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ" و"الصَّالِينَ" في قوله تعالى: "... الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٥٢﴾"<sup>7</sup>:

<sup>1</sup> سورة الأحزاب: 40

<sup>2</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 3535

<sup>3</sup> سورة الأنعام: 125

<sup>4</sup> مسند أحمد، 1/319

<sup>5</sup> سورة البقرة: 112

<sup>6</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 93

<sup>7</sup> سورة الفاتحة

"عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى "غير المغضوب عليهم" قال "هم اليهود" و"لا الضالين" قال "النصارى هم الضالون"<sup>1</sup>.

وجاء يشرح "الرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ" في قوله تعالى: "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" <sup>2</sup>.

"عن أبي الدرداء قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الراسخين في العلم فقال "من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عفّ بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم"<sup>3</sup>.

وقال ما يشرح "غَنِيٌّ حَمِيدٌ"<sup>4</sup> من صفات الله تعالى:

"عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي! كلّكم ضالّ إلا من هديته فاستهدوني أهديكم، يا عبادي! كلّكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلّكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم، 32/1

<sup>2</sup> سورة آل عمران: 7

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم، 335/1

<sup>4</sup> سورة البقرة: 267 والسور الأخرى

أدخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"<sup>1</sup>.

وقال يحدّد قدر نصف يوم<sup>2</sup> عند الله:

"عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العري، وقارئ يقرء علينا إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقام علينا فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم سكت القارئ فسلم ثم قال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله! إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. قال فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال بيده هكذا، فتحلّقوا وبرزت وجوههم له. قال: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم عرف منهم أحداً غيري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التامّ يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة"<sup>3</sup>.

أساليب القرآن: كما قام النبي الكريم بشرح كلمات القرآن وأسمائه ومصطلحاته فكذلك شرح أساليبه وطرق بيانه وفيما يلي نماذج لهذا النوع من البيان:

قال الرسول العربي يشرح قوله تعالى "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ"<sup>4</sup>:

"عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب

<sup>1</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 6572

<sup>2</sup> والمراد من اليوم ما جاء في سورة الحج:

"--- وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٦٧﴾"، سورة الحج

<sup>3</sup> سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 3666

<sup>4</sup> سورة النساء: 59 وإلى نفس المعنى تشير الآية التالية:

"مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾". (سورة النساء: 80)

يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار: الجنة، والداعي: محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس<sup>1</sup>.

وقال تعالى: أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ<sup>2</sup>.

فالمراد من "سبعين مرة" ليس أن يستغفر الله لهم إن استغفر أكثر من سبعين مرة بل إنه من أساليب العرب فإنهم يقولون كذا للكثرة. ويدلّ عليه قول النبي الآتي:

"عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم؟ قال: كل يوم سبعين مرة<sup>3</sup>.

شرح مشتملات القرآن الكريم: بعد شرح مفردات القرآن وأساليبه وما شابهها يشرح النبي صلى الله عليه وسلم في شرح جمل القرآن وآياته وسوره وفيما يلي نماذج من هذا النوع من شرح النبي للقرآن الكريم:

وقال يحدّد كلمة "الحسنات"<sup>4</sup>:

"عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتّ خطاياها كما يتحاتّ هذا

<sup>1</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 7281

<sup>2</sup> سورة التوبة: 80

<sup>3</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 1949

<sup>4</sup> سورة هود

الورق، وقال "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مَنَالِيٍّ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهُوا" <sup>1</sup>.

وقال كذلك:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفّرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر" <sup>2</sup>.

وقال يحدّد كلمة "أهل" في قوله تعالى " وَأُمِرُّ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ" <sup>3</sup>:

"عن معمر عن رجل من قريش قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على أهله بعض الضيق في الرزق أمر أهله بالصلوة ثم قرأ هذه الآية "وامر أهلك بالصلوة" <sup>4</sup>.

وقال يوضّح قوله تعالى: " إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" <sup>5</sup>:

"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد" <sup>6</sup>.

وقال يشرح قوله تعالى "فلا تعلم نفس ----" <sup>7</sup>:

<sup>1</sup> مسند أحمد، 437/5

<sup>2</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 552

<sup>3</sup> سورة طه: 132

<sup>4</sup> مصنف عبد الرزاق، 11/3

<sup>5</sup> سورة الأنعام: 165

<sup>6</sup> تفسير القرآن العظيم، 26/1

<sup>7</sup> سورة السجدة: 17

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقراءوا إن شئتم "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ"<sup>1</sup>.

وقال يشرح درجات الخلق<sup>2</sup> المذكورة في القرآن:

"عن أنس بن مالك رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: وكل الله بالرحم ملكًا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب ذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه"<sup>3</sup>.

وقال يشرح قوله تعالى "أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ"<sup>4</sup>:

"عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط"<sup>5</sup>.

وقال يشرح قوله تعالى: وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ"<sup>6</sup>:

"عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن هذه الآية "والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة" قالت عائشة رضي الله عنها: أ هم الذين يشربون الخمر ويسرفون؟ قال: لا، يا بنت

<sup>1</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 3244

<sup>2</sup> مثلًا في سورة المؤمنون: 12-14 وسورة لقمان: 28 و34 وغيرها من الآيات

<sup>3</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 6595

<sup>4</sup> سورة العنكبوت

<sup>5</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 2396

<sup>6</sup> سورة المؤمنون: 60

الصدیق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم  
"أَوْلَتِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ"<sup>1</sup>.

وقال يشرح قوله تعالى: " إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا  
فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ  
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"<sup>2</sup>:

"عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود يولد إلا مسه  
الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسه إياه إلا مريم وابنها"<sup>3</sup>

وأيضًا: "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان  
عصره أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم"<sup>4</sup>

وقال يشير إلى أهمية صلوة قبل الظهر:

"عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أربع  
قبل الظهر بعد الزوال تحسب بمثلهن من صلاة السحر قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم: وليس من شيء إلا وهو يسبح الله تلك الساعة ثم قرأ " يتفويها ظلاله عن اليمين  
وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾"<sup>5</sup>.

وقال يشرح سورة الفاتحة:

<sup>1</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3175

<sup>2</sup> سورة آل عمران: 35-36

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم، 1/364

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 1/364

<sup>5</sup> سورة النحل

<sup>6</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3128

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" قال الله تعالى: أتى عليّ عبدي، فإذا قال: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ" قال: مجّدي عبدي، وقال مرة: فوّض إليّ عبدي. فإذا قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" قال: هذا لعبي ولعبي ما سأل"<sup>1</sup>.

وقال يشير إلى أثر الصلوة:

"عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن فلانًا يصليّ فإذا أصبح سرق قال: سينهاه ما يقول"<sup>2</sup>.

وقال يشير إلى تواجد السيماء<sup>3</sup> والنور<sup>4</sup> للمسلمين:

"عن أبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إني لأعرف أمتي يوم القيامة بين الأمم، قالوا يا رسول الله: وكيف تعرف أمتك؟ قال: أعرّفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماتهم في وجوههم من أثر السجود وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم"<sup>5</sup>.

وقال مشيرًا إلى أهمية الدعاء الذي هو موضوع سورة الفاتحة التي هي ضرورية قراءتها في الصلوة:

"عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: الدعاء مع العبادة"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 878

<sup>2</sup> مجمع الزوائد، 531/2

<sup>3</sup> سورة الفتح: 29

<sup>4</sup> سورة الحديد: 12

<sup>5</sup> مسند أحمد، 199/5

<sup>6</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3371

وقال في موضوع سورة الإخلاص:

"عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: "قل هو الله أحد" يعدل ثلث القرآن"<sup>1</sup>.

وقال في موضوع سورة "الكافرون":

"عن نوفل رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنوفل: اقرأ "قل يا أيها الكافرون" ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك"<sup>2</sup>.

وقال عن أهمية سور "زلزلت" و"الإخلاص" و"الكافرون":

"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا زلزلت" تعدل نصف القرآن، و"قل هو الله أحد" تعدل ثلث القرآن، و"قل يا أيها الكافرون" تعدل ربع القرآن"<sup>3</sup>.

وقال مشيراً إلى مشتملات السور القرآنية:

"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله: قد شبت. قال: شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت"<sup>4</sup>.

وقال يذكر فضيلة سورة الفاتحة:

"عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف تقرأ في الصلوة، فقرأت عليه أمّ القرآن قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها وإنما للسبع المثاني"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 1886

<sup>2</sup> سنن أبي داؤد، رقم الحديث: 5055

<sup>3</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 2894

<sup>4</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 3297

<sup>5</sup> مسند أحمد، 65/18

وقال يقارن بين القرآن والصحف السماوية:

"عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفُضِّلْتُ بالمفصَّل"<sup>1</sup>.

وقال مشيراً إلى الصحف السماوية القديمة:

"عن ابن مسعود رضي الله عنه: يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول رجلاه ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقوم يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره أو قال بطنه فيقول ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك ثم يؤتى رأسه فيقول ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك فهي المانعة تمنع من عذاب القبر وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب"<sup>2</sup>.

ويحدّد قطع اليد في قوله تعالى: " وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"<sup>3</sup>.

"تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً"<sup>4</sup>.

وللمزيد عن توضيح ما أجمل لننظر في توضيح الأمر بالصلوة والزكاة وأداء المناسك.

وقال يؤكد قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ"<sup>5</sup>.

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش "إن رحمتي تغلب غضبي"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 107/4

<sup>2</sup> الحاكم، 498/2

<sup>3</sup> سورة المائدة: 38

<sup>4</sup> تفسير القرآن العظيم، 58/2

<sup>5</sup> سورة يونس: 44

<sup>6</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 6969

وقال ينسخ هذه الآية: " كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٣﴾ "1.

"إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث"2.

وقال يزيد على قوله تعالى "وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ "3:

"خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله"4.

وقال في موضع آخر:

"كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"5.

ويجيب مستنبطاً من قوله تعالى: كَانَ يَرْجُوا ---"6:

"عن طاووس رحمه الله قال: قال رجل: يا رسول الله! إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئاً حتى نزلت عليه هذه الآية: كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا"7.

وقال يستنبط من قوله " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ "8:

1 سورة البقرة

2 تفسير القرآن العظيم، 217/1

3 سورة آل عمران

4 تفسير القرآن العظيم، 371/1

5 المصدر نفسه، 371/1

6 سورة الكهف: 110

7 تفسير القرآن العظيم، 114/3

8 سورة التوبة: 18

"عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"<sup>1</sup>.

لنقرء استنباطاً لطيفاً له من قوله تعالى: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"<sup>2</sup>.

"عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال "تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره"<sup>3</sup>.

وله استنباط لطيف للغاية من قوله تعالى: "وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالتَّوْبَةِ دُعَاءَهُ بِالتَّوْبَةِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَاجِلاً"<sup>4</sup>.

"عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها"<sup>5</sup>.

ويشير إلى أهمية الدعاء مستنبطاً من القرآن:

"عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: الدعاء هو العبادة، ثم قال: وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن اللذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين"<sup>6</sup>.

وقال يستنبط من القرآن:

<sup>1</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3093

<sup>2</sup> سورة المائدة: 2

<sup>3</sup> تفسير القرآن العظيم، 7/2

<sup>4</sup> سورة الإسراء: 11

<sup>5</sup> تفسير القرآن العظيم، 29-28/3

<sup>6</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 3274

"عن خريم بن فاتك رضي الله عنه قال: صَلَّى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم صلوة الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال: عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثلاث مرات ثم قرأ "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٥٨﴾ حَقَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ" <sup>1</sup>.

وقال يستنبط من قوله تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ <sup>2</sup>:

"عن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّى الله عليه وسلّم: يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون" <sup>3</sup>.

وقال يستخرج من قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَلَّا تُرَبِّعَ عَلِيمِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤١﴾" <sup>4</sup>.

"إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار" <sup>5</sup>.

وأيضاً:

"إنها ستكون فتنة القاعد فيها خيرٌ من القائم والقائم خيرٌ من الماشي والماشي خيرٌ من الساعي" <sup>6</sup>.

ويستنبط الدعاء التالي من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" <sup>7</sup>.

<sup>1</sup> سنن أبي داؤد، رقم الحديث: 3599

<sup>2</sup> سورة المائدة: 5 وأيضاً سورة محمد: 1-3

<sup>3</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 309

<sup>4</sup> سورة المائدة: 27-30

<sup>5</sup> تفسير القرآن العظيم 45/2

<sup>6</sup> المصدر نفسه ص 45

<sup>7</sup> سورة الأنعام: 60

"عن حذيفة قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: اللهم باسمك أموت وأحيى وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور"<sup>1</sup>.

ويستنبط الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكمًا عديدة من قوله تعالى: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرِّبَّيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" <sup>2</sup>.

فلو تفكرنا في نظم هذه الآية الواحدة نجد كثيرًا من الحكم يطول بذكرها المقال وأذكر طرفًا منها:

ختمت الآية بقوله تعالى: "أولئك الذين صدقوا".

فهذا الختام يرشدنا إلى أن الصدق هو الوسيلة الكبرى للوصول إلى ذروة البر ومن هنا استنبط الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال:

"إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"<sup>3</sup>.

ثم لتُعد النظر فيها مرة ثانية نجد أنه تعالى ذكر من ضمن أركان البر إيتاء المال مع كونه محبوبًا عنده.

فمن هذا النظم يبدو أن أفضل الصدقة ما شق على نفسها وإني أرى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال مستنبطًا منه وهو:

<sup>1</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 6314

<sup>2</sup> سورة البقرة: 177

<sup>3</sup> صحيح البخاري، 900/2

"عن أبي هريرة أنه قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً قال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم فقال: أن تصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا. ألا وقد كان لفلان"<sup>1</sup>.

ثم لتفكر فيها مرة ثالثة نجد أن أول من ذكرهم الله في هذا السياق هم ذوو القربى فالترتيب يدل على أن أولى الناس ببر الرجل أقرابه فاستنبط النبي صلى الله عليه وسلم وقال:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك. أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك"<sup>2</sup>.

ويستخرج الحكمة من قوله تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لَيْتَى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ ۞ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ ۞ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ ۞"<sup>3</sup>.

هذه قطعة من سورة آل عمران ولا أريد ذكر جميع الحقائق التي ذكرت في هذه القطعة بل أريد ما يبدو من نظم "ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" من قبلها وما بعدها.

<sup>1</sup> صحيح مسلم، باب بيان أفضل الصدقة صدقة الصحيح الصحيح، 332/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، الباب نفسه، 322/1

<sup>3</sup> سورة آل عمران: 99-92

فالتأمل في النظم يوحي إلينا أن من لم يحج البيت وهو يستطيع السبيل إليه فهو في ذلك كمثل أهل الكتاب الذين سعوا في إخفاء جميع آيات هذا البيت العتيق لكي يصرفوا عنه من يريد حجه وهذا ما ذهب إليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من ملك زادًا وراحلة ولم يحج بيت الله فلا يضره مات يهوديًا أو نصرانيًا"<sup>1</sup>.

ويستخرج الحكمة من قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا"<sup>2</sup>.

التفكر في نظم هذه الآية يوحي إلينا أن أكل مال المؤمن للمؤمن بالباطل حرام كما حرم قتله إياه فلذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حرمة ماله كحرمة دمه"<sup>3</sup>.

وأوضحه حيث قال:

"عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدامروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرار بحسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه"<sup>4</sup>.

ويستخرج الحكمة من قوله تعالى: "الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"<sup>5</sup>.

إذا تفكرنا في نظم هذه الآيات الأربع من سورة الرحمن وجدنا حقائق عديدة؛ وجدنا أن نزول القرآن ليس إلا رحمة من ربه الرحمان ووجدنا أنه ينبغي للإنسان أن يهتدي

<sup>1</sup> تفسير القرآن العظيم، 80/2

<sup>2</sup> سورة النساء: 29

<sup>3</sup> تفسير تدبر قرآن، 285/2

<sup>4</sup> صحيح مسلم، 317/2

<sup>5</sup> سورة الرحمن: 1-4

به باعتباره إنساناً ثم وجدنا أن الإنسان شيء ليس له أن يضرب ويعذب كالمهائم بل هو جدير أن ينزل لهدايته كتاب لأنه ناطق لا أبكم.

ولنتفكر ونتفكر نجد أنه تعالى بدأ بنفسه فإنه هو البادي بالرحمة ثم ذكر التعليم فإن كمال رحمته هو تعليمه القرآن ثم جاء ذكر الخلق والبيان ليعد الإنسان لذلك التعليم فظهر أن القرآن هو خير من كل شيء فهكذا من تعلمه وعلمه هو خير الناس ومن هنا استنبط النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"<sup>1</sup>. وفي رواية: إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه"<sup>2</sup>.

### الاحتجاج بالأحاديث النبوية على ما أشكل في القرآن الكريم

اتحد العلماء على أن التراث الأدبي العربي حتى العصر الأموي يجدر بأن يحتج به في مشكلات اللغة والأدب. والأحاديث النبوية تتعلق بعصر صدر الإسلام فهي أيضاً تجدر بأن نستنبط به في مشكلات القرآن ومن هذه الجهة ندرس أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فننظر إلى متى هي تمد في حلّ معضلات القرآن:

فمما نحتج فيه من المعضلات بالأحاديث النبوية حلّ مفردات القرآن فقد قال الله تعالى:

"وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ"<sup>3</sup>.

فما معنى "أقنى" يوضّحه الحديث التالي:

"عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث؛ ما أكل فأقنى أو لبس فأبلى أو أعطى فأقنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> صحيح البخاري باب خيركم من تعلم القرآن أو علمه، 752/2

<sup>2</sup> المصدر نفسه، الباب نفسه، 752/2

<sup>3</sup> سورة النجم: 48

<sup>4</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 2959

وقال الله تعالى:

"إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ"<sup>1</sup>:

فما معنى "الاختلاف"؟ وهو عندي دخول الأول في الآخر بحيث يدخل الآخر في الأول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار --- ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ --- فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار قال: فيأتيه من حزها وسمومها قال: ويُضَيِّقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه"<sup>2</sup>.

وقال الله تعالى: فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ"<sup>3</sup>:

فما معنى "الصغو"؟ وهو عندي مالت ورجعت للاستغفار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج الدجال في أمي --- فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسنٌ عيشهم ثم يُنْفَخُ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى لبيتنا ورفع لبيتنا"----<sup>4</sup>.

وقال تعالى: "فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا"----<sup>5</sup>:

<sup>1</sup> سورة يونس: 6

<sup>2</sup> سنن أبي داؤد، رقم الحديث: 4753

<sup>3</sup> سورة التحريم: 4

<sup>4</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 7381

<sup>5</sup> سورة مريم: 26

فما معنى "القول" هنا؟ وهو عندي الكلام بالإشارة بدون رفع الصوت كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"عن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: تُدَنِّي الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منه كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حنجرته، ومنهم من يلجمه العرقُ إجمًا قال: وأشار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده إلى فيه"<sup>1</sup>.

وقال أيضًا:

"عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإنَّ بعضهم ليستر ببعض من العري، وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقام علينا فلما قام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سكنت القارئ فسلم ثم قال: ما كنتم تصنعون؟ قلنا: يا رسول الله! إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم. قال فجلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسطنا ليعدل بنفسه فينا، ثم قال بيده هكذا، فتحلَّقوا وبرزت وجوههم له. قال: فما رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرف منهم أحدًا غيري، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة"<sup>2</sup>.

وقال تعالى: أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"<sup>3</sup>.

فما معنى دابة؟ وهي عندي كل شيء له حركة كما جاء في الحديث النبوي الشريف:

<sup>1</sup> جامع الترمذي، رقم الحديث: 7206

<sup>2</sup> سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 3666

<sup>3</sup> سورة النمل: 82 وأيضًا سورة الأنعام: 38 وسورة الأنفال: 55 وسورة النحل: 61

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تطلع الشمس ولا تغرب على يومٍ أفضلَ من يوم الجمعة، وما من دابة إلا وهي تفرع يوم الجمعة إلا هذين الثقيلين الجن والإنس"<sup>1</sup>.

وقال تعالى: وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ"<sup>2</sup>.

فما معنى الإذن لكذا؟ وهو الإنصات لكذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن"<sup>3</sup>.

وقال تعالى عن مريم: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ ---"<sup>4</sup>.

فما يعني مصدر "الإجاءة"؟ وهو عندي حمل واحد إلى مكان بدون رضئ منه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية"<sup>5</sup>.

وقال تعالى: "أَهْلَ الْبَيْتِ ---"<sup>6</sup>.

فماذا يعني أهل البيت؟ وهو عندي استخدم للنساء واستخدام هذه الكلمة وضمير الجمع المذكور للنساء عام كما جاء في الحديث:

<sup>1</sup> ابن حبان، 5/7

<sup>2</sup> سورة الانشقاق: 2 و5 وسورة النبأ: 38

<sup>3</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 1845

<sup>4</sup> سورة مريم: 23

<sup>5</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 3267

<sup>6</sup> سورة الأحزاب: 33 وسورة هود: 37

"عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عندي فقال لها: من أنت؟ فقالت: أنا جثامة المدنية، قال: كيف حالكم؟ كيف أنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فلما خرجت قلتُ: يا رسول الله تُقبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبالَ فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة رضي الله عنها وإنَّ حسن العهد من الإيمان"<sup>1</sup>.

وأيضًا قال:

"عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أيقظ الرجل أهله من النار فصليًا أو صَلَّى ركعتين جميعًا كتب في الذاكِرِينِ والذاكِرَاتِ"<sup>2</sup>.  
وقال تعالى: "فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ"<sup>3</sup>---

فجاء "خاضعين" حالًا عن الضمير المجرور في "أعناقهم" وهذا عام فجاء في الحديث:  
"عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلّم خيرًا أو يعلمه، كان له كأجر حاج تامًا حجته"<sup>4</sup>.

وقال تعالى: وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا"<sup>5</sup>.

وهنا حذف الجزاء وهذا أسلوب عام فقد جاء في الحديث:

"عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي موسى: لو رأيتني وأنا استمع قراءة تلك البارحة لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> الإصابة، 272/4

<sup>2</sup> سنن أبي داود، رقم الحديث: 1309

<sup>3</sup> سورة الشعراء: 4

<sup>4</sup> مجمع الزوائد، 329/1

<sup>5</sup> سورة النساء: 127

<sup>6</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 1852

الختام: هذا، وقد ثبت من هذه الدراسة المتواضعة أنّ هناك علاقة وطيدة بين القرآن والحديث فلا ينفك أحدهما عن الآخر كما لا يتضح معنى الأوّل بدون مراجعة الثاني. وإنّ القرآن نزل على الرسول العربي صلّى الله عليه وسلّم الذي كان مسؤولاً عن توضيحه وتبيينه فقام الرسول بأداء تلك المسئولية خير أداء، مستخدمًا كافة الأسباب المتوفرة لديه كما استفاد فيه من ربّه الكريم الذي وعد بحلّ ما أشكل عليه من محتويات القرآن.

شرح الرسول من القرآن ما أشكل لأصحابه فشرح مفرداته وبيّن أسمائه وحلّ معضلاته وكشف الستار عما صعب لأصحابه من جمل القرآن وآياته، فبعونه المتواصل وعمله المستمرّ اتضحت معاني القرآن الصعبة كما تدرّبت جماعة من الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم يؤدّون مسئولية بيان معضلات القرآن لمن عاصرهم فخلقوا خير نموذج لشرح القرآن وتفسيره.

لم يقدّم الرسول العربي صلّى الله عليه وسلّم بمجرد شرح ما صعب من محتويات القرآن بل لعب كلامه الجامع الفصيح بدور قياديّ فعّال في شرح معضلات القرآن من جانب آخر وهو الاحتجاج في بيان مشكلاته بما أنه كلام رجل عربي فصيح ويتعلّق بأدب عصر يحتجّ به.

وبالجملة فالرسول لم يكن شارحًا للقرآن فحسب بل أثبت تعاليمه بسيرته وعلم أصحابه كيف تشرح كلمات القرآن وآياته وسوره وهكذا فرّبت جماعة لمفسّري القرآن وكذا لم يزل ولا يزال كلامه يعين لمن يريد الفهم الصحيح لهذا الكتاب العربي الجليل.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن حبان: صحيح ابن حبان (ترتيب: ابن بلبان)، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
3. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، القرشي: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1986م
4. أبو اليقظان عطية الجبوري: دراسات في التفسير ورجاله، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1971م
5. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 2000م
6. أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، دار الفكر، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
7. البخاري: صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع لم تذكر
8. تفسير تدبر قرآن، أمين أحسن الإصلاحي، الشيخ: تدبر قرآن (تفسير تدبر القرآن)، تاج كمبني، باب تركمان، دلهي-6، 1989م
9. جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م
10. الحاكم: المستدرک على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
11. الخطيب التبريزي: مشكوة المصابيح، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
12. الذهبي: الكاشف، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، المملكة السعودية العربية، سنة الطبع لم تذكر
13. سنن النسائي وابن ماجه وأبي داؤد وجامع الترمذي

14. شبلي النعماني: سيرة النبي (بالأردوية)، مطبعة معارف، أعظم كره، سنة الطبع لم تذكر
15. الشيباني: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع لم تذكر
16. عبد الرزاق: المصنّف، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
17. العسقلاني: الإصابة، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع لم تذكر
18. محمد حميد الله: المنهج التعليمي في العصر النبوي (بالأردوية)، شركة الهدى للكتب، حيدرآباد، 1949م
19. مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع لم تذكر
20. المنذري: الترغيب والترهيب، دار إحياء التراث العربي، سنة الطبع لم تذكر
21. الهيثي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، سنة الطبع لم تذكر

## دراسة صوتية لسورة القمر

-رشأ علي عمرعلي الشعري<sup>1</sup>

مقدمة:

حمدًا لك اللهم خير معلمٍ علّمتَ بالقلم القرون الأولى، أخرجت هذا العقل من ظلماته، وهديته النور المبين سبيلًا، أرسلت بالتوراة موسى هاديًا، وابن البتول يعلم الإنجيل، وفجرت ينبوع الحنان محمدًا يتلو الكتاب يعلم التنزيل، وصلاة وسلامًا دائمين متلازمين يليقان بمقام أمير الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم. أما بعد!

ما زالت العقول متحيرةً في كمال وجلال القرآن، وذلك الجرس النوراني الموسيقي، وإن شئت قلت موسيقى الأنوار التي تنبعث من عوالم الإعجاز القرآني، الشامل في صورة بلغت نهايات الكمال، والجمال، والجلال، تركبًا، ودلالة، ومعنى، وتصويرًا، وجرسًا موسيقيًا، وإيقاعًا يأخذ بتلابيب الفكر والفترة، ويأخذ بمجامع الإنسان ليقف مشدوهاً أمام هذا الصرح السماوي، الذي قال الله فيه: (الر كتابٌ أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (سورة هود:1)، وقال-عز وجل: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (سورة يوسف:2).

<sup>1</sup> رشأ علي عمر موظفة في إدارة الفرص التجارية في غرفة تجارة وصناعة عجمان. دولة الإمارات العربية المتحدة. إنها نالت شهادة الماجستير في 2014م وموضوع رسالتها كان "لغة المطويات الإشهارية بقطاع التجارة والاقتصاد، دراسة لسانية ونظرية تطبيقية". لها مقالات وبحوث نشرت في مختلف المجالات والجرائد مثل "مجلة الغرفة التجارية" و"النشرة الإحصائية" و"جريد الخليج" و"زهرة الخليج".

فكل سورةٍ من سور القرآن هي كمال لغوي قائم بحدّ ذاته، متفردةً بكلمات اللغة في أبهى صورها، ولا غرو في ذلك فقد أصبح القرآن بلغته السامية التوقيفية هو مصدر الاحتجاج الأول بلا منازع في علم الأصول اللغوي، وغيره من علوم اللغة العربية، ومن الكمالات التي حيّرت العقول الدرس الصوتي في القرآن الكريم، بكل جوانبه وموسيقاه المنبعثة من عالم غيبي لا نعرف عن كماله شيئاً إلا بقدر ما تستطيعه عقولنا من إدراك لهذا الجمال والكمال. وسورة القمر تعدُّ من أوائل السور التي تمتعت بكل صور الإيقاع الصوتي، بل بكل ما يشمل الإيقاع الموسيقي وعلم الأصوات، ولسورة القمر الأثر الكبير في نفوس المسلمين، لأنها تحدثت في أولها عن معجزة من أكبر وأجلّ معجزات الرسول صلّى الله عليه وسلّم ألا وهي معجزة انشقاق القمر لحضرته صلّى الله عليه وسلّم، وما كان في ذلك من تأييد له ولدعوته صلّى الله عليه وسلّم، ونصرةً للمؤمنين الضعفاء، وامتناء الحق صهوة الباطل على مرأى ومسمع من كل البشر، فجاء الحديث عن السورة، وتسميتها، وسبب نزولها، والموضوعات التي تم تناولها عن الآيات بشكل مبسط، واستُقيت المادة التفسيرية من روح المعاني للإمام الألوسي، والكشاف للزمخشري، ومختصر ابن كثير، أما بالنسبة للدرس الصوتي فقد تم الاطلاع على دراسات متعددة في عالم الأصوات وشتى جوانبه، والتنويه عن بعض صوره الجمالية، وما به من عوالم صوتية، وعن الإيقاع الموسيقي السريع المتلاحق بصوامته، وصوائته، وتعاقب الحركات، وتكرار بعض الكلمات والآيات في صور متلاحقة في السورة الكريمة، وعن صفات الحرف الذي ذكر في السورة أكثر من مئة مرة عن مخرجه، وصفته، وأثره، وموسيقاه، ودلالته وعن السورة في مضمونها، وفكرة أخرى وهي التعريض بجانب بسيط من عالم الأصوات، والإيقاع الموسيقي، في دراسة السورة الكريمة، وجاء الحديث عن موسيقى الكلمة في فواصل الآيات وما لها من أثر دلالي، وموسيقى يأخذ الإنسان مندهشاً إلى رياض كتاب الله، وكيف صوّرت الصورة الأحداث بجرسها الموسيقي في تتابع وتلاحق عجيبين يصوّران الأحداث، وما يجري بنغمة موسيقية صوتية تشير من هنا وهناك إلى السرعة الفائقة التي تميزت بها الأحداث في سورة القمر.

سورة القمر:

أَقْرَبَتْ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرَ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيُقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا  
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ  
فَمَا تُخَفِّئُ النَّذْرَ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ ⑥ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ  
مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ⑦ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ⑧  
كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ⑩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ  
فَانْتَصِرْ ⑪ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⑫ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ  
قَدْ قَدِرَ ⑬ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرِ ⑭ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ⑮ وَلَقَدْ  
تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ⑯ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ⑰ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ  
مِنْ مُّذَكِّرٍ ⑱ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ⑲ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ  
نَحِيسٍ مُّسْتَمِرٍّ ⑳ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ㉑ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ㉒  
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ㉓ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ㉔ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّنَّا وَحِدًا  
تَتَّبِعُهُوَ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ㉕ أَعْلَفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ㉖  
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ㉗ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ㉘  
وَيَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرِبٍ مُّحْتَضِرٌ ㉙ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ㉚ فَكَيْفَ  
كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ㉛ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ㉜ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا  
الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ㉝ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ㉞ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ  
لُوطٌ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ㉟ بَعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ㊱ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا  
فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ㊲ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَدَابِي وَنُذِرِ ㊳ وَلَقَدْ  
صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ㊴ فَذُوقُوا عَدَابِي وَنُذِرِ ㊵ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ  
مُّذَكِّرٍ ㊶ وَلَقَدْ جَاءَ عَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ㊷ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ㊸  
أَكْفَارِكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ㊹ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ㊺  
سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ㊻ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ㊼ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي

ضَلَّلِ وَسُعْرِ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

### تسمية السورة بهذا الاسم:

وتسمى أيضاً سورة "اقتربت"، وذكر ابن عباس أنها تدعى في التوراة "المبيضة" لأنها تبيض وجه صاحبا يوم تسود وجوه، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وهي سورة مكية في قول الجمهور وهي في الترتيب واقعة بعد سورة النجم، يقول الجلال السيوطي: "لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق للتناسب في التسمية لما بين النجم والقمر من الملايسة، وأيضاً أن هذه بعد تلك كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، وكالصفات بعد يس، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم".<sup>1</sup>

ويقول الزمخشري في الكشاف: "انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته النبوة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن الكفار سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين، وكذا عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما قال ابن عباس: انطلق فلقتين فلقة ذهب، وفلقة بقيت، وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتي القمر".<sup>2</sup> واعتمد ابن كثير على رواية جبير بن مطعم فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن جبير بن مطعم قال: "انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم".<sup>3</sup> وقد ذهب جماعة من المفسرين أن انشقاق القمر يدل على اقتراب الساعة، وهذا فيه إنذار وبلاغ مبين للناس، ومن المفسرين من ذهب إلى أن انشقاق القمر وقع حقيقة لحضرة النبي

<sup>1</sup> روح المعاني، 97/4

<sup>2</sup> الكشاف، 1570/4

<sup>3</sup> مختصر تفسير ابن كثير، 451/3

صلى الله عليه وسلم على مرأى ومسمع من أهل مكة، ونستطيع القول بأن كليهما على صواب، لأن انشقاق القمر قد وقع بالفعل لحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وانشقاقه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، دلالة وإشارة واضحة على اقتراب الساعة.

وقد سميت السورة بهذا الاسم لوجود لفظة القمر في الآية الأولى، منها على غرار سورة يس، والصفوات، والنجم، وطه، والنرايات ولعل سائلاً يسأل: لم لم تسم السورة باسم هود أو نوح أو لوط عليهم السلام؟<sup>1</sup> ونستطيع القول بأن السورة في تسميتها تدل على التماسك النصي بين أجزائها، لأنها تتحدث عن قيام الساعة، وانشقاق القمر دليل من أدلتها وعلامة من علامتها، واتخذت السورة من انشقاق القمر بؤرة تنطلق منها للحديث عن هؤلاء الأنبياء الذين كذبهم أقوامهم وسخروا منهم، فكان انشقاق القمر بمثابة الإنذار للأحداث الجسام ليوم القيامة التي ذكرتها السورة، ولعلنا نلاحظ أن حرف الراء كان ختاماً لكل الآيات في السورة المباركة، وهو الحرف الأخير في كلمة القمر لما كان لهذا التناسق الحرفي الموسيقي من إيقاع فعال، وأخذ قوي للأذهان، حيث تبنى السورة على الحرف الأخير من الاسم الذي سميت به، ثم أصبح هذا الحرف بصفته وأثره وما له من وقع تناغمي موسيقي تبعاً لمخرجه وصفته جعل من السورة كياناً متماسكاً شكلاً ومضموناً، وسوف نفصل ذلك القول في موضعه إن شاء الله تعالى.

#### تناسب السورة مع ما قبلها:

يقول الإمام السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) أقول: "لا يخفى ما في هاتين السورتين في حسن التناسق في التسمية لما بين النجم والقمر من الملازمة ونظيره توالي الشمس، والليل والضحى، وقبلها الفجر ووجه آخر وهو أن هذه الصورة بعد النجم، كالأعراف بعد الأنعام والصفوات بعد يس، في أنها تفصيل في أحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك في سورة النجم (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (50) وَتَمُودَ فَمَا أَبَقَىٰ (51)). سورة النجم<sup>2</sup>

<sup>1</sup> ملامح أسلوبية في سورة القمر، ص 6

<sup>2</sup> تناسق الدرر في تناسب السور، ص 120

### نظرة سيد قطب في "ظلال القرآن" حول سورة القمر:

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعبية مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر، بقدرما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة.

وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري في ضغطه وبهزه ويقول له: {كيف كان عذابي ونذر؟}.. ثم يرسله بعد الضغط والهز ويقول له: {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟}. وكأن القرآن يصور المشاهد وينقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهود بهذا الإيقاع والتتابع والدقة اللفظية التي تبرز عناصر الصورة حتى يتجلى المعنى بوضوح مصحوباً بهذه المؤثرات الصوتية ودرجات الإيقاع اللفظي المتتابع في نسق عجيب. ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى. فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطع، ومشهد من هذه المشاهد في الختام. وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح. وعاد وشمود. وقوم لوط. وفرعون وقومه وكان السورة تجمع في طياتها الدنيا والآخرة وما يجري وما جرى من أحداث جسام لتعرض المشاهد كلها لتتجلى لدى القارئ الصورة الذهنية التي يريد القرآن أن يبورها في ذهن الناس. وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى.. ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضاً خاصاً، يحيلها جديدة كل الجدة. فهي تعرض عنيفة عاصفة، وحاسمة قاصمة، يفيض منها الهول، ويتناثر حولها الرعب، ويظللها الدمار والفرع والانهار! وهذا ما تميزت به سورة القمر عن غيرها من السور المكية وتركيبها اللغوي وسر حرف الراء الذي جعل من معظم كلمات السورة جناساً ناقصاً لعب دوراً هاماً في بلورة الصورة المراد ترسيخها في الأذهان وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلاً منها يمثل حلقة عذاب رهيبية سريعة لاهثة مكروبة. يشهدها المكذبون، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها، ويحسون إيقاعات سيّاطها. فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً.. وهكذا تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجو المفزع الخانق حيث نرى التتابع الرهيب المفزع الذي تنقطع معه أنفاس المكذبين حتى تصل بهم الدهشة إلى حد فقدان الوعي وعدم التمييز. ثم المشهد الأخير في السورة. وإذا هو جو آخر، ذو ظل الأخرى. وإذا

هو الأمن والطمأنينة والسكينة. إنه مشهد المتقين: {إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر}.. يأخذ التتابع العجيب في الهدوء والانتقال برفق ولين ورحمة حتى تهدأ النفس وتستريح على إيقاع الهاء في قوله تعالى إن المتقين في جنات ونهر وسط ذلك الهول الراجف، والفرع المزلزل، والعذاب المهين للمكذابين: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر}.. فأين وأين؟ مشهد من مشهد؟ ومقام من مقام؟ وقوم من قوم؟ ومصير من مصير؟ {اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغني النذر. فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر. خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع يقول الكافرون: هذا يوم عسر}.. مطلع باهر مثير، على حادث كوني كبير، وإرهاص بحادث أكبر. لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير: {اقتربت الساعة وانشق القمر}.. فيا له من إرهاص! وياله من خير. ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر. فانشقاق القمر ما هو إلا بداية وعلامة تدل على قرب حدوث الحدث الأكبر وهو يوم القيامة بما فيه من أهوال والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة. تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث، وتختلف في رواية هيئته تفصيلاً وإجمالاً: من رواية أنس بن مالك- رضي الله عنه-.. قال الإمام أحمد: حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية. فانشق القمر بمكة مرتين فقال: {اقتربت الساعة وانشق القمر}.. وقال البخاري: حدثني عبد الله بن عبد الوهاب. حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك. أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية. فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما. وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس.. ومن رواية جبير بن مطعم- رضي الله عنه-.. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سليمان ابن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فلقين. فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا

يستطيع أن يسحر الناس كلهم.. تفرد به أحمد من هذا الوجه.. وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير عن أخيه سليمان بن كثير، عن حصين بن عبد الرحمن.. ورواه ابن جرير والبيهقي من طرق أخرى عن جبير بن مطعم كذلك.. ومن رواية عبد الله بن عباس- رضي الله عنه-. قال البخاري: حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا بكر، عن جعفر، عن عراك بن مالك، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، قال: انشق القمر في زمان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. ورواه البخاري أيضًا ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس.. وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه.. وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا.. وقال الطبراني بسند آخر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: سحر القمر، فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر}- إلى قوله: {مستمر}. ومن رواية عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي، قالوا: حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس بن محمد الدوري، حدثنا وهب بن جرير، عن شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} قال: وقد كان ذلك في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انشق فلققتين فلققة من دون الجبل وفلققة خلف الجبل. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اشهد». وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد.. ومن رواية عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انشقوا إليه، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشهدوا» وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة. وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله بن سخبرة، عن ابن مسعود. وقال البخاري: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن المغيرة، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة. قال: فقالوا:

انظروا ما يأتيكم من السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال: فجاء السفار فقالوا ذلك.. وروى البيهقي من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود، بما يقرب من هذا. فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث، وتحديد مكانه في مكة- باستثناء رواية لمن ذكرها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه كان في منى- وتحديد زمانه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة. وتحديد هيئته- في معظم الروايات أنه انشق فلقطين، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف).. فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة. وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه؛ فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب، ولو على سبيل المرء الذي كانوا يمارونه في الآيات، لو وجدوا منفذاً للتكذيب. وكلما روي عنهم أنهم قالوا: سحرنا! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر، فعرفوا أنه ليس بسحر؛ فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا ذلك<sup>1</sup>. وبعد ذكر كل هذه الروايات التي أكدت حدوث المعجزة لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم نستنتج أن كل الروايات أجمعت على حدوث الانشقاق ولكن الروايات اختلفت في الهيئة والتفصيل.

حول الآيات وتربطها وتماسكها في نسق واحد، والوقوف على بعض الحروف، ومناسبة جرسها الموسيقي للآيات:

يتناول في هذا الجزء الحديث عن الآيات بشرح مبسط، ومع التوضيح مدى الترابط والتماسك بين آيات السورة، والاعتماد في هذا الشرح والترابط على مختصر ابن كثير، والكشاف لما فيهما من إيجاز مجمل يتناسب مع هدف البحث.

(أَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَادْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾).

---

<sup>1</sup> في ظلال القرآن، ص 42

طلب كفار قريش من حضرته صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر، فلما رآوها اتهموه صلى الله عليه وسلم بالسحر، وقالوا: هذا سحر مستمر، وقيل مستمر أي: قوي محكم (وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ) أي: كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل.<sup>1</sup>

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّذْرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾).

تبدأ الآيات هنا فتذكر نبأ السابقين كما نصّ عليه القرآن في مواضع عديدة، وأيضًا تنصّ على يوم القيامة ووصفه، وعذابه، وحال الدهشة والفرع، والخوف عندما يدع الداع، وأيضًا أمر بتولي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم لأنه يعلم تمام العلم أن هذه النذر لن تمنعهم من عنادهم وكفرهم، يقول الزمخشري: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) لعلمك أن الإنذار لا يغني فيهم.<sup>2</sup> (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) بإسقاط الياء من الداعي، ولعلنا نلاحظ هنا ملحظًا صوتيًا بحذف الياء، وهو ملحظ في علم الصوتيات بداية الياء فيها شيء من الليونة والمد الذي لا يتناسب مع هذا المقام لما فيه مشددة، وقوة، وهول، وحذفها هنا مع بقاء كسرتها له دلالة صوتية أخرى وهي أن الأحداث يوم القيامة متلاحقة متتابعة سريعة، وهذا لا يتناسب مع الياء ومدّها لأنها صوتيًا لا تناسب المقام، (خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ) قال الزمخشري: "وخشوع الإبصار كناية عن النذل والانخزال لأنه دليل، لأن ذلة النذل وعزة العزيز تظهران في عيونهما"<sup>3</sup>، (كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) قال الزمخشري: "الجراد مثل في الكثرة والتموج"<sup>4</sup>، لو تأملنا حرف الجيم في جراد، والشين في منتشر وما بينهما من قرب كبير في المخرج، نلاحظ أن صفة التنفسي التي تميزت بها الشين

<sup>1</sup> الكشاف، 1571/4

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 1571

<sup>3</sup> المصدر نفسه والصفحة ذاتها

<sup>4</sup> المصدر نفسه والصفحة ذاتها

دون سائر الحروف جاءت لتدل بهذه الصفة على المقصود من ذكر الجراد، وهو الكثرة والتموج، لاحظ الجيم والشين عند نطقهما يصدران صوتًا قريبًا من هدير الماء، وهذا يدل على التتموج، ويحمل أيضًا صوتًا هادرًا يمرّ مع النفس يوحى بكثرة الجراد بل صوته أثناء الطيران، وهذه لطيفة لما في الجيم والشين من صفات ملائمة، وقرب في المخرج.

(مُطِيعِينَ إِلَى الدَّاعِ) أي: مسرعين مادي أعناقهم أي: ناظرين إليه لا يعقلون بأبصارهم.<sup>1</sup>

(كذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرَ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⑤ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑦)

بدأت الآيات في سرد أحوال المكذبين في الأمم السابقة، وما عاناها الأنبياء من كفرهم وعنادهم وسخرتهم، وكان أول الأنبياء ذكرًا في الآيات هو نبي الله نوح عليه السلام مراعاة للترتيب الزمني للأنبياء (وازدجر) قال ابن كثير: "أي ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه"،<sup>2</sup> (أني مغلوب) حالة من التعب والهزيمة، جعلت نبي الله نوح يستجير بربه قائلاً بصيغة اسم المفعول مغلوب، وقد وقع خبرًا مرفوعًا، وللرفع هنا دلالة صوتية نشير إليها فالمغلوب دائمًا في حالة انكسار ومذلة، وجاء الرفع هنا صورة ظاهرية لم تكن خالية على الإطلاق من معنى الرفع، فمع كونه في حالة انكسار لكنه استخدم الكلمة بالرفع دلالة على طلب الرفع من ربه، وهذا الجرس الموسيقي لعلامة الرفع أدى هذا المعنى بإعجاز لغوي بديع، (فأنتصِر) الفاء حرف من الحروف الهمس، والمعنى أن الدعاء هنا كان دعاءً هامسًا لأنه يناجي السميع البصير، فحرف الفاء بما يحمله من صفة الهمس أدى وظيفته ودلّ على نوع صوت الدعاء أنه كان همسًا لا جهرًا، والفاء حرف يخرج من الشفه يتسارع الهواء ليخرج من بين الشفتين عابرًا بطن الشفه بسرعة، وهذه السرعة التي يحاول بها الحرف العبور من مخرجه تدلّ على طلب النصرة بسرعة، ولا يخفى علينا ما في حرف الفاء من التعقيب والسرعة، (ففتحنّا) توالي الفتحيتين

<sup>1</sup> مختصر، ص 452

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 452

على الفاءين توجي بتوالي وتتابع المطر وسرعته وتلاحقه، فإذا تمعنت في توالي الفتحيتين بجرسها ومخرجها وموسيقاها كأنك تتابع بعينك هذا المشهد عبر شاشة الحروف ألا وهو مشهد نزول المطر، ودائمًا ما يكون المطر مسبقًا بهواء شديد، وهذا الهواء تلاحظه جيدًا عند النطق بالفاء، وهذا الهواء الخارج دلالة صوتية على شدة الهواء مع اندفاع هطول المطر (وَفَجَّرْنَا) ضعفت الجيم الانفجارية بطبعها فحدث انفجار أكبر وأشد بعد تضعيفها، وهذا الصوت المتنامي بالتضعيف يوجي بشدة هطول المطر، هنا التناغم بين جرس الحرف المرتبط بسياق الآية، (وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدُسُرٍ) قال الزمخشري: "أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها"<sup>1</sup>. الحمل يقتضي الرفع، والضممة علامة الرفع اللفظي نجدها على الضمير في قوله حملناه، فكأنه عبر عن الرفع مرتين مرة بالحمل، ومرة بالضممة التي نراها فوق الضمير الهاء في حملناه وهذا ما أفاده الجرس الصوتي للضممة فوق الهاء، (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا) قال الزمخشري: "كُفِرَ هو نوح عليه السلام أي: أنه نعمة مكفورة"<sup>2</sup>. (تَرَكَنَاهَا آيَةً) يعني السفينة، أي: تركناها آية للاعتبار بها، (فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) المدكر المعتبر، وقرأت مذتكر على الأصل، وقرأت مذكر بقلب التاء ذالًا وإدغام الذال في الذال، ولكن قراءة حفص عن عاصم وهي مدكر فيها ملمح صوتي، وهو أن الدال المدغمة توجي بجرسها الصوتي على اختصار التاء في القراءة الأخرى، وإدغامها لما فيها من سرعة النطق التي تناسب سرعة قيام الساعة، ولا يخفى علينا هنا وما يجب الإشارة إليه أن التاء أدغمت في الدال لقرئهما في المخرج.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾)

<sup>1</sup> الكشاف، 1573/4

<sup>2</sup> المصدر نفسه والصفحة ذاتها

تواصل الآيات حديثها عن المكذبين من الأمم السابقة، فبعد نوح -عليه السلام- وما كان من قومه، بدأت الآيات بذكر قوم عاد فأرسل الله عليهم (ريحًا صَرْصَرًا) وللدلالة الصوتية هنا ما يجدر بنا الوقوف عليه فحرف الصاد في كلمة صرصر تحمل صوت الريح وشدتها، والصاد من حروف الصفير فإذا أمعنا الحس الصوتي لحرف الصاد في كلمة صرصر نجدها تحمل بدلالاتها الصوتية وصفة صفيرها صوت الريح العاتية، وتكرار حرف الصاد يدلّ على شدة هذا الصوت كما نلمح شدة الريح من حرف الراء الذي تميز بصفة التكرار، حيث أفاد الحرف بجرسه الصوتي أن هذه الريح كانت متواصلة متكررة ليست منقطعة، حتى جعلتهم كأعجاز نخل منقعر، (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي؟) استفهام خرج عن سياقه إلى غرض بلاغي آخر وهو التقرّيع والتهكم.

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٣٧﴾ أَلُفِي الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٣٨﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ ﴿٣٩﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْتَبْنَاهُمْ وَاصْطَبِرُوا ﴿٤٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ ﴿٤١﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٤٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٤٥﴾).

ما زلنا في معرض الحديث عن المكذبين من السابقين، وهنا تواصل الآيات سردها لتلك الأحداث، فبدأت بحديثها عن ثمود الذين كذبوا بالنذر وسخريتهم من الصفة البشرية التي يحملها الأنبياء، فهم على حسب اعتقادهم أن النبي لا بد أن يكون من جنس آخر (أَلُفِي الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا) الهمزة هنا تكررت وتوالت مرتين مرة بالفتح وأخرى بالضم، والهمزة يقولون عنها في صفات الحرف أنها حرف قوي يشبه التهوع أو التقياً، فهي حرف ثقيل، والملمح هنا من ثقل الهمزة أنها جاءت تصويراً لحال المنكرين واستثقالهم أن يكون النبي بشراً! فجاءت الهمزة بما تحمله من صفات لتعبر عن هذا المعنى، وتكررت بثقلها مرتين وكأنهم استثقلوا الأمر فكهوه حتى اتهموا النبي أنه كذاب أشر، وأمره ربه بالاصطبار حتى يرى ما سيكون من أمرهم مع الناقة (فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ) صاحبهم قال الزمخشري: "هو قدار بن سالف أحيمر

ثمود<sup>1</sup>، تعاطى الناقة وعقرها فكان ما كان من أمرهم، (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ) فكلمة "صيحة" أربعة حروف ويقابلها كلمة "هشيم" أربعة حروف، فكلمة هشيم هي النتيجة المترتبة على صيحة جبريل عليه السلام، فكلمة صيحة بدأت بحرف الصاد الذي يحمل صفة الصغير، فهنا علاقة قوية بين صفة الحرف ومدلول كلمة صيحة، وكأن الصاد في صيحة بجرسها وصفتها تصور لنا صيحة جبريل كأننا نشاهدها! وتبدأ كلمة "هشيم" بحرف يتنافى تمامًا مع الصفات التي يحملها حرف الصاد، فهي حرف يحمل كل صفات الوهن واللين والضعف، حتى قالوا عنه في الدرس الصوتي أن الهاء ليس لها مخرج يمسكها لضعفها، وهنا التحول الصوتي الكبير صفة ومخرجًا في بداية الكلمتين "صيحة" و"هشيم" فبعد الصيحة تحول حالهم على هشيم المحتظر، ولما كانت الصيحة قوية ناسبها حرف الصاد بما فيه من صفات تناسب الموقف، وكانت النتيجة الطبيعية لتلك الصيحة هشيم بدأت الكلمة بحرف ضعيف يوحي بالحالة الضعف والخوف والذعر والهوان الذي حل بهم.

(كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ ﴿٣٤﴾ تَعَمَّةٍ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نُجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن صَيفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾).

تواصل الآيات حديثها عن الذين كذبوا الأنبياء واستهانوا بهم، فقوم لوط لما كذبوا بالنذر فكانت النتيجة (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ) نجاتهم كانت بسحر النجاة، تتطلب أن تكون الكلمة التي بعدها تحمل حروفًا تبعث الراحة والطمأنينة للنفس البشرية، فكلمة "بسحر" حملت حرفين من حروف الهمس الحامل في طياته عن الهدوء، وتوالي الفتحات على السين والحاء المهموستين زادت الكلمة إغراقًا في الهدوء، ولا يخفى عليك ما في السحر من تجليات تشرق في عوالم النفس البشرية، فكان لتجليات الصوت في كلمة "سحر" رواقًا لكلمة "النجاة" كأنهما

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 1574

تعانقتا في بوتقة واحدة لرسم المعنى بريشة الجرس الصوتي فالسين والحاء حملت كل ما تحلم به النفس البشرية من إشرافات الراحة.

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَحَدًا عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾).

تحدث الآية عن آخر الأنبياء ذكراً في السورة تبعاً للترتيب الزمني، وهو سيدنا موسى وأخوه هارون -عليهما السلام- فقد كُذِّبَا كما كذب الرسل من قبلهم، فكان مصير من كذبهم من آل فرعون (سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ) ولنا هنا وقفة صوتية مع حرف اللام الذي تميز بصفة خاصة وهي صفة الانحراف، وشكل الواو الذي يبرز في رسمه شكل الانحراف عند كتابته، فهم قد انصرفوا عن العقيدة والفطرة التي فطر الله الناس عليها، فتجلت اللام هنا بصفحتها لتعبر عن هذا الانحراف العقائدي، ورسم الواو أيضاً دلّ على ذلك الانحراف من شكله، وعندما يولون الأدبار يوم التقاء جمع الحق وجمع الباطل، تتجلى اللام بملمح صوتي آخر يصور حال المدبر الذي ينحرف في سيره حين يولي الأدبار، وكأن انحراف عقيدته كان سبباً لانحرافه فيسيره وتخبطه يوم التقى الجمعان، (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ) ما زال حرف الراء الذي كان في سورة القمر ختاماً لكل آياتها، يصور لنا المشاهد بكل دقة وإعجاز لا مثيل له، وفي كلمة "أمر" إذا وضعناها على طرف لسان اللغة شعرنا بالمرارة التي تريد الآية أن تعبر عنها، فلكمة "أمر" بحرف الراء المتكرر يفيد هذا المعنى، ويزيد على ذلك أن المرارة ليست متقطعة بل متواصلة.

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَحَدًا عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمْجٍ بِالْبَصْرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ

فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥٦﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٧﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ  
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٩﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٦٠﴾.

في نهاية الآيات مشهدان من مشاهد يوم القيامة، الأول للمجرمين الذين يسحبون على وجوههم ويدوقون مسّ سقر في نار الجحيم، والمشهد الآخر وهو على النقيض تمامًا وهو مشهد المؤمنين الذين قال الله عنهم: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)).

ف نجد السورة في بدايتها تحدثت عن المعجزة الكبرى لحضرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنكار الكفار لها مع أنهم رأوها رأي العين، واتهموه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسحر، وأمر الله له أن يتولى عنهم لأنك يا محمد تعلم أن هذه النذر والآيات لن تكون زاجراً لهم، وتواصل الآيات حديثها عن المكذبين رابطة تكذيب أهل مكة بتكذيب الأمم السابقة من قبل، وذكر حال كل نبي من الأنبياء الذين نصت عليهم الآيات مع قومه وما حل بهم من عذاب وسعر، وجاء ختام الآية موضحاً لنهاية كل فريق فالذين كفروا وكذبوا في سقر، وأما المؤمنون في جنات ونهر في مقعد صدق عن ملك مقتدر، وقد تم ذكر النكات الصوتية لبعض الحروف، ودلالاتها الإيحائية للمعنى.

### التوازي الصوتي في صورة القمر:

1- مفهوم التوازي: هناك علاقة وثيقة تجمع بين مفهوم التوازن والتوازي الصوتي، ويقصد بالتوازن: تعادل فقرات الكلام وجمله، كما في النثر المزدوج أو في شطري البيت الواحد، أما التوازي هو: أن يستمر ذلك الإيقاع في النص كله<sup>1</sup>، والأرجح أن التوازي هو تأليف ثنائي متماثل وليس متطابقاً. والتوازي في سورة القمر سمة عامة مبنية على التوافق الصوتي إما بإعادة قالب الصوتي الأخير، أو بتكرار حرف الروي الذي يزداد به القرآن الكريم إيقاعاً صوتياً رتيباً.

<sup>1</sup> الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 17

ومن ألوان التوازي الذي تضمنته سورة القمر توازي المصوتات القصيرة، ومعنى المصوتات القصيرة أي الحركات (الفتح، الضم، الكسر) الحركات القصار، فلا تخلو كلمة من هذه المصوتات القصيرة التي تعمل بشكل معجز، إذ تسهم في عملية التناسق والتناسب في سورة القمر، فعلى سبيل المثال كلمة "اقْتَرَبْتَ" حيث توالى عليها الفتح، وهذا التوالي يناسب بداية السورة التي تتحدث عن قرب قيام الساعة، فكان لتوالي الحركات في قوله -تعالى-: "اقتربت" أثر صوتي له دلالة قوية على قرب قيام الساعة، وسنتبع هذه المصوتات القصيرة ونحصرها، فعلى سبيل المثال من مصوتات الفتح في سورة القمر الأمثلة الآتية (وَلَقَدْ، مَزَجَرَ، فَتَوَّلَ، فَدَعَا، فَفَتَحْنَا، وَحَمَلْنَا، وَلَقَدْ، كَذَّبْتَ، مُحْتَظًا، فَعَقَّ، كَهَشِيمٍ) فهذا التوالي والتتابع لحركة الفتح يدل: على سرعة قيام الساعة، وسرعة الأحداث التي تحدث فيها، وسرعة العذاب، فكل كلمة توالى فيها الفتح تدل السرعة والغليان<sup>1</sup>، وهذا يتناسب مع سياق الآيات الكريمة، وتجدر الإشارة إلى أن توالي الفتح يدل على توالي وتعاقب يوم القيامة، وغليان النار وتقلبها السريع بأهلها.

ومن أمثلة توالي مصوت الضمة في سورة القمر (النُّدْرُ، نَكَرَ، دُسْرُ، نَذْرَ، نَذْرَ، سُعْرُ، الزُّبْرُ) فتوالي الضم هنا ينطلق من بؤرة السورة التي تدور حول السرعة والتوالي، ولعلنا نلمح على سبيل المثال كلمة "نذر" توالي الضم عليها كتوالي الإنذارات، والأنبياء، والرسل فكان لتوالي الضم أيضا وظيفة صوتية تتناسب تماما مع النسق العام لسورة القمر، ويدلّ توالي الفتح، والضم على سرعة قيام الساعة، وتوالي أحداثها، وسرعة العذاب في هذا اليوم، ولو وقفنا عند حركات الفواصل في سورة القمر، نجد أن توالي الفتح والضمة وتوازيهما يبلغ ثلاثين فاصلة من مجموع خمسة وخمسين<sup>2</sup>.

في حين يبلغ الانتقال من الفتح إلى الكسر، أو من الفتح للضم خمسة وعشرين فاصلة، وهذا ما يسمّى بالتوازي الحركي، أما بالنسبة لحرف الروي الراء حصرناه في الجدول الآتي لنرى أنه جاء متحركًا في واحد وخمسين موضعًا، وساكن في أربعة مواضع، كالاتي:

<sup>1</sup> التوازي الصوتي في سورة القمر، ص 26

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 28

الفتح	الكسر	الضم	تنوين كسر	تنوين ضم	سكون
7	14	5	16	9	4

نلاحظ من خلال الجدول السابق أن الروي المتحرك بلغ نسبة 92%، وهذا ما يتناسب تمامًا مع الحركة والسرعة التي اتسمت بها الآيات في سورة القمر، ولذا وجدنا أن الروي الراء الساكنة لم يأت إلا في 4 آيات فقط.

### توازي حرف الرو الراء:

تعد سورة القمر من السور التي جاء فيها حرف الروي متوازيًا من أولها إلى آخرها، وحرف الراء من الحروف المجهورة القوية، ومن صفة التكرار، حيث يضرب اللسان أطراف الثنايا العليا فيتكرر الحرف بصورة سريعة متوالية، فالراء حرف قوي مجهور واضح سمعيًا، ومتصف بصفة تفرد بها دون سائر الحروف وهي صفة التكرار، ولحرف الراء نطقان في اللغة العربية فهي تنطق مفخمة ومرفقة، فإذا كانت الراء متبوعة بفتح أو ضم أو حرف من حروف الاستعلاء كالصا نطقت مفخمة، وإن أتت متبوعة بكسر أو ياء نطقت مرفقة<sup>1</sup>. والمفخمة أقوى وأوضح سمعًا من المرفقة، فنجد أن الراء المفخمة جاءت في ثلاثين آية من سورة القمر، بينما المرفقة جاءت خمسًا وعشرين مرة فقط، إذن المفخمة أكثر تواجدًا من المرفقة، وهذا يتناسب تمامًا مع سياق السورة التي تحدثت منذ بدايتها عن المكذبين، وإلقاء الخوف والرعب والذعر في قلوبهم، فكانت الراء المفخمة أكثر إيقاعًا في موضعها حتى تناسب السياق العام للسورة، وتوازي حرف الراء وهو حرف الروي في السورة كلها يدل على اتحاد السورة فكريًا، ومعنويًا، ولفظيًا كما نلاحظ أن حرف الراء جعل من سورة القمر نغمة واحدة، كما جعل منها وحدة واحدة، أما بالنسبة لدلالة حرف الراء في سورة القمر فهو على الاستمرارية، وهذا ما يعرف عن حرف الراء في الدرس الصوتي<sup>2</sup>، فتكذيب الرسل مستمر من أول نوح حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمرارية العذاب أيضًا، واستمرارية ظهور القمر وطلوعه كل ليلة بلا انقطاع،

<sup>1</sup> الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص 33

<sup>2</sup> ملامح أسلوبية في سورة القمر، ص 14

كل هذا عبر عنه الراء بأسلوب معجز، وهذا تناسب عجيب بين حرف الروي والسورة ومعنى الاستمرارية الذي يحمله حرف الراء، وانفرد بها دون سائر الحروف.

### التكرار:

يعدّ التكرار من السمات التي تتسم به اللغات عمومًا، ولغتنا العربية خصوصًا، وهو وجه من وجوه البلاغة والإعجاز، ويعدّ التكرار عنصرًا من عناصر الإيقاع الصوتي<sup>1</sup>، في النص فضلًا عن دلالاته المعنوية، ولم تخل السورة المباركة من التكرار الصوتي، بل اتسمت به بوضوح، وقد كان له الأثر الكبير في المعنى، فلم يقف الأمر عند حد الإيقاع الصوتي للتكرار، وفي الجدول الآتي أحصر بعض صور التكرار في السورة الكريمة.

### أ. تكرار العبارة:

العبارة	عدد المرات
فهل من مدكر	4 مرات
فكيف كان عذابي ونذر	4 مرات
فذوقوا عذابي ونذر	مرتين

فلو تأملنا التكرار الصوتي لآية "فهل من مدكر" على سبيل المثال في أربعة مواضع في سورة القمر، سؤال: تكررت هذه الآية في سورة القمر أربع مرات، فما الفائدة من هذا التكرار؟ الجواب: يعدّ القرآن الكريم نظامًا تواصليًا مهياً لجميع الأفراد تتم فيه عملية جوهرية وهي الإبلاغ والتخاطب بين المجتمعات بتعاقب المسار التاريخي، وهذه منة مَنّا علينا للتدارس والاستذكار، والوعظ، وقد أشار إليه الإمام الشوكاني -رحمه الله- حيث يقول: "لعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها".

ومن سحر بيان القرآن الكريم، وجمال نظمه تتجلى فيما يأتي:

الوجه الأول: هذا الترجيع يسبغ على تلك المشاهد الرهيبة المخيفة المفزعة ثوبًا ضافيًا فضفاضًا من الرقة والعدوبة والرحمة، فنشعر كلما ينتهي مشهد من هذه

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 17

المشاهد المرجفة كأن ربنا تجلّى لنا برأفته. وكأن تكرار الآية تذكير بالرحمة الإلهية التي لها السبق بمحض المنة الإلهية، فالله سبحانه وتعالى يقول لخلقه في خضم هذه الأحوال المفزعة: "إني أنا الرحمن الرحيم".

وهو يحذرنا أن نتورط فيما تورط فيه أولئك المتمردون من الخزي والعذاب والخسران، ويناديننا بحنوٍ وتأکید وإصرار: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟} فهنا تتجلى الرحمة الإلهية وتنبعث من الرقة الهادئة المهموسة في حرف السين "ولقد يسرنا".

الوجه الثاني: هذا الترجيع بما فيه من تكرار ضمير الجلالة {نا} يبين لنا مدى رأفة الله بعباده، ويقربنا حتى يجعلنا نستشعر كأننا في كنف ربنا، ونسمع صوته في أذاننا وهو يدعونا ويناديننا: {فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ... فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ...} سورة القمر (40) وتجد حناناً متدفقاً برقة نهر يسري في وجدان القارئ يجعله يرى الرحمة الإلهية مصورة في هذا المشهد أعظم تصوير.

الوجه الثالث: هذا الترجيع يجعل كل حلقة من تلك الحلقات مشهداً مستقلاً بنفسه، ويبرز كلاً منها وهي وحدها تكفي للعظة والتذكار<sup>1</sup>.

نجد أن القرآن الكريم يصر على إرشادهم إلى الطريق القويم المستقيم، وينبههم بهذا التكرار ليقوم عليهم الحجة يوم القيامة، فالإنذار لم يكن مرة واحدة بل مرات عديدة، وهذا يدل على أن الهدف الأسى للقرآن هو الموعدة.

#### أ. التكرار الصوتي:

من أمثلة التكرار الحرفي في سورة القمر قوله -تعالى-: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) الريح الصرصر هي: الريح الباردة العنيفة العاتية ترتبط دلالتها بالهلاك والشدة<sup>2</sup>، فقد التقى حرف الراء الذي يفيد التكرار بحرف الصاد الصفيري، وقد منح المفردة بعداً دلاليًا مستمدًا من بعدها الصوتي الذي يوحي باصطكاك الأسنان نظرًا

<sup>1</sup> مجلة البيان، العدد الخامس والثلاثون، 2010م، ص 43

<sup>2</sup> ملامح أسلوبية في سورة القمر، ص 22

للبرد الشديد، فضلاً عما في هذه العبارة من تكرار مقطعي، فكلمة: "صرصر" مكونة من مقطعين، وهذا يدل على شدة البرد، وقوة الريح العاتية، ولعل الملمح الأسلوبى لهذه الآية يكمن في التنسيق الصوتي الناتج عن اتحاد اللفظ والمعنى.

#### الخاتمة:

سورة القمر وحرف رويها وما بها من أسرار صوتية ولغوية تفوق حدّ الوصف والخيال، بدأت السورة من أول كلمة فيها (اقتربت) لتدلّ على قرب قيام الساعة، وعن معجزة انشقاق القمر، وتكذيب الكفار لحضرته صلى الله عليه وسلم، ثم بدأت الآيات في وصف المكذبين من الأمم السابقة، وما نزل بهم من عقاب الله، وأن الساعة أصبحت قريبة وشيكة، وقد بدأت في شرح الآيات وربطها بالدرس الصوتي، مستعينة بظلال القرآن لسيد قطب، كذلك معلقة على بعض الكلمات الحروف مستخرجة ما بهما من درر صوتية، وقد اعتمدت على قراءاتي المتنوعة في علم الأصوات، وذائقي اللغوية التي دربتها على استخراج الدرر من مكانه أثناء قراءاتي في علم الأصوات، من خلال هذا استطعت أن أضيء بعض الجوانب معلقةً وشارحة بعض الكلمات، وما بها من جرس وإيقاع صوتي له علاقة وطيدة بالمعنى، ثم أفردت جزءاً للتوازي الصوتي وعلاقته بالمعنى ودلالاته القوية، وما كان من تناسب بين المتواليات القصيرة الحركية، وموضوع السورة، وضربت أمثلة تفصيلية على ذلك، ثم تحدثت عن توازي حرف الراء، وفصّلت القول فيه، وأخرجت النسب المئوية للحرف ما بين ساكن ومتحرك، ثم تحدثت عن التكرار وما له من إيقاع صوتي، وقسمته إلى تكرار العبارة وتكرار الحرف، وضربت أمثلة من السورة على ذلك، وكان هناك حديث منفصل عن الحرف كما ذكرت آنفاً، يتحدث عن مخرج الحرف وصفته، وإيقاعه، ودلالته، وأثره، وتناسبه مع السياق العام المتلاحق المتتابع السريع لسورة القمر، وقد اعتمدت على بعض الدراسات السابقة من رسائل علمية استفدت منها كثيراً فسرت على دربها ونهجها وهداها.

فهرسة المصادر والمراجع

- 1- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: مختصر تفسير ابن كثير (تحقيق: هاني الحاج)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
- 2- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمود: روح المعاني (تحقيق: السيد محمد السيد وسيد إبراهيم عمران)، دار الحديث، القاهرة، 2005م
- 3- بشير، خليل خلف: ملامح أسلوبية في سورة القمر، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
- 4- الزمخشري، أبو القاسم محمود ابن عمر: الكشاف (تحقيق: د. سمير شمس)، دار صادر، بيروت، لبنان، 2010م
- 5- السيوطي، جلال الدين: تناسق الدرر في تناسب السور (تحقيق: عبد القادر أحمد عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1986م
- 6- قطب، السيد: في ظلال القرآن، دار الشروق للطبع والنشر، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
- 7- ناجي، مجيد عبد الحميد: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 1984م
- 8- النجار، أشواق محمد إسماعيل: التوازي الصوتي في سورة القمر، كلية آداب الرافدين، 2009م
- 9- نخبة من العلماء: مجلة البيان الصادر عن المملكة السعودية العربية، العدد الخامس والثلاثون، 2010م

## الملا علي القاري وتفسيره "أنوار القرآن وأسرار الفرقان"

- محمد خواجه معين الدين<sup>1</sup>

يعدّ العلامة الملا علي القاري أحد العباقرة والمحققين في القرن الحادي عشر، وهو إمام، محدث، فقيه، أصولي، مفسّر، مقرئ، متكلم، صوفي، مؤرخ، لغوي، نحوي، وأديب. يسمّى العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي، المكي، الحنفي، ويعرف بالقاري لكونه إمامًا في القراءات في عصره.

ولادته ونشأته:

كان القاري من مواليد سنة 930هـ في مدينة "هرات" في بيت علم وشرف، حيث تعلم القرآن الكريم، وحفظه عن ظهر قلب، وجوّده، وكان من أساتذته الشيخ معين الدين بن الحافظ زين الدين الهروي، كما ذكر ذلك في رسالته "شم العوارض"<sup>2</sup>.

يقول محقق "شم العوارض" عن نشأته وتعلمه المبادئ في بلاده:

"ولد بهرات، وتلقى العلم على يد عدد من علمائها وعلماء خراسان منهم: أبو الحسن البكري، والأيجي الصفوي، والحفيد التفتازاني وغيرهم"<sup>3</sup>.

رحلته إلى مكة المكرمة:

عزم القاري على الهجرة من بلدة "هرات" إلى بلد الله الحرام "مكة المكرمة" ليسكن في جوار بيت الله الحرام، ويكون من أهله وساكنيه، وقصد مكة المكرمة من هرات

<sup>1</sup> باحث، قسم اللغة العربية الشرقية، الجامعة العثمانية، حيدرآباد

<sup>2</sup> الملا علي القاري، شم العوارض في ذم الروافض: ذم التعصب في دين الله، مركز الفرقان للدراسات، الطبعة الأولى، 1425هـ/2004م، ص 42

<sup>3</sup> شم العوارض في ذم الروافض، 6

عندما تغلب الشاه إسماعيل الصفوي - الرافضي- على هرات في سنة 916هـ، هناك أحدث فتناً عظيمة من قتل المسلمين ظلماً وعدواناً، ومن نشر شعائر الرافضة، وإلزام العلماء بأن يظهروا هذه الشعائر على المنابر، حين ذاك اضطر كثير من العلماء، وطلاب العلم إلى الهجرة من بلد هرات إلى بلد الإسلام، لكي يعيشوا آمنين مطمئنين في الجو الروحي والإيماني، فعند ذلك هاجر علي بن سلطان محمد القاري إلى مكة المكرمة ليسكن في جوار بيت الله الحرام، فيقول في رسالته "شم العوارض":

"والحمد لله على ما أعطاني من التوفيق والقدرة على الهجرة من دار البدعة إلى خير ديار السنة، التي هي مهبط الوحي وظهور النبوة، وأثبتني على الإقامة من غير حول مني ولا قوة"<sup>1</sup>.

#### استفادته من علماء البلد الحرام:

وقد تلمذ القاري على جماعة من العلماء في مكة المكرمة، وتأثر بهم، ومنهم العلامة ابن حجر الهيثي، وهو أقدم شيوخه، فثبت بذلك قدومه إلى مكة المكرمة ما بين سنة 953م و973م.

وبذلك يعلم أن إقامة الشيخ القاري في مكة المكرمة، تتجاوز الأربعين سنة حيث توفي سنة 1014هـ.

#### طلبه العلم في بلد الله الحرام:

عندما جاء الشيخ البلد الحرام، وطاب له العيش هناك، جلس في حلقات المشائخ المتعددة يرتشف من رحيقهم، وينهل من معينهم، وكانت هذه الرحلة نقطة تحول في حياته، حيث استطاع في الفترة المكية أن يلازم العلماء سنوات عديدة، فاستمر في تحصيل العلوم والفنون، مشغوقاً ومعكوقاً بالتعلم والتعليم، حتى صار عالماً يشار إليه بالبنان، وطارت صيته عبر الآفاق، وقد أنجز خلال إقامته في البلد الحرام أعمالاً جليلة علمية، وكتب وألف مصنفات عظيمة. وهي تعدّ أرقى وأعلى مؤلفاته ورسائله، حيث أُلّف أغلب مؤلفاته في حياته المكية، فنجد أنه فرغ من تأليف "فتح باب العناية بشرح النقاية" في سنة 1003هـ، وانتهى من تأليف "شرح نخبة الفكر" في سنة

---

<sup>1</sup> شم العوارض في ذم الروافض، 50

1006هـ، وكما أكمل تصنيف "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" في سنة 1008هـ، وفرغ من تأليف "جمع الوسائل في شرح الشمائل" في سنة 1008م، ثم أنهى تأليف رسالة "رفع الجناح وخفض الجناح بأربعين حديثاً في فضل النكاح" سنة 1010هـ، كما فرغ من تصنيف رسالة "الضابطية للشاطبية اللامية" سنة 1011هـ. هذه التواريخ المذكورة في التصانيف المذكورة.

ورعه وتقواه:

كان الإمام القارئ متديناً تقياً ورعاً، زاهداً، عفيفاً، ويتعد عن الحكام؛ لأنه يقول: إنه يضر بالإخلاص. إنما تبع في ذلك القاري الأئمة الأفاضل من قبله كمثل الإمام أبي حنيفة، وسفيان، وفضيل بن عياض، واحمد بن حنبل وغيرهم، كانوا يبتعدون عن الملوك، هكذا القاري يعرض عن الملوك والسلطين، ولا يقبل هداياهم، وقد ألف رسالة في منع التقرب من الأمراء، والحكام والولاة، والسلطين. ويقول في كتاب المرقاة:

"ورحم الله والدي كان يقول لي: ما أريد أن تصير من العلماء خشية أن تقف على باب الأمراء".<sup>1</sup>

وكان يأكل من عمل يده، عملاً بقوله -صلى الله عليه وسلم-: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داؤد عليه السلام كان يأكل من عمل يده".<sup>2</sup> وكان يغلب عليه الزهد والعفاف، والإعراض عن الدنيا، والرضا بقدر الكفاف، وكان كثير العبادة، والخلة، وقليل الاختلاط بالناس، وكان - رحمه الله - خطاطاً يأكل من ذلك الكسب، يكتب كل عام مصححاً بخطه الجميل ومهمشه بالقراءات والتفسير، فيبيعه، ويكفيه قوتاً له من عام إلى عام.<sup>3</sup>

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

تبوأ القاري مكانة مرموقة في الأوساط العلمية في زمانه، قد اعترف كثيراً من العلماء علمه الغزير في شتى العلوم والفنون، وكان بحرّاً زاخراً للعلوم الشريعة الغراء، حتى

<sup>1</sup> خير الدين الزركلي، الملا على القاري، دار العلم للملايين، بيروت، 12/5

<sup>2</sup> البخاري، كتاب البيوع، باب كسر الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: 2072

<sup>3</sup> الملا على القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب العلم، 331/1.

تحرر الكتب في جميع العلوم، وبل كان له قصب السبق في التصنيف والتأليف، وكان من العلماء الذين له طول باع في العلوم العقلية والنقلية، بحيث يشار إليه بالبنان، وكان قد بلغ درجة الاجتهاد.

وقد تحدّث بنفسه في كتابه "شم العوارض" عن إحسان الله إليه وإنعامه وكرمه بما أفاض عليه من العلوم الكثيرة لا يعارضه فيها أحد.

"وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد لها دينها". فو الله العظيم، ورب النبي الكريم، أني لو عرفت أحدًا أعلم مني بالكتاب والسنة، من جهة مبناها أو من طريق معناها، لقصدت إليه ولو حبوا بالوقوف، لديه، وهذا لا أقوله فخراً، بل تحدّثاً بنعمة الله وشكراً، واستزيد من ربي ما يكون لي ذخراً".<sup>1</sup>

ويقول عنه الزركلي:

"محمد، نور الدين الملاً الهروي القاري: فقيه حنفي، من صدور العلم في عصره. ولد في هرات وسكن مكة وتوفي بها".<sup>2</sup>

يقول العصامي في سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل:

"الجامع للعلوم العقلية والنقلية، والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام، ومشاهير أولي الحفظ والأفهام. ولد بهرة ورحل إلى مكة".<sup>3</sup>

يقول ابن عابدين عنه ضمن رسائله:

وفي كلامه إشارة إلى أنه مجدد عصره، وما أجدر بذلك، ولا ينكر عليه ما هناك إلا كل متعصب هالك".<sup>4</sup>

"وأحد صدور العلم فريد عصره الباهر السميت في التحقيق وتنقيح العبارات وشهرته كافية عن الاطراء في وصفه ... واشتهر ذكره وطار صيته وألف التأليف الكثيرة اللطيفة التأدية المحتوية على الفوائد الجليلة".<sup>5</sup>

<sup>1</sup> شم العوارض: حكم سب الصحابة عند الحنفية، 37/1، مركز الفرقان للدراسات الإسلامية

<sup>2</sup> الأعلام، 12/5

<sup>3</sup> العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت، 402/4

<sup>4</sup> ابن عابدين، رسائل ابن عابدين، 368/1

<sup>5</sup> محمد أمين بن فضل الله، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 185/3

وقال العلامة محمد إدريس الكاندهلوي (1394هـ) في التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح:  
"المحدث الجليل، والفاضل النبيل، فريد دهره ووحيد عصره"<sup>1</sup>.

#### مؤلفاته العلمية:

وأما مؤلفات القاري فقد كثرت واشتهرت وذاعت بين الأوساط العلمية ما بين مطبوع ومخطوط، وقد اختلف العلماء اختلافاً كثيراً في عدد مؤلفاته العلمية، هذه حقيقة ساطعة أن القاري قد أعطى ذهنًا ثاقبًا وقادًا، لم يترك أي فن من فنون وإلا ترك فيه آثارًا علمية، وكمية كبيرة من الكتب، وكان له إطلاع واسع على كلام أئمة المتقدمين والمتأخرين، كان له براعة ونبوغ في العلوم النقلية والعقلية، فألف الكثير من التأليفات العلمية التي تُنبئ عن غزارة علمه وسعة اطلاعه على المصادر والمراجع، وتمكنه وقدرته من كثير العلوم الإسلامية، فكتب في التوحيد والتفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والسيرة النبوية، والتراجم، واللغة والنحو وغير ذلك.

قد استعصى حصر مؤلفاته وضبطها على القدماء والمحدثين، رغم وفرة المراجع التي ترجمت له، قال ابن مرداد في مختصر نشر النور نقلًا عن الشيخ سليمان المقري المصري الحنفي:

"هو علامة زمانه، وواحد عصره وأوانه، والمفرد الجامع لأنواع العلوم العقلية والنقلية والمتضلع من علوم القرآن والسنة النبوية، وعالم البلد الحرام والمشاعر العظام، وأحد جماهير الأعلام، ومقدم مشاهير أولى التحقيق والأفهام، وشهرته كافية عن إطراء وصفه ..... واشتهر ذكره، وطار صيته، وهو من كبار المصنفين، وعظماء المؤلفين، كثر المحققين، والحفاظ ورئيس المدققين، والوعاظ، وتأليفه لا تحصى ولا تستقصى".

وقال بعد عدّ بعض تأليفه العلمية النفيسة بنفسه:

<sup>1</sup> محمد إدريس الكاندهلوي، التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح، مجلس إشاعة العلوم الكائن بحيدرآباد الدكن، مطبعة الاعتدال، دمشق، 6/1

"وأفاد بعض شراح الحزب الأعظم بأنه قال: سمعت من حفيد المترجم بمكة المكرمة أنه قال: إن لجدنا ثلاث مائة من المؤلفات وأنه أوقفها وشرط ألا يمنع من استنساخها"<sup>1</sup>.  
فعدّ له البغدادي في هدية العارفين قريبًا من سبعة ومائة كتاب، وكذلك عد له الجشتي صاحب البضاعة المزجاة أربعة وثلاثين ومائة كتاب، وعد بروكلمان نحو خمسة وثمانين ومائة كتاب.

### أنوار القرآن في أسرار البيان

ومن بين كتبه المهمة تفسيره "أنوار القرآن وأسرار الفرقان" تفسير له مهم، يجمع كافة المميزات والخصائص التي لا بد من ملاحظتها عند تفسير القرآن الكريم، ونحن علمنا من قبل بأنه جامع بين العلوم التي يحتاج إليها المفسر في تفسيره، من علم اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وعلم الفقه، والأحاديث والآثار، لتفصيل المجمع وتوضيح المهم، كل ذلك ميسر للملا على القاري، بل كان له تصانيف في جميع العلوم الضرورية في علم التفسير.

يتعلق هذا التفسير بزمرة التفسير الإشاري يعني هو تفسير أهل التصوف الذين يشرحون القرآن الكريم ويفسرونه مع بيان لطائف التصوف وغوامضه، بحيث نظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معانٍ ودقائق، لأنه جاء في الحديث "لكل آية ظهر وبطن" فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني، لأن البعض يقول: هذا إحالة كلام الله ورسوله عن الظاهر، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك؛ بل يقرؤون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم، كما ينتسب هذا التفسير إلى عالم كبير، ومؤلف مشهور، من أبرز العلماء القرن الحادي عشر الهجري، الذي أثرى المكتبات الإسلامية، بمؤلفاته الواسعة العميقة، أذخرت كتبه

<sup>1</sup> الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، الطبعة الثانية، 1406-1986م، عالم المعرفة، بيروت، 365-367

المكتبات الإسلامية في الفنون الإسلامية المتعددة في الأرجاء المعمورة، إذ ألف في التفسير، وعلوم التفسير، والحديث وعلومه، والعقيدة، والفقه، والسيرة، ونحوها، فلذلك يستحق هذا التفسير أن تركز العناية إليه.

منهجه في تفسير القرآن الكريم:

يميز تفسير الملا على القاري بميزات نذكرها موجزًا ليعلم بذلك مدى أهمية هذا التفسير.

الجمع بين التفسير المأثور والمعقول: إنه سلك مسلك من تكلم في تفسير القرآن الكريم، بأن خير ما فسّر به كتاب الله عز وجل تفسير بعضه البعض، أو بما فسّر به الرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإن أعبي ذلك في الكتاب والسنة فبالرأي.

تفسير القرآن بالقرآن: إنه يفسر بعض الكتاب بعضه، كما ترى في الأمثلة التالية:

- في سورة النحل في الآية: 77 وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْلَمُ مَا غَابَ فِيهِمَا عَنِ الْعِبَادِ تَخْتَصُّ بِهِ سُبْحَانَهُ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ" (الأنعام: 59) هذا تفسير الآية بالآية الكريمة.

وفي آية الإسراء الرقم: 15.

- وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (الإسراء: 15) يمهّد الحجة ويبين الشريعة فيلزمهم الحجة فلا يدخل أحد في السعير إلا بعد إرسال الرسول منعوت بالتدبير البشير كما يشير إليه قوله {كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} (الملك: 8) فعلى هذا من نشأ في شاهق جبل أو حال كونه سائق جمل ولم يسمع برسول الحق في هذا الباب، ولا سمع نداءه سبحانه بذكر الكتاب فهو معذور مدفوع عنه العقاب، وكذا المجنون في جميع عمره والطفل الصغير يجهل أمره.

تفسير القرآن بالحديث والأثر: إنه اهتم كثيرًا بتفسير القرآن حسبما استطاع بالأحاديث النبوية الشريفة: ولذلك أمثلة كثيرة، وهنا نعرض بعضها.

- وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (الإسراء) تتناول برقتك على ظن أن لك على غيرك فضلًا يوجب فضلًا، وفي الآية إشارة

إلى أن الاحتياال حماقة مجردة لا تعود على صاحبها بفائدة وقد ورد في الحديث المرفوع: "من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعها الله".<sup>1</sup>

والمثال الآخر لتفسير القرآن بالحديث:

- { وَتَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ } (الإسراء: 97) يُسحبون عليها أو يمشون بها، ويؤيد الأول قوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ فِي الْحَمِيمِ ﴿﴾ (غافر: 71, 72) ويقوي الثاني ما وري أنه قيل لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : كيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم.<sup>2</sup>
- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿﴾ (الإسراء) أي تنفرًا عن الحق وعدم طمأنينة إلى الصدق.

وعن سفيان الثوري كان إذا قرأها قال: زادني لك خضوعًا ما زاد أعداءك نفورًا. فالقرآن كالنيل ماءً للمحبوبين ودمًا للمحجوبين، وكما في الحديث: "القرآن حجة لك أو عليك".<sup>3</sup> وفي لفظ آخر "القرآن شافع مشفع ما حل مصدق".<sup>4</sup> وقد قال تعالى: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا" (البقرة: 26).

<sup>1</sup> ش عب الإيمان، فصل في التواضع وترك الزهو، رقم الحديث: 8140، المعجم الأوسط، من بقية من أول اسمه ميم، رقم الحديث: 8307، ومصنف ابن أبي شيبة، كلام سلمان، رقم الحديث: 34663

<sup>2</sup> المستدرک: تفسير سورة الفرقان، رقم الحديث: 3517، سنن الترمذي، سورة بني إسرائيل، رقم الحديث: 3142، سنن النسائي الكبرى، سورة الفرقان، رقم الحديث: 11367، مسند أبي يعلي، سعيد بن سنان، رقم الحديث: 4278

<sup>3</sup> مسلم: باب فضل الوضوء، رقم الحديث: 223، سنن ابن ماجة: باب الوضوء شرط الإيمان، رقم الحديث: 280، الترمذي: رقم الحديث: 3517، قال أبو عيسى: هذا حسن صحيح، سنن الدارمي، باب ما جاء في الطهور، رقم الحديث: 653، سنن النسائي، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث: 2437، مسند أحمد بن حنبل، حديث أبي مالك الأشعري، رقم الحديث: 22959

<sup>4</sup> المستدرک، ذكر فضائل سور وآي متفرقة، رقم الحديث: 2087، المعجم الكبير، عبد الله بن مسعود الهذلي، رقم الحديث: 8655، شعب الإيمان، فصل في إدمان تلاوة القرآن، رقم الحديث: 2010

تعرضه للمسائل الفقهية

إن الملا على القاري له شغف واتصال بالفقه، ولذا أنه عرض المسائل الفقهية الكثيرة التي تستنبط من آيات القرآن الكريمة؛ لما أنه من كبار الأكابر الحنفية، كما ألف من بين مؤلفات الكثيرة عددًا كبيرًا من المؤلفات في المسائل الفقهية في جوانب الحياة الإنسانية المختلفة، مثلًا كتابه في الفقه: "البلاء في مسألة الولاء" و"حدود الأحكام" و"الاستدعاء في الاستسقاء" و"رسالة في ترتيب وظائف الوقف" و"رسالة في الجمع بين الصلاتين" وغيرها.

● وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا (النحل: 14) هو السمك، ووصفه بالطراوة؛ لأنه أرطب اللحوم في اللطافة وتمسك بظاهره مالك والثوري على أن من حلف أن لا يأكل لحمًا حنث بأكل لحم السمك، وأجاب عنه الجمهور بأن مبنى الأيمان على العرف المشهور.<sup>1</sup>

● مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣٦﴾ (النحل) ذلًا أعظم من جرم من كفر بمولاه، وري أن قريشًا أكرهوا عمارًا وأبويه ياسرًا وسمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وجي بحرية في قبلها وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت وقتلوا ياسرًا وهما أول قتيلين في الإسلام وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرها فقبل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال: كلا إن عمار ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه. فأتى عمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يبكي فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح عينيه، وقال: "ما لك! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت".<sup>2</sup> وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إغزازًا للدين كما فعله أبواه لما روي أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟

<sup>1</sup> كما في البحر الرائق لابن نجيم: باب اليمين في الأكل والشرب، دار المعرفة، بيروت، 347/4

<sup>2</sup> حديث مرسل ورجاله ثقات. انظر: فتح الباري، 312/12

قال: رسول، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في، قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا فأعاد جوابه فقتله فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني: فقد صدع فهينًا له".<sup>1</sup>

### ذكره اختلاف القراءات

كان الملا علي القاري عُرف حاذقًا في هذا الفن، وبارعًا وراسخًا في القراءات كما يدل على ذلك لقبه "القاري" ويوحى ذلك وينم عن حذاقته ومهارته في علم القراءات، فكيف لا يبحث ويناقش عن القراءات في تفسيره؟ علاوة على ذلك أن له كتبًا عديدة في فن القراءات فمثلًا: "شرح أبيات ابن المقري"، و"شرح الشاطبية" وغيرهما.

- وَهَيَّيْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقًا (الكهف: 16) ما ترتفعون به وتنتفعون منه، وجزمهم بذلك لقوة دينهم ووقوف يقينهم، وقرآن نافع وابن عامر بفتح الميم وكسر الفاء.<sup>2</sup>
- يُثَبِّثْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ (النحل: 11) وقرأ أبو بكر بالنون للتعظيم.<sup>3</sup> أو ملاحظة أسباب التوحيد نظرًا إلى تفريد صنعة رب الأرباب.

### توضيح الألفاظ الصعبة، والمسائل النحوية

كان الملا علي القاري اعتنى كثيرًا في كتابه عن بيان وتوضيح الألفاظ الصعبة وتحليلها تحليلًا نحويًا ولغويًا، علم بذلك طول باعه في اللغة والنحو والصرف، وكان له مؤلفات في اللغة والنحو مثلًا "إعراب القارئ على أول باب البخاري" و"كتاب التجريد في إعراب" "لا إله إلا الله".

<sup>1</sup> تفسير الرازي، 427/9، والكشاف، 403/3، وتفسير أبي السعود، 143/5

<sup>2</sup> وفي تفسير خازن، 341/2، توضيح ذلك: "قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: مِّنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا بنصب الميم وكسر الفاء، والباقون بكسر الميم ونصب الفاء ومعناها واحد، وهو ما يرتفق به".

<sup>3</sup> وفي التفسير الكبير للرازي "قرأ عاصم في رواية أبي بكر نبت بالنون على التفخيم والباقون بالياء قال الواحد والياء أشبه بما تقدم" كما في تفسير الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، سورة النحل: 581/19

- وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا (الكهف: 18) جمع يقظ بفتح وكسر أي مستيقظين لانفتاح عيونهم أو لكثرة ثقلهم وَهُمْ رُقُودٌ (الكهف: 18) نيام جمع راقد ووقود فلهم وجود في عين الشهود.

وفي موضع آخر:

- جَنَّتُ عَدْنٍ (النحل: 31) بدل أو عطف بيان أو خبر مبتدأ محذوف هو أو هي أي بساتين إقامة حول قصور بلا فقر وآفة.
- أَرَعَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ (الإسراء: 62) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صفته، والمفعول الثاني محذوف وهو مكرماً على دلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته على لأمرى للسجولة بما أكرمته علي.

#### اهتمامه بذكر أسباب النزول

وكان من دأب المفسرين أنهم يهتمون كثيراً بذكر أسباب نزول الآيات الكريمة، فسلك القارئ في هذا الأمر مسلك المفسرين الآخرين فذكر خلال تفسيره في مواضع عديدة أسباب نزول الآية الكريمة، ليكن القارئ مطلعاً على خلفية الآية.

- { وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } (مريم: 64) حكاية قول جبريل - عليه السلام - حين استبطأه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين ولم يدر ما يجيب ورجاء أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل: أربعون، حتى قال المشركون، ودعه ربه وقلاه، ثم نزل بيان ذلك واعتذر عن إبطائه فيما هنالك بقوله { وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ } (من الأمكنة والأمر منه والمعنى لا ينتقل من مكان إلى مكان ولا يتنزل من زمان إلى زمان إلا بأمره ومشينته على مقتضى حكمته.

#### احتجازه بأشعار العرب

كان الشيخ على القارئ يحتج ويشهد خلال تفسير الآيات وفي بيان المعنوية اللغوية، وبيان المراد لتوضيح المقام بأشعار العرب.

- { إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } (مريم: 58) استئناف لبيان خشيتهم مع علو طبقهم وكمال قريتهم، وقد ورد: أتلو القرآن وأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا<sup>1</sup>. وبكيا جمع بك فعول بمعنى فاعل، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الياء اتباعاً لما بعدها، ويعم ما قال ذو الحال:

وما في الدهر أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق  
تراه باكيًا أبدًا حزينًا لخوف تفرق أو لاشتياق  
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم وبكي بشواهد إن دنوا خوف الفراق<sup>2</sup>

### إشارته إلى تأويل القرآن ولطائفه

كان الملا علي القارئ من العلماء الكبار في عصره، وهو من أشهر الأعلام، وهو الإمام، المحدث، الفقيه، الأصولي، المفسر، المقرئ، المتكلم، بجانب ذلك أنه صوفي، كما ذكرنا من قبل أنه يفسر الآيات بالقرآن الكريم وإلا بالحديث النبوي، وكما يتعرض للمسائل الفقهية، ويحتج باللغة والمسائل النحوية، كما أنه مزج تفسيره بالتفسير الإشاري، بل وقد غلب على تفسيره منهج التفسير الإشاري.

- وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٥﴾ (النحل)  
يتعظون بما يشاهدون من الآيات ويرون اختلاف النبات في الطباع والهيئات الدالة على أن صانعها حكيم عظيم في ما خلقه من الكائنات.

وأفاد الأستاذ: أن الليل والنهار ظرف الأفعال والناس مختلفون في الأفعال من جهة الأحوال، فالموفق يجري وقته في طاعة الله، والمخذول يجري وقته في متابعة هواه، والعابد يكون في مرض يقيمه يديمه، والعارف في ذكر يحصله أو وارد يغلب على قلبه فيؤنسه، وأما أرباب التوحيد فهم مختطفون عن الإحساس بالأوقات لغلبة ما يرد عليهم من الحالات كما قيل:

لست أدري أطلال ليلى أم لا

وفي الآية إشارة إلى شمس التوحيد وقمر المعرفة ونجوم العلوم ثم لأقوام خلق لهم في الأرض الرياض والحياض والدور والقصور والمسكن والمواطن وفنون النعم وصنوف

<sup>1</sup> أخرجه أبو عوانة في المستخرج، 461/4، رقم الحديث: 3134، وانظر تخرج الإحياء: 369/2، رقم الحديث: 869

<sup>2</sup> نسب هذا البيت إلى الجعدي، انظر: شرح ديوان الحماسة، 410/1، ونسب إلى أحمد ابن يحيى، انظر:

أمالى الزجاجي، 11/1، وإلى غيرهما

القسم وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ولا لهم في الأرض شبر ، فهم لا ديار تملكهم ولا علاقة تمسكهم أولئك سادات الخلق وصفائن الحق.

• وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ (النحل:14)....

• وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه خلق صنوفًا من البحر ففرق قومًا في بحار الشغل وآخرين في بحار الحزن وآخرين في بحار اللهو والسهو فالسلامة عن بحر الشغل ركوب سفينة التوكل، والنجاة من بحر الغم ركوب سفينة الرضا، والخلاص من بحر اللهو والسهو ركوب سفينة الذكر، وأنشد بعضهم<sup>1</sup>:

الناس بحر عميق والبعد منه سفينة  
وقد نصحتك فانظر لنفسك المسكينة<sup>2,3</sup>

### اعتماده على التفاسير الأخرى

كان من دأب القاري أنه بعد أورد تفاصيل الآيات وعرض مفهومه، بضوء الأحاديث والآيات القرآنية وفي بعض الموضوع ذكر أقوال الصحابة والتابعين، ثم يذكر أقوال العلماء والأسلاف؛ وبل يعتمد كثيرًا على التفاسير الأخرى، ومن التفاسير التي يستند إليها ويحول إليها الكثير الكثير وهو: التفسير القشيري، وصاحب تفسير القشيري أستاذه ومعلمه، والتفاسير الأخرى التي ينقل منها تفسير عرائس البيان، وتفسير التستري، ودقائق الحقائق للسلمي، وتفسير البغوي، وأنوار التنزيل للبيضاوي، وتفسير البيضاوي، ومدارك التنزيل للنسفي، وتفسير الكشاف، وتفسير المعين.

### نقل أقوال العارفين والعلماء

كما ينقل الآراء بعد تفسير الآيات أقوال العلماء والعارفين كمثل النصر آبادي، وجعفر الصادق، والحسن البصري، وعبد الله بن مبارك، ومحمد بن فضل، وأبو عثمان، والجنيد البغدادي، وممشاد الدينوري وغيرهم.

<sup>1</sup> كذا في التفسير القشيري، 289/2

<sup>2</sup> وفي نسخة "السكينة"

<sup>3</sup> نسب إلى منصور الفقيه المصري، انظر: بهجة المجالس، 145/1، والمنتحل، 53/1، ومعجم الأدباء، 417/2

فملخص القول إن هذا تفسير مهم وإن غلب عليه طابع التفسير الإشاري، ولكن مع ذلك كله هناك شيء آخر يمتاز به هذا التفسير من بين التفاسير الإشارية الأخرى، إنه كثيرًا ما يذكر وجوه القراءات المختلفة، ويتعرض لمسائل اللغة والنحو، ويورد المسائل الفقية، هكذا أصبح هذا التفسير خزانة للعلم والمعرفة، ومفيدًا لطلبة العلم والأساتذة على السواء.

## الحديث النبوي وأثره في النثر العربي

### دراسة تحليلية ونقدية

- محمد فضل الرحمن ماندال<sup>1</sup>

مدخل:

لقد لعبت أحاديث الرسول ﷺ دورًا كبيرًا في تطوير اللغة العربية وأدائها، وهذا الدور يتنوع وله جوانب وجهات مختلفة اختلاف وتنوع أركان الأدب العربي فنأخذ الركن الأول الكبير للأدب العربي ألا وهو النثر، ونشير إلى ما تركته الأحاديث النبوية من أثر إيجابي في مختلف جوانبه ومتعدد أنواعه علمًا بأن الأنواع البارزة للنثر العربي هي الخطابة والقصة والمثل والرسالة. فنبدأ بسم الله الرحمن الرحيم:

#### • أثر الحديث على الخطابة العربية

كان الشعر له تأثير عميق في المجتمع العربي ولكن الوضع قد تغير بعد نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ عندما استطاع القرآن والكلام النبوي أن يصل إلى ذلك التأثير. وهما أثرًا في العرب إلى حد أن الشعر ضلّ في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين، ولم يتنبه إليه المسلمون إلا إذا حمل على الإسلام بالشعر.

فبعثة النبي ﷺ سببت غلبت الخطابة على الشعر. أضف إلى هذا ما كان له - عليه السلام - من شخصية عظيمة وفصاحة وبلاغة، وذكاء نفاذ، فقد أثرت هذه المواصفات وغيرها في تنشيط الخطابة، وكونها بطلًا بين الأجناس الأدبية. وعلى ذلك فقد أرسى للخطابة أصولًا ومبادئ لا مفرّ لها لأي خطيب برز بعده، وصار خلافها عيبًا دينيًا أو أدبيًا على السواء.

<sup>1</sup> باحث، قسم اللغة العربية وأدائها، فيسفا-باراتي، بنغال العربية

وفي التالي أتناول بعض تلك المبادئ التي رسخها لنا رسولنا ﷺ والتي اتصفت بها خطبه:

1. الافتتاح وبراعة الاستهلال والبداية المثيرة للانتباه: إن أهم أساليب الإقناع المقدمة، ولها أثر فعّال في جذب انتباه السامعين واستمالتهم، وحملهم على ما يريد منه الخطيب.<sup>1</sup>

كان خطباء الجاهلية يبدأون بالموضوع مباشرة، مجردًا عن المقدمة، وكانوا يستعملون دائمًا: "أيها الناس" أو "أيها الملك" أو "يا معشر" أو أمثالها. والخطيب المشهور في الجاهلية قس بن ساعدة الإيادي كان افتتح هكذا في هذه الخطبة: "أيها الناس! اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات ---"<sup>2</sup> وقال هاني بن قبيصة الشيباني: "يا معشر بكر: هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر ---"<sup>3</sup>.

بعد مجيء الإسلام، فتح لنا النبي ﷺ بابًا جديدًا في افتتاح الخطب، وسنّ لنا سنة فيها ما زال المسلمون يتبعونها ولن يزالوا. فأضاف إلى بداية الخطابة كلمة التمجيد والتحميد لله والثناء عليه ما هو أهله والتسليم والصلاة على النبي ﷺ.

كما يقول ابن قتيبة: "تبعث خطب الرسول ﷺ ووجدت أوائل أكثرها: "الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"<sup>4</sup>.

وكذلك لو تتبعنا بدايات خطب النبي ﷺ لوجدناها مثيرة للانتباه بدءًا بخطبة الصفا حيث صعد الصفا ثم قال: "يا صباحاه"<sup>5</sup> وفي خطبة أول جمعة البدء بالحمد والثناء على الله بما هو أهله في أول خطاب يوجّه لجماعة المسلمين التي قامت في المدينة أمة من دون الناس، ويوم فتح مكة بدأ الرسول ﷺ خطبته بقوله: (إن الله حبس عن مكة

<sup>1</sup> الجوانب الإعلامية في خطب الرسول، ص 114

<sup>2</sup> جمهرة خطب العرب، 38/1

<sup>3</sup> البيان والتبيين، 161/3

<sup>4</sup> جمهرة خطب العرب، 37/1

<sup>5</sup> عيون الأخبار، 231/2

الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين فإنها لا تحل لأحد كان قبلي وإنما أحلت لي ساعة من نهار وإنما لا تحل لأحد بعدي ---<sup>1</sup> وفي خطبة حجة الوداع قال: (أتدرون أي يوم هذا وأي شهر هذا وأي بلد هذا قالوا هذا بلد حرام وشهر حرام ويوم حرام ---)<sup>2</sup>

فالتزم الخطباء في صدر الإسلام أن يفتتحوا خطبتهم بما افتتح به نبهم حتى سميت الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد والثناء على الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ بـ(البترء) كما يقول الجاحظ: "وعلى أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدئ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد: "البترء"<sup>3</sup>.

2. الاقتباس من القرآن: تعدّ خطب النبي ﷺ المثل الأعلى والنموذج الإسلامي لما كانت تتضمنه من الفصاحة العظمى والبيان الرفيع والحكمة والموعظة الحسنة وجوامع الكلم وبدائع الحكم.

القرآن الكريم هو المصدر الفني للأدب النبوي من أوله إلى آخره، وذلك لأنه كان مهبط الوحي، وتلقى القرآن نجمًا نجمًا طول حياته النبوية أي لمدة 23 سنة، فكان النبي أول قارئ، وأول حافظ، وأول مؤمن به. كان يذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه، ويفكر في كلامه طوال الليل والنهار، حتى أصبح القرآن جزءًا لازمًا من حياته وهذا ما جعل عائشة رضي الله عنها تصف خلقه: (فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن)<sup>4</sup>

لقد أثر القرآن الكريم في خطبه تأثيرًا كبيرًا، وهذا من شدة تأثره بالقرآن أن يشوق الآخرين إليه، ويشجعهم على قراءته، واختياره على ما سواه من أحاديث الناس، فيقول في إحدى خطبه بعد الحمد والثناء: (إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينته الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره ما سواه من أحاديث

<sup>1</sup> البخاري، رقم الحديث: 1355

<sup>2</sup> سنن ابن ماجه، رقم الحديث: 3048

<sup>3</sup> البيان والتبيين، 6/2

<sup>4</sup> مسلم، رقم الحديث: 743

الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه، أحبوا من أحب الله وأحبوا الله من كل قلوبهم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقسوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً<sup>1</sup> -- فنجد أيضاً للقرآن أثراً واضحاً في معاني خطبه، إذ يقول في خطبة حجة الوداع: (يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاطمها بأبائها فالناس رجالن برّ تقي كريم على الله وفاجر شقي هيّن على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب<sup>2</sup> --) نجد هذا الكلام في آية القرآن (يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ<sup>3</sup>)

ومن مثل هذه الأمثلة قوله في إحدى خطبه: (إن لمن (أي لنسائكم) عليكم حق ولكم عليهم حق)<sup>4</sup> ونفس الكلام موجود في هذه الآية القرآنية: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)<sup>5</sup> فاتبع الخطباء المسلمون نبيهم وأخذوا ينهجون نهج القرآن في الاستدلال، إذ مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شيء من القرآن<sup>6</sup> كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وخطبته برمتها مجموع آيات من القرآن<sup>6</sup> كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله، فصعد المنبر وقال: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَافِقَةً فَمِنْهُمْ يَدَّبُّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وأشار بيده نحو الشام) وتريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض وتجعلهم أئمةً وتجعلهم الورثين ﴿٥﴾ (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكّن لهم في الأرض وتربى فرعون وهنّ وجنودهما منهنّ ما كانوا يحذرون ﴿٦﴾<sup>7</sup> (وأشار بيده نحو العراق)<sup>8</sup>

<sup>1</sup> جمهرة خطب العرب، 1/152

<sup>2</sup> الترمذي، رقم الحديث: 3193

<sup>3</sup> سورة الحجرات: 13

<sup>4</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 20714

<sup>5</sup> سورة البقرة: 187

<sup>6</sup> تاريخ آداب اللغة العربية (جرجي زيدان)، 1/188

<sup>7</sup> سورة القصص: 6-1

<sup>8</sup> البيان والتبيين، 1/361-362

وقد بلغ تأثير القرآن في الناس إلى حد أن الاقتباس منه أصبح معيار قيمة الخطبة، وتجرد الخطبة عنه أو خلوها منه صار عيباً شنيعاً، لذا كان العرب يسمعون الخطبة التي لم تترن بالقرآن ولم يتحل بالصلاة على النبي ﷺ بالشوهاة.<sup>1</sup>

3. **الخطابة الدينية:** كانت الخطابة في العصر الجاهلي تدور حول موضوعات قليلة مثل المنافرة والمفاخرة والنصح والإرشاد وغيرها، وتكاد تخلو من الخطابة الدينية تقريباً.

فالنبي عرف الخطابة العربية بصنف جديد للخطابة وهو الخطابة الدينية، ووسع آفاقه، وطوره تطويراً فهو الذي رسمها وفجر ينابيعها بحيث أصبحت مادة الخطباء من بعده.<sup>2</sup>

4. **التنوع في الموضوعات:** لقد نوع النبي ﷺ في موضوعات الخطب الجاهلية. فخطب الرسول ﷺ تختلف موضوعاتها عن موضوعات الخطب الجاهلية. كان العرب يستخدمون الخطابة في موضوعات، مثل: المنافرة، والمفاخرة، والنصح، والإرشاد، والحث على قتال الأعداء، والدعوة إلى السلم، وحقن الدماء، وفي المناسبات المختلفة كالزواج والإصهار.<sup>3</sup>

أما موضوعات خطب الرسول ﷺ فتتناول موضوعات عديدة ولا شك أنها تلتقي على غاية واحدة، وهي بيان حقيقة الإسلام وتربية المسلمين من جميع النواحي، ويمكن بيانها بأنها كانت تدور حول الموضوعات التالية:

أ- تثبيت رسالته ونبوته: هذا موضوع واجهه كل نبي بعثه الله إلى قومه، لأن الأقوام تشك في أول الأمر في كون النبي نبياً، وهذا ما حدث لنبينا فهو بعد ما أمره الله عز وجل بإنذار عشيرته بقوله: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)<sup>4</sup> يلقي هذه الخطبة الأولى "يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان --- يا بني عبد المطلب أرايتكم لو أخبرتكم أن

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 215/1

<sup>2</sup> العصر الإسلامي (شوقي ضيف)، ص 121

<sup>3</sup> الفن ومذاهبه، ص 27

<sup>4</sup> سورة الشعراء: 214

خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ما جرّينا عليك كذباً قال فإني نذير لكم بين يدي عقاب شديد".<sup>1</sup>

ب- التوحيد: التوحيد هو أساس الدين الإسلامي ومحور الرسالة المحمدية، بل هو أساس الرسالات السابقة كلها. كانت قريش لا تنكر عبادة الله كقرون أولى، وإنما كانت تعبد معه إلهاً غيره لتقربهم إلى الله زلفى.<sup>2</sup> فأمر الله نبيه بإخراج الناس كافة من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، فحرص النبي على ذلك. فكان يخطب بين مشركي العرب من قريش وغيرهم ويدعوهم إلى وحدانية الله، ومن خطبه: "اشتروا أنفسكم من الله لا أعني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد المطلب لا أعني عنكم من الله شيئاً ---"<sup>3</sup> وكان يقول في خطبه: "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".<sup>4</sup>

ت- التقوى: إن للتقوى أهمية كبيرة، ولا أحد ينكر تلك لذلك يهتم به جميع المسلمين وقد ورد في القرآن والحديث منون كثيرة، فمن الطبيعي أن يجعله رسول الله من الله شيئاً --- موضوعاً من أهم موضوعات دعوته

هذا كان نموذجاً مما تناوله من موضوعات في خطبه، وإذا تتبعنا خطبه وجدناها متنوعة جداً، فنتاول بعضها بالتفصيل ونكتفي بذكر أسماء بعضها: كالجهاد في سبيل الله، وذكر الموت والحث على الإعداد للأخرة، وذكر كتاب الله، وبيان تشريعات الإسلام، وغيرها من الموضوعات.

5. القناعة بما يدعو إليه والمسؤولية الذاتية: إن الأخلاق السامية والطباع الكريمة هي التي تعين للإنسان سيرة مثالية، وتخطط له معالم حايته، والرسول-

<sup>1</sup> مسلم، رقم الحديث: 307

<sup>2</sup> سورة الزمر: 3

<sup>3</sup> البخاري، رقم الحديث: 4398

<sup>4</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 442

وهو خير أسوة وأول نموذج لكل من يقوم بعملية الاتصال في الإعلام الإسلامي- رضي الله عنه بخلقه وجعله لنا قدوة. وامتدحه بقوله (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)<sup>1</sup> وقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)<sup>2</sup>

لذا نرى أنه لما ادعى النبوة لم يجرؤ أحد من الكفار أن يتهمه بالكذب والخيانة، كما جاء في القرآن الكريم: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ)<sup>3</sup> مع شدة مخالفتهم له وحرصهم على معارضته، وإنما لجأوا إلى حيل أخرى ككونه مجنوناً أو شاعراً وغيرهما (وَيَقُولُونَ أَيَّنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)<sup>4</sup>

وخير شاهد على صدق النبي ﷺ وأمانته خطبة الصفا، لما خاطب قومه وقال: (لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً)<sup>5</sup> ولم يكذبوه.<sup>6</sup>

كما يجب أن يكون الخطيب على قاعة تامة بما يدعو إليه، حتى يستطيع أن يقنع المسلمين ويؤثر فيهم.

ويظهر لنا شدة ثقة النبي ﷺ بدعوته في حين لما أطعمه الكفار في مكة بكل ما لديهم من السيادة والأموال حتى يتمكنوا منه أن يتنازل عن رأيه، لكن لم يستطيعوا ذلك.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> سورة القلم: 4

<sup>2</sup> المستدرک علی الصحیحین، رقم الحديث: 4221

<sup>3</sup> سورة الأنعام: 33

<sup>4</sup> سورة الصافات: 36

<sup>5</sup> صحيح مسلم، رقم الحديث: 307

<sup>6</sup> الجوانب الإعلامية في خطب الرسول، ص 123

<sup>7</sup> سيرة ابن هشام، 130/2

وكذلك نرى النبي ﷺ أنه لما رأى الضعف في عمه أبي طالب عن حمايته، قال له: (يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)<sup>1</sup>

فهذا الجواب كان نتيجة عن شدة تأثيره بدعوته، ويقينه في ربه، واعتماده على نصرته. وهذا ما أدى إلى شدة تأثيره في السامعين، وإيقانه إياهم بدعوته، وتثبيتهم على الدين الجديد.

ومن أمثلة شدة تأثيره في السامعين، اعتراف المشركين أنفسهم أنه لم يؤمن أحد بهذا الدين (أي الإسلام) ثم فارقه. فنرى الحوار الذي بين قيصر وأبي سفيان، وأحد الأسئلة التي سألها قيصر: (أخبرني عن صحبه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه؟) فأجاب أبو سفيان: ما صحبه رجل ففارقه.<sup>2</sup>

وكذلك يجب التوافق بين عمل الخطيب وقوله، إذ الناس يشاهدون عمل الخطيب بدقة النظر، فامتثال الخطيب بأحكام الإسلام أدعى أن يجعل كلامه مقبولاً عند الناس، وإلا لا يتقون بكلامه.

كما ورد الذم في القرآن عمن يأمر الآخرين بعمل لا يأتيه، وينهى عن عمل ويأتي مثله. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾<sup>3</sup> وقال أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾<sup>4</sup>

فالخطيب الذي يدعو الناس بالقول والعمل، يصير مؤثراً أشد التأثير، تجتمع حوله الأفئدة وتحوم حوله النفوس. فيبين لنا رسول الله ﷺ حال من خالف قوله فعله في

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 101/2

<sup>2</sup> سيرة ابن كثير، 494/3

<sup>3</sup> سورة البقرة: 44

<sup>4</sup> سورة الصف: 2-3

صورة مخيفة رهيبة: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية)<sup>1</sup>

كما كان النبي ﷺ يستفتح خطبه بالتحميد والتمجيد كذلك كان يختتمها إما بدعاء كخطبته التي ألقاها عن الأنصار وقال في الأخير (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)<sup>2</sup> أو بسلام كخطبة حجة الوداع التي ختمها ب(والسلام عليكم ورحمة الله)<sup>3</sup> أو يقول: "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

لقد وضع النبي ﷺ هذا الشكل الجديد للخطابة وطبقها مدة طويلة، واتبعه أصحابه- رضي الله عنهم- الذين كانوا يتبعونه في كل شيء، فقلد الخطباء والعلماء والدعاة بعد عصر صدر الإسلام هذه العادة في خطبهم حتى اليوم.

تعيين الأوقات: كانت الخطابة في العصر الجاهلي محدودة الاستعمال. وكان استعمالها ينحصر فيما يواجهه العرب من الحروب والمنافرات وغيرها من الأحوال.

ولما جاء الإسلام ازدهرت الخطابة ازدهارًا عظيمًا، ولهذا الازدهار أسباب منها أن الخطابة لم تكن جزءًا من حياة العرب، وإنما الشعر يحلّ هذه المنزلة. أما الخطابة فقد كانت وسيلة دفع بعض الحوائج.

فاهتم الإسلام بالخطابة ورفع منزلتها وجعلها جزءًا لازمًا من حياة المسلمين. وقرّر العرب خطبًا أسبوعية كخطب الجمعة وخطبًا سنوية كخطب الأعياد ومواسم الحد.

ففي صلاة الجمعة يجتمع المسلمون في المساجد ويقوم الخطباء قبل الصلاة بإلقاء خطبتين؛ الأولى قصيرة وتتضمن تلاوة آي من القرآن الكريم والتوجيه إلى الله تعالى

<sup>1</sup> مسلم، رقم الحديث: 2989

<sup>2</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 11748

<sup>3</sup> العقد الفريد، 413/2

بالأدعية، فيما تكون الثانية طويلة يتناول فيها الخطيب قضايا تمس حياة المسلمين السياسية والاجتماعية والدينية والخلقية.

وكذلك خطب الأعياد ومواسم الحج.

ومن الواضح أن ذلك يساعد كثيرًا على ازدهار فن الخطابة ويسهم إسهامًا كثيرًا في توسيع ميادينه.<sup>1</sup>

تأثير الحديث في لغة الخطابة: إن لهذا الأثر ناحيتين:

أ- إن الحديث أضاف إلى اللغة ثروة من المعاني، والأساليب، التي كانت تعدّ من النبي ﷺ ابتداءً وابتكارًا مثل قوله: "حي الوطيس"<sup>2</sup> و"المضعف أمير القوم"<sup>3</sup> و"مات حتف أنفه"<sup>4</sup> و"هدنة على دجن"<sup>5</sup> و"لا ينتطح عنزان"<sup>6</sup> و"رويدك رفقًا بالقوارير"<sup>7</sup>.

ب- ولأن الحديث هدّب اللغة تهذيبًا قريبًا من تهذيب القرآن الكريم إذ سهّل ألفاظها ورقق أساليبها وذهب بالحوشي منها، فكان لكل هذا أثره في الخطابة لأنها شعبة الأدب الأولى في ذلك العصر، بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره.<sup>8</sup>

ترطيب الخطيب لسانه بأحاديثه والاستشهاد بها: إن كثيرًا من الخطباء كانت ترطب ألسنتهم في خطبهم بشيء مما أثر عن الرسول ﷺ تيمناً بقوله، واسترواحًا للسامعين وليكسبوا كلامهم روعة، وليستشهدوا بكلام الرسول ﷺ على صحة ما يدعون، وإذا علمت أن أكثر الخطب في ذلك العصر، كانت تدور على مبادئ الدين قوامها، علمت مقدار عنايتهم برواية أحاديث رسول الله ﷺ، والاستشهاد بها في خطبهم، فإن

<sup>1</sup> الأدب العربي (من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي)، ص 331

<sup>2</sup> مسلم، رقم الحديث: 1775

<sup>3</sup> المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 110/2

<sup>4</sup> المستدرک على الصحيحين، 182/2

<sup>5</sup> سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 4244

<sup>6</sup> كنز العمال، 682/12

<sup>7</sup> النهاية في غريب الحديث، 659/2

<sup>8</sup> الخطابة، أصولها وتاريخها، ص 263

الحديث إذا صحّ عندهم كان فيه فصل الخطاب، واعتقدوا أن الخطيب بروايته يصيب محض الصواب.<sup>1</sup>

اللين والرفق: من الصفات التي يجب على الخطيب أن يتحلّى بها اللين والرفق مع مخاطبيه، لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فأسلوب الرفق واللطف أدعى إلى استمالة السامعين وإقناعهم، أما أسلوب الشدة والعنف والغلظة فلا جدوى له في الواقع، وهذا ما يأمر الله به نبيه محمدًا ﷺ بقول: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ).<sup>2</sup>

وقال جل وعلا أيضًا: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)<sup>3</sup>

والرسول ﷺ يقول: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه)<sup>4</sup> ويقول: (المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)<sup>5</sup>

فتؤكد الآيات والأحاديث أن أسلوب الفضاظة والخشونة سبب لإعراض الناس وتوحشهم، وأسلوب اللين والتودد سبب المحبة والأنس والألفة، لأن الناس ينفرون بطبائعهم من الفضاظة والخشونة والعنف ويألفون الرقة واللين والرفق.<sup>6</sup>

تطويل الخطبة وتقصيرها: إن مسألة تطويل الخطبة وتقصيرها مسألة نسبية، تتوقف على أحوال السامعين وظروفهم، فالخطيب الماهر هو الذي يعين مقدار الخطبة من حيث الطول والقصر، ملاحظًا أحوالهم وظروفهم.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> المصدر نفسه

<sup>2</sup> سورة آل عمران: 159

<sup>3</sup> سورة الأعراف: 199

<sup>4</sup> مسلم، رقم الحديث: 2594

<sup>5</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 22891

<sup>6</sup> خمسون وصية ووصية لتكون خطيبًا ناجحًا، ص 7

<sup>7</sup> خصائص الخطبة والخطيب، ص 164

فإذا رأى الخطيب من المخاطبين إديارًا وإعراضًا، أو وجد جمهورهم من البسطاء والعوام الذين لا يستطيعون متابعة الخطيب ذهنيًا فينبغي له أن يجتنب عن الإطالة.<sup>1</sup> وهذا ما نجد في أحاديث الرسول:

(عن أبي وائل قال: خطبنا عمّار فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفست؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحراً)<sup>2</sup>

(وكان عبد الله بن مسعود يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أي أكره أن أملككم، وإني أخو لكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا)<sup>3</sup>

لذا نرى أن خطب الرسول ﷺ لم تكن جميعها على نسق واحد من حيث طولها أو قصرها، فثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقرأ سورة ق كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس<sup>4</sup> ولا ريب في أن قراءة سورة ق التي تعدّ خمسًا وأربعين آية، تحتاج بقراءة رسول الله ﷺ وفق أحكام التجويد والتلاوة إلى مدة لا بأس بها من الزمن تضمّ إلى سائر مدة الخطبة.<sup>5</sup>

هذا ما يشير إليه الجاحظ: "واستعمل (النبي) المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر".<sup>6</sup>

التكرار وحسن البيان: التكرار نوعان: تكرار ممدوح وتكرار مذموم.

<sup>1</sup> مرشد الخطيب، ص 49

<sup>2</sup> مسلم، رقم الحديث: 869

<sup>3</sup> البخاري، رقم الحديث: 70

<sup>4</sup> مسلم، رقم الحديث: 1442

<sup>5</sup> خصائص الخطبة والخطيب، ص 164-165

<sup>6</sup> البيان والتبيين، 221/1

فالتكرار المذموم ما يكون بتكرار الكلمات أو إعادة العبارات نفسها. وهذا النوع يملّ الإنسان ويصيبه الضجر.

أما التكرار الممدوح فلا يكون بتكرار جمل معينة حرفاً بحرف، وإنما يكون بالأسس التي يعرض الخطيب من خلالها مضمون الخطبة. وفائدة هذا الأسلوب الإيضاح والتأكيد. وتزداد قيمته إذا كان مختلف الأشكال متنوع الصور.

يقول صاحب الكشاف في أهمية التكرار عند تفسير قوله تعالى: (المثاني):

"هذا بيان كونه متشابهاً لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة، والمثاني جمع مثنى بمعنى مردود ومكرّر لما ثني من قصصه وأنبأه وأحكامه ونواهيته ووعده ووعيدته ومواعظه ---

ثم بيّن فائدة التكرار أن النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله.

ثم استدل - رحمه الله - بنصح النبي ﷺ ثلاث مرات وسبعاً، وبيّن سرّ هذا التكرار أنه كان لتركيّز الوعظ في قلوب السامعين وغرسه في صدورهم.<sup>1</sup>

وحسن هذا النوع في كونه متجدد العبارات، متنوع الأساليب، أحياناً بالاستفهام وأحياناً بالتنبيه وأحياناً بالتقرير وأحياناً بالترغيب والترهيب وغيرها من الأساليب البلاغية.

فترى أن النبي ﷺ كان يكرّر موضوعاً واحداً خلال ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وهو (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).<sup>2</sup>

فهل كان عليه الصلاة والسلام يكرر هذه الجملة فقط طوال هذه المدة الطويلة؟ والجواب: لا. ومثل هذا التكرار آفة تمل الإنسان.

<sup>1</sup> تفسير الكشاف، 3/395

<sup>2</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 16066

في القرآن الكريم الكثير من هذا النوع. ومن ذلك تقرير التوحيد وقصص الأنبياء وأحداث القيامة.

وهناك نوع آخر من التكرار وهو تكرار الكلمات الرئيسية أو الهامة: فإذا مرّ الخطيب بهذه الكلمات فله أن يكررها حتى تثبت في قلوب السامعين.<sup>1</sup>

ونجد هذا الأسلوب من التكرار في عدة مواضع: في سورة الرحمن وفي سورة القمر، وفي سورة المرسلات والقارعة.

أمثلة تطبيقية: قال الله تعالى: (الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَزْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝)

ومثاله من الحديث قوله ﷺ وهو على المنبر (أن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة مني ويريبني ما أراها ويؤذيني ما آذاها)<sup>3</sup>

فقوله (لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن) من التكرير الذي هو أشدّ موقعاً من الإيجاز لانصباب العناية إلى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه من التزوج بابنة أبي جهل بن هشام.<sup>4</sup>

وكذلك في حديث الرسول ﷺ (التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات)<sup>5</sup>، كما في حديث قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن). قيل ومن يا رسول الله؟ قال (الذي لا يأمن جاره بوائقه)<sup>6</sup>

<sup>1</sup> الجوانب الإعلامية في خطب الرسول، ص 120

<sup>2</sup> سورة القارعة: 1-3

<sup>3</sup> البخاري، رقم الحديث: 4932

<sup>4</sup> المثل السائر، 2/150

<sup>5</sup> مسلم، رقم الحديث: 2564

<sup>6</sup> البخاري، رقم الحديث: 5670

فهذا التكرار له غرضه وفائدته كالتأكيد والتحذير والتهويل، فلا يعدّ عيبًا من عيوب الكلام.

تغيير نبرة الصوت: من أسباب ضعف التأثير، وتطرق الليل والسّامة إلى السامعين أن يتحدث الخطيب بطبقة رتيبة على وتيرة واحدة.<sup>1</sup>

عندما الخطيب نفسه كذلك فليبحث عن أي جملة مناسبة لتغيير من خلالها نبرة صوته بما يتوافق مع أسلوب الجملة.

التوقف قبل وبعد الأفكار المهمة: الخطابة فن يستطيع به الإنسان طريقة إبلاغ أفكاره في أحسن صورة، ثم طريقة التأثير في سامعيه وحملهم على العمل بما يريد من خطبته.

ومن المميزات التي تجعل الخطيب ناجحًا، والخطبة مؤثرة، وقوف الخطيب بعد كل فكرة هامة، يريد تركيزها في أذهان المستمعين، فعليه إذاً أن يصمت بعد كل فكرة مهمة ما يجعل السامعين متنهين ومتوجهين إلى كل ما سيأتي بعد هذا الصمت المفاجئ.

إن دراسة خطب الرسول ﷺ تكشف أنه ﷺ كان يستخدم أسلوب الصمت المفاجئ وفي التالي أتناول بعض الأمثلة التطبيقية:

الأمثلة من الحديث: (عن أبي بكر رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: أتدرون أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى، قال فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم)<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> الخطابة وإعداد الخطيب، ص 43

<sup>2</sup> البخاري، رقم الحديث: 4144

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرجل فقال: يا معاذ بن جبل! قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل! قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل! قلت لبيك رسول الله وسعديك. قال هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعة قال: يا معاذ بن جبل! قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعدّهم<sup>1</sup>

فالتوقف إذا جاء على وجه دون تكلف وتصنع، يزيد الخطبة قوة وتأثيراً. أما التكلف فهو يزري بالخطبة ويذهب بحسنها وجمالها.<sup>2</sup>

أسلوب الحوار: إشراك الجمهور في العملية الاتصالية: هناك أساليب أخرى يجب أن يصطنعها الخطيب ليظفر باجتناب انتباه السامعين، لأن الخطيب مهما كانت خطبته حسنة العبارات والأسلوب، إلى أن لم يستطع أن يشدّ انتباههم ويربطهم به، فلن يتابعوا أفكاره ويشاركوا معه في انفعالاته وعواطفه.

من هذه الأساليب أسلوب الحوار، وأثبتت الدراسات أنه أسلوب إعلامي رفيع المستوى، وله دور في جذب انتباه المخاطبين، ودفعهم إلى قبول الأفكار، واستثارة العقل والوجدان.

ولقد كشف التحليل الإعلامي لخطب النبي أن من أهم دلالات هذه الخطب استخدام الرسول ﷺ لأسلوب الحوار والإقناع المشترك في خطبة الصفا،<sup>3</sup> يقول: (أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي)<sup>4</sup>

وكذلك قوله في حجة الوداع: ألا هل بلّغت، قالوا: نعم، قال ﷺ: اللهم اشهد.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> مسلم، رقم الحديث: 30

<sup>2</sup> خمسون وصية ووصية لتكون خطيباً ناجحاً، ص 10

<sup>3</sup> الجوانب الإعلامية في خطب الرسول، ص 114

<sup>4</sup> البخاري، رقم الحديث: 4397

<sup>5</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 4141

الحركات والإشارات: الحركات والإشارات جزء هام من حياة الإنسان، ولا يمكن له الاستغناء عنها، فإنه مهما كان هادئاً يحرك إما يده أو رأسه أو منكبيه، أو عيونه أو حواجبه، وهي أداة من أدوات التعبير.<sup>1</sup>

وفي هذا يقول الجاحظ:

"وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة --- وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من حالات السكون والمكان والشكل والتفتل والتثني ---".<sup>2</sup>

الحركات والإشارات تتولد من انفعال الخطيب بما يقول ويلقي على السامعين، فالخطيب الذي يكون هادئاً أثناء إلقائه، فهو كأنه لم ينفعل بكلامه نفسه، فكيف يتوقع من خطبته أن ينفعل بها السامعون.<sup>3</sup>

الأمثلة من الحديث: عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى ويقول: أما بعد! فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلال ---".<sup>4</sup>

عن أنس بن مالك قال: صَلَّى لَنَا النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَقِيَ الْمَنْبَرُ فَأَشَارَ بِيَدَيْهِ قَبْلَ قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ قَالَ: "لَقَدْ رَأَيْتَ الْآنَ مَنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمْ الصَّلَاةَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مُمَثِّلَتَيْنِ فِي قِبْلَةِ هَذَا الْجِدَارِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ثَلَاثًا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>5</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَرَأَ (إِنْ

<sup>1</sup> خصائص الخطبة والخطيب، ص 275

<sup>2</sup> البيان والتبيين، 56/1

<sup>3</sup> مرشد الخطيب، ص 15

<sup>4</sup> مسلم، رقم الحديث: 716

<sup>5</sup> البخاري، رقم الحديث: 716

الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) إلى قوله (سميعةً بصيرةً) قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتي تلمها على عينه<sup>1</sup>

كما ينبغي للخطيب التجنب عن الإسراف في الحركات والإشارات حتى لا يكون موضع سخرة وهزاء، لذا نرى أن الصحابة والتابعين يكرهون الإسراف فيها، ويعدونه خروجًا عن سنة رسولنا ﷺ.

عن حصين بن عبد الرحمن أن عمارة بن رؤيبة رأى بشر بن مروان على المنبر رافعًا يديه فقال: قبّح الله هاتين اليدين لقد رايت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا، وأشار بإصبعه المسبحة<sup>2</sup>.

أسلوب تحويل الانتباه: من أساليب الإقناع المهمة "أسلوب تحويل الانتباه" وهذا يعني انتباه السامعين من المشاكل والعوائق إلى الفرص. يستخدم هذا الأسلوب لتثبيت أقدام المخاطبين، ويمنعهم من الفشل وذهاب الريح.

وسيرة رسولنا ﷺ حافلة بهذا الأسلوب، فنجده ﷺ مثلًا في غزوة بدر يحوّل انتباه الصحابة من قلة قوة مادية إلى كثرة قوة معنوية كانوا يتمتعون بها، وهي كونهم على الحق في سبيل الله. فحوّل ﷺ انتباههم من قلة زادهم إلى كثرة فضل ربهم، ومن قهر الأعداء إلى غلبة الله، ومن متاع الدنيا إلى سعادة الآخرة، وحوّلهم من اللجوء إلى الأسلحة والتوكل عليها إلى ملجئ الله والتوكل عليه<sup>3</sup>.

أسلوب إحكام الاتصال والتزام بث الحقائق والبعد عن الهجاء الجاهلي: لقد كان مجتمع العرب قبل الإسلام هو مجتمع المفاخرة والمنافرة بالحق أو بالباطل، وكان الشعر فيه للمدح والهجاء أكثر من الأعراض الأخرى، وعندما جاء الإسلام علم الرسول ﷺ فن الاتصال بالناس، فبينما كانت المفاخرة والمنافرة في صفوف المشركين يوم بدر قد أخذت حيزًا كبيرًا من اتصالهم بالناس كان الرسول ﷺ أبعد الناس عن

<sup>1</sup> سنن أبي داؤود، رقم الحديث: 4728

<sup>2</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 1104

<sup>3</sup> الجوانب الإعلامية في خطب الرسول، ص 120

الهجاء السياسي وهو يقوم بالإعداد المعنوي لجند الإسلام في بدر، ويوم فتح مكة دخل الرسول ﷺ خاشعاً لله حامداً شاكراً لنعم ربه عليه، هذا الأسلوب هو غاية ما يطمح إليه رجال الإعلام والتصال بالجماهير<sup>1</sup>.

• أثر الحديث النبوي في القصص العربية

1. تطهير القصة الإسلامية من الموضوعات الخرافية: كانت للعرب قصص نسجت حول أوابدهم- والأوابد هي الأمور التي كانت العرب عليها في الجاهلية- بعضها يجري مجرى الديانات وبعضها يجري مجرى الاصطلاحات والعادات وبعضها يجري مجرى الخرافات --- وهي عدة أمور: الكهانة والزجر والطيرة والميسر والأزلام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وإعلاق الظهر ورمي البعرة وواد البنات والهامة وتأخير البكاء على الميت للأخذ بثأره والغول وضرب الثور لتشرب البقر وتعليق سن الثعلب وسن الهرة وتعليق الحلبي على السليم وكى السليم ليبراً الأجرى ورمي سن الصبي المثغر في الشمس ---".

وهي سميت بالأوابد لأنها شاعت، وتداولها الناس، فعاشت بينهم أفعالاً وكلاماً، وظنها العرب أبدية العيش فسموها الأوابد، ثم جاء الإسلام فندسخها، فلم يبق منها غير القصص التي نسجت للكشف عن أصولها.

ومن أعاجيب أخبارهم في ذلك أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة المخزومي، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت يوماً فاضطجع الفاكه هو وهند فيه، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه فلما رآها ولى هارباً وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهي نائمة فتنهت. فقال: من ذا الذي خرج من عندك. فقالت: لم أر أحداً وأنت الذي أنهيتني. فقال لها: اذهبي إلى بيت أبيك فأقبي عنده! وتكلم الناس فيها. فقال له

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 121-122

أبوها: إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهّان اليمن، فخرجنا في جماعة من قومها إلى كاهن من كهّان اليمن ومعهما هند ونسوة آخر، فلما شارفوا بلاد الكاهن، قالت هند لأبيها: إنكم تأتون بشرًا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمّي ميسمًا يكون عليّ سبة. فقال أبوها: سأختبره لك فصقّر لفرسه حتى أدلى، فأدخل في إحليله حبة حنظلة وقد شدّ عليها بسير، فلما دخلوا على الكاهن، قال له عتبة: إنا قد جئناك في أمر وقد خبأت لك خبأً أختبرك به فانظر ما هو فقال ثمره في كمره. فقال أريد أبين من هذا، فقال: حبة بر، في إحليل مهر. فقال له: انظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول انهضي حتى دنا من هند فقال لها: انهضي غير رسحاء، ولا زانية ولتلدن مليكًا اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت بيدها من يده. وقالت: إليك عني! فوالله لأحرص على أن يكون من غيرك، فتزوّجها أبو سفيان ابن حرب فولدت له معاوية، فكان من أمره ما كان إلى أن انتهت به الحال إلى الخلافة، وقد أخبر جماعة من الكهنة بمبعث النبي ﷺ قرب ظهوره منهم سطيح الكاهن وغيره.<sup>1</sup>

كانت للعرب قصص قبل الإسلام منها ما لم تكن تلائم التعليمات الإسلامية، فقال الإسلام بنسخها، ولم يبق منها إلا قليل، فهذا كان توجيهاً إيجابياً من قبل الإسلام أن يطهر الأدب الإسلامي من مثل هذه السلبيات، ووجهه إلى الإيجابية التي تعتمد على الواقعية والهدف.

2. أثر قصة الإسراء والمعراج على الأدب العربي: وقد كان لقصة (الإسراء والمعراج) أثر كبير في الأدب العربي وهذا الأثر يبدو في مظهرين؛ أولهما ما نجده من امتداد حديث المعراج في روايات متعددة، ظهرت عليها علامات الوضع والتزويد، ويرى فيها الاضطراب وأطلق واضعوها العنان لخيالهم إلى حد كبير، وقد ثار حولها كلام كثير من قبل المحدثين والمفسرين والمؤرخين، ولا شك أن هذه الروايات من

<sup>1</sup> صبح الأعشى، 1/454-455

وجهة النظر الأدبية تعتبر كسباً أدبياً لفن القصة في الأدب العربي، والمظهر الثاني الذي يبدو فيه أثر قصة (الإسراء والمعراج) في الأدب العربي أيضاً، هو (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري، التي تمثل رحلة خيالية إلى الجنة والنار، فلا شك أن قصة (المعراج) هي التي أوحى إليه بفكرة الرسالة، وما سجّله فيها من رحلة في عالم الغيب، ومقابلته لكثير من الشخصيات التي طواها الفناء، ومشاهدة بعض أحداث ذلك العالم الغيبي غير المنظور، وهذه عناصر تشترك فيها رحلة المعري مع حديث المعراج، فالمعراج رحلة إلى عالم غيبي، كان الرسول ﷺ في أثناء الرحلة وفي كل سماء يلتقي ببعض الأنبياء ويتحدثون معه ﷺ، كما أنه شاهد بعض أحداث ذلك العالم.

وقد أثر (المعراج) أيضاً في بعض متصوفة الأدب العربي كمحيي الدين بن عربي الأندلسي، حيث نجده في الفتوحات المكية يذكر العرش والسدره، وأنوار الجليل تبارك وتعالى. وكذلك أبو زيد البسطامي كانت له رحلة روحية تخيل أنه قام بها إلى السماء، وهو يبدوها بأنه رأى في المنام كأنه عرج به إلى السماوات ---<sup>1</sup>.

3. التنوع في الموضوعات: إن النبي ﷺ تناول في قصصه موضوعات عديدة، وقد أحصى البعض عدداً كبيراً من القصص في الحديث النبوي ما يبلغ عددها إلى 139 نصّاً تختلف في عرضها، مجردة عن التكرار وتعدد الروايات.<sup>2</sup>

هذه القصص النبوية هي ثروة عظيمة أثرت في القصة العربية والإسلامية من ناحية، وفي الأدب العربي من ناحية أخرى.

4. الهدف: القصة النبوية تعطينا في هذا المجال مثلاً حياً على أن الأدب الإسلامي أدب موجه، وهي قيمة نقدية يجب أن تأخذ مكانها اللائق في مجال النقد الأدبي

<sup>1</sup> القصص في الحديث النبوي، ص 270-271

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 271-272

في مجال القصة بخاصة. كما يجب أن ينظر إليها قصاصونا المسلمون بعين الاعتبار والأهمية.<sup>1</sup>

5. الواقعية: الواقعية في القصة النبوية تعني أنها تخبر عن أمور حدثت، وشخصيات وجدت، وأنه ليس فيها اختراع للشخصيات، أو تليفق للحوادث، وهي واقعية في طريقة تناولها للموضوعات، وعرضها للشخصيات. وقد تجلت فيها أكثر ملامح الواقعية في القصة القرآنية، فهي واقعية مثالية، حيث تعرض لنا لحظات الهبوط التي تلم بالإنسان، ولكنها لا تقف عندها طويلاً، بل تصور لنا الإنسان وقد ارتقى وسما بعد هبوطه. وهذا ما نجده في قصة (ثلاثة كانوا في كهف فوق الجبل على باب الكهف)<sup>2</sup> وقد ظهر عليها عندما همّ بها الخوف من الله عزّ وجل، فعفّ عنها وترك لها المال الذي أعطاه إياها.<sup>3</sup>

6. الوسيلة النظيفة: كانت القصة وهي تلم بلحظات الضعف عند الإنسان وتصورها، تستعمل وسيلة نظيفة تستطيع بها أن تنقل تلك اللحظة وتعبّر عنها، ولكن دون أن ينزل التعبير نفسه، أو تنزل القصة ذاتها إلى مستوى تلك اللحظة الهابطة، ومن أجل ذلك تختار القصة طريقة مناسبة في التعبير والعرض تحقق لها الوسيلة النظيفة السامية ينشدها منهج الفن الإسلامي، ونستطيع أن نتبين مظاهر هذه النظافة في القصة النبوية في أكثر من أسلوب:

- استعمال القصة للألفاظ والعبارات العفيفة عند عرض موقف الفاحشة، ولحظات الجنس، واستعمال الكنايات المناسبة، وتفضيلها على العبارات الصريحة المكشوفة، وقد نجحت القصة في هذا برغم ما في موضوعات

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 270

<sup>2</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 17691

<sup>3</sup> خصائص القصة الإسلامية، ص 229

الجنس من حرج شديد، واستطاعت أن تفي بالغرض الموضوعي والفني من خلال وسيلة رشيعة، كما نجد مثلاً في قصة (الكفل) مثل هذه العبارة (---) على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته (---)<sup>1</sup> وكذلك في قصة (الرجل والمرأة) حيث يقول وهو يراود المرأة عن نفسها: (لا والله ما هو دون نفسك) وقوله يصف حاله معها: (فلما تكشفتها)<sup>2</sup> ونجد هذه العفة في العبارة في قول المرأة نفسها وهي تخاطب الرجل حول هذا الموقف الجنسي (اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه).<sup>3</sup>

- ونجد أن القصة النبوية تهمل أيضاً وصف محاسن المرأة، وتصوير مفاتها، وما هي عليه من إغراء، يثير تليذ المتابع للقصة بمشاهدة الجنس المنحرفة.
- كما نلاحظ أنه يمرّ سريعاً بمواقف الضعف والهبوط، ولا يقف عندها طويلاً؛ لأنها لا تستحق ذلك، ولا تستأهله، وهي ليست سوى عارض من عوارض الحياة لا يلبث الإنسان أن يفيق منه، ويستعلي عليه.
- وعلى العكس من ذلك يقف طويلاً عند لحظة الإفاقة والارتفاع والسمو، لأنها جديرة في نظره بالوقوف الطويل أمامها، والإعجاب بها، وتركيز الإضاءة عليها، لأنها اللحظة اللائقة بالإنسان.<sup>4</sup>

### • أثر الحديث النبوي في الأمثال العربية

وإذا تأملنا الأمثال النبوية وجدنا التنوع فيها كصفة ظاهرة. فقد نوع النبي ﷺ في المثل كله: في ممثله، وموضوعاته، وأسلوبه، وأقسامه. وفي التالي نتناول كلاً منها بالترتيب:

<sup>1</sup> الترمذي، رقم الحديث: 2420

<sup>2</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 17691

<sup>3</sup> صحيح البخاري، رقم الحديث: 3206

<sup>4</sup> القصص في الحديث النبوي، ص 380-382

1. التنوع في الممثل: فقد نَوَّع النبي ﷺ في الممثل وضارب المثل نفسه، فتارة أسند ضرب المثل إلى نفسه، كما ورد في صحيح البخاري: "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال النبي ﷺ مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة".<sup>1</sup>

وتارة أسند ضرب المثل لله عزَّ وجلَّ كما ورد في سنن الترمذي:

"عن النوَّاس بن سَمْعَانَ الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كنفى الصراط زوران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كنفى الصراط حدود الله فلا يقع أحدٌ في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعط ربه".<sup>2</sup>

وتارة أسند ضرب المثل للملائكة كما في حديث البخاري:

"جابر بن عبد الله يقول جاءت الملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة فقالوا أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله ومحمدٌ فرق بين الناس تابعه قتيبة عن ليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال عن جابر خرج علينا النبي ﷺ".<sup>3</sup>

<sup>1</sup> البخاري، رقم الحديث: 3270

<sup>2</sup> سنن الترمذي، رقم الحديث: 2859

<sup>3</sup> البخاري، رقم الحديث: 6737

وتارة حكى ضرب المثل عن نبي من الأنبياء محاكيتة عن يحيى عليه السلام:

"إن الله أمر يحيى بن زكريا كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وإنه كاد أن يبطلها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما تأمرهم وإما أن أمرهم فقال يحيى أخشى أن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعدب فجمع الناس في بيت المقدس فامتألاً المسجد وعدوا على الشرف فقال إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيتكم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ---"<sup>1</sup>

2. التنوع في الممثل: الدراسة العميقة للأدب النبوي تكشف لنا عن المواهب الأدبية الإبداعية التي كانت يتمتع بها سيدنا ﷺ. فقد نوع النبي ﷺ في الممثل، وضرب المثل لعدد كبير من الأشياء. فضرب المثل للمسلم المؤمن، فمثله تارة بالفرس وقال: "مثل المؤمن كمثل الفرس على أخيته يجول ثم يرجع إلى أخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان"<sup>2</sup>. ومثله بالنحلة تارة أخرى فقال: "مثل المؤمن كمثل النحلة إن أكلت أكلت طيباً وإن وضعت وضعت طيباً وإن وقعت

<sup>1</sup> الترمذي، رقم الحديث: 2790

<sup>2</sup> مسند أحمد، رقم الحديث: 10907

على عود نخر لم تكسره<sup>1</sup> وتارة مثله بسبيكة الذهب وقال: "مثل المؤمن مثل سبيكة الذهب إن نفخت عليها احمرت وإن وزنت لم تنقص"<sup>2</sup>.

وكان هذه الأمثال تتناول جميع أفراد المجتمع والأمة، فضرب المثل لنفسه ولأنبياء وضرب للناس، وللمسلمين واليهود والنصارى ولأمة المسلمة والقائم على حدود الله والأمرء والجلس الصالح والجلس السوء وضرب المثل للمؤمن والفاجر، والمؤمن الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرأ والمنافق الذي يقرأ والذي لا يقرأ والمنافق وللصلوات الخمس وللمصلي الذي لا يتم ركوعه وللبخيل والمنفق والذي يعتقد عند الموت ويتصدق.

وكذلك ضرب المثل لأمته وهم يركبون البحر، ولصوم المتطوع، والمجاهد وللذاكر ولابن آدم والذي يتبع السيئات بالحسنات والهدى الذي جاء به. ----- والبيت الذي يذكر فيه الله والقلب والذي يعين قومه على غير الحق والكاتم العلم ومعلم الناس الخير والناس نفسه، والذي يتصدق ثم يرجع.

3. التنوع في موضوعات المثل: فقد نوع النبي ﷺ في موضوع المثل، وخصب المثل بمواضيع متنوعة وأغراض عديدة لم يسبقه أحد فيها، من أمور العقيدة والعبادة، والأخلاق والزهد والدعوة وغير ذلك.

وفي التالي نقدّم بعض النماذج التي ساقها:

- عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "مثلي ومثل ما بعثني الهه كمثل رجل أتى قومًا فقال رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاه النجاه فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلم فنجوا وكذبته طائفة فصبّحهم الجيش فاجتاحهم"<sup>3</sup>.
- "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النار وهم يفتحمون فيها"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> كز العمال، رقم الحديث: 735

<sup>2</sup> المصدر نفسه

<sup>3</sup> البخاري، رقم الحديث: 6001

<sup>4</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 6002

4. التنوع في الأسلوب: فقد نوع النبي ﷺ في أسلوب العرض وطريقة ضرب المثل، فاتخذ لضربه طرقاً متعددة، وأساليب مختلفة. فمن تلك الأساليب استخدام الإشارة التي تستعمل السامعين وتساعدهم على الفهم. وفي هذا الأسلوب تشترك أكثر حاسة في عملية التعليم، فالمخاطب يرى الإشارة، ويسمع العبارة، فيكون ذلك أدمى للتذكر. والمثال لهذا الأسلوب ما ورد في صحيح البخاري في الحديث الذي أشار فيه النبي ﷺ بإصبعيه مؤكداً قرب بعثته لقيام الساعة:

ومن ذلك أيضاً استعانتته بالرسم التوضيحي كوسيلة من وسائل التعليم والإيضاح، عندما تحدث عن قضية طول أمل الإنسان، وأجله الذي يحيط به:

"عن عبد الله رضي الله عنه قال خطَّ النبي ﷺ خطاً مربّعاً وخطَّ خطاً في الوسط خارجاً منه وخطَّ خطاً صغيراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال هذا الإنسان وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به وهذا الذي هو خارج أمله وهذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا".<sup>1</sup>

ومثال آخر يدل على استعانتته بالرسم التوضيحي، هو لما تكلم عن قضية اتباع سبيل الله وصراطه المستقيم والتحذير من سبيل الشيطان الأخرى:

"عن جابر بن عبد الله قال كنا عند النبي ﷺ فخطَّ خطاً وخطَّ خطين عن يمينه وخطَّ خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية: "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ"<sup>2</sup>.

5. التنوع في أنواع المثل: فقد نوع النبي ﷺ في أقسام المثل، وكان ذلك أثراً مباشراً للقرآن فيه، لأنه كان متأثراً به أشدّ التأثر.

من مختلف الأمثال المثل القياسي الذي لا يكاد يوجد في مدونات الأمثال العربية القديمة، لكنه موجود بكثرة في القرآن والحديث النبوي،<sup>4</sup> ومن أمثاله:

<sup>1</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 5938

<sup>2</sup> سورة الأنعام: 153

<sup>3</sup> سنن الترمذي، رقم الحديث: 11

<sup>4</sup> الموسوعة العربية العامة، 697/1

"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً.

وقد حرص النبي ﷺ على ضرب المثل في الأحداث والمواقف المتعددة لأهداف تربية، ففي بعض المواقف كان يكفيه أن يردّ ردّاً مباشراً لكنه أثر ضرب المثل لما يحمله من توجيه تربوي وسرعة في إيصال المعنى المراد وقد لا يؤدي غيره دوره في هذا المقام، فيراه الصحابة مرة نائماً على حصير وقد أثر الحصر في جنبه فيقولون له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال: ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"<sup>1</sup> حتى المشاهد التي تمر في حياة الناس، فلا يلتفتون إليها، ولا يلقون لها بالألّا يجد فيها أداة مناسبة للتوجيه والتعليم وضرب الأمثال بها، يمرّ ومعه الصحابة على سخلة منبوذة فيقول لهم: أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها قالوا من هوانها ألقوها يا رسول الله قال فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها"<sup>2</sup>.

هذه الشواهد- وغيرها كثير- تؤكد مكانة الأمثال في السنة النبوية، واهتمام النبي بها، وضرورة الاعتناء بالأمثال النبوية جمعاً وتحليلاً ودراسة، والاستفادة المثلى منها في المناهج التعليمية والبرامج التربوية والدعوية.<sup>3</sup>

#### • أثر الحديث النبوي في الرسائل العربية

كانت الرسائل أضعف فنون الأدب العربي قبل الإسلام وأقواها بعد ظهوره. وهي مدينة للإسلام بكيانها وبنياتها وعناصرها. فالنبي ﷺ سنّ فيها سنناً، عمل بها الصحابة ثم بعدهم المسلمون.

<sup>1</sup> سنن الترمذي، رقم الحديث: 2299

<sup>2</sup> المصدر نفسه، رقم الحديث: 2243

<sup>3</sup> مقدمة حول الأمثال النبوية، ص 3

نوع النبي ﷺ الرسائل وخصَّها بأساليب عديدة في استفتاحها، وافتتاحها، وصدراتها، والسلام، والتحميد بعد السلام، والتشهد بعد التحميد، والتخلص إلى المقصود، وتحليتها بأي من القرآن الكريم، واختتامها بالسلام. وفي التالي نتناول أهم خصائص الرسائل النبوية، التي أعطت للرسالة هيكلها والتي ظلَّت فيما بعد مرجع علماء الأدباء والمسلمين:

استفتاح الكتب بالبسملة: كانت قريش قبل البعثة تكتب في أول كتبها أو رسائلها (باسمك اللهم) ولما جاء الإسلام أبطلها، واستفتح رسول الله ﷺ كتبه ب(بسم الله الرحمن الرحيم) وذلك بعد أن نزل قوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)<sup>1</sup> وصارت سنة بعده.<sup>2</sup>

وله- عليه السلام- أقوال كثيرة في أهمية البسملة، منها: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)<sup>3</sup> أي ناقصة البركة.

1. افتتاح الكتب: لم يقتصر النبي ﷺ في افتتاح كتبه على أسلوب واحد، وإنما استخدم عدة أساليب. فكان قد يفتح الكتاب بلفظ (من محمد رسول الله إلى فلان) وقد يفتح بلفظ (هذا كتاب).

واستخدم هذين الأسلوبين في كتبه إلى أهل الإسلام وأهل الشرك كليهما، مثل:

- رسالته إلى خالد بن الوليد (أهل الإسلام):

(من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا ----)<sup>4</sup>

- رسالته إلى هرقل (أهل الكفر):

<sup>1</sup> سورة النمل: 30

<sup>2</sup> صبح الأعشى، 6/211

<sup>3</sup> كشف الحفاة، 2/959

<sup>4</sup> البداية والنهاية، 5/98

- (من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد  
فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله ---)<sup>1</sup>
- وكرسالته إلى قبيلة همدان من اليمن:
- (هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف  
الرملم مع وافدها ذي المشعار لمالك بن نمط ---)<sup>2</sup>
- كرسالته مع رفاعة بن زيد إلى قومه:
- (هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد ---)<sup>3</sup>
- وأحياناً فافتتح بلفظ (سَلِّم أنت):
- ككتابه إلى المنذر بن ساوي:
- (سَلِّم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن من صلَّى صلاتنا  
واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ---)<sup>4</sup>
- كما افتتح بلفظ (أما بعد) وهذا أسلوب يخلو الابتداء والتصدير بالسلام  
والتحميد:
- ككتابه إلى أهل نجران:
- قال بعد البسملة (أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ---)<sup>5</sup>
2. صدارة الكتب: كان رسول الله ﷺ يأتي في صدور الكتب بالسلام. فكان يقول في  
خطاب المسلم (سلام عليك)<sup>6</sup> كما قال لخالد بن الوليد:

<sup>1</sup> تاريخ ابن خلدون، 1266/2

<sup>2</sup> صبح الأعشى، 1260/6

<sup>3</sup> سيرة ابن هشام، 296/5

<sup>4</sup> تاريخ الطبري، 145/2

<sup>5</sup> صبح الأعشى، 367/6

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 352/6

(من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ---)<sup>1</sup>

وربما قال: (السلام على من آمن بالله ورسوله)<sup>2</sup> كما كتب إلى بني نهد:

(من محمد رسول الله إلى بني نهد السلام على من آمن بالله ورسوله ---)<sup>3</sup>

وفي خطاب الكافر، كان يقول: (سلام على من اتبع الهدى)<sup>4</sup> كرسالته إلى كسر أبرويز ملك الفرس:

(من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ---)<sup>5</sup>

أو كرسالته إلى مسيلمة الكذاب أو إلى النجاشي:

وربما أسقط السلام من صدر الكتاب<sup>6</sup> كرسالته إلى صاحب مصر:

(من محمد رسول الله إلى صاحب مصر أما بعد فإن الله أرسلني رسولاً وأنزل عليّ قرآنًا ---)<sup>7</sup>

3. التحميد بعد السلام: كان قد يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السلام.

فيقول: (فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو)<sup>8</sup> ككتابه إلى خالد بن الوليد<sup>9</sup> أو

إلى المنذر بن ساوي.<sup>10</sup> وربما ترك التحميد ككتابه إلى بني نهد<sup>11</sup>

<sup>1</sup> البداية والنهاية، 98/5

<sup>2</sup> صبح الأعشى، 352/6

<sup>3</sup> المثل السائر، 166/1

<sup>4</sup> صبح الأعشى، 352/6

<sup>5</sup> البداية والنهاية، 306/6

<sup>6</sup> صبح الأعشى، 362/6

<sup>7</sup> المصدر نفسه، 364/6

<sup>8</sup> المصدر نفسه، 352/6

<sup>9</sup> البداية والنهاية، 98/5

<sup>10</sup> تاريخ الطبري، 145/2

<sup>11</sup> المثل السائر، 166/1

4. التشهد بعد التحميد: كان النبي ﷺ قد يأتي بعد التحميد بالتشهد أيضاً كرسالته إلى المنذر بن ساوي:
- (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أما بعد ---)<sup>1</sup>
- وقد لا يأتي به، ككتابه إلى خالد بن الوليد.<sup>2</sup>
5. التخلّص إلى المقصود: كان النبي ﷺ يتخلّص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بر(أما بعد) ككتابه إلى فروة بن عمرو:
- (من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو أما بعد، فقد قدم علينا رسولك ---)<sup>3</sup>
- وقد مرّت أمثلة غير هذا.
- وتارة قصد المقصود بغير (أما بعد) ككتابه إلى طهفة النهدي وقومه:
- (من محمد رسول الله إلى بني نهد السلام على من آمن بالله ورسوله ---)<sup>4</sup>
6. الاقتباس من القرآن: كما مرّ عن تأثر النبي ﷺ بالقرآن واقتباسه منه في جميع أساليب كلامه من الأمثال والقصة والخطبة لذا لا نجد رسالة صدرت منه إلا وفيها آية من أي الذكر الحكيم فمثلاً رسالته إلى هرقل:
- (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)<sup>5</sup>

<sup>1</sup> عيون الأثر، 2/352

<sup>2</sup> صبح الأعشى، 6/352

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 6/354

<sup>4</sup> المثل السائر، 1/166

<sup>5</sup> سوري آل عمران: 64

ورسالته إلى النجاشي:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة سلم أنت فإني أحمد إليك الله (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ)<sup>1</sup> وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ)<sup>2</sup> البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاتة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وحنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي (وَأَسَلِمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهَدَىٰ)<sup>3</sup>

7. تعبيره عن نفسه عليه السلام: كان يعبر عن نفسه في أثناء كتبه بلفظ الإفراد مثل (أنا) و(لي) و(جائي) و(وفد عليّ) وما أشبه ذلك وربما أتى بلفظ الجمع مثل (بلغنا) و(جاءنا) ونحو ذلك.<sup>4</sup>

8. خطابه المكتوب عليه: يخاطب المكتوب إليه عند الإفراد بكاف الخطاب، مثل (لك) و(عليك) وتاء المخاطب مثل (أنت قلت كذا وفعلت كذا) وعند التثنية بلفظها مثل (أنتما) و(لكما) و(عليكما) وعند الجمع بلفظه مثل (أنتم) و(لكم) و(عليكم) وما أشبه ذلك.<sup>5</sup>

9. اختتام كتبه بالسلام: كان يختم كتبه ب(والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) تارة وربما اقتصر على (والسلام على من اتبع الهدى)<sup>6</sup>

<sup>1</sup> سورة الحشر: 23

<sup>2</sup> سورة النساء: 171

<sup>3</sup> سورة طه: 47

<sup>4</sup> صبح الأعشى، 6/351-352

<sup>5</sup> المصدر نفسه

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 352

10. دخول المصطلحات الإسلامية الجديدة فيها: من تأثير الحديث النبوي في الأدب العربي، ومنه الكتب والرسائل، أنه دخلته المصطلحات الإسلامية الجديدة كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والصدقة والمشرک والكافر، والفريضة والسنة والنافلة والحسنة والسيئة والنفاق وغيرها من الألفاظ الإسلامية والمصطلحات التي لا يعرفها العرب يمثل ما اصطلح عليه السلام وإن كانت عربية.

فهرس المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن طولون: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين (تحقيق: محمود أرناؤوط)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م
3. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (تحقيق: علي محمد البحاوي)، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1960م
4. ابن عساكر: تاريخ دمشق الكبير (تهذيب: عبد القادر بدران)، دار المسيرة، بيروت، 1399هـ
5. ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين (تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد)، دار الجيل، بيروت، 1973م
6. أبو الحسن بن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي (تحقيق أحمد عبد الفتاح تمام)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1409هـ
7. أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني (تحقيق: سمير جابر)، دار الفكر، بيروت، د.ت
8. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين (تحقيق: عبد السلام هارون)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1367هـ
9. أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، 1965م
10. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى: تهذيب اللغة (تحقيق: رياض زكي قاسم)، دار المعرفة، بيروت، د.ت
11. أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1960م

12. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة (تحقيق: علي محمد البجاوي)، دار الجيل، بيروت، 1412هـ
13. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني: تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، 1404هـ
14. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور، باكستان، د.ت
15. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني: تقريب التهذيب (تحقيق: محمد عوامة)، دار الرشيد، سوريا، 1406هـ
16. إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت
17. إسماعيل بن محمد القالي: الأمالي، دار الفكر، القاهرة، 1962م
18. الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (تحقيق: محمد بهجة الأثري)، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، د.ت
19. أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974م
20. بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (ترجمة: عبد الحلیم النجار)، دار المعارف، بيروت، 1962م
21. جابر قميحة: أدب الخلفاء الراشدين، دار الكتاب المصري، د.ت
22. جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1992م
23. جمال الدين القفطي: إنباه الرواة على أبناء النحاة (تحقيق: محمد أبو الفضل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1973م
24. حبيب يوسف مغنية: الأدب العربي (من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2002م

25. حسن شاذلي فرهود وآخرون: البلاغة والنقد، دار المعارف، السعودية العربية، 1401هـ
26. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (تحقيق: مصطفى عبد القادر)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ
27. خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م
28. رودلف: الأمثال العربية القديمة (ترجمة: رمضان عبد التواب)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م
29. الزمخشري: أساس البلاغة، اسم المطبع لم يذكر، مصر، 1973م
30. الزمخشري: تفسير الكشاف، دار الفكر، بيروت، 1397هـ
31. سمير محمد حسين: الإعلام والاتصال بالجماهير والرأي العام، عالم الكتب، القاهرة، 1984م
32. سيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس (تحقيق: عبد العزيز مطر)، التراث العربي، الكويت، د.ت
33. السيوطي: الأزهار في ما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار (تحقيق: علي حسين البواب)، المكتب الإسلامي، بيروت، 1411هـ
34. السيوطي: بغية الوعاة (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاء، مصر، 1384هـ
35. شمس الدين عبد الرحمن الذهبي: تذكرة الحفاظ، طبعة الهند، الهند، 1356هـ
36. شهاب الدين ياقوت الحموي: إرشاد الأريب، مطبعة هندية، مصر، 1923م
37. الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب قاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1974م

38. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تدريب الراوي (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ت
39. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت
40. عبد الركيم السمعاني: الأنساب (تقديم: عبد الله البارودي)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ
41. عدنان علي رضا: الأدب الإسلامي: إنسانيته وعالميته، دار النحوي، السعودية، 1987م
42. عز الدين أبو الحسن بن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة القاهرة، 1386هـ
43. عز الدين إسماعيل وآخرون: البلاغة، طبع وزارة التربية، مصر، 1396هـ
44. علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، دار الحديث، القاهرة، 1404هـ
45. علي بن محمد البزودي الحنفي: كتزل الوصول إلى معرفة الأصول، مطبعة جاويد، كراتشي، باكستان، د.ت
46. علي بن هبة الله: الإكمال في رفع الارتباب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411هـ
47. غازي طليمات وعرفان الأشقر: الأدب الجاهلي، دار الفكر، دمشق، 2001م
48. محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: تفسير القرطبي (تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني)، دار الشعب، القاهرة، 1372هـ
49. محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري: الأدب المفرد (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1409هـ
50. محمد بن إسماعيل أبو عيد الله البخاري الدعفي: الجامع الصحيح (تحقيق: د. مصطفى ديب البغا)، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، 1407هـ

51. محمد بن إسماعيل الأمير الحسيني الصنعاني: توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، د.ت
52. محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ
53. محمد بن حبان: الثقات (تحقيق: السيد شرف الدين)، دار الفكر، دمشق، 1396هـ
54. محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، السعودية، د.ت
55. محمد خير رمضان يوسف: تنمة الأعلام للزركلي، دار ابن حزم، بيروت، 1418هـ
56. محمد واضح رشيد الحسيني الندوي: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، دار ابن كثير، بيروت، 2002م
57. محمد بن محمد أبو شهبه: أعلام المحدثين، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، د.ت
58. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003م
59. هشام بن محمد الكلبي: الأصنام (تحقيق: أحمد زكي باشا)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م

## عصر العرب وأحوالهم السياسية والاجتماعية والدينية قبل الإسلام

- د. أرنك زيب الأعظمي<sup>1</sup>

دنيانا هذه معمورة بالعديد من الأقاليم والملل ففي الهند يقطن الهنود وفي إيران يسكن الفرس وفي أمريكا يقيم الإنجليز وفي الصين يبقى الصينيون وهلمّ جرّاً. وكل هؤلاء أولاد آدم الذي انحدر من السماء إلى هذه الدنيا في بلدة صغيرة منها يسمّيها الناس "سريلانكا".

والحديث عن هؤلاء أجمعين يقتضي مجلدات ضخمة من الموسوعة ففي هذه العجالة نريد أن نتكلم بإيجاز عن العرب خاصة عن عصرهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية والدينية فنبدأ باسم الله الرحمن الرحيم.

موقع شبه الجزيرة العربية ومساحتها: وقبل الحديث عن عصرهم نحبّ أن نلقي بعض الأضواء على موقع شبه الجزيرة العربية ومساحتها كي نجعلها أمام أعيننا لدى القراءة والكتابة. فتقع شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قارة آسيا<sup>2</sup> ويمتد الوطن العربي من المحيط الأطلسي غرباً حتى الخليج العربي شرقاً، ومن البحر المتوسط وجبال طوروس شمالاً حتى المحيط الهندي والصحراء الإفريقية الكبرى جنوباً<sup>3</sup> فقد جعلها هذا الموقع حلقة وصل بين القارات الثلاث آسيا وأوروبا وإفريقيا<sup>4</sup> ولعل هذا سبب مهم من أسباب بعثة النبي الخاتم ﷺ<sup>5</sup> في هذه الجزيرة.

<sup>1</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

<sup>2</sup> التاريخ العربي والإسلامي، ص 5

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 6

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 5

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 6

تبلغ مساحة الوطن العربي حوالي 12 مليون كم. يقع معظمها في قارة إفريقيا ويشمل جمهورية مصر العربية والسودان والجمهورية الليبية العربية وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصومال بينما يقع القسم الآخر في قارة آسيا ويشمل الجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية ولبنان والأردن وفلسطين وشبه الجزيرة العربية بما فيها المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ودولة الكويت وأمارات الخليج العربي.<sup>1</sup>

عصر العرب: العرب الذين نتحدث عنهم سكان الجزيرة العربية، ومن هنا انتشروا إلى سائر أماكن الوطن العربي. هم من الأصل السامي. سموا "عربًا" نسبة إلى جدهم "يعرب" بن قحطان. وهناك آراء آخر لسبب تسميتهم بهذا الاسم ولا يعني هذا الموضوع ذكرها فنصرف عنها.<sup>2</sup>

يقسمهم المؤرخون في قسمين: العرب البائدة والعرب الباقية.

فالعرب البائدة هم الذين ذهب بهم الدهر وطواهم الفناء في طيات عديدة من عدم المعرفة فلا نعرف عنهم إلا القدر الذي ورد إلينا من الكتب السماوية والقرآن الكريم، ومن أشهرهم عاد وثمود وطسم وجديس وتفصيلهم يطول.<sup>3</sup>

والباقية هم الذين ذكرهم التاريخ وأعطانا المعلومات عنهم وينتمي إليهم سكان الوطن العربي الكبير وهم أيضًا ينقسمون في قسمين أساسيين: العرب العاربة والعرب المستعربة.

فالعرب العاربة هم الأصل وهم القحطانيون أو عرب الجنوب. سكنوا جنوب الجزيرة وبلاد اليمن. إنهم احترفوا الزراعة واستقر معظمهم فكان لهم نظم معروف في الحكم والإدارة ومن دولهم العربية في بلاد اليمن المعينية والسبأية والحميرية. وقد هاجر

---

<sup>1</sup> تاريخ الجاهلية، ص 37-43

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 44-48

<sup>3</sup> التاريخ العربي والإسلامي، ص 8-9

بعضهم بعد انهيار سد مأرب إلى الشام والعراق، وأسّسوا دولاً عديدة مثل دولة الغساسنة في الشام ودولة المناذرة في العراق.

والمستعربة هم العدنانيون أو عرب الشمال وهم ينتمون إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهم سكنوا وسط الجزيرة العربية وبلاد الحجاز وبادية الشام، وكانوا بدوًا وحضرًا معًا ومن ميزاتهم أن القرآن نزل بلغتهم.<sup>1</sup>

حالة العرب السياسية: والعرب في حالتهم السياسية كانوا ينقسمون في قسمين: عرب القبائل وعرب الدول.

ففي عرب القبائل كان النظام فيهم القبليّة. والقبيلة لها أقسام منها القبيلة والبطن والفخذ وأقسام أخرى لا ضابط لترتيبها.<sup>2</sup>

ومن أصغر وحدات القبيلة الأسرة فهي تعتمد على الوحدة الاجتماعية القائمة على الزواج وكان للرجل حق الحياة والموت والرهن والبيع على زوجته وأولاده.<sup>3</sup>

والقبيلة أساس المجتمع الجاهلي في البوادي والقرى، والذي يجمع أصحابها هو الشعور بذلك، وفي ذلك يلعب الولاء والحلف دورًا كبيرًا.

فيكون للقبيلة شيخ وهو الذي يختاره القبيلة من بين أفرادها وتقدّمه للرئاسة عليها وتطيعه بإرادتها وتطوعًا منها. والمفروض أن يكون شيخ القبيلة- كما تدلّ كلمة الشيخ- كبيرًا في السن فإذا كان صغير السن ثم اتفق أن كانت له حكمة وشجاعة وثروة مضافة إلى شرف أصل قديمته قبيلته للرئاسة. ويدل على ذلك قول الخنساء في رثاء أخيها:

طويل النجاد رفيع العماد      ساد عشيرته أمردا  
يحمّله القوم ما عالهم      وإن كان أصغرهم مولدا<sup>4</sup>

<sup>1</sup> تاريخ الجاهلية، ص 155

<sup>2</sup> المصدر نفسه والصفحة ذاتها

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 151-152

<sup>4</sup> شعر الخنساء، ص 25

فكان الشيخ- كما يبدو من هذا القول- لا يأخذ المال من القبيلة؛ ويعين المحتاجين،  
ويطعم الفقراء، ويدفع الديات.<sup>1</sup> وإليه الإشارة في قول معاوية سيد بني كلاب:

إني امرؤ من عصابة مشهورة      حشد لهم مجد أشمّ تليد  
ألفوا أباهم سيّدًا وأعانهم      كرم وأعمام لهم وجود  
إذ كلّ حي نابت بأرومة      نبت العضاة فما جد وكسيد  
نعطي العشيرة حقها وحقيقتها      فيها ونغفر ذنبها ونسود  
وإذا تحمّلنا العشيرة ثقلها      قمنا به وإذا تعود نعود  
وإذا نوافق جرأة أو نجدة      كنا، سيّ، بها العدو نكيد  
بل لا نقول إذا تبوّأ جيرة      إن المحلّة شعبيها مكودود<sup>2</sup>  
ويكون كذلك مدافعًا عن القبيلة تارة بنفسه وأخرى بشاعر منها وثالثة بخطيب،  
ويكون هو قائدهم في الحرب.

ويبدو أنه كان لكل قبيلة ولكل مدينة نادٍ على مثال نادي قريش في مكة ولكن الحكم فيه  
لم يكن على نهج مرسوم ولا طبق قانون متفق عليه.

كان دخول النادي أمرًا عشائريًا؛ كلما عظم شأن رجل بالجاه أو الغنى أو بالبطش دخل  
النادي وأصبح من المملأ الذين يحكمون قومهم.<sup>3</sup>

ومثل هذا النظام كان في مكة والحجاز وما شابههما.

وأما نظام الحكومة أو الدولة فيعني الملوك والأمراء الذين حكموا فيهم بإقامة دولة  
مستقلة بأمرها ولكن مع ذلك لم يكن العرب يدعون لهؤلاء نظرًا لطبيعتهم الحرة  
المستقلة فقد قتل عمرو الملك (عمرو بن هند)، ووقائع أخرى لا حاجة إلى ذكرها. يقول  
محمد طلعت حرب:

<sup>1</sup> العصر الجاهلي، ص 60

<sup>2</sup> تاريخ الجاهلية، ص 153

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 153

"كانت أمة العرب عريقة في القدم قائمة الملك على ساق وقدام، وإن لم تكن لها دولة تضبطها ولا روابط سياسية تربطها. حريتها فطرية تأنف الخضوع والذل فلهذا لم تكن في الأحقاب الخالية تحت استرعاء دولة من الدول، وإذا غالبها جيش قوي بالقوة أو الكثرة لا يكاد يتمكن من إدخالها تحت الطاعة، ولا يستطيع أن يغير أخلاق أهلها ولا طباعهم، ولا يمكنه أن يبدل صفاتهم المميزة لهم. فإن كانت لهم طاعة اقتضتها حروف الحدثان فهي طاعة صورية يتصلون منها عند الإمكان".<sup>1</sup>

ومن أهم الحكومات التي ظهرت على سطح أرض العرب هي دول اليمن: الدولة المعينية ودولة سبأ ودولة حمير، ودول الشمال: دولة الأنباط ودولة تدمر ودولة الغساسنة ودولة المناذرة ودولة كندة. وأريد أن ألقى عليها بعض الأضواء.

1. الدولة المعينية: هي أقدم دولة عربية تم تأسيسها في بلاد اليمن بين (650-1200 ق.م) كانت عاصمتها "قرناد". احترفت هذه الدولة التجارة فكان ينقل أصحابها بين الهند وشرق إفريقيا والبحر المتوسط. إن هذه الدولة لعبت دورًا كبيرًا في خصومة أرض اليمن وكثرة مناخها. إنها أقامت أول حضارة عربية في الجزيرة العربية ولها آثار باقية في اليمن تدلّ على رقيها وتقدمها في مختلف المجالات.

2. دولة سبأ: وهي ثاني دول العرب في اليمن. تم قيامها على أنقاض الدولة المعينية بين (950-115 ق.م). عاصمتها "قارب". اعتمدت هذه الدولة على التجارة والزراعة والصناعة، وطار صيتها بين العرب لنشاطها التجاري وغناها الاقتصادي وتقدمها الحضاري. إنها قامت ببناء السدود والقلاع والحصون وشق الترع والقنوات.<sup>2</sup> وكانت لسبأ ما رب وما إليه أهمية كبرى حتى ذكرها القرآن الكريم في آياته التالية:

<sup>1</sup> تاريخ دول العرب والإسلام، 35/1

<sup>2</sup> التاريخ العربي والإسلامي، ص 10-11

"لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل".<sup>1</sup>

3. دولة حمير: وهي ثالث دول العرب في اليمن. قامت بعد سقوط دولة سبأ بين (115 ق.م-525م). عاصمتها "ظفار". إنها امتازت بشن غارات عديدة على البلاد المجاورة. انتهت هذه الدولة بالهجوم الذي قام به أرباط وأبرهة الجيش في عهد الملك الحميري ذي نواس.

ولكن هذه السيطرة منه لم تبق لمدة طويلة حتى استقر سيف ذي يزن الفرس وطرد الأحباش ولما قتل هذا الزعيم استحوذ الفرس أنفسهم على بلاد اليمن حتى جاء الإسلام.

ولهذه الدولة الحميرية حضارة زاهرة مذكورة في تاريخ العرب. إنها قامت ببناء قصور وحصون أهمّها وأشهرها "قصر غمدان". إنه يعتبر أفخم قصور اليمن القديمة.

4. دولة الأنباط: قامت هذه الدولة في الجنوب الشرقي من فلسطين بين (600 ق.م-100م). عاصمتها "قطرا" أو "البتراء". كانت هذه الدولة ملتقى الطرق التجارية ومركزاً للقوافل القادمة من اليمن والحجاز إلى بلاد الشام ومصر وبالعكس. إن هذه الدولة جاهدت ضد الرومان كثيراً للدفاع عن حريتها وأرضها، ولكنها بعد هذا الجهد الجهيد انهزمت وسقطت بأيديهم سنة 159م. إنهم كانوا مولعين بالزراعة وحفر الآبار وبناء السدود. ومدينة البتراء موضع يزوره السيّاحون والرحالة من جميع أنحاء العالم في عصرنا هذا.

5. دولة تدمر: إن دولة تدمر قامت في بادية الشام في منتصف الطريق بين الفرات ودمشق وكانت تدمر محطة تجارية شهيرة لكافة القوافل القادمة من العراق إلى الشام ومصر والدولة البيزنطية. وبما أنها تمتعت من شهرة زائدة فقد دفعت

<sup>1</sup> سورة سبأ: 15-16

بعض الحروب بينها وبين الرومان. إنها وسّعت نطاق حكمها إلى الشام ومصر وآسيا الصغرى، وبهذا الانتشار السريع أوجس الرومان على حكمهم خيفة فحاربوا مرارًا وتكرارًا حتى قطعوا دابرها في 272م.

6. دولة الغساسنة: ينسب الغساسنة إلى القحطانيين. إنهم هاجروا إلى بلاد الشام وسكنوا جنوب دمشق حيث أقاموا دولتهم وجعلوا بصرى عاصمة لهم.

كان بينهم وبين البيزنطيين علاقة سياسية وطيدة لحمايتهم عن حملة العرب وغيرهم من الأعداء. وكانوا يحصلون على مساعدات مالية سنويًا.

وبما أن الفرس كانوا أعداء للبيزنطيين فقامت بينهم عداوة وبغضاء، ووقعت حروب بين الخصمين؛ في بعض الأحيان غلب الغساسنة وفي بعضها الآخر هزمهم الفرس وهكذا فكانت الحرب سجلاً.

كانت لهذه الدولة حضارة زاهرة. إنها امتازت ببناء القصور الجميلة. أشهرها القسطل والمشقى.

7. دولة المناذرة: المناذرة أيضاً من القحطانيين. إنهم غادروا اليمن واستقروا في منطقة الحيرة حيث أقاموا دولتهم التي تسمى "دولة المناذرة" أو "دولة الحيرة". وعاصمتهم الحيرة نفسها.

وبالرغم من الغساسنة فقد كانت للمناذرة علاقة سياسية وثيقة مع الفرس، وتلك لكي يحموهم عن أعدائهم وينودوا حدودها عن غيرها من الحكومات الأخرى. وإنها أيضاً نالت المساعدات المالية والأسلحة من الفرس.

ومن الطبيعي أن تقع بينهم وبين الغساسنة عداوة وبغضاء تمثلها حروب دامية وقعت بينهما. إنها كانت بارعة في بناء القصور خاصة، ولنا دليل على ذلك من قصري الخورنق والسدير.

8. دولة كندة: إنها نشأت في وسط الجزيرة العربية في حدود القرن الثالث الميلادي. وكندة قبيلة شهيرة هاجرت من الجنوب، وسيطرت على معظم القبائل العربية

المجاورة وغير المجاورة. أول ملوكها حجر بن عمرو بن أكل المرار وآخرها حجر الثاني بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر الذي لا يخفى على أي طالب للأدب العربي. إنها تمتاز بجمع القبائل العديدة العربية تحت لواء واحد وإعطائها حكمًا مستقلًا فكانتها قامت بنوع من الحكم اللامركزي. وهذه خصوصية لا توجد لدى أي حكومة عربية.<sup>1</sup>

حالة العرب الاجتماعية: المجتمع عبارة- على الأقل- عن الأسرة التي تتطور فتصبح قبيلة فأحب أن أذكر أولًا أشياء عنها ولو أنني تحدثت عنها قليلًا لدى الكلام عن حالتهم السياسية.

- الأسرة: فالأسرة تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق. والأب له سلطان مطلق على كلهم فهو يملك عليهم الحياة والموت والبيع والرهن والانتفاء<sup>2</sup> فهو كان في بعض الأحيان يئد ابنته خوفًا من الفقر أو العار، وينتفي من ابنه نظرًا لسبب شخصي. وقد قرأنا في تاريخهم أن الآباء كانوا يجعلون أولادهم رهائن في أيدي خصومهم في أثناء حرب البسوس وداحس والغبراء والفجار. وكثيرًا ما كان يؤدي ذلك إلى قتلهم.<sup>3</sup>

وأما المرأة ففي غالب الأحيان كانت تباع وترهن وتورث فقد قرأنا عن الزواج أن الولد كان يرث أمه عن أبيه فيتزوجها إن شاء<sup>4</sup> وكان الرجل حرًا في تعدد الأزواج فيتزوج أكثر من أربع نسوة في وقت واحد بدون عدل بينهم، ويطلق أيًا منهن بدون روي ولا نظر في العواقب. والشئ الذي كان يجمع كافة أعضاء الأسرة هو الدم فكان الواحد يعين أخاه ولو أنه ظلم فقد شاع فيهم المثل "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"<sup>5</sup> وهذا الذي قد عمّ كافة أعضاء القبيلة فكان يحذر أحد من أن يظلم الآخر خوفًا من ثورة كافة أعضاء القبيلة ضده.

<sup>1</sup> التاريخ العربي والإسلامي، ص 12-18

<sup>2</sup> تاريخ الأدب العربي، ص 13

<sup>3</sup> تاريخ الجاهلية، ص 155-156

<sup>4</sup> تاريخ دول العرب والإسلام، 1/35

<sup>5</sup> تاريخ الأدب العربي، ص 14

وهذه الحالة كانت سائدة كلا الفريقين: المتحضر والبادي.

- دورهم وموادهم الغذائية: وبما أن أغلبية العرب كانوا يسكنون الصحاري ولا يبنون البيوت إلا قريشاً والقحطانيين ومن شابهوهم فإنهم سكنوا في الخيام لدى أي واد خصب فإن جفّ الوادي لأي سبب أو انقطعت وسائل المعاش ترحّلوا إلى مكان آخر أكثر منه خصوبة، وهكذا فسافروا من واد إلى واد ومن حوض إلى حوض دون الحضر فإنهم أقاموا في مكان وبنوا البيوت والحصون.

ومن موادهم الغذائية لدى الفريقين كليهما اللحم واللبن وما كانوا يصنعون منهما فكانوا يتناولونها ويفتخرون بإطعامهما للضيوف والفقراء.

- عدم الأمن وأخلاقهم البارزة: وبما أن الوسائل والأسباب كانت محدودة في العرب وكان الفقر سائداً فيهم فكانوا يسرقون أموال الآخرين، وينهبون ثروات الغير، ويسوقون الإبل، ويسلبون الأشياء المتعلقة بالحياة. ونتيجة لذلك فقد عمّ عدم الأمن والفوضى. وهو الذي سبّب في تقرير الأشهر الحرم كي يؤدوا الواجبات الدينية ويحصلوا على الأسباب الضرورية للحياة.

وأخلاقهم البارزة كانت الشجاعة، والحماسة لولوعهم بالحرب، والبر، والجود، وإطعام الفقير، وحمل الكل لسيادة الفقر، والخشونة لقيامهم في البادية فالمتحضرين كانوا ذوي خلق لئيم لطيف، والسذاجة لقبهم من الطبيعة، والعصبية لكونهم منوطين بالقبيلة، والظلم لفقد أسباب المعاش، والصدق لبعدهم من الأمم المتقدمة وغيرها من الأخلاق الحسنة والسيئة التي تدلّ عليها قصائدهم وخطبهم.

- أسباب المعيشة: ومن أسباب المعيشة لدى العرب الحضر كانت التجارة في قريش، والزراعة في الحجاز واليمن، وهندسة البناء والرسم في اليمن والعراق. وأما البدو فكانت أسباب معيشتهم مختلفة وهي فيما يلي:

1. الحرب: بما أنهم كانوا يفقدون أسباب الثروة، وكانوا يعيشون عيشة الفقراء والبائسين فكانوا يقاتلون ويسلبون الأموال وينهبونها ويسوقون الإبل ويسبون الأولاد البنات والنساء.

الصيد: والصيد أيضاً كان من أسباب المعيشة لديهم فكانوا يصيدون بالخيل ويسدون حاجياتهم الغذائية. يقول امرؤ القيس وهو يفتخر بفرسه:

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل<sup>1</sup>

2. الأنعام: ومن الأنعام والإبل والناقة والشاة وغيرها مما كانوا يأكلونها وهي أيضاً كانت تستخدم للسفر والترحال مثل الخيول.

3. اللغة: واللغة أيضاً كانت من أسباب المعيشة وذلك أن الفصيح والبليغ من الشعراء والخطباء كان يكرم ويعظم قدره ويعطى جوائز لأنه كان يرفع شأن الرجل ويحمي عن القبيلة ويدافع عن عزة الغني والفقير معاً كما نجد لدى الأعشى الذي رفع ذكر البنات البائسات.

4. الرقيق: الرقيق أيضاً من أسباب المعيشة لأنهم كانوا يباعون ويشترون فكان العرب يستفيدون منهم.

الفقر والغنى ونتائجهما: وقبل ختام البحث أحب أن أذكر نتائج الفقر والغنى لدى العرب فإن هذين الشئين قد لعبا دوراً كبيراً في حياة العرب المتحضرة والبادية أيضاً. فما ظهر منهما مذكور فيما يلي بإيجاز:

1. وجود الصعاليك والمخلوعين: فالصعلوك الذي يحرم من المال، والمخلوع الذي صار فقيراً بسبب هزيمته في القمار كلاهما يعاني من الفقر ويؤلف جزءاً مهماً من حياة العرب.<sup>2</sup>

2. إحياء الأولاد وواد البنات: وكان من أسباب الفقر أيضاً إحياء الأولاد وواد البنات فهم كانوا يكرمون الأولاد لأنهم يكسبون لهم سواء بالحرب أو الصيد أو غير ذلك وكانوا يثدنون البنات في بعض الأحيان نظراً لعجزهن عن الكسب.

3. أهمية الأغنياء: كان العرب يعظمون الأغنياء وأصحاب الأموال لأن الغنى سبب مهم من أسباب الرفاهية والرخاء ورغدة العيش فقد قرأنا أن الشعراء مدحوا الأغنياء،

<sup>1</sup> شرح القصائد العشر، ص 55

<sup>2</sup> العصر الجاهلي، ص 375

وأن الفقراء ازدحموا بباب الأغنياء. وهذه الأهمية قد جعلت فرقتين في العرب فرقة لأرباب الأموال، وأخرى لمن يعاني من الفقر والجوع.

حالة العرب الدينية: ولو نظرنا بدقة وغور عميق وجدنا أن العرب لتراثهم ولعلاقتهم مع الأمم الأخرى اعتنقوا أدياناً عديدة فنجد هناك الوثنية والحنيفية والنصرانية واليهودية والمجوسية وغيرها من الخرافات والأوهام فنذكرها بإيجاز:

- الوثنية: فالعرب قد جعلوا لله أقرباء من الأصنام والأوثان زعمًا باطلاً. يقول الله جلّ مجده بلسانهم "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"<sup>1</sup> فالأصنام والأوثان التي اتخذوها هي: اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر وأساف ونائلة ورضى ومناف وذو الخلصة وسعد وذو الكفين وذو البشري والأقيصر ونهم وعائم وسعير والفلس والمحرق والشمس وكذا الأسحم والأشهل وأوال والبجة والدار وذو الرجل والشارق وغيرها مما يطول بذكرها المقال.<sup>2</sup>

- الحنيفية: ونعلم واضحًا أن كانت قد بقيت أشياء من تعليم إبراهيم عليه السلام فكانوا يحجون البيت، ويؤدون بعض الشعائر الدينية، ولو بأسلوب لا ينطبق على طريق إبراهيم عليه السلام تمامًا، وكانوا يعتبرون هذه الخدمة منهم خدمة جلية يفتخرون بها فالسقاية والسدانة وغيرهما مما ورثوه عن آبائهم وعضواً عليه بالنواجذ وافتخروا به.

ومن الحنفاء الذين جاء ذكرهم في كتب التاريخ حنظلة بن صفوان وخالد بن سنان العبسي ورتاب الشني وأسعد أبو كرب الحبري وقس بن ساعدة الأيادي وأمّية بن أبي الصلت الثقفي وورقة بن نوفل وأبو قيس الأنصاري وأبو عامر الأوسي وعبد الله بن جحش الأسدي وعبد الله القضاعي وعبيد بن الأبرص الأسدي وغيرهم كثير.<sup>3</sup>

- اليهودية: ونعرف جيدًا أن اليهود كانوا قد سكنوا مواضع عديدة من جزيرة العرب فسكنوا ما بين فلسطين ويثرب كما أقاموا في اليمن وفي اليمامة وفي

<sup>1</sup> سورة الزمر: 3

<sup>2</sup> المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 6/227-335

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 449-510

العروض. وكذا كان تجارهم يطوفون عليهم مقرضين المال بربا فاحشة للمحتاجين إليه فمن الطبيعي أن تتأثر العرب بهم ويميلوا إليهم ولو قليلاً. فمن الذين تأثروا باليهود أو تهودوا هم بنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وكندة وغسان واليمن بأسرها وقوم من الأوس والخزرج وقوم من جذام وغيرهم كثير.<sup>1</sup>

- النصرانية: ومن الديانات السماوية الأخرى التي وجدت سبيلها إلى جزيرة العرب النصرانية وهي كانت أحدث منها عهداً ولكن أوسع منها أفقاً وأصلاً وقبولاً لدى الأمم الأخرى. وهناك أبيات كثيرة تدل دلالة واضحة على هذه الديانة في العرب فمن قائل:

أيام يلقي نصاراهم مسيحهم والكائنين له ودًا وقرباناً<sup>2</sup>  
وقال آخر:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى دم<sup>3</sup>  
وقال حاتم الطائي:

وما زلت أسعى بين ناب ودارة بلحيان حتى خفت أن أتصرفاً<sup>4</sup>  
فقد دخلت النصرانية في العرب تارة عن طريق التجارة وأخرى بالتبشير وثالثة بدخول بعض النساك والرهبان ورابعة بالرقيق ولاسيما الرقيق الأبيض المتورد من أقطار كانت ذات ثقافة وحضارة.<sup>5</sup>

فالذين تنصروا من العرب واشتبهوا وضبط التاريخ أسمائهم ضجعم سيد الضجاعة وهانئ بن قبيصة الشيباني وعبد الأسود وجابر بن بجير وكعب بن عدي التنوخي وغيرهم كثير.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 511-581

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 583

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 584

<sup>4</sup> المصدر نفسه والصفحة ذاتها

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 587

وأيضًا كانت توجد في العرب أديرة وكنائس بقيت حتى بعد ظهور الإسلام.<sup>1</sup>  
وأشهر المواضع التي تأصلت فيها النصرانية هي الشام والعراق<sup>2</sup> واليمن<sup>3</sup> واليمامة<sup>4</sup>  
والبحرين<sup>5</sup> ويثرب.<sup>6</sup>

- المجوسية: دخول المجوسية في جزيرة العرب وفي الخليج واضح جدًا وذلك لأنه  
كان لأهل مكة علاقة وطيدة مع الحيرة كما كان لأهل الحجاز صلة قوية باليمن،  
وكان قد سيطر على هذين الموضعين الفرس وهم أهل المجوسية فلا بدّ من أن  
يتأثر بهم العرب ويعتنقوا ديانتهم ولو رياء.

فقد وقع حقًا واعتنق عدد كبير منهم هذه الديانة ومنهم زرارة بن عدس  
وحاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وأبو الأسود وغيرهم كثير.<sup>7</sup>

وكذا كانت توجد فيهم عقيدة في الأرواح والغول والشیطان والحية والجن  
والملائكة والسحر وإصابة العين كما كانت فيهم الكهانة والعرافة والاستقسام  
بالأزلام والأحلام والطيرة والفال وأساطير وخرافات أخرى لا أصل لها.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 599

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 600

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 608

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 621

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 622

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 601

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 692

<sup>8</sup> المصدر نفسه، ص 705-806

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الأحاديث النبوية
3. أبو بكر يحيى بن علي التبريزي: شرح القصائد العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1985 م
4. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثامنة والعشرون
5. خاشع المعاضدي والآخرين: التاريخ العربي والإسلامي، مطبعة وزارة التربية، بغداد، الطبعة الثالثة، 1972 م
6. الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1970 م
7. الدكتور شوقي ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة
8. الدكتور عبد الحلیم الندوي: عربي أدب كي تاريخ (تاريخ الأدب العربي بالأردوية)، ترقى أردو بيروف، الطبعة الثالثة، 1989 م
9. الدكتور عمر فروخ: تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1964 م
10. رينولد إيه نيكولسون: A Literary History of the Arabs (تاريخ أدبي للعرب)، كتاب بهافان، نيو دلهي، 1907 م
11. محمد طلعت حرب: تاريخ دول العرب والإسلام، مكتبة الإصلاح، سرائي مير، أعظم كره، الطبعة الأولى، 1989 م

## الدولة الإسلامية

- أ. د. أطفاف أحمد الأعظمي<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري<sup>2</sup>

### الأمر الأساسفة

#### تعرف الدولة الإسلامية:

تعرف الدولة بشكل عام أنها مجموعة من الأفراد في منطقة معينة ونظمهم الاجتماعية، ولكن إطلاق كلمة الدولة الإسلامية يكون على منطقة يكثر فيها سكان يؤمنون بعقيدة خاصة ويدينون بدين معين ويطبق في نظمها الاجتماعية قانون الخالق تعالى. وإن لم تقم النظم الاجتماعية على دين الله وقوانينه في النظم الاجتماعية فبالرغم من وجود الأكرفة للمعتقدين بعقيدة خاصة لا نطلق على تلك المنطقة اسم "الدولة الإسلامية".

وإذا نظرنا من هذه الناحفة فلا وجود للدولة الإسلامية في أي مكان في العالم، نعم توجد دول مسلمة كثيرة، أغلب سكانها يعتنقون الإسلام ولكنه لا يحتل مكان الصدارة في نظمهم الاجتماعية.

#### الحاكم الأعلى:

لا يكون الحاكم الأعلى (Sovereign) والمطاع في الدولة الإسلامية سوى الله، وهو الشارع وواضع القوانين بشكل أساسي، والمسؤولين من أهل الإيمان عن تنظيم أمور الدولة الإسلامية يكونون مراقبين ومنظمين بدل الأمرين والحاكمين، والذي يسمى

<sup>1</sup> كاتب إسلامي كبير من محافظة أعظم كره، له مؤلفات جليفة في الدراسات الإسلامية.

<sup>2</sup> أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليفة الإسلامية، نيو دلهي، الهند

ب"ال خليفة" و"أولوا الأمر" في الاصطلاح القرآني، وكذلك لا تتمتع الطبقة الدينية في الدولة الإسلامية بأي مميزات خاصة، فلا مكان للقسيس مثل المسيحيين ولا للبراهمة مثل الهندوس، ولا يحق لأي رجل دين مهما بلغ من المنزلة العالية أن يصبح مطاعاً بدل الخالق جل مجده. قال الله تعالى:

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ". (سورة آل عمران: 64)

عندما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم: يا رسول الله! لم يكونوا يعبدونهم، فقال: أليس يحرمون ما أحلّ الله فيحرمون، ويحلّون ما حرّم الله فيحلّون؟ فقال: بلى.<sup>1</sup>

ناهيك عن رجال الدين، لا يسمح لنبي أو رسول أن يصبح مطاعاً من دون الله. قال تعالى:

"مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾" (سورة آل عمران)

علمنا من هذه الآية أن عبادة غير الله واتباعه وطاعته طاعة عمياء كفر، وقد أوضح ذلك في سورة المائدة:

"وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ" (سورة المائدة: 44)

الخطاب في هذه الآية لليهود، وقد أوضح لهم في الآية التي تسبقها أن من لم يحكم بحكم التوراة لا يكون مؤمناً.

"وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ" (سورة المائدة: 43)

ثم يخاطب المسيحيين:

<sup>1</sup> جامع الترمذي، 4/342 ولينظر: مسند أحمد بن حنبل

"وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴿٥٧﴾" (سورة المائدة)

وفي النهاية يرشد النبي ﷺ بقوله:

"وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ" (سورة المائدة: 48)

تبيّن من التفصيل السابق أن الله وحده الحاكم والمطاع في الدولة الإسلامية، وأن  
القوانين التي أنزلها هي التي تطبق في نظم أمور الدولة.

وأوضح هنا أن أي حكومة وضع أساسها حسب فقه خاص لا يصحّ أن يطلق عليها  
اسم الدولة الإسلامية، لأن "بما أنزل الله" هو ما وجد في القرآن وليس ما دونه العلماء  
والفقهاء في الكتب الخاصة بالمذاهب المعينة. كيف يمكن أن نقول أن الفقه الحنفي  
صحيح والفقه الشافعي والمالكي والحنبلي غير صحيح؟ فالدولة التي تتبع فقهاً معيناً  
تكون دولة مذهبية ولا تكون دولة إسلامية. الدولة الإسلامية لها قانون واحد ومذهب  
واحد. وكل قانون ومذهب يخالف "بما أنزل الله" يكون خاطئاً. ويبقى السؤال عمن  
يحدّد أن قانوناً يوافق "بما أنزل الله" أو يخالفه، فلا يكون ذلك في يد عالم أو فقيه،  
إنما يتم تحديد ذلك من قبل الأمير بمشورة من مجلس الشورى للدولة الإسلامية.  
وستحدث عن ذلك بالتفصيل في الصفحات القادمة.

### المبادئ التوجيهية (Directive Principles):

للدولة الإسلامية مبدآن: وحدة الإله (Unity of God)، ووحدة البشر (Unity of  
Mankind)، وتفصيلهما كالآتي:

وحدة الإله (التوحيد): يشتمل التوحيد على أمرين: الأول أن المقتدر الأعلى  
(Sovereign) للكون واحد، وبكلمات أخرى مركز الاقتدار هو واحد ويسمّى في اللغة  
العربية "الله"، وذلك ثابت عقلاً ونقلاً، وإن ازداد عدد الآلهة عن واحد فسيرغب كل  
إله في التفوق على الآخرين وحتماً سيؤدي ذلك إلى النزاع. لكن الكون يسير بتوافق

وتناسب مدهش، ولا يظهر أي اختلاف أو أقل نزاع أو مواجهة في أي ركن منه، وهذا التوافق المدهش لدليل واضح على أن مركز الحكم فيه واحد، والكون كله تابع له. وقد ذكر القرآن هذا الدليل العقلي في موضعين: قال الله تعالى:

"أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (سورة الأنبياء: 21-22)

وقال في موضع آخر:

" مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾" (سورة المؤمنون)

والشيء الثاني الذي يدخل ضمن المفهوم الأساسي للتوحيد هو نفي تصور الشراكة في الحكم. كانت الشعوب المشركة تعتقد وما زالت أن حاكم الكون واحد، ولكن يشترك معه بعض من مخلوقاته المختارة مثل الملائكة والأنبياء والصالحين في تنظيم أمور هذا الكون، إن هذا التصور للشراكة في الحكم خاطئ بديهياً، وإذا اعتبرناه صحيحاً فذلك يعني أن الله ضعيف لا يقدر على تنظيم أمور ملكه. ولكن من المستحيل حتى خيال ذلك عن الله سبحانه وتعالى. فقد جاء في القرآن الكريم:

"وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرَةٌ كَبِيرًا" (سورة الإسراء: 111)

إن التوحيد في تصور الدولة الإسلامية يحتل نفس المكانة التي يحتلها أساس البيت الذي يبنى عليه، فلولا التوحيد لا وجود للدولة الإسلامية، ولذلك من الواجب على القائمين على أمور الدولة الإسلامية أن يكونوا حذرين فستكون غفلة من لديهم أو ضيق للفكر ظلماً عظيماً عند الله.

وعليهم أن يعلموا جيداً كل فرد من الدولة الإسلامية:

"إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" (سورة لقمان: 13)

وقد حرم الله الجنة على المشركين:

"إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ" (سورة المائدة: 72)

وحدة البشر: وهو المبدأ التوجيهي الثاني للدولة الإسلامية، بما أن خالق الجميع واحد وجوهر التخليق واحد، فلا فرق ولا تميز بين البشر من ناحية الخلق، وكل معايير التفريق والتميز بين البشر والتي هي من اختراع البشر أنفسهم مثل اللون والنسب هي سطحية وصناعية. وفي نظر الدولة الإسلامية لا تعتبر هذه المعايير إلا شيئاً تافهًا، إن مقياس الشرف والمجد في الدولة الإسلامية لمختلف تمامًا. قال الله تعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾" (سورة الحجرات)

علمنا من الآية السابقة أنه بالرغم من كثرة البشر والفروق في ظواهرهم هناك شيء مشترك بينهم أجمع وهو التساوي في الخلق، بمعنى أن البشر كلهم وإن كانوا ينتسبون إلى أسر وقبائل ودول وشعوب مختلفة، هم أولاد آدم وحواء، ولذلك يتساوون في التقدير.

ولكن الحقيقة الأخرى أن الأولاد يختلفون فيما بينهم من الناحية الجسدية والعقلية. والسؤال: هل يجوز للمتفوق جسديًا وعقليًا أن يظهر تفوقه هذا على الأدنى منه ويعتبره حقيرًا؟ من الواضح أن هذا السلوك يعتبر جهلاً ودناءة من عنده.

وإذا نظرنا من ناحية أخرى فإن الوالدين لا يساوون بين أولادهما في الحب مع أن الكل أولادهما، وهذا التميز لا يكون للفروق الجسدية والعقلية، وإنما بسبب سلوك الأولاد، فالذي يكون ذا خلق ومطيعًا يصبح عزيزًا أكثر من غيره، ولو أنهما لا يكتنن أي كراهية للآخرين ولن يفعلوا ذلك.

وتعامل الله مع عباده بنفس الطريقة، فهو يطعم ويسقي الجميع بدون تمييز، ولكنه يحب فقط أولئك الذين يطيعونه طاعة صادقة وهو المقصود من "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

وعلى الدولة الإسلامية أن تتبع نفس الطريقة، ويجب أن يكون جميع سكانها، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، مثقفين كانوا أو غير مثقفين، بيضًا كانوا أو سودًا، متساوين،

لكن المعززين والمحترمين هم الذين يقومون بواجباتهم على أحسن وجه وأكمل طريقة بكل رغبة وتفانٍ. ولا يأتون بأي عمل يخلّ بالقانون بأدنى درجة. وعلى العكس من ذلك يعتبر الأشخاص الذين يتهاونون في واجباتهم ويخالفون القوانين، غير مرغوبين فيهم ومستحقين للعقوبة مهما بلغوا من مكانة اجتماعية مرموقة أو من ذروة الكمال في العلم والعقل. وبكلمات أخرى إن مقياس المدني الجيد (Good Citizen) والمدني السيئ (Bad Citizen) ليس المكانة الاجتماعية وإنما العمل الصالح والسيئ.

### الدستور الأساسي (Fundamental Law):

الدستور الأساسي للدولة الإسلامية هو القرآن الكريم، وهو كتاب كامل للهداية، وكل الأمور الكبيرة والصغيرة في الدولة الإسلامية تنفذ حسب ما جاء في الكتاب العزيز. قال تعالى:

"إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ" (سورة النساء: 105)

وقال في موضع آخر:

"وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ" (سورة المائدة: 48)<sup>1</sup>

وذكر نفس الأمر في موضع آخر حيث قال:

"وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ" (سورة الشورى: 10)

وحكم الله موجود في صورة القرآن الكريم. فأمر المسلمون:

"وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا" (سورة آل عمران: 103)

وقد اتفق جميع المفسرين على أن المراد بحبل الله هو القرآن، وذلك ثابت بالسياق، فقد قال تعالى:

<sup>1</sup> إشارة إلى الشريعة الاختراعية للفقهاء اليهود

"وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (سورة آل عمران: 101)

الاعتصام بالله بشكل واضح هو الاعتصام بكتابه. وقد أثبتت الروايات أن المراد بحبل الله هو القرآن، وأن النبي ﷺ قد أمر بالتمسك به. روى جبير بن مطعم:

"قال رسول الله: أبشروا أبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنني رسول الله، وأن القرآن جاء من عند الله؟ قلنا: بلى، قال: فابشروا فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً"<sup>1</sup>

وقال الرسول ﷺ في موضع آخر:

"ستكون فتن قلت وما المخرج منها قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل"----<sup>2</sup>

وقد أمر النبي ﷺ أمته بكلمات واضحة بالتمسك بالكتاب، روي في صحيح مسلم:

"وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله"<sup>3</sup>

ولا يتوهم شخص بعد هذا أني أنكر أهمية السنة، إن أهمية السنة مسلم بها، ولكنها لا تدخل في الدستور الأساسي للدولة الإسلامية، لأنها تعتبر فرعاً لا أصلاً، إن الأصل

<sup>1</sup> المعجم الكبير للطبراني

<sup>2</sup> أخرج هذا الحديث الترمذي وغيره من أئمة الحديث

<sup>3</sup> الرواة السيئوا الباطن والمحبون للفرق والمذاهب أضافوا إلى قول النبي هذا مثل الروايات الأخرى. لذلك فقد أضاف الراوي السني كلمة "السنة" (الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، الحديث الثالث)، أما الراوي المائل إلى الفرقة الشيعية فقد أضاف كلمة "عترتي". (المعجم الكبير، الطبراني، الحديث 268)، ويعتبر كلا الحديثين مردوداً، لأنهما يخالفان الحديث الصحيح إضافة إلى مخالفة النص القرآني.

وقد اتفق العلماء أن الحديث الذي يخالف النص القرآني مردود. وقد ذكر الحافظ ابن القيم في رسالته "المنار": ومنها مناقضة الحديث صريح القرآن. وكتب الملا علي القاري مثله، (الموضوعات، ص: 89)، انظر أيضاً: الفتح المغيب للإمام السخاوي، ص 114.

لا يمكن تغييره، بينما يتعرض الفرع للتغيير حسب الظروف أو يمكن تغيير صورته التطبيقية، ولا يكون الدستور الأساسي إلا ما لا يمكن تغيير مبادئه وكلياته.

والجدير بالذكر أن السنة، إن كانت ثابتة، فلا يمكن أن تكون خلافاً للقرآن، وهي شاملة فيه في صورة الفرع، وقد كتب كل العلماء المحققون كذلك، يقول الإمام الشافعي:

"جميع ما حكم النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن"<sup>1</sup>

وكتب الشاه ولي الله الدهلوي في "الخير الكثير" أن السنة مستنبطة من القرآن.<sup>2</sup> وسنفضّل ذلك في الباب القادم إن شاء الله.

---

<sup>1</sup> المقدمة في أصول التفسير، الإمام ابن تيمية، ص 93، وانظر أيضاً: الإتيان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي.

<sup>2</sup> شاه ولي الله اور ان كا فلسفه (الشاه ولي الله وفلسفته) للعلامة عبيد الله السندي، ص 88

## العلاقات الهندية-العربية بالتركيز على ولاية تامل نادو

- د. ك.م.ع. أحمد زبير<sup>1</sup>

الهند وطن عظيم يقع في جنوب آسيا ولها ثقافة قديمة وتقاليدها محكمة وعلاقات وثيقة مع بلدان العالم. فالهند كانت تنشر ثقافتها وتقاليدها وعلومها. العلاقة بين الهند والدول العربية قديمة وعريقة منذ فجر التاريخ. ويُروى أنه لما أُخرج آدم عليه السلام من الجنة أهبط بسرنديب (سيلان) من أرض الهند. وكانت القوافل التجارية إلى المناطق الساحلية في جنوب الهند بين الهند والدول العربية وتعرّف العرب على المدن الرئيسية الكائنة تقع على الساحل الطويل وبفضل هذا الاحتكاك التجاري تأثرت الحياة الهندية اجتماعيًا وحضارة وثقافة ولغة حتى وصلت اللغة العربية إلى الهندية الجنوبية عمومًا وبخاصة في ولاية تامل نادو قبل مجيء الإسلام بقرون.

وكانت العلاقة الأخوية والصلة الودية بين العرب وأهل تامل نادو وثيقة منذ زمن بعيد جدًا حتى قبل المسيح عليه السلام. وإن جمالها وجمال مناظرها الطبيعية أعجب العرب إعجابًا كبيرًا. وكانوا يجلبون إنتاجات تامل نادو لاسيما الفلفل الزنجبيل الفرنفل العود والمسك واللؤلؤ والياقوت والمرجان إلى بلاد بعيدة. مثل اليمن والشام وتزوجوا بنساء تامل نادو و توطن بعضهم في المناطق الساحلية. وامتزجت ثقافتهم وحضارتهم بتقاليد تامل نادو وعاداتها. حتى صارت جزءًا لا يستهان به في ثقافتهم. ولاية تامل نادو أول ولاية وطأتها أقدام العرب. وتشرفت بدخول الإسلام لقد دخل الإسلام ولاية تامل نادو في عهد النبي الكريم صلّى الله عليه وسلم. إن السكان والحكام استقبلوا العرب استقبالا حارًا وصاروا يعتنقون الإسلام ويفتخرون به. لقد

<sup>1</sup> أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، الكلية الجديدة، تشنائ، الهند

أثرت اللغة العربية في مواطني تامل نادو تأثيرًا عميقًا واسع النطاق كما أثرت في لغات أخرى من لغات الهند. توغلت اللغة العربية في تامل نادو و ترعرعت في تربيتها الخصبة. إن العلاقة بين أهل تامل نادو و تجار العرب فتحت أفاقًا جديدة لتبادل الأفكار والخواطر وتفاهم الثقافات واللغات. اعتبرت اللغة العربية قبل قدوم الإسلام لغة تجارية بين الشعبين و نالت قبولًا حسنًا.

يقول سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله: "من مظاهر تأثير المسلمين في ثقافة الهند وحضارتها تأثير اللغة العربية. التي تخصهم والتي حملوها إلى هذه البلاد في لغات الهند ولهجاتها وأدبها وحضارتها ..... وللمسلمين في جنوب الهند - مدارس وكيرلا وبلاد مليبار. نشاط كبير في نشر التعليم الديني والمدني وتأسيس المدارس الدينية العربية والكليات الإسلامية<sup>1</sup>. تحولت الصلة بين العرب والهند من الناحية التجارية إلى الناحية الدينية الإسلامية ولقد حضر الدعاة المسلمون العرب لنشر دعوة هذا الدين الجديد فوجدوا الترحيب وبنيت المساجد ولم يكن هنالك أي اعتراض لا من جانب الحكومة ولا من الناس ولم يكن هنالك نزاع ولا قتال<sup>2</sup>.

جاء في العهد القديم أن الإسرائيليين كانوا يتجرون مع الهند في عهد داود عليه السلام. وكانت السفن التجارية في تلك الأيام تصل مرة في كل ثلاث سنوات ميناء 'أوفير' بالسواحل المليبارية. وهو الميناء المعروف باسم (Beypore) الواقع على بعد سبعة أميال من مدينة كاليكوت مطلقاً على البحر العربي. وتبعهم اليونان والرومان في التجارات البحرية مع الهند. ثم لما تأسست مدينة حصرموت في السواحل الجنوبية للجزيرة العربية أصبح العرب همزة وصل في التجارة بين الهند والبلدان الأخرى. وكانت البواخر المشحونة بالفلفل والبهارات والهيل والعاج تتجه من السواحل الهندية وتعبّر أولاً الخليج الفارسي حتى تصل إلى هرمز، فيباع هناك جزء من هذه المصادر، ومن ثم تتجه نحو البصرة إلى أرمينية وبلاد الشام، كما تنقل منها هذه الثروات إلى مناطق

---

المسلمون في الهند، ص 64 و 130<sup>1</sup>

<sup>2</sup> اكتشاف الهند، ص 299

بيروت ومنها إلى إيطاليا وإلى نواحي البلاد الأوروبية، وفي بعض الأحيان كان يأتي تجار هذه البلاد إلى البندقية ويحملونها إلى بلادهم<sup>1</sup>.

لقد وصل الملاحون العرب إلى الصين والهند في عصر ما قبل الإسلام واستمر هذا التفوق في العصور الإسلامية، وكان الحرير السلعة الصينية الرئيسية في تجارة الصين مع العالم الغربي، كما كانت التوابل والأفاوية والعنبر السلع الرئيسية في تجارة الهند وجنوب شرق آسيا فكان الحرير والتوابل تنقل من الصين إلى المشرق الإسلامي مروراً بالخليج العربي ومن هناك إلى الغرب الأوربي.

كان للعرب صلات وعلاقات تجارية مع الهند قبل الإسلام وكانت سفن تجار العرب في الجاهلية تصل إلى بحر السند وشواطئ مالبار وتعود محملة بالأقمشة والحرير والتوابل السيوف الهندية التي طالما تغنوا بها في أشعارهم وأولعوا بها حتى سَمَو السيف المطبوع من حديد الهند بـ"المهند" وقالوا: سيف مهند وهندي وهندواني إذا عمل ببلاد الهند وسَمَو كثيراً من نساءهم هندياً<sup>2</sup>.

وبعد الإسلام بدأ المسلمون يتوافدون على سواحل الهند في عهد الخلفاء الراشدين وفتحوا ثغوراً عديدة في الهند أهمها مكران وخور الديبل<sup>3</sup>.

يذكر بعض المصادر الهندية باللغة الفارسية أنه في السنة العشرين و النيف من الهجرة ركب جماعة من المسلمين العرب و العجم على سفينة من بعض موانئ بلاد العرب و اتجهوا إلى سرنديب (سيلان) لزيارة قدم آدم عليه السلام لكن الهواء سار بسفينتهم إلى مليبار ، وكان ملكها "السامري" جامعاً للعقل وفضائل الأخلاق وكان قد صحب جماعة من الفقراء الزهاد فتجاذب معهم أطراف الحديث حتى سألهم عن دينهم، فقالوا إننا ندين بدين الإسلام، ونؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم

---

<sup>1</sup> المقال بعنوان " جذور العلاقات الهندية العربية " للدكتور جمال الدين الفاروقي من مجلة "كيرلا"، عدد: 1، 2010م، ص8

<sup>2</sup> لسان العرب، مادة (هند)

<sup>3</sup> ضحى الإسلام، 299/1

فقال "السامري" إني سمعت طائفة من اليهود و النصارى والهنود ممن يعارضون دينكم ويسيحون في الأرض أن دينكم قد نال رواجًا عامًا و قبولًا سريعًا في بلاد العرب والترك والعجم ولكني لم أصحب حتى الآن المسلمين. فأرجو منكم أن تذكروا لي من حياة ذلك النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الآيات والمعجزات فقام أحدهم ممن كان يتحلى بالعلم والصلاح وبدأ الحديث مع الملك وذكر شيئًا من حياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم فنشأ في قلبه حب قوي تجاه النبي صلى الله عليه وسلم. ولما سمع بآية انشقاق القمر قال يا قوم هذه آية قوية فإن كانت حقًا وصدقًا وليست من السحر فلا شك أن الناس جميعًا من البلدان القريبة والبعيدة شاهدوها. ومن العادة في بلادنا أنه إذا حدث أمر غريب سجله الكتاب في دفاترهم. وعندى دفاتر وكتب لأبائي فاستحضرتها حتى أعرف مدى صدق مقالكم، فلما تصفحوها وجدوا أنه شوهد في يوم كذا وكذا أن القمر انشق ثم انضم، فلم يلبث إلا أنه شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله<sup>1</sup>.

"كانت لولاية تامل نادو وجزيرة سرنديب علاقة عميقة مع العالم العربي في الأيام القديمة وكانت هذه العلاقة مقتصرة على النشاط التجاري"<sup>2</sup>. وكانت هذه الولاية مركزًا للغة العربية والعلوم الإسلامية وقد قدم علماءها خدمات علمية وأدبية وثقافية ولقد ألف مؤلفوا هذه الديار كتبًا عديدة ومتنوعة في العلوم والفنون المختلفة. العلاقة بين الهند الدول العربية قديمة وعريقة منذ فجر التاريخ. ويروي أنه لما أخرج آدم عليه السلام من الجنة أهبط بسرنديب (سيلان) من أرض الهند.

ولاية تامل نادو أول ولاية وطأتها أقدام العرب. وتشرفت بدخول الإسلام. إن الإسلام دخل في ولاية تامل نادو في عهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. إن السكان والحكام استقبلوا العرب استقبالًا حارًا وجعلوا يعتنقون الإسلام ويفتخرون به. إن اللغة العربية أثرت في مواطني تامل نادو تأثيرًا عميقًا واسع النطاق كما أثرت في لغات أخرى

---

<sup>1</sup> المقال بعنوان "التبادل الثقافي بين الهند والعرب" من مجلة "ثقافة الهند"، 149/3/41

<sup>2</sup> العربية والأروية والفارسية في سرنديب وتامل نادو، (مقدمة الكتاب)

من لغات الهند. توغلت اللغة العربية في تامل نادو و ترعرعت في تربيتها الخصبة. إن العلاقة بين أهل تامل نادو وتجار العرب فتحت آفاقاً جديدة لتبادل الأفكار والخواطر وتفاهم الثقافات واللغات. اعتبرت اللغة العربية قبل قدوم الإسلام لغة تجارية بين الشعبين ونالت قبولاً حسناً.

ودخل الإسلام إلى أرض الهند أولاً من المناطق الساحلية الجنوبية ثم بعد زمن طويل في المناطق البرية الشمالية عن طريق الفتوحات الإسلامية الناجحة. بدأ ظهور الإسلام أولاً في القرى والمدن الساحلية لولاية تامل نادو ثم انتشر الإسلام من الأماكن الساحلية إلى الأماكن غير الساحلية في هذه الولاية. وبنى المسلمون في تامل نادو المساجد والمدارس والمعاهد الإسلامية في أماكنهم.

وبما أنه كانت اتصالات العرب مع جنوب الهند قوية حتى قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم وكان التجار العرب والهنود يتبادلون المنتوجات والمصنوعات فيما بينهم امتدت هذه لأحوال إلى استيطان العرب في الأماكن الساحلية المليبارية والتاملية أي مناطق "مليبار" ومناطق "معبر"<sup>1</sup>.

ولاية تامل نادو إحدى الولايات الشهيرة التاريخية الواقعة في جنوب الهند. تقع تامل نادو في أقصى جنوب الهند ومساحتها 133038 كيلومتر مربع ويحدها شرقاً خليج "البنغال" وغرباً ولاية "كيرلا" وشمالاً ولاية "أندھرا براديش" و"كرناتكا" وجنوباً بلاد "سريلانكا" والمحيط الهندي. إن التاريخ يشهد صريحاً كل الصراحة على الروابط والعلاقات وثيقة بين العرب والهنود منذ أقدم العصور. لقد كانت هناك روابط وعلاقات شتى بين العرب والهند منذ أقدم العصور حتى عصر النبي صلى الله عليه وسلم في التجارة والمعيشة والديانة.

جذور العلاقات الهندية العربية التي تتعلق بولاية تامل نادو تصل إلى خمس مراحل مهمة فهي الدلائل الثمينة في تاريخ علاقتها وهي كما يلي:

---

<sup>1</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 146/4/55

- (1) العلاقات الودية والأخوية
- (2) العلاقات التجارية البحرية
- (3) العلاقات الثقافية والحضارية واللغوية
- (4) العلاقات الملكية والدبلوماسية
- (5) العلاقات الدينية والروحانية

### (1) العلاقات الودية والأخوية

إن جماعة من المسلمين من مصر هاجروا في القرن الثالث من الهجرة إلى الهند بسبب فتنة خلق القرآن ونزلوا في الساحل الجنوبي من أقصى الهند وعمرُوا في قاهر باتنم. وهؤلاء خرجوا من شعاب "المقدم" بالقاهرة وعددهم 224 نفرًا بقيادة محمد خلجي من عائلة الكبرى وساروا بقارب على البحر متوجهين إلى الساحل الهندي وبعد سفر طويل نزلوا في هذه المنطقة من الأرض في 875 الميلادي واستوطنوها. وبما أنهم جاءوا من القاهرة دعوا هذه الولاية أيضًا "القاهرة الصغيرة" ولما سمع ملك مملكة "بانديا" عن نزول هؤلاء العرب ذهب هناك واستقبلهم استقبالًا حارًا ورتب لهم جميع التسهيلات اللازمة ومنحهم تلك المنطقة كلها مجانًا إذ أن العلاقة بين العرب ومملكة "بانديا" كانت قوية راسخة منذ أمد بعيد. أن الملك لهذه البلاد كان استأثر هؤلاء المسلمين لعلو مكانتهم وأخلاقهم الفاضلة وأنعم عليهم بعنايته الوافرة التامة.

### (2) العلاقات التجارية البحرية

وتبدأ الرياح الموسمية الجنوبية الغربية مبكرة في المنطقة الجنوبية وتستمر لفترة من الوقت، ولذا فساحل الملبار يعتبر من المناطق الخطرة منذ مايو حتى نهاية سبتمبر، وهذا يعنى أن موسم الرحلات البحرية في الملبار نفسها لا يتعدى سبعة أشهر أو ثمانية على حين أنه يمتد إلى عشرة أشهر على ساحل كجرات. وفي هذا خطر على السفن الملبارية أكثر منه على السفن العربية إذ لا بد من عودة السفن الهندية إلى مواطنها قبل شهر مايو في الوقت الذي تكون فيه السفن العربية قد خرجت من مياه

الملبار . وبالتالي فإن هذا يعطى ميزة للسفن القادمة من الموانئ العربية لأن موسم رحلاتها البحرية أطول. وهذا يؤيد الاعتقاد القائل إن العرب الذين لا توجد أخشاب لديهم استطاعوا أن يتغلبوا على الطرق التجارية في المحيط الهندي<sup>1</sup>.

إن التجار الهنود قد عرفوا الطرق البحرية التي تصل بين الهند ومصر وبدأت هذه الصلة منذ 23 سنة قبل ميلاد المسيح حيث أبحروا التجار الهنود مباشرة إلى موانئ الصومال حتى وصلوا مصر. كانت الطرق البحرية لجنوب الهند ومعلوماتها معروفة لدى العرب فقط حتى القرن الأول قبل الميلاد.

هناك السببان الرئيسيان لهذه التجارة وهو الأول الموقع الجغرافي المناسب لموانئ سواحل جنوب الهند والرياح الموسمية التي تساعد في سير السفن الثاني موانئ جنوب الهند مراكز هامة للتجارة العالمية الساحلية. وكانت العلاقة الأخوية والصلة الودية بين العرب وأهل تامل نادو موثقة منذ زمن بعيد جدًا حتى قبل المسيح. وإن جمالها ومناظرها الطبيعية أعجب بها العرب إعجابا. وكانوا يجلبون إنتاجات تامل نادو لا سيما الفلفل والزنجبيل والقرنفل والعود والمسك واللؤلؤ والياقوت والمرجان إلى بلاد بعيدة مثل اليمن والشام وتزوجوا بنساء تامل نادو وتوطن بعضهم في المناطق الساحلية. وامتزجت ثقافتهم وحضارتهم بتقاليد تامل نادو وعاداتها حتى صارت جزءًا لا يستهان به.

وكان العرب يسافرون من مدينتي مصر والشام بطريق البر يمشون على شاطئ بحر الأحمر ويصلون الحجاز واليمن ويركبون السفن ويسافرون إلى أفريقيا والحبشة وبعضهم يمرون بحضرموت وعمان والبحرين والعراق عن طريق الشاطئ ويصلون إيران ويرسون سفنهم في ميناء بلوچستان أو ميناء ديبيل أعني كراتشي ويمرون بمواني الهند مثل غجرات وكاتمياوار وبومبائي وكاليكوت ورأس كماري ومدراس أو يصلون مدراس بطريق سرنديب وأندومان ويدخلون خليج بنغال بعد هذه الجولة<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> تجارة المحيط الهندي، ص 93 و93

<sup>2</sup> الدراسات العربية والإسلامية في ولاية تامل نادو منذ 1857م

يقول المؤرخ البارز يم. إي غني في جريدته "نور الحق": أن الإسلام ظهر في ولاية تامل نادو منذ 637م. وأول بقعة من بلاد الهند استضاءت بنور الإسلام هي بلاد "مليبار" لأن التجارة كانت قائمة بين بلاد العرب المليبار منذ عهد عتيق كما ذكر صاحب "تحفة المجاهدين" أن سكان فلسطين كانوا يتجرون مع المليبار في عهد داؤد وسليمان عليهما السلام. وكان العرب يسافرون من مدينتي مصر والشام بطريق البر يمشون على شاطي بحر الأحمر ويصلون الحجاز واليمن ويركبون السفن ويسافرون إلى أفريقيا والحبشة وبعضهم يمرون بحضرموت وعمان والبحرين والعراق عن طريق الشاطي ويصلون إيران ويرسون سفنهم في ميناء بلوجستان أو ميناء ديبل أعني كراتشي ويمرون بمواني الهند مثل غجرات وكاتهيواوار وبومبائي وكاليكوت ورأس كماري (Capecomerin) ومدراس أو يصلون مدراس بطريق سرنديب وأندومان ويدخلون خليج بنغال بعد هذه الجولة.

### (3) العلاقات الثقافية والحضارية واللغوية

قامت العلاقات التجارية والتعاملات الثقافية بين العرب وأهالي تامل نادو والتي ازدهرت مزيداً بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية خلال فترة قليلة. وبجميع إمكانياته انتشر الإسلام في كافة أنحاء بلاد العرب. وفي بعض أجزاء إفريقيا ربما وصل إلى ساحل "كورمندل" خلال تلك الأيام المبكرة بطريق المسلمين الذين جاءوا إلى سواحل الهند الجنوبية الشرقية والغربية. وانفصلوا من الجزيرة العربية لأغراض التجارية ولا شك ولا ريب أن بعض التجار ورجال الدين والرحالة المسلمين ربما جاءوا إلى هذه المناطق وبذلوا جهوداً فردية لنشر العقيدة الجديدة بين المواطنين خلال تلك الأيام المبكرة. وبسبب الروابط التجارية الخاصة التي تتواجد بين ساحل "كورمندل" والجزيرة العربية عبر القرون.

وتعد تاج محل شاهداً بالغاً على عمق التمازج الثقافي والفني بين مصر والهند خلال الحقبة الإسلامية فقد شارك مهندسون وفنانون مصريون مع نظرائهم الهنود وغيرهم في وضع تصميم تاج محل وتنفيذه وبرع الخطاطون المصريون والعرب في رسم

الكتابات النقوش التزيينية على حوائط تاج محل.ومن الامثلة الأخرى التي تشهد على تأثير الهند الثقافي على مصر موسوعة "الفتاوى الهندية" والتي ضمت بين جنباتها جل الفقه الحنفي وجمعت بناء على أوامر الامبراطور أورنجزيب وجرى نشر "الفتاوى الهندية" في مصر بعد مرور قرن ونصف من ظهورها في الهند وأصبحت الأساس الفقهي لإصلاح قانون الأحوال الشخصية في مصر الحديثة<sup>1</sup>.

وقد أعادت مصر الكرة تحت حكم العثمانيين الذين أرسلوا حملة بحرية بقيادة سليمان باشا الخادم ولم تنجح هي الأخرى في القضاء على الوجود البرتغالي في المنطقة وقد سجل القاضي محمد بن عبد العزيز الكاليكوتي المليباري المتوفى سنة 1025 تلك الجهود المصرية في قصيدته "الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين<sup>2</sup> والتي جاء فيها:

ومن ملوك مصر جاء أولاً أميره الحسين مع جيش ملا  
من ملوك الروم سلمان باشا أتى وبعده سليمان باشا  
ورغم القيود التي فرضها الاستعمار البريطاني على التواصل بين الشعبين إلا أن  
بعض حالات التواصل بين المفكرين والزعماء تمت في تلك الحقبة فقد لعب جمال  
الدين الأفغاني دوراً هاماً في تنوير المصريين عن أحوال إخوانهم الهنود وشجع  
المصريين على التمرد على النفوذ الغربي وفي مرحلة لاحقة على الاحتلال البريطاني فقد  
تأثر جيل بأكمله بأفكار الأفغاني الثورية وكان على رأسهم الإمام محمد عبد وتلميذه  
سعد باشا زغلول وكان لمحمد عبده بمنهجه الإصلاحية التعليقي تأثير على حركة السير  
سيد أحمد خان الإصلاحية بالهند<sup>3</sup> كما كان للنهج الدستوري الذي اتبعه سعد باشا  
زغلول في مسعاه لتحرير مصر تأثيره على المهاتما غاندي.

وقد عبر غاندي عن إعجابه بزغلول باشا في لقائه مع مسئول مصري رسمي في لندن  
قائلاً "تبعث قدوة حياة الشخصية المحترمة من سنة 1919م إلى الوقت الحالي، وأنا

---

<sup>1</sup> تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ص 259

<sup>2</sup> قصيدة الفتح المبين، ص 10

<sup>3</sup> موسوعة مقدمة العلوم والمناهج - عالم الإسلام المعاصر، 88/3 و89

أعدده أسوة وأستاذًا، وأكرر مرة أخرى أن سعد زغلول ليس ملكًا لكم فقط، وإنما هو ملك لنا جميعًا<sup>1</sup>.

وعلى الصعيد الاجتماعي فإن الجاليات الهندية بالخليج والعالم العربي قد لعبت دورًا هامًا في التعريف للثقافة الهندية وتوطيد عرى الصداقة بين الشعب العربي في الخليج والشعب الهندي. وتتركز الجالية الهندية بالعالم العربي بشكل كبير في الخليج العربي والجزيرة العربية والسودان. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الهجرة الهندية إلى المنطقة العربية منذ عصر البطالمة في مصر علي أقل تقدير<sup>2</sup>.

ومن ناحية أخرى فإن الكثير من العرب قد هاجروا إلى الهند واستقروا بها وقد خدم معظمهم في جيوش سلاطين الهند المسلمين واستمروا في وظائفهم حتى استقلال الهند في عام 1947م، وكان معظمهم من جنوب الجزيرة العربية وآخرون من الخليج والعراق ومصر ويصل عدد الهنود من جذور عربية قرابة المليونين ويتركز معظمهم في حيدر أبار وجوجرات (Gujarat) ومالابار وهي مناطق عرفت بعلاقتها الوثيقة مع العالم العربي وتشير مصادر تاريخية أخرى إلى بعض العرب الذين شاركوا في جيش محمد بن يوسف الثقفي الذي غزا السند قد استقروا بكشمير.

كان هنالك سببان رئيسان لزيارة العرب إلى ولاية تامل نادو. الأول التجارة والثاني زيارة أثر قدم سيدنا آدم عليه السلام في جزيرة سرنديب ومقبرة هابيل بن آدم عليه السلام في راميشفرم (Rameswaram) في ولاية تامل نادو في جنوبها الأقصى.

زار الرحال الشيخ محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة (هذه الولاية 1303 – 1377م) وسرنديب في عصر الملك أريا شكرورتي (Aryachakravathy) زار ابن بطوطة البلدة "فتان" في ولاية تامل نادو. حينما جاء ابن بطوطة إلى هذه البلدة كان السلطان غياث الدين حاكمًا على مترة (Madurai). وذكر لقائه بالشيخ محمد النيسابوري في هذه البلدة المذكورة.

---

<sup>1</sup>الهند والعالم الإسلامي، عدد: 2 و3. إبريل 1972م/158-172

<sup>2</sup> المقال بعنوان "الخليج العربي وعودة الدفاء إلى العلاقات العربية الهندية" للسيد مكايي زكي، مجلة "ثقافة الهند"، 8/3-2/58

تدل هذه القطعة الآتية التي ذكرها الدكتور الأستاذ نثار أحمد في مقالته<sup>1</sup> "شعراء العربية في تامل نادو" على كيفية تحول العلاقة بين العرب وولاية تامل نادو إلى علاقة ثقافية وأدبية كما يلي: "..... وهم (العرب) قد تزوجوا مع النساء المحليات ومن الممكن أيضاً أن النساء العربيات أيضاً تزوجن من أهالي هذه الولاية. وعلى هذه الطريق اتسعت العلاقات الثقافية الهندية والعربية وأدت إلى وجود بيئة مسلمة في هذه المناطق واستمرار هذه العلاقات الثقافية نهضت بهم إلى المستوى من الكتابة والتأليف وليس من العجب أن الأدباء من تامل نادو لهم أعمال تتنافس مع إخوانهم العرب في الأسلوب والتعبير".

#### (4) العلاقات الملكية والدبلوماسية

زار ابن بطوطة هذه البلدة وسجل ذكره عنها ولا يذكر كيركري أو باوترامانيكابانتم و لكنه ذكره باسم "فتان" وفي روايته يتكلم عن قدومه إلى هذه البلدة الساحلية و لقائه بالشيخ محمد النيسابوري ويشير إلى مسجد بني في أجمل الصورة وكان المسجد في الجانب الساحلي ويذكر عن صلواته فيه. ويوضح أيضاً عن رجوعه من مملكة بانديا عن طريق هذا الميناء الساحلي المشهور في ذلك الزمن وأنه ركب باخرة من البواخر الثمانية المتوجهة إلى اليمن. وهذا يدل على أن المسلمين كانوا يسكنون هذه البلدة وبنوا مسجداً وعاشوا عيشة إسلامية كاملة<sup>2</sup>.

يقول ابن بطوطة عن كيركري في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار": "فوصلت إلى مدينة فتان (Kilakarai) Fattan وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيبة قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الصخام يصعد إليه على طريق خشب مشقف فإذا جاء العدو ضموا إليها لإجفان التي تكون بالمرسي وصعدت الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة، وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان الطيب ولقيت الشيخ الصالح

<sup>1</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 110/1/44 و111

<sup>2</sup> Travels in Asia and Africa, Page 263 –267

محمد النيسابوري أحد الفقراء المؤلمين الذي يسدلون شعورهم على أكتافهم ويأكل مع الفقراء ويقدمهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرًا لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها وأقمت بمدينة وكان السلطان غياث الدين أقام بـ"فتان" نصف شهر ثم رحل إلى حضرته وأقمت أنا بعده نصف شهر ثم رحلت إلى حضرته. وهي مدينة مترة (Mutra (Madurai). حينما جاء ابن بطوطة إلى فتان كان السلطان غياث الدين حاكمًا على مترة. وكان كيركري (Kilakarai) بلدة صغيرة بل تاريخية لأنها كانت ميناء لمملكة بانديا (Pandiya) حيث وقعت المتبادلات التجارية بين ملوك بانديا والعرب قبل الإسلام. وقد زار هذه البلدة المؤرخ الشهير ابن بطوطة (1303 - 1377م) الذي يصف كيركري مركزًا تجاريًا في دولة بانديا<sup>1</sup>.

زار الرحال العربي وصّاف والرحال العالمي ماركوبولو (Marco Polo) (1254 - 1323م) في القرن الثالث عشر الميلادي مدينة فتان (تسمى باوترمانكا باتنم أيضًا) التي تقع على منطقة "معبر" أي المناطق الساحلية التاملية. ذكر الرحال وصّاف "معبر" وهو مدخل الهند. جاء "وصّاف" إلى ولاية تامل نادو في زمن سلطنة "بانديا" وكانت التجارة الخيول مشهورة في ذلك الوقت.

وبعدما نشر الدين الإسلامي الحنيف في أرضنا أصبحت صلتها قوية بالعرب واللغة العربية. واهتم مسلموا الهند بتعلم اللغة العربية أنفسهم وتعليمها لأولادهم. ولها مكان خاص في حياة مسلمي الهند بسبب كونها لغة القرآن الكريم. ونتيجة لهذا الاهتمام أنجبت الهند آلفًا من الأدباء البارزين ويوجد كثير من مؤلفاتهم في اللغة العربية. ومعظم هذه المؤلفات مثل مؤلفات العرب في الأسلوب. وإذا نأخذ بعين الاعتبار نفهم بأن الأدباء وعلماء الهند، لهم مساهمة كبيرة فيه منذ زمن بعيد إلى يومنا هذا. وجد تاريخ الهند في كل زمن من الزمان أدباء في اللغة العربية.

تعلم المسلمون من ولاية تامل نادو في أوائل عهد إسلامهم الإسلام بكل الإخلاص واللغة العربية من التجار العرب وبذلك أصبح التجار العرب معلمي اللغة العربية.

---

<sup>1</sup> تحفة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، سنة 1322هـ

وقد تحدث بعض الروايات أن أحد ملوك الهند بعث هدية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرها الإمام أبو عبد الله الحاكم في "المستدرک" عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال أهدى ملك الهندي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرة فيها زنجبيل فأطعم أصحابه قطعة قطعة وأطعمني منها قطعة<sup>1</sup>.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة يعرفون أجيال الهند وأفرادها وقد جاء في الأحاديث والأخبار أسماءهم وأحوالهم. ولما وصل خبر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بلادهم أرسل أهل سرنديب بعثة دينية إلى المدينة ولكن ما وصلت هذه البعثة في حياته وبعث أحد ملوك الهند هدية الزنجبيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فطعم وأطعم. وبلاد العرب والهند كانتا تتقاربان في الديانة على مذهب واحد وكانت المقارنة بين الأمتين مقصورة على اعتبار خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات وبيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند هي البيوت السبعة المبنية على الكواكب السبعة. وكانوا يعدون منها الكعبة بيت الصنم لِحَلِّ بزعمهم والحقيقة أن الكعبة بناها إبراهيم عليه السلام بأمر الله تعالى ولذلك لما سمع أهل الهند عن النبي صلى الله عليه وسلم ودينه بادروا إلى تحقيقه. وهنا روايات عن إتيان بعض الصحابة إلى الهند وذهاب بعض ملوكها إلى العرب وقبولهم الإسلام<sup>2</sup>.

اختلفت الألفاظ العربية باللغة التاميلية كثيراً والناس من هذه الولاية يظنون أن الألفاظ العربية هي ألفاظ تاميلية. ونذكر طرفاً من هذه الكلمات وهي: "وكيل، وسؤال، وأصل، ونقل، وعطر، وعنبر، ونفر، وشرط، وإنعام، وبديل" تسربت اللغة العربية إلى اللغة التاميلية - اللغة الرسمية لولاية تامل نادو وامتزجت بدمها ولحمها. أصبحت جزءاً لا ينفك هناك مئات من الألفاظ العربية قد تسربت إلى اللغة التاميلية. وكانت نتيجة تأثير اللغة العربية في اللغة التاميلية أن تتشكل لغة خاصة مستقلة تسمى "عرب التامل" أم "اللغة الأروية" صارت لغة خاصة للمسلمين في تامل نادو ويكتبون وينشرون فيها. جاء العرب إلى تامل نادو منذ زمن بعيد وسكنوا فيها وتعلموا اللغة التاميلية فهماً وكلاماً ولكن لم يستطيعوا الكتابة بحروفها فعمدوا الكتابة بالحروف العربية فكانوا يكتبون اللغة التاميلية بالحروف العربية وسمّوا هذه اللغة "عرب التامل" الاختلاط بين هاتين اللغتين

<sup>1</sup> المستدرک للحاكم، 135/4

<sup>2</sup> العقد الثمين، ص 14

يشير إلى أن ناطقي اللغتين العربية والتاميلية اختلطوا وسكنوا معًا وتعاشروا كالإخوان وتعاملوا كأفراد أسرة واحدة فنشأت لغة جديدة بسبب هذه العمليات المعقدة<sup>1</sup>.

وقام عدد كبير من الأدباء والشعراء بتأليف الكتب القيمة. ويقرضون الأشعار وأتحفوا المجتمع التاملي مكتبة زاخرة يتجمل بها تاريخ تامل نادو. وأصبحت لغة مستقلة ذات حروف خاصة وأسلوب رائع وقام بعض العلماء بإصلاح لغتها وتهذيبها وفي طبيعتهم السيد حافظ أمير أبا والشيخ سام شهاب الدين والشيخ الإمام العروس وغيرهم. ولكن مع الأسف الشديد - أن البرنغاليين والأنجليز عاقبوا المسلمين في تامل نادو عقابًا شديدًا.

إن الكتب والمخطوطات ودواوين الشعر التي ألفها المسلمون في العربية ولغة "عرب التامل" تزيد على أكثر من خمسة آلاف كتاب ومخطوطة. هناك أكثر من ثلاثة آلاف كتاب باللغة عرب التامل رتبها وجمعها المتحف الحكومي للكتب والوثائق بتشنائي. رتبت حسب المواد والفنون، هذه الكتب خزينة ثمينة كبيرة. ومن الجدير بالذكر أن مؤلفاتهم لم تقتصر على العلوم الشرعية بل صنفوا في كل فن كتبًا قيمة حتى القصص والروايات، وكما قاموا بترجمة القرآن الكريم والكتب الشرعية إلى اللغة التاميلية ولا شك فإن لهذه الكتب والدواوين دورًا ملحوظًا في إيقاظ الشعور في قلوب المسلمين.

ومع ظهور الدعوة الإسلامية اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بمراسلته الملوك والأمراء ودعوتهم إلى الدين الإسلامي، وكان منهم ملك "مليابار" الهندي، وبعد حقبة قليلة من الزمن نزل بعض العرب المدينة أثناء رحلتهم التجارية إلى جزيرة "سيلان" وحينئذ طلب منهم الملك أن يحدثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ثم صدق الملك به وآمن بدعوته، ورجب في الرحيل إلى الجزيرة العربية لمقابلته إلا أن الموت عاجله في الطريق. ونستطيع أن نعد تلك الأحداث باكورة وصول الدين الإسلامي إلى الهند على يد التجار العرب. وتجدر الإشارة بأنه قد ظهر ذلك في جنوب الهند وليس في الشمال الذي سيكون مسرح الأحداث فيما بعد<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 188/2/57 و189

<sup>2</sup> المقال بعنوان "العلاقات بين العرب و الهند في صدر الإسلام" للدكتور صاحب عالم الأعظمي

الندوي من مجلة "ثقافة الهند"، 137/2-1/59

إن محمد بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث الرسائل يدعو فيها إلى الإسلام إلى ملوك إفريقية وإلى ملك مليبار . وأن أول خطاب من الرسول العربي قد وصل إلى ملك مليبار في عام 628 للميلاد. وأن تشيرمان برمال (Cheraman Perumal) ملك "كدنغلور" قد زار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا في السابع والخمسين من عمره عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي ذلك زمن أيضًا وصلت إلى بلاد مليبار جماعة من الدعاة المسلمين العرب. وعلى رأسهم مالك بن دينار وشرف بن مالك<sup>1</sup>.

وعندما ظهرت معاملتهم الخالصة للبلاط الملكي قواهم الملك بتعيينهم موظفين في بلاطه. وبمرور الأيام ارتفع أولئك العرب إلى مناصب عالية. ومنهم كان جمال الدين الذي كان في البداية رئيس التجار و كان يستورد من الخارج للملوك بانديا بفرس العربية النسب بعد أن ثبت إخلاصه للملك عرض عليه وظيفة السفير إلى الصين و أدى جمال الدين هذه المهمة بكل نجاح. و لذا عينه الملك قائد قواته المسلحة في الحرب ضد ملك سرنديب (سيلان) المسمى "باراكراما باغو" وتغلب على ذلك الملك من سريلانكا ورجع ناجحًا. وبعد وفاة الملك سوندارابانديا جعله الناس رئيسًا لهم<sup>2</sup>.

وكانت كيركري بلدة صغيرة بل كانت تاريخية لأنها كانت قرية ساحلية جميلة حتى أصبحت ميناءً رسميًا لمملكة بانديا حيث وقعت التبادلات التجارية بين ملوك بانديا والعرب قبل الإسلام<sup>3</sup>.

زار الشيخ الرحال المشهور ابن بطوطة (1377م) سرنديب في عصر الملك آريا شكرورتي (Aryachakravarthy). طلب من الملك أن يزور أثر قدم سيدنا آدم عليه السلام وساعده الملك لزيارة أثر قدم سيدنا آدم عليه السلام فزارها ابن بطوطة<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الدعوة الإسلامية و تطورها في شبه القارة الهندية، ص 153

<sup>2</sup> دائرة المعارف التاملية، 632/2

<sup>3</sup> المقال بعنوان "مساهمة عالم تاميلي في الأدب العربي" للدكتور بشير أحمد الجمالي من "مجلة الدراسات العربية"، 116/2 (2003م)

<sup>4</sup> تاريخ الأدب التاملي الإسلامي باللغة التاملية، ص 29 و 30

كانت التجارة مشهورة في عهد حكام "بانديا" وهي تجارة العطور واللؤلؤ. وكان العرب ينشئون ويطورون تجارة كثيرًا في تصدير هذه الأشياء. وجمع حكام بانديا الضرائب الجمركية من المواني الساحلية في ولاية تامل نادو وأصبح حكام بانديا أغنياء جدًا بسبب تجارتهم الساحلية العالمية في ولاية تامل نادو.

وكان ميناء كيركري مركزًا لإتيان الأشياء ورسو مختلف البواخر القادمة من شتى الوجهات مثل البلدان الآسوية والبلدان الأوروبية وكانت بواخر البلدان الآسوية لا تجلب إلى ميناء كيركري مواد العرب فحسب بل كانت تأتي بالمواد المصنوعة في غيرها من القارات العالمية. وكان الخليج الفارسي في ذلك الزمن مركزًا عظيمًا للتجارة. وهناك أيضًا جمع كل من تجار العرب والأوروبيين وتبادلوا فيما بينهم من المواد التجارية. وكانت مملكة "بانديا" تفرض على مواد التصدير والتوريد رسومًا جمركية وأصبح هذا الدخل بمرور الزمن موردًا كبيرًا لخزانة مملكة بانديا ولذلك مهد الملوك بانديا جميع التسهيلات المطلوبة للعرب للتجار. وعندما ازدادت أهميتهم في نظر المملكة وارتفع نفوذهم واستوطن التجار العرب هذه البلدة بكل سهولة.

ويثبت هذه الحقيقة من بعض الأحجار التي تم العثور عليها في جوامع كيركري القديمة. وهذه الأحجار تحمل تواريخ بناء المسجد وأسماء من اشتغلوا ببنائها. وكانت لكيركري أسماء أخرى بالإضافة إلى باوترامانكا بانتم وكوركاي. وهي وكدي وسيمي نادوا وتين كاي. وكان هذا الميناء إلى القرن الماضي يستعمل كميناء للسفن في جنوب الهند وتوجد حتى الآن آثار وجود بعض مستودعات المواد للتجار المحليين. هذا أيضًا يدل على ازدهار التجارة واهتمام المملكة في هذه البلدة منذ زمن بعيد<sup>1</sup>.

تقع البلدة قاهرة بانتم في مديرية توتوكودي بمسافة أربعة أميال بالجانب الشمالي من مدينة تروشنودور. وهذه البلدة الساحلية تسمى كاي بانتم أيضًا لكثرة اشتغال الناس في الأيام القديمة بإعداد الملح من مياه البحر. ولكن الدلائل التاريخية تثبت أن العرب الواردين من القاهرة بمصر سمّوا في الزمن القديم بقاهرة بانتم. وفي زمن الدولة

<sup>1</sup> شرف كيركري العظيم، ص 26

العباسية ظهرت العقائد المعتزلية ورؤجها الخلفاء العباسيين. وكان السلطان يكرم علماء المعتزلة مع اعتقاده بعقائدهم وأمر بإجبار الناس أن يعتقدوا بالعقائد الفاسدة خاصة العقيدة المتعلقة بخلق القرآن. وخرجت جماعة من العرب المسلمين الذين لم يستطيعوا الصبر على مظالم الخلفاء. وهؤلاء خرجوا من شعاب "المقدم" بالقاهرة وعددهم 224 نفرًا بقيادة محمّد الخلجي من عائلة الكبرى وساروا بقارب على البحر متوجهين إلى الساحل الهندي وبعد سفر طويل نزلوا بهذا المنطقة من الأرض في 875 الميلادي واستوطنوها وبما أنهم جاءوا من القاهرة دعوا هذه الولاية أيضًا "القاهرة الصغيرة" ولمّا سمع ملك مملكة "بانديا" عن نزول هؤلاء العرب ذهب هناك واستقبلهم استقبالًا حارًا ورّتب لهم جميع التسهيلات اللازمة ومنحهم تلك المنطقة كلها مجانًا إذ أن العلاقة بين العرب ومملكة بانديا كانت قوية راسخة منذ أمدٍ بعيد. وبني هؤلاء اللاجئين مساجد للصلاة ومساكن للسكن.

وبعد مدّة مضت أتت جماعة أخرى من القاهرة بمصر تحت رئاسة السيد جمال الدين المنتمى إلى العائلة الهاشمية. ركبت قاربًا آخر وسافرت في البحر وهبطت بقاهرة باتنم بجنوب الهند في القرن الثالث عشر الميلادي. وكان الملك سونندرا بانديا (Sundara Pandian) يحكم الدولة التاملية وقتئذ. وهذا الملك رجل عظيم سخيّ ولذا أسرع الملك إلى حيث نزلت الجماعة وكرمهم بضيافته وقدم لهم ما احتاجوا إليه من الأغراض الضرورية<sup>1</sup>.

كان السلطان تقي الدين أميرًا في جزيرة "كيش" في إيران وكان أخوه الكبير السلطان جمال الدين حاكمًا لتلك الجزيرة وزار كل منهما مدينة كيركري لعدة مرات لغرض التجارة وأحضرا معهما عشرة آلاف من الخيول سنويًا لمملكة بانديا في ولاية تامل نادو في عام 1303 م. تزوج السلطان تقي الدين من أسرة بانديا المليكة واستقر في كيركري.

كان الشيخ سلطان تقي الدين عبد الرحمن وزيرًا ومستشارًا وزميلًا للملك راجا سندرا بانديان (Raja sundara Pandyan) أقطع له الملك موانئ "كايل فتن" أم "قاهر فتن".

<sup>1</sup> دائرة المعارف الإسلامية التاملية، ص 632

أصبح السلطان تقي الدين رئيس الوزراء لحكومة الملك مارورمان كوليشقر بانديان الأول (Maravarman Kulasekhara Pandiyan) لفترة ما بين 1310م إلى 1315م. وبعد وفاة مارورمان كوليشقر بانديان الأول حكم السلطان تقي الدين المديرية الساحلية مثل كيركري وديفي باتنم. واشتغل ابن السيد جمال الدين المسّي "فخر الدين أحمد" مندوبًا لدولة بانديا لدى حكومة الصين لبعض الوقت.

### (5) العلاقات الدينية والروحانية

فجاء الإسلام وجاءت اللغة العربية معهم وجاء القرآن الكريم بنوره وجاء الحديث الشريف بهدايته فنورت هذه كلها أراضي الهند الجنوبية. فلما جاء الإسلام ودعا الناس إلى الحق لبوا أهل الهند دعوته وأصبحوا مسلمين فالعلاقة التي كانت بين الهند والعرب، أصبحت العلاقة لأجل قبولهم الدعوة الإسلامية.

الصوفيون - الشيخ شاه الحميد الناغوري والشيخ مادح الرسول صدقة الله أبا والشيخ عمر ولي والشيخ تكية صاحب الكبير والشيخ تكية صاحب الصغير والشيخ الإمام العروس - الذين هم ليسوا إلا أبناء العرب المستوطنين الذين بعضهم منتسبون إلى أسرة النبي صلى الله عليه وسلم أو أسرة الخلفاء الراشدين اختاروا المناطق الساحلية لتكون فيها مساكنهم ومراكزهم التي بثوا منها دعوة الإسلام إلى كافة أنحاء الهند. ولذا نرى كثيرًا من مقابر أولئك الشيوخ في القرى الساحلية مثل كيركري وقاهرة باتنم وديفي باتنم وغيرها<sup>1</sup>.

كانت بلدة فنّان (Ponnani) من أهم وأكبر المراكز العلمية والثقافية لمسلمي مليبار من قديم الزمان. فإنها لعبت دورًا هامًا فعلاً في نشر الدعوة الإسلامية وترويج العلوم الدينية والعربية لا في مليبار فقط بل في جنوب الهند كلها. كانت أسرة "المخاديم" أصلاً من "المعبر" في اليمن فهاجروا إلى بعض الأماكن في جنوب الهند مثل كيركري (Kilakarai) وقاهرة باتنم (Kayalpattinam) ومن هناك إلى فنّان فسسي هؤلاء أولادهم وأحفادهم بالمعبرين. والبقع من تامل نادو التي استوطنها آل المعبري أصبحت معروفة باسم "المعبر" عند العرب. ومليبار أيضًا كان يعدّ جزءًا من المعبر وللمخاديم فضل كبير

<sup>1</sup> أسرة الشيخ صدقة الله أبا وخدماتها الدينية و العلمية، ص 22 و 23

في نشر الدعوة الإسلامية في بلاد جنوب الهند مثل مدورائي (Madurai) وتنجائور (Tanjore) وترشناقلي (Tiruchirappalli) وناغور (Nagore) إلى جانب مليبار.<sup>1</sup>

ووصى جيرن بيرومان بيرومال للمسلمين فأرسل رسائل إلى ولاية الأمر في مليبار فيكتب صاحب "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" الشيخ زين الدين المعبري 928هـ/1531.32م "فوصى أصحابه الذين رافقوه وهم شرف بن مالك وأخوه مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن دينار" هذه الواقعة تدلنا على أن المسلمين بدأوا دورة تبليغية ودورة للدعوة إلى الإسلام في زمن جيرن. والمؤرخون يذكرون في تأريخهم عن وجود المقابر والروضات للمسلمين في القرن الثامن الميلادي بمدينة مسماة "كوندلور" على سواحل الهند العربية حينما نرى مدافن المسلمين في كوولام. نجد المقابر المكتوبة عليها اسم العرب المسلم علي بن عثمان فعلمنا بوجود هذه المقابر بأن المسلمين دخلوا الهند في القرن الثامن من الهجرة ومكثوا فيه وعاشوا وماتوا. فورود العرب ثابت بالاقتراسات المذكورة قبل ورود محمد بن قاسم الهند الشمالية.

قال الشيخ زين الدين المعبري الملبباري في "تحفة المجاهدين في أخبار برتغاليين": أما تاريخ السامري فلم يتحقق عندنا وغالب الظن أنه إنما كان بعد المائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوة والتحية. أما ما اشتهر عند مسلمي ملبار (ولاية كيرالا) أن إسلام الملك المذكور كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم برؤيه انشقاق القمر ليلة وأنه سافر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وتشرف بلقائه ورجع إلى شحر مدينة في (حضر موت) قاصداً مليبار مع الجماعة وتوفي فيها فلا يكاد يُصَحِّحُ شَيْءٌ منها لكنه يبدو أن السامري معرب زامودي وكانت في قديم الزمان في الهند أسرة ملكية (جيرومان بيرومال) تحكم على بلاد الملببار وكان هذا السامري أحد ملوكها.

يقول المؤرخ البارز يم. إي غني في جريدته "نور الحق": أن الإسلام ظهر في ولاية تامل نادو منذ 637م<sup>2</sup> وأول بقعة من بلاد الهند استضاءت بنور الإسلام هي بلاد "مليبار"

<sup>1</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 67/2-1/40

<sup>2</sup> (ألف) المقال بعنوان "تين اندياوم دين الإسلام (جنوب الهند ودين الإسلام باللغة التاملية) للشيخ المؤرخ يم. إي. غني. من جريدة "نور الحق"، 1948م  
(ب) يم. عبد الكريم "إسلام تامل" (الإسلام واللغة التاملية)، 1982م ص 58

لأن التجارة كانت قائمة بين بلاد العرب والمليبار منذ عهد عتيق كما ذكر صاحب "تحفة المجاهدين" أن سكان فلسطين كانوا يتاجرون مع المليبار في عهد داؤد وسليمان عليهما السلام<sup>1</sup>.

وقد علمنا أن جماعة من المسلمين من مصر هاجروا في القرن الثالث من الهجرة إلى الهند بسبب فتنة خلق القرآن ونزلوا في الساحل الجنوبي من أقصى الهند وعمروا المواضع مثل قاهر باتنم وكيركري وغيرهما ومع أن الملك لهذه البلاد كان من الهندوسيين استأثر هؤلاء المسلمين لعلو مكانتهم وأخلاقهم الفاضلة وأنعم عليهم بعنايته الوافرة التامة<sup>2</sup>.

ومن الآن فصاعدًا لم يكن العرب يحمل إلى ولاية تامل نادو السلع العربية فحسب بل أتوا إليهم بجوهر نفيس ألا هو دين الإسلام كما لم ترجع التجار والبحار العرب إلى بلادهم بالمنتجات المختلفة من هذه الولاية فحسب بل بدأ يصاحبهم رجال من الهند اعتنقوا الإسلام حديثًا. فربحت تجارة العرب الدنيوية والأخروية. وجاءت بثمار يانعة. العلاقة بين المسلمين وتامل نادو لغرض التبشير بدأت من القرن الثامن. فالعلاقات التجارية القديمة غيرت لونها وأصبحت العلاقة الدينية، كما ذكرت أن روضة الصحابي سيدنا تميم الأنصاري الداري والصحابي سيدنا عكاشة رضي الله عنهما في "كوولم" وفي "محمود بندر" ووجود المساجد على ساحل "كارومندل" (Coromandel) الهند الجنوبية الشرقية) يشير لنا إلى أن الإسلام جاء في القرن الثامن من الميلاد.

يظن بعض مؤرخي الهند أن الإسلام جاء إلى الهند بعد غزو محمد بن القاسم الثقفي الذي أرسله الحجاج بن يوسف الثقفي لفتح السند في شمال الهند سنة 92 هـ / 712 م أو بعد عدة غزوات لمحمود الغزنوي الهند. وهذه الآراء ليست صحيحة ولا توجد دلائل مناسبة لهذه الآراء الباطلة. والصحيح أنه دخل الإسلام المناطق

---

<sup>1</sup> مجلة "البعث الإسلامي"، 84/9/51

<sup>2</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 158/4/55

الساحلية الجنوبية الهندية قبل قرن أو سنيين كثيرة لهذه الغزوات وكان الإسلام موجودًا إلى أبعد حد في المناطق الجنوبية الهندية منذ عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فكانت العلاقة والصلة بين العرب والهند قديمة جدًا. إن المؤرخين كتبوا أن سيدنا آدم عليه السلام نزل من الجنة في سرنديب<sup>1</sup>.

ويحكي بعض الروايات أن تميم الأنصاري عكاشة ومالك بن دينار وغيرهم من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءوا إلى الهند وبنوا بها المساجد. فكل هذه الروايات لها دلالتها التاريخية<sup>2</sup>.

وورد في بعض الروايات أن تميم الأنصاري وعكاشة ومالك بن دينار وغيرهم قدموا الهند. وهناك رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه ويوجد في سنن النسائي:

"عن أبي هريرة قال: وعدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة الهند، فإن أدركتمنا أنفق فيها نفسي ومالي، فإن أقتل كنت أفضل الشهداء وإن أرجع فأنا أبو هريرة المحرر<sup>3</sup>. وتشهد الوقائع التاريخية بأن علاقات الهند العلمية والتجارية بالعرب كانت قديمة قبل غزوة محمد بن القاسم.

إن الدلائل التي تدل على أن علاقة تامل نادو مع جزيرة العرب علاقة قديمة. تثبت وتدل هذه الدلائل الآتية على العلاقات الدينية بين العرب وتامل نادو منذ عصر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أن تميم الداري الأنصاري أتى إلى جنوب الهند في بلد كولام من مضافات مدراس (تسمى الآن شنائي) وقبره موجود إلى الآن<sup>4</sup>. وهو تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمة بن ذراع بن عدي بن الدار. أسلم في سنة تسع من الهجرة وكان يسكن المدينة. الصحابي سيدنا تميم الداري الأنصاري رضي الله عنه توفي هناك وقبره يوجد حاليًا

<sup>1</sup> مجلة "ثقافة الهند"، 152/4/55

<sup>2</sup> علماء العربية ومساهماتهم في الأدب العربي في العهد الأصفهاني، ص 13

<sup>3</sup> مسند أحمد، وسنن النسائي (باب غزوة الهند)

<sup>4</sup> العقد الثمين، ص 28

في قرية "كولام" قريبًا بـ36 كيلومترًا من مدينة مدراس. وهذه القرية "كولام" على شاطئ خليج بنغال وهي قرية صغيرة وفيها مسجد على طراز قديم وهذا المسجد يعرف باسم مسجد ملك بن دينار.

سيدنا الصحابي عكاشة بن المهزن المكي رضي الله تعالى عنه هو الذي شارك في غزوة بدر وجاء إلى ولاية تامل نادو لنشر دعوة الإسلام ودفن في "محمود بندر" التي غيرها البرتغاليون إلى "بورت نوبا" (Portnova) وروضته موجودة على ساحل "كورومندل" (Coramandel)

وظهرت في ولاية تامل نادو حضارة عربية إسلامية حتى انتشرت اللغة العربية في تامل نادو انتشارًا بالغًا. وكان يوجد عدد لا بأس به من العلماء والأدباء في تامل نادو منهم حضرة علي شاه رحمه الله 1050م إلى مديرية مدورائي. ومن هؤلاء العلماء العباقرة حضرة سيد سلطان علاء الدين رحمه الله 1180م وحضرة نطهر ولي وحضرة سيد إبراهيم شهيد والشيخ محمد خليجي رحمهم الله.

ولعل تأثير الصوفية كان أكثر في تكوين الروح الإسلامية في ولاية تامل نادو. اعتبرت ولاية تامل نادو مركز للصوفية. تأثر الإسلام على المستوى الشعبي على وجه الخصوص تأثيرًا كبيرًا بالطرق الصوفية أكثر من تأثره بشريعة العلماء. وأما الدعاة والصوفية فهم الذين أدوا دورًا قياديًا بالمعنى الحقيقي في نشر الإسلام وتعاليمه. الذين قاموا بسد الفجوة بين التقليديين والابتداعيين، بين الأغنياء والفقراء بين المجموعات والمجتمعات.

يوجد في ولاية تامل نادو كثير من العلماء الأفاضل. كل منهم يعتبر منقطع النظير ليس في العرب فحسب بل في العالم كله. كان هؤلاء العلماء يتضلعون من سائر العلوم النقلية والعقلية مثل التفسير والفقه وأصول الفقه وأصول الدين والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع والكلام المنطق وما إليها. وكان كثير من الطلاب يتخرجون على هؤلاء العلماء الأفاضل ويبلغون إلى درجة الأستاذية، حتى أن البعض منهم كان يصبح غزالي وقته ورازي دهره في العلوم والفنون والفضائل العملية.

دخل الناس في الإسلام بعدد كبير كما دخل فيه كثير منهم في العهود السابقة بجهود الصوفية، والدعاة، والأمراء. إن الدراسة العربية بدأت في هذه الولاية منذ بداية الإسلام فيها لأن العربية تعدّ جزءاً لازماً للإسلام ومادة ضرورية في المناهج الدراسية الإسلامية في كل عصر ومصر. ومن المعلوم أن الدراسة العربية في الهند بدأت بأيدي الدعاة، والتجار والصوفية في الزوايا والتكايا، ثم في كتاتيب المساجد الصباحية. ولا تزال الكتاتيب الصباحية تعد من أهم المراكز لدراسة مبادئ الإسلام وعلومه بجانب تعليم اللغة العربية. لم تقتصر جهود الدعاة، والصوفية على نشر مبادئ الإسلام والشريعة الإسلامية فحسب بل إنهم أسسوا مساكن خاصة لهم تعرف في شبه القارة الهندية بـ"خانكاه"، و"درگاه" أو زوايا الصوفية وتكاياهم. وظلت مساكنهم من أهم مراكز التعليم الإسلامي ودراسة اللغة العربية قرونًا عديدة، وظل الصوفية والعلماء ينشرون فيها التعليم عمومًا وبخاصة علوم القرآن والحديث كما قاموا بتزكية النفس. ثم بدأ المسلمون تدريجيًا يؤسسون المباني الخاصة، بجانب المساجد، للدراسات الإسلامية وتعليم اللغة العربية وآدابها وسمّوها المدارس الإسلامية. والمدارس الإسلامية ما زالت ولا تزال أهم مراكز الدراسات الإسلامية والعربية ومعاقليها لا في هذه المنطقة فحسب بل في جميع أرجاء الهند. إن المسلمين اهتموا ببناء المساجد في هذه المنطقة منذ البداية التي أدت ولا تزال تؤدي دورًا كبيرًا في نشر تعليم الإسلام والعلوم العربية. هؤلاء الصوفية والأتقياء والنسك والزهاد المسلمون وأولياء الله الكرام رحمة الله عليهم لم يأتوا إلى ولاية تامل نادو إلا بدافع ديني مجرد من المنفعة الذاتية. غادروا وطنهم وتركوا أسرهم وأغلقوا تجارتهم وطرّدوا راحتهم لأجل الدين وتوطنوا ولاية تامل نادو كي يدعوا سكانها إلى الفوز والفلاح والإيمان والإصلاح.

وهم حملوا إلى أهل ولاية تامل نادو رسالة الإسلام العادلة ليخرجوا الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها وليضعوا عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم. وأدوا واجباتهم أحسن تأدية. فجزاهم الله من الإسلام والمسلمون جميعًا خير الجزاء.

أن تميم الداري الأنصاري أتى إلى جنوب الهند في بلد كولام التي قريبة من مدراس (تشنائي) وقبره موجود حتى الآن. وهو تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن خزيمة بن

ذراع بن عدي بن الدار، أسلم في سنة تسع من الهجرة وكان يسكن المدينة. الصحابي سيدنا تميم الداري الأنصاري رضي الله عنه توفي هناك وقبره يوجد حاليًا في قرية "كولام" قريبًا بـ36 كيلومترًا من مدينة مدراس.

هو الصحابي الجليل تميم بن أوس بن خارجة، أبو رقية اللخمي الداري ينسب إلى الدار وهو بطن من لخم يكنى أبا رقية بابنة له تسمى رقية لم يولد له غيرها. ولد رضي الله عنه بفلسطين. وكان نصرانيًا، ثم قدم المدينة سنة 9هـ وأعلن عن إسلامه أمام الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحدثه بحديث الجساسة بشأن الدجال، وأعجب ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحدث به على منبره الشريف. كان ذا هيئة ولباس.

سيدنا الصحابي عكاشة بن المحصن المكي رضي الله تعالى عنه هو الذي شارك في غزوة بدر وجاء إلى ولاية تامل نادو لنشر دعوة الإسلام ودفن في "محمود بندر" التي غيرها البرتغاليون إلى "بورت نوفا" (Portnova) وروضته موجودة على ساحل "كورومندل (Coramandel). هذه بلدة قريبة من مديرية "كدلور" (Cuddalore) بمسافة ثلاثين كيلومترًا.

عكاشة بن محصن الأسدي من مشاهير الصحابة، أسلم قبل الهجرة. وهو من بني غنم، قوم من بني أسد سكنوا مكة كأحلاف لقريش. هو عكاشة بن محصن ابن حريث بن قيس بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، ويكنى أبا محصن. عرف بين الناس بوفرة العقل وصدق الإحساس وصفاء السريرة، وكان معروفًا بحسن الهيئة والجرأة والإقدام وكان من أجمل الرجال. وعاش في المدينة بين إخوانه من المهاجرين والأنصار أطيب عيش، وكان في أشد شوقه لخدمة دينه، والدفاع عن أمته. شهد عكاشة رضي الله عنه بدرًا واحدًا والخندق وأبلى بلاء حسنًا، واستعمله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سرية (الغمر) في أربعين رجلًا، وهو أخو أم قيس بنت محصن.

جاء السلطان سيد إبراهيم الشهيد من المدينة المنورة بأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (في منامه) مع الجند لنشر الإسلام في السند في 557 هـ / 1161-62 م. ولد الشيخ سيد إبراهيم (1135 – 1199 م) بالمدينة المنورة من نسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. جاء

إلى الهند الجنوبية في زمن سلطنة "بانديا" سنة 582 هـ/87 - 1186 م. وأنشأ سلطنة إسلامية وعاصمتها "باوتر مانكاباتنم" (Pavithramanickappattinam) واستشهد السلطان سيد إبراهيم في سنة 595 هـ/1193 م وحكم على هذه المنطقة لمدة اثنتي عشرة سنة ونصف. ودفن في "إيروادي" (Ervadi) وقبره يوجد حاليًا في هذه القرية. تقع هذه القرية "إيروادي" في مديرية "رامنادبرم" بمسافة سبعة أميال بالجانب الغربي من بلدة كيركري.

وصل الشيخ داؤد إلى ولاية تامل نادو وقبره (60 قدمًا) يوجد حاليًا في قرية متوبيتي (Muthupettai) التي تقع على مديرية "ترووارور" (Thiruvarur) في هذه الولاية. وكان من بني إسرائيل.

وصل الداعي الإسلامي عبد الله بن أنور إلى ولاية تامل نادو في عهد حكام "شولا" وبني عبد الله أنور مسجدًا ويوجد هذا المسجد في "ترشنافلي" حتى اليوم ولكنه في حالة متهدمة.

جاء الشيخ الصوفي نظهر ولي الله من الشام إلى ولاية تامل نادو في القرن العاشر لعصر "شولا" لنشر دعوة الإسلام وتوفي في تامل نادو سنة 417 هـ/1026 م. ومقبرة الشيخ نظهر ولي إلى الآن موجودة في "ترشنافلي" بالقرب من المسجد المذكور أعلاه.

وعندنا آثار وأخبار بالتواتر والقرائن؛ هناك مكان باسم "كولم" (Kovalam) قريب من مدينة تشنائي. هذه قرية على شاطئ خليج بنغال قرية صغيرة جدة على الرمل. ففيها مسجد على طرز قديم وهذا المسجد مشهور باسم مسجد مالك بن دينار. دخل وفد من العرب في تامل نادو قبل عصر "جيران بيرومال" (Cheran Perumal) من "مليبار" بطريق "ستيامانغلم" (Sathia Mangalam) وصل في مملكة ملك "جولا" (Chola) احترامهم الحكام واستقبلوهم. حينما نزور "نطهرنكر" (Nathhar Nagar) المعروف "بترشنافلي" (Tiruchirapalli) نجد مسجدًا صغيرًا قريبًا من محطة "القطار قلعة" (Fort Railway Station). كتب في لوحته التأسيسية اسم الشخص الذي بناه المدعو حاجي أنور الدين بن حاجي عبد الله وهذا المسجد بني في السنة 738 م أي 114 هـ. هذا المسجد هو أول المساجد في الهند وأقدمها حتى قبل مسجد

مالك بن دينار. ونجد المساجد في "كايل باتنم" (Kayal Pattinam) ومدينة "مدورائي" (Madurai) كما نرى في السجلات المحفوظة في المتحف الحكومي للكتب والوثائق في تشنائى أن إخواننا العرب هبطوا على شاطي "كايل باتنم" في القرن التاسع من الميلاد وبنوا هناك ستين مسجداً. ونجد في الدفاتر أن الملك "سونداراباندين (Sundarapandian) بنى مسجداً في "قاضي محلة" بمدورائي وتبرع ومنح أراضي "ويراغنور" (Viraganoor) لإدارته ولنفقاته<sup>1</sup>.

الهند هبت عليها نفحة من نفحات الدعوة المحمدية من فجر ظهورها في جزيرة العرب فلم تزل محط الدعوة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. سافر بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم التابعين إلى القارة الهندية كداعية للإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعضهم قد نزلوا في الهند بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

<sup>1</sup> (أ) المقال بعنوان "العلامة عبد الحميد راوتر-حياته وخدماته لنشر اللغة العربية وأدائها" للأستاذ الدكتور محمد سليمان العمري، ص 58 و59 من "تطور اللغة العربية وأدائها في الهند" للدكتور عبد القادر (المحرر).

(ب) المقال بعنوان "أثار اللغة العربية في ولاية تامل نادو" للدكتور أحمد زبير من مجلة "العاصمة"، 15/2 و16 (2010م)

المصادر والمراجع

1. الأستاذ محمد يوسف كوكن العمري: موقف اللغة العربية في جنوب الهند، أمانة المؤسسة الإسلامية تشنائي، الهند
2. ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي): رحلة ابن بطوطة المسماة بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق: عبد الهادي التازي)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. الرباط، 1997م
3. أبو الحسن علي الحسيني الندوي: المسلمون في الهند، مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي، 1987م
4. أحمد الساداتي: تاريخ الإسلام في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب ومطبعة القاهرة، 1957م
5. أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الأول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968م
6. أحمد زير: أسرة الشيخ صدقة الله أبا وخدماتها الدينية والعلمية (رسالة الدكتوراه)، جامعة مدراس، 2003م
7. الأستاذ الدكتور محمد سليمان العمري: الدراسات العربية والإسلامية في ولاية تامل نادو منذ 1857م، (رسالة الدكتوراه/جامعة مدراس) 1993م
8. أنور الجندي: موسوعة مقدمة العلوم والمناهج، عالم الإسلام المعاصر، دار الأنصار، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
9. البروفيسور الدكتور محمد سلطان محي الدين: علماء العربية ومساهماتهم في الأدب العربي في العهد الأصفجهاهي، مطبعة أبو الوفاء الأفغاني، حيدرآباد، الهند، 2005م
10. تاج الدين: دراسة مساهمة علماء تامل نادو في الدراسات العربية في القرنين (التاسع عشر والعشرون) رسالة الدكتوراه، جامعة جوهرلال نهرو، نيو دلهي، 2010م

11. جمال الدين الفاروقي: أعلام الأدب العربي في الهند، مكتبة الهدى، كاليكوت، الهند 2008م
12. جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى (ترجمة: السيد يعقوب بكر)، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة، 1958م
13. جوهلال نهرو: اكتشاف الهند، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م
14. الحاكم أبو عبد الله النيسافوري: المستدرک، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدکن، الهند، 1334 هـ
15. الدكتور عبد القادر (المحرر): تطور اللغة العربية وأدائها في الهند، ترشي، تامل نادو، 2004م.
16. الدكتور محي الدين الألواني: الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية، دارالقلم، دمشق، 1986م
17. زين الدين بن عبد العزيز المعبري الملبباري: تحفة المجاهدين، دار الكتب المصرية، 1898م
18. السيد يم.أريم. عبد الرحيم: دائرة المعارف الإسلامية التاملية، مطبعة "يوني ورسال"، تشنائي، الهند
19. شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي، عالم المعرفة، تونس، 1299 هـ
20. القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري: رجال السند والهند إلى القرن السابع، مطبعة الحجازية، بمبائي، 1958م
21. القاضي محمد بن عبد العزيز الكاليكوتي الملبباري: قصيدة الفتح المبين، مكتبة الهدى، كاليكوت، سنة الطبع لم تذكر
22. مجلة "ثقافة الهند" العلمية الثقافية الجامعة الفصلية الصادرة عن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، الهند.
23. مجلة "كيرلا" الفصلية العربية الصادرة عن جامعة كيرلا، الهند
24. مجلة الشروق الهندي الأدبية الثقافية السنوية الصادرة عن جامعة أسام، الهند

25. مجلة الصحوة الإسلامية الفصلية الجامعة الصادرة عن دار العلوم، حيدرآباد، الهند

26. ملا محمد قاسم: تاريخ فرشته، مطبعة نول كشور، لكناؤ، 1905م

27. Dr. Tayka Shuayb, Arabic, Arwi and Persian in Sarandib and Tamil Nadu, Imam al – Aroos Trust publication, Chennai, India, 1993-

28. Ibn Batuta, "Travels in Asia and Africa" – Translated and Selcted by HAR Gibb, PUBLISHED BY THE SYNDICS OF THE CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, Bentley House, 200 Euston Road, London, N.W.American Branch: 32 East 57th Street, New York 22, N.Y.

29. M.I.Marakkayar,Keerthi Migum Kilakkarai(Tamil); Marakkayar Pathippagam ,Chennai,1986

30. M.I.Marakkayar,Tamilagathil Marco Polo Ibnu Battuta(Marco Polo and Ibn Batuta in Tamil Nadu/Tamil);May 1981;Millath Publishers;Chennai

31. Prof. Mohd. Yousuf Kokan ; Arabic and Persian in Carnatic, Ameer & Co., Chennai 1989.

## العلاقة بين الجامعات الهندية والمدارس الإسلامية

### بخصوص تطوّر اللغة العربية وآدابها في الهند

- أ. د. فيضان الله الفاروقي<sup>1</sup>

تاريخ الهند الإسلامية وغير الإسلامية مليء بذكر اللغة العربية وآدابها ونشأتها وتطوّرها على أرضها فقد وجدت آيات على وجود اللغة العربية حين عقد المحادثات السريّة في الحرب التي دارت بين كوروف وباندوف أي قبل شروق ضوء الإسلام على أرض الهند بقرون ثم بشّر النبي العربي ﷺ بذياع الدين الإسلامي على أرضها ومساهمة أهلها في نشر هذا الدين والدفاع عنه. فلو أن العرب قد وردوا الهند كحاكمين تحت قيادة محمد بن القاسم وغابوا عن ساحتها بعد قليل تاركين الحكم في أيدي السلاطين والحكام المسلمين الآخرين الذين لم يكونوا عربًا أقحاحًا وكانوا من البلاد الأعجمية من إيران أو تركستان أو غيرهما من البلاد.

ويبتدئ تاريخ العلم العربي الإسلامي منذ أن وردت العرب المسلمون هذه الأرض فجعلوا ينشرون ما قد تشرّفوا به من تعاليم الدين الإسلامي منورين كيرالا والبلاد الهندية الساحلية الأخرى بنور الإسلام حتى بلغ ضوؤه دلهي وأنحاءها فبمحاولتها وما بذلته جونفور من الجهود المضنية في نشر العلم العربي الإسلامي قد ضجّت الهند كلّها بصوت "قال الله" و"قال الرسول". وعلم اللغة العربية وآدابها وليد هذا الصوت بحيث أن علماء المدارس الإسلامية الذين كانوا يعلمون القرآن والحديث والعلوم الإسلامية الأخرى هم الذين كانوا يعلمون اللغة العربية وآدابها، وكانوا يفسّرون

<sup>1</sup> بروفيديسور، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند

القرآن ويوضّحون الأحاديث بجانب إنتاجاتهم النظرية وإبداعاتهم الشعرية التي تعترّ بها الهند والتي تتطلّب حديثاً آخر غير هذه.

هذا ولما تمّ التعريف باللغة العربية وآدابها في الكليات الحكومية ومن ثم في الجامعات الحكومية فلم يقدّم بتدريسها إلا من كان قد تخرّج من تلك المدارس الإسلامية، وبناء على هذا فما حدث ويحدث باسم تطوير اللغة العربية وآدابها في هذه البلاد يرجع فضله إلى هؤلاء المتخرجين في هذه المدارس وبعبارة أخرى فهناك علاقة وطيدة غير منفكّة بين الجامعات الهندية والمدارس الإسلامية بالنسبة لتطوير اللغة العربية وآدابها في هذه البلاد وغيرها من بلاد باكستان والبنغلاديش.

وفي هذه المقالة الوجيزة نحاول تسليط الضوء على هذه العلاقة بشيء من التفصيل.

أولاً: الاعتراف بأهمية متخرجي المدارس الإسلامية من قبل الجامعات الهندية: فالشيء الأول الذي نلاحظه بهذا الشأن هو اعتراف الجامعات الحكومية بالفضل العلمي لمتخرجي هذه المدارس الإسلامية:

1. فأولاً اعترفت الجامعات الحكومية بمعادلة شهادات المدارس الإسلامية شهادات البكالوريوس والماجستير في العلوم الاجتماعية فكما اعترفت بمعادلة شهادة العالمية شهادة الثانوية فكذلك اعترفت بمعادلة شهادة الفضيلة شهادة الليسانس حتى أن بعض الجامعات الهندية مثل جامعة أفدم (Avadh) قد قرّرت شهادة "فاضل" معادلة لشهادة ماجستير وسمحت حاملها الالتحاق بالدكتوراه في العلوم الاجتماعية.

2. وثانياً أن بعض الجامعات الحكومية قد أقرّت أنّ حامل شهادة الفضيلة سيكون مسموحاً لتقديم الطلب لأستاذ في العلوم العربية والإسلامية ومنها جامعة علي كره الإسلامية التي أقرّت أنّ حامل شهادة الفضيلة سيكون مسموحاً لتقديم الطلب لأستاذ في العلوم الإسلامية فالشيخ مسعود عالم القاسمي مثلاً حيّ لذلك، وكذلك البروفيسور عبد الباري الندوي قد جعل أستاذاً في الجامعة العثمانية وهو لم يكن سوى حامل شهادة الفضيلة.

3. وثالثاً أن الجامعات الهندية قد منحت شهادة الدكتوراه الشرف لحاملي هذه الشهادات المدرسية فقد منحت جامعة كاشمير الشيخ أبا الحسن علي الحسيني الندوي شهادة الدكتوراه الشرف في الدراسات العربية وهو لم يكن يحمل سوى هذه الشهادات.

4. ورابعاً أن حامل هذه الشهادات قد حاز جائزة البراعة الرئاسية في الدراسات العربية من قبل الحكومة الهندية فقد فاز العديد من علماء المدارس الإسلامية الذين لم يكونوا سوى حاملي هذه الشهادات وهذه الجائزة أعلى جازة وأشرفها يحصل عليها باارع في الدراسات العربية في الهند.

5. وكذا حاز متخرجو هذه المدارس أعلى جائزة هندية وأفضلها وهي بادام شيري (Padam Shree) فالشيخ وحيد الدين خان الذي ليس سوى متخرج في مدرسة إسلامية (مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره) قد نال هذه الجائزة الحكومية العليا.

وثانياً: نسبة المتخرجين في المدارس الإسلامية كأساتذة في هذه الجامعات: فالشيء الأول الذي يلفت أنظارنا نظراً للعلاقة بين الجامعات الهندية والمدارس الإسلامية هو عدد الأساتذة الجامعيين ونسبة المتخرجين من المدارس الإسلامية فيها. فلو نظرنا بعيني الإنصاف لوجدنا أن نسبة المتخرجين من المدارس الإسلامية في أساتذة اللغة العربية وأدائها في جامعات الهند هي تسع وتسعون في المائة فسيثبت ما قلنا من الجدول التالي لأساتذة قسم اللغة العربية وأدائها لبعض الجامعات الهندية:

اسم الجامعة	عدد أساتذتها للغة العربية وأدائها	عدد من تخرّج من المدارس الإسلامية
جامعة دلهي	6	6
جامعة جواهر لعل نهرو	7	6
الجامعة المليية الإسلامية	10	8
جامعة علي كره الإسلامية	9	8

1	1	جامعة إنديراغاندي
4	4	جامعة لكاناؤ
5	5	جامعة مولانا أبي الكلام آزاد
4	4	الجامعة العثمانية
3	3	جامعة إله آباد
3	3	جامعة كلكتة
4	4	الجامعة العالية
2	2	جامعة فيسفا-باراتي

وثالثاً: المناهج الدراسية ومقرراتها؛ وليس هذا فحسب بل قد تم تقرير الكتب والرسائل التي هي إما كانت تدرّس في هذه المدارس الإسلامية أو هي التي كتبها العلماء الذين تخرّجوا من هذه المدارس:

1. فمن الكتب التي كانت تدرّس في هذه المدارس الإسلامية ثم وُضِعَتْ في المقررات الدراسية لجامعات الهند وكلياتها هي المعلقات السبع، ومختار قصائد الخنساء والفرزدق وجريز، ومختار آيات القرآن الكريم، ومختار الأحاديث النبوية، ومقامات الحريري، وموادّ البلاغة وكتب النحو والصرف وغيرها مما قد كانت من المقررات الدراسية للمدارس الإسلامية ثم وُضِعَتْ من المقررات الدراسية لهذه الجامعات.

2. ومن المؤلفات والكتب التي أُلْفِها متخرجو هذه المدارس ثم هي وُضِعَتْ في المقررات الدراسية للجامعات الهندية هي مؤلفات الشيخ عبد الحميد الفراهي والشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي والشيخ وحيد الزمان الكيرانوي والشيخ ضياء الحسن الندوي والشيخ عبد المجيد الإصلاحي والدكتور ظفر الإسلام خان

والشيخ شفيق أحمد خان وقصائد ومنظومات علماء هذه المدارس مما قد تمّ وضعها في المقررات الدراسية لهذه الجامعات الهندية.

3. وليس هذا فحسب بل المواد التي قُرِّرت في المقررات الدراسية لـUGC يشملها ما كتبها هؤلاء العلماء بجانب تراجمهم فالشاه ولي الله الدهلوي والمحدث عبد الحق الدهلوي والعلامة فيض الحسن السهارةفوري والشيخ عبد الحيّ الحسني والعلامة عبد الحميد الفراهي وغيرهم من العلماء الذين تخرّجوا من المدارس الإسلامية.

4. وحتى قد وُضعت هذه المقررات الدراسية من المقررات الدراسية للخدمة المدنية لحكومة الهند.

ورابعاً: تغيّر الوضع بعد 1960م: ولو أن وضع اللغة العربية قد تغيّر قليلاً بعد خروج النفط وكثرة الموارد العربية فجعل الناس يهرعون على التكلم بالعربية ويركّزون عنايتهم على هذا الجانب الطارئ إلا أن معظم من يشتغل بهذه الوظيفة هم أيضاً ممن قد تخرّج من هذه المدارس الإسلامية. فمن أبرزهم البروفيسور زبير الفاروقي والدكتور ظفر الإسلام خان وكلاهما قد تخرّج من هذه المدارس الإسلامية فأولهما قد تخرّج من دار العلوم بديوبند بينما الثاني قد تخرّج من دار العلوم بندوة العلماء.

وخامساً: الطابع الديني: والشيء المهم في مساهمة هؤلاء المتخرجين في المدارس الإسلامية هو الطابع الديني السائد في هذا الجوّ العلمي الجامعي وذلك أنما نراه ونشاهده في هذه الجامعات الحكومية من الطابع الديني المنتشر هو ليس إلا بفضل هؤلاء المتخرجين في المدارس الإسلامية فهم الذين قد اصطبغوا هذه الجامعات وطلّابها بالصبغة الدينية وإلا فلن نتخيّل مدى ضلالها وغوايتها.

هذه وجوانب أخرى تدلّ بوضوح على أن المتخرجين في المدارس الإسلامية قد لعبوا دوراً ريادياً في وضع مناهج اللغة العربية الدراسية لجامعات الهند كما قاموا بتدريس هذه اللغة وأداها فيها حائزين على جوائز حكومية عليا بهذا الشأن.

## الخطاب الصوفي الإسلامي

### وأثره في رَوْحَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالتَّقَرُّبِ بَيْنَ الْأَنَا وَالْآخَرِ

- أ. د. أمين يوسف عودة<sup>1</sup>

توطئة:

إن استكشاف الجانب الروحي في الإنسان واستثماره وتغذيته بمعرفة الله تعالى، هو الإكسير الذي يحوّل المعادن الخسيسة إلى معادن لا تقدر بثمن. وهو الطريق القادرة عملياً على وأد منابت الشر والقبح في النفس البشرية، وقيادها من الولوع بجسدية الكون والولوع فيه إلى التفيؤ في ظلال روحانيته ونورانيته التي هي مجلى وجه الحق تعالى ورحمته السارية في الوجود؛ وإلا "فكيف يُشْرِقُ قلبُ صور الأكوان منطبعة في مرآته؟! أم كيف يرحل إلى الله وهو مُكَبَّل بشهواته؟! أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟! أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟!".<sup>2</sup>

والظاهر أن طريق التربية الروحية في الإسلام قد وجدت لها ملاذاً، من بعد عهد الصحابة والتابعين، في ما سُمّي بالتصوف، وفق ما يرى ابن خلدون (ت 808 هـ) في تفسيره حدوث هذه الظاهرة بقوله: "هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامّاً في الصحابة

<sup>1</sup> أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أهل البيت، الأردن

<sup>2</sup> الحكم العطائية والمناجاة الإلهية، تليها الحكم العطائية الصغرى، ص 15-16.

والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصَّ المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة<sup>1</sup>.

إن طريق الصوفية هذه يمكن اختزالها في كلمات ثلاث هي: التخلّي والتحلّي والتجليّ؛ أي أن يتخلّى العبد عن الصفات التي يذمّها الشرع، ويتحلّى بالصفات التي يحمدها<sup>2</sup>، ليتجلّى الحق تعالى عليه بالتحقق، "وهو معرفة الشيء على حقيقته"<sup>3</sup>. وهذه الكلمات الثلاث هي الوجه الآخر لكلمات ثلاث أخر تتعيّن فيها مكوّنات الدين من حيث هي شرائع وسلوكات ومعارف، وهي: الشريعة والطريقة والحقيقة. فالشريعة هي قوله تعالى للعبد افعل ولا تفعل. والطريقة هي تلبّس العبد بقوله افعل ولا تفعل طاعة وامثالاً وإيماناً. والحقيقة هي الآثار المعرفية بالله تعالى وشهود وحدانيته به لا بنا، يغدق بهما الحق تعالى على عبده الذي ترك الكلّ وراء ظهره، وحطّ عصا الترحال عند ربه.

وليست هذه الطريق حكراً على الإسلام وحده، إنما هي منزع إنساني في مشارق الأرض ومغاربها، وفي الماضي والحاضر والمستقبل. وكل أمة ذات اعتقاد بالله تعالى تجد لديها طرائقها الروحية، وانغماساتها الإشراقية النورانية. والكل يحظى بوصول من ليلاه على قدر ما في دينه أو معتقده من حق ونقاء وإخلاص. ولو وجّهت الشعوب أنظارها نحو هذا المكوّن الروحي الكامن فيها، لوجدت فيه قاسماً مشتركاً يتيح لها الوقوف على قدر كبير من التقارب والتآلف والتناغم، ويدعوها إلى نبذ الخلافات السطحية والفرعية والمؤقتة التي باتت تحلّ محلّ حقيقة الأصل الواحد الذي تشترك فيه الإنسانية، ألا وهو الأخوة. ولقد ذُكر عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه دعا إلى احترام الناس جميعاً<sup>4</sup> فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق<sup>4</sup> أي في الإنسانية. فإذا لم تتسع الأخوة في الدين للآخر، ففي الأخوة الإنسانية متسع للجميع.

<sup>1</sup> مقدمة ابن خلدون، ص 449

<sup>2</sup> إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 25. واللمع، ص 439-440

<sup>3</sup> النصوص في مصطلحات التصوف، ص 55

<sup>4</sup> نهج البلاغة، ص 622

إن هذا الخطاب ليس خطاباً في التسامح المجاني، إنما هو خطاب معرفي ينبثق من رؤية دينية إنسانية، تحاول البحث عن قواسم مشتركة بين الأنا والآخر؛ من أجل تضييق فجوات الصراع، وتجفيف منابع الخلاف، وتطهير النفوس مما يلبسها من نزوع نحو الظلم والاستقواء والتسلط؛ ليتسنى للمرء أن يرى لا بعيني رأسه فحسب، إنما بعيني قلبه وروحه أيضاً؛ إذ ليس من شك في أن الاستبصار أقوى من الإبصار وأسمى، وأدعى إلى الوقوف على الحقائق يقيناً لا ظناً؛ فيُرى الباطل باطلاً، والحق حقاً، ويُنصف للمظلوم من الظالم.

إذن هي دعوة إلى تلمس ما يسع الجانب الروحي في الدين والإنسان أن يقوم به؛ من أجل أن يستعيد الإنسان إنسانيته وكرامته اللتين باتتا في مهب ربح عاصفة مُدرة، ومن أجل استعادة خُلُق الحب الذي جُبل عليه الكون بأسره أحياء وجمادات. وهي دعوة للأخّر ليبدلي بدلوه، كما ستدلي هذا الورقة بدلوها في الحديث عن بعض ما ينطوي عليه التصوف في الشهود والحب، وما ينطوي عليه هذان المرتكزان من رؤى معرفية وسلوكية قادرة على تحرير الروح الإنسانية ممّا علق بها من حجب ظلمانية، تحجب البصر والبصائر عن مقارنة الحق، وقادرة على تذويب الفكر المنغلق على نفسه وذو الرؤية الأحادية، وتحرير طاقة النور الكامنة في الذات الإنسانية من قمقم الأنا وطغيانها وظلماتها.

#### الشهود الصوفي:

يُمثّل التصوفُ جوهرَ الإسلام الروحي، والغاية التعبدية القصوى للفرد الذي ينشد التحرّر من عبوديته للأكوان، إلى إخلاص العبودية لرب الأكوان؛ لأنه كذلك لا لعلّة عاجلة أو آجلة، بمعنى أن الله تعالى - في حقيقة الأمر - يستحق أن يُعبد لذاته دون شرط؛ لأن مرتبة الألوهية تطلّب مألوهاً<sup>1</sup>. وسيبدو هذا الأمر جلياً مع الوقوف على

<sup>1</sup> لا يتناقض هذا مع قوله تعالى في الآية (16) من سورة السجدة: " ... يدعون ربهم خوفاً وطمعاً" لأن خطاب الشريعة يكون للأكثرية العامة. أما خاصة عباده فقال في حقهم في الآية (28) من سورة الكهف: " ... يدعون ربهم بالغدوة والعشيّ يريدون وجهه" أي إن حقيقة عبادتهم قائمة على

مراتب الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان؛ لاستخلاص أن أصول التصوف تنبع من مرتبة الإحسان الأخيرة التي تمثل القمة الهرمية في هذا الترتيب. وقد جاء في وصفها على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"<sup>1</sup>. والمتأمل في هذا العبارة الشريفة يجد أنها تنقسم قسمين: قسم أصل ينطوي على الغاية الحقيقية من الدين، والهدف الأسمى له، وهو قوله: "أن تعبد الله كأنك تراه" وهي المقولة الأصل والغاية<sup>2</sup>، وفيها دعوة واضحة مباشرة إلى مرتبة تعبدية يرى فيها الحقُّ تعالى متجليًا في كونه، وحاضرًا وقريبًا ومهميًا. وعند الحديث عن حضور الحق تعالى - وهو الذي لم يغب أزلًا وأبدًا - علينا أن ندرك أن حضوره ليس كمثله شيء، وأن حضوره شأن من شؤونه الخاصة يفضي إلى إلغاء حضور غيره وإفناؤه بالنظر إلينا لا بالنظر إليه تعالى؛ إذ هو الباقي أزلًا وأبدًا، والأشياء فانية أبدًا وأزلًا. يقول أبو مدين التلمساني (ت580هـ) مصورًا هذه الحقيقة الذوقية:

اللَّهُ قُلٌّ وَذَرِ الْوَجُودَ وَمَا حَوَى	إِنْ كُنْتَ مُرْتَادًا بَلُوعَ كَمَالِ
فَالْكُلُّ دُونَ اللَّهِ إِنْ حَقَّقْتَهُ	عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ وَالْعَوَالِمَ كُلَّهَا	لَوْلَاهُ فِي مَخْوٍ وَفِي اضْمِحَالِ
مَنْ لَا وَجُودَ لِدَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ	فَوْجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنٌ مُحَالِ
فَالْعَارِفُونَ فَنُؤًا وَلَمَّا يَشْهَدُوا	شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكًا	فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ <sup>(3)</sup>

وهذه حقيقة وجودية ذاقها من ذاقها بفعل الممارسة التعبدية، والتلبس الحقيقي بأوامر الشريعة ونواهيها، وليس بفعل التأمل العقلي أو التعمد الشكلي. لكن الإنسان

عبادة ذاته العلية دون شرط. وهذا لا يعني انتفاء الخوف والطمع في حقهم، ولكنهم لا يعبدونه بتوسط هاتين العلتين، فإن عدمت العلتان عدمت العبادة، إنما يعبدونه لذاته وحسب؛ فإن رحم وقرب أو أبعد وعذب فهو الحكم العدل. "لَا يُسَلُّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلُّونَ" الأنبياء: 23.

<sup>1</sup> الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم، رقم الحديث: 82

<sup>2</sup> وأما القسم الفرع فهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

<sup>3</sup> الديوان، ص 57

خارج نطاق الممارسة الفعلية لا يتعامل مع هذه الحقيقة الوجودية تعاملًا مباشرًا إلا من باب العلم والمعرفة النظريين، ولو عاناها معاناة مباشرة لاستشعرت ذاته حالة التلاشي والفناء واللاوجود التي هي الأصل الذي لم تغادره، ولن يكون، ثمة، عابد ومعبود؛ لذلك اقتضت حكمته تعالى ورحمته أن يحتجب عنا في عين حضوره؛ ليصح التكليف وتكون العبادة. أقول هذا الكلام؛ لأن العبارة النبوية الشريفة الأنفة تستضمرة وتشي به، فمدار التصوف على هذه المرتبة التعبدية المشيدة على الرؤية من منظور حال الفناء<sup>1</sup>. وهي ليست رؤية بصرية، إنما هي رؤية فؤادية أو روحية ذوقية، أو إن شئت قلت هي حالة تعبديّة تستشعر فيها الذات العابدة تلاشي وجودها، إزاء وجود الحقيقة الكبرى التي هي وجود الحق تعالى أو ذاته المطلقة التنزيه؛ إذن فهي ليست علمًا نظريًا نودعه العقل وحسب، أو رسومًا تُمارس بلا معان وأذواق؛ فالغاية من العبادة هي المعبود وليست العبادة، وإذا لم تؤد العبادة إلى شهود المعبود فليست بعبادة إحسان، إنما هي عبادة إسلام وإيمان. فالأصل - في عبادة الإحسان- أن تعبد الله كأنك تراه. ولنتأمل مرة أخرى في العبارة النبوية الشريفة التي صيغ مستواها البلاغي عبر التشبيه بكأنّ التي يقول النَّبِيُّ (ت354هـ) في وصف مثلها: "ليس الكاف تشبيهاً، هي حقيقة أنت لا تعرفها إلا بتشبيهه"<sup>2</sup>. فإذا ما أنزلنا مقولة النفري على قوله: "كأنك تراه" في حديث الإحسان، فإن هذه العبارة - في حق من عرفها ذوقًا- لا تعود تشبيهاً يفضي إلى التخيل أو التصوّر، بل تعود حقيقة وجودية يستوطنها العابد ويعيشها كما يعيش أي أمر محسوس، ولكنه إذا أراد التعبير عنها

<sup>1</sup> إذا أطلق الفناء: إنما ينصرف للفناء في الذات. وحقيقته: محو الرسوم والأشكال بشهود الكبير المتعال، واستهلاك الحس في شهود المعنى... وقد يطلق الفناء على الفناء في الأفعال، فلا يرى [الفاني] فاعلا إلا الله. وعلى الفناء في الصفات، فلا قدير ولا سميع ولا بصير إلا الله؛ يعني أنه يرى الخلق موتى لا قدرة لهم ولا سمع ولا بصر إلا بالله. وبعد هذا يقع الفناء في الذات. اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية في رسائل العارف بالله الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني، ص 237

<sup>2</sup> كتاب المواقف والمخاطبات، ص 78

بالكلمات، لم يجد بدءاً من أن يبحث عن معادل لغوي يحاول أن يتوسل به إلى وصف هذه الحالة الذوقية، فلا يجد غير التشبيه أو الترميز ملاذاً له.

ولعل ما يؤكد صحة ما ذهب إليه النفري، أن القسم الثاني من العبارة الشريفة، وهو القسم الفرع، حُذفت منه أداة التشبيه "كأن" الواردة في القسم الأول. فقال: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ولم يقل: "فإن لم تكن كأنك تراه فإنه يراك". وهو ما يسمح بتأويل هذا الحذف تأويلاً إشارياً يحيل إلى المعنى الذي ذهب إليه النفري.

قد يُنظر إلى ما سقناه آنفاً في هذه الإضاءة على أنه لا يجاوز تخمينات وتأويلات يسقطها الفكر على الظاهرة المُفكّر فيها، وهو نظر وجيه ومعتبر، ولكنه مدفوع بقوله تعالى: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَوَجَّهَ اللَّهُ﴾ [البقرة: 115] ووجهه تعالى ذاته. وهو تعالى، كما يُخبر عن نفسه:

"ثُمَّ أَيُّ هُنَا وَهُنَا، مع أنه فوق الـ"هنا" والـ"هناك" لأنهما من مخلوقاته، وهذا يعني أن ثمة صيغة وجودية، أو بعبارة أخرى شأنًا خاصًا من شؤون الذات الإلهية يشير إلى تنزُّلها من مرتبة الإطلاق إلى مرتبة التعيين، دون أن يكون لهذه المرتبة بطبيعة الحال تأثير على مرتبة الإطلاق بالنظر إلى الحق تعالى. فهو كما قال عزّ شأنه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]. فهو تعالى الجامع بين الأضداد بما تصح نسبته إليه كما في الآية. وفي هذا المعنى يقول ابن عربي (ت638هـ): "فالعارف لا يعرف إلا بجمعه بين الضدين فإنه حقٌّ كلّه كما قال أبو سعيد الخراز (ت279هـ) وقد قيل له: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين"<sup>1</sup>؛ لذلك فهو المنزّه المشبّه والمطلق المتعيّن، المطلق بالنظر إلى ذاته من حيث "كان الله ولا شيء معه"، والمتعيّن بالنظر إلى ذاته العلية من حيث تجلّيتها في الأكوان والإنسان بأسمائها وصفاتها وأفعالها. إن الحق تعالى يخاطب العباد من مرتبة التعيين هذه، ومنطوق خطابها مفهوم وواضح، فمنطوق الآية يقول لنا أينما نظرتم وتوجهتم بأبصاركم فإنها واقعة على وجه الحق تعالى لا محالة. ولكن، أين نحن من النظر إلى وجهه تعالى عندما نوليّ بأبصارنا في المشارق والمغرب، أو

<sup>1</sup> الفتوحات المكية، 512/2

هنا وهناك، وليس ثمة إلا الأكوان والأشخاص والأشياء!؟ إن التفكّر في هذا المُشكّل سيفضي إلى إقرار أمر واحد لا ثاني له، وهو أن الناظر أعمى البصيرة، أي أنه محجوب عن رؤية وجه الحقّ تعالى المتجلّي في الأكوان "ألا ترى المحجوبين الجاهلين كيف يسمعون كلام الحقّ تعالى ولا يسمعون! أعني لا يعرفونه. وإذا انتفت فائدة السمع فقد انتفى السمع لانتفاء المقصود منه، فقد ملك الحقّ تعالى سمعه وصرفه عن معرفة المسموع كلام مَنْ هو؟ وكذلك يبصرون الحقّ تعالى ولا يعرفونه، فانتهى البصر لانتفاء فائدته. فقد ملك الحقّ أبصارهم وصرفها عن معرفة المُبصّر مَنْ هو؟ فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون".<sup>1</sup> وهم كما يقول الحلاج:

وأبى الأرض تخلو منك حتّى      تعالوا يطلبونك في السّماء  
تراهم ينظرون إليك جَهْرًا      وهم لا يبصرون من العماء<sup>2</sup>  
فكيف السبيل إلى الخروج من العمى إلى البصيرة؟

لعلنا قاربنا الخروج من العمى؛ فالآية الكريمة: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] ذات مستويات دلالية ثلاثة، المستوى الأول: دلالتها المباشرة وفق اللسان العربي المبين، هو منطوقها المباشر، فأينما توجّهنا فذات الحقّ تعالى ثَمَّ. والمستوى الثاني: دلالة غير مباشرة هي جُماع التخمينات والتأويلات التي سقناها فيما يتعلق بشؤون الذات الإلهية في الإطلاق والتعيين، وتجلّمها في الوجود كما يليق بها. والمستوى الثالث: هو التأويل بمعناه الفعلي لا الفكري، أي تحويل الكلام المنطوق إلى فعل مشهود، ولا يتحقق هذا إلا بالموت الاختياري، أو بما يسمّيه التصوف (الفناء) الذي سيُمكن العبد من التحرّر من قيود الـ"هنا" والـ"هناك" لينطلق إلى رحاب المطلق ويشهد الحقّ تعالى كما أخبر عن نفسه في هذه الآية. إن العبد يشهد ربّه برّبّه لا بنفسه، وعندئذ يكون العبد قد تحقّق تحقّقًا ذوقيًا فعليًا من قوله صلى الله عليه وآله وسلّم: "... وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،

<sup>1</sup> كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، 1/54

<sup>2</sup> الديوان، ص 26

وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...<sup>(1)</sup> بعيدًا عن أي معنى من معاني الحلول والاتحاد أو ما يخامرهما.

وهكذا تتحول الآية الكريمة في حق العبد من مقولة فكر يتظاهر على إنتاجه المستويان الدلاليان الأول والثاني، إلى مقولة فعل وذوق يتظاهر على إنتاجهما المستوى الدلالي الثالث، ومن هذا المستوى الأخير يتحدد مفهوم الشهود الصوفي العميق لحقيقة الوجود، وغايته السامية.

ويتجلى صدى ما نحن فيه من كلام في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18] فقد مَنْ الْحَقُّ تَعَالَى عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْعُلَمَاءِ بِهِ بَأَن أَشْهَدَهُمْ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ كَمَا شَهِدَهَا هُوَ فِي حَقِّ نَفْسِهِ تَعَالَى، فَشَهِدُوا مَعَهُ وَلَهُ بِهَا، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّهُ عَطَفَ شَهَادَتَهُمْ عَلَى فِعْلِ شَهَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَرَّرِ لِفِعْلِ "شَهِدَ" وَلَوْ ذَكَرَ الْفِعْلَ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ شَهَادَتَهُمْ غَيْرِ شَهَادَةِ الْحَقِّ تَعَالَى. وَهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ هُمُ الْعَامِلُونَ بِعِلْمِهِمْ يَرِيدُونَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، عَسَى أَنْ يَكُونُوا خُلَفَاءَ تَعَالَى فِي أَرْضِهِ. وَلَعَلَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ وَجْهَهُ فِي قَوْلِهِ: "... بَلَى، لَا تَخْلُو الْأَرْضَ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ: إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا؛ لئَلَّا تَبْطُلَ حُجُجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ. وَكَمْ ذَا؟! وَأَيْنَ أَوْلَيْكَ؟ أَوْلَيْكَ وَاللَّهِ الْأَقْلُونَ عِدْدًا، وَالْأَعْظَمُونَ قَدْرًا. يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجُجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُوَدِّعُوهَا نِظْرَائِهِمْ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرْفُونَ، وَأَنْسَوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحَبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أَرْوَاحِهَا مَعْلُوقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أَوْلَيْكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدَّعَاةُ إِلَى دِينِهِ..."<sup>2</sup>.

إن العبد عندما تتصعد روحه في مثل هذا الشهود، وتغدو مرآة صافية تنعكس فيها صفات الحق تعالى بجمالها وجلالها – فإن لطيفته الروحانية هذه تكتسي من

<sup>1</sup> الجمع بين الصحيحين، 240/3

<sup>2</sup> سجع الحمام في حكم الإمام، ص 468-469

تجليات الجمال والجلال بواردات عرفانية من لدنه تعالى لم يكن لها عهدٌ بها من قبل. ومن شأن هذا العرفان أن يجعل طاقة الحياة الكامنة في العبد طاقة إيجابية خلّاقة، تزرع الخير في كل أرض تطوّها- وكأنها الخَضِرُ حينما يجلس على الأرض فتمتاز من تحته خضراء نضرة<sup>1</sup>- وتنزع الشرَّ من القلوب بحب الله وحب خلقه. فالعبد صاحب هذا الشهود الذي يحيا حياته بالله ولله، لا يسعى إلى مطمع دنيوي؛ لأن شهوده أوصله إلى يقين راسخ بأن الدنيا سراب غابر وظل عابر، ولعله أن يتطلّع إلى مطمع واحد، هو أن يكون عبداً محضاً لله تعالى، يعلم الناس الحكمة والخير والتعبد لله لا للأكوان.

#### التصوّف: دين الحُبِّ والرحمة:

يبدو أن التصوف لم يصادف شيئاً طيباً إلا واحتمله معه. ومن طبيّاته أنه مجبول على الحب، ليس فقط حب الله، فهذا أمر بدهي في التصوف، ولكنه الحب الذي تشرق به نفوس العارفين، وينبسط ليشرق به الكون بأسره؛ لأن شهودهم لحقيقة الوجود أعطاهم أن الكون بما فيه، غيباً وشهادة، منصةٌ لظهور الحق تعالى ومجلى له. وما خلق الخالقُ كونه إلا بالحب. وما أحوج الإنسانية الراهنة إلى فهم هذا المعنى العظيم، وتشويره في واقعها المؤلم البائس؛ ليحب الناس بعضهم بعضاً، ويتخففوا من مشاعر الكراهية والبغضاء والعداوة، ويتزودوا من مشاعر الحب والتراحم والتقارب. وقد قال ابن الدباغ (ت696هـ): "اعلم أن المحبة تأثيرها في النفوس الإنسانية للطفافة والصفاء والرقّة وسائر الأوصاف المكملّة لها..."<sup>2</sup>.

وثمة مقولة رئيسة ينطلق منها الشيخ محيي الدين ابن عربي (ت638هـ) في تأسيس فلسفة الحب الكونية، وهي الحديث القدسي الذي جاء فيه: "كنت كنزاً لم أعرف

<sup>1</sup> ورد في بعض الأخبار أن سبب تسميته الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تمتاز تحته خضراء. والفروة هي الأرض اليابسة. انظر: الزهر النضر في نبأ الخضر، ص 21

<sup>2</sup> كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب، ص 105

فأحبت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني<sup>1</sup>. فأصل الوجود عند الشيخ قائم على الحب؛ لأن الله تعالى أحب أن يُعرف من خلقه، فاندرج الحب فيما خلق. "والحب مقام إلهي فإنه وصف نفسه به وتسمّى بالودود، وفي الخبر بالمحب"<sup>2</sup>. وينسب ابن عربي الحب إلى الله تعالى والإنسان بقوله:

الْحَبُّ يُنْسَبُ لِلْإِنْسَانِ وَاللَّهِ  
الْحَبُّ ذَوْقٌ وَلَا تُدْرَى حَقِيقَتُهُ  
لِوَاظِمِ الْحَبِّ تَكْسُونِي هَوِيَّتُهَا  
بِالْحَبِّ صَحَّ وَجُوبُ الْحَقِّ حَيْثُ يُرَى  
بِنَسَبِهِ لَيْسَ يَدْرِي عَلْمُنَا مَا هِيَ  
أَلَيْسَ ذَا عَجَبٍ وَاللَّهِ وَاللَّهِ  
ثَوْبَ النَّقِيزِيِّينَ مِثْلَ الْحَاضِرِ السَّاهِي  
فِينَا وَفِيهِ وَلِسْنَا عَيْنَ أَشْبَاهِ  
أَقُولُ مِنْ جِهَةِ الشُّكْرِ لِلَّهِ<sup>3</sup>  
ويقول أيضاً:

أدين بدين الحبِّ أنى توجَّهتْ  
ركائبه فالدينُ ديني وإيماني<sup>4</sup>

فليس من أثر في الوجود إلا والمحبة سارية فيه من بداية نشأته إلى ما شاء الله تعالى "فالمحبة مقامها شريف وهي أصل الوجود"<sup>5</sup>. ويربط ابن عربي فلسفة المحبة الكونية

<sup>1</sup> الفتوحات المكية، 399/2. قال السخاوي: "ليس من كلام النبي، ولا يعرف له سند صحيح، ولا ضعيف"، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص 327. وقال العجلوني في كشف الخفاء، 173/2: "قال القاري: لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون". أي ليعرفوني، كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما، ... وهو واقع كثيراً في كلام الصوفية، واعتمده وبنوا عليه أصولاً لهم".

<sup>2</sup> الفتوحات المكية، 322/2

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 320/2

<sup>4</sup> ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق، ص 246

<sup>5</sup> الحب والمحبة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، ص 13. يبدو أن مقولة ابن عربي الحدسية هذه قد أخذت تتجلى في عصر الفيزياء الكمومية وعلاقتها بعلم الكون، إذ تميل لغة التعبير عن هذين العلمين إلى تداول كلمات من مثل الحب والعشق والتصوف للدلالة على طبيعة العلاقات التي تشد الذرات ومكوناتها إلى بعضها بعضاً. يقول عالم الفيزياء فري بيتو: "كانت (الكواركات) قد تجمعت لتشكيل البروتونات والنيوترونات التي اتحدت بجاذبية تشبه العشق بشدتها، كأن الحب تفجر في أعماق الكون للمرة الأولى"، ص 104. ويقول: "إن ما يحافظ على الذرة هو- بشكل ما- حادثة

بمفهوم وحدة الوجود الخاصة به، ويجعل من علاقة كلِّ مُحِبِّ بما يحبُّه في الباطن والحقيقة حبًّا لله تعالى، علمَ المحبِّ ذلك أم لم يعلم. ومع ذلك فيمكن النظر إلى الحب من مستويين اثنين. الأول: مستوى الحب المقيد بالصور والأكوان، وهو حب آنيٍّ مؤقت ومعلول بعلّة، ومعرّض للزوال في أية لحظة. يقول علي كرم الله وجهه: "من أحبك لثيء ملّك عند انقضائه"<sup>1</sup>. ومع ذلك فهو ضرورة إنسانية ودينيّة من جهة الحكمة الإلهية، وهو، في الوقت نفسه، يمثّل مذاقًا دنيويًا رمزيًا لحب أعظم وأدوم وأبهى وأنفع، وهو المستوى الثاني الذي هو مستوى الحب المطلق، أو الحب الإلهي، وفيه يقول ابن عربي: "فعلامه الحب الإلهي حبّ جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيّلة..."<sup>2</sup>. فالحب في مستواه الأول مقتضى دنيوي وضرورة بشرية كما تقدم، ولكنه ينبغي أن يكون جسرًا للحب ومعبرًا إليه في مستواه الثاني الذي هو ممّا تحتمله التجربة الصوفية، وتدعو إلى الوقوف عليه وقوفًا ذوقيًا عمليًا لا علميًا فحسب. وإذا ما انغمست الروح الإنسانية في أنوار الحب الإلهي المملّسة لكل ذرة من ذرات الكون، فإنها ستشحن بطاقة إيجابية خلاقة ودائمة التجدد وغير قابلة للزوال؛ لأنها موصولة بالمطلق، ولن يكون مردودها الإيجابي على ذاتها فحسب، إنما سيعم خيرها الكائنات جميعًا.

قال أبو الحسن الششتري (ت668هـ):

كشف المحبوب عن قلبي الغطا      وتجلّى جهرةً منّي إليّ  
وجلا عني حجاباً كُنْتُه      وتلاشى الكونُ يا صاحي لديّ

حب، هي الجذب بين الشحنات الموجبة للبروتونات والشحنات السالبة للإلكترونات ... والذرات أشبه بالعاشقين، لا تتحد إلا إذا هيجت..."، ص118-119. وفي سياق حديثه على الفيزياء الكمومية وعلى لغة التعبير عن مفاهيمها يقول: "ولذلك لا يمكننا أن نعبر عنها إلا بلغة رمزية أو صوفية أو رياضية"، ص80 ويضيف: "تشارك الفيزياء الكمومية مع الصوفية في أنهما يظهران عدم كفاءة اللغة"، ص207. انظر كتابه: إبداع الفنان: نظرة شمولية للكون.

<sup>1</sup> سجع الحمام للكون.

<sup>1</sup> سجع الحمام في حكم الإمام، ص384

<sup>2</sup> الفتوحات المكية، 113/2

أَيُّ حَسَنِ مَا بَدَأَ إِلَّا لِمَنْ      قَدْ طَوَى الْعَقْلَ مَعَ الْكُونِينَ طَيًّا  
وَرَأَى الْأَشْيَاءَ شَيْئًا وَاحِدًا      بَلْ رَأَى الْوَاحِدَ وَتَرًّا دُونَ شَيْءٍ<sup>1</sup>

إن ميزات هذا النوع من الحب الذي تسفر عنه التجربة الصوفية، والذي ينتهي إلى نزع الحجب الكثيفة عن بصر القلب، يحمل الإنسان على أن يعيد النظر في كثير مما كان يمارسه في حياته السابقة، وعلى أن تكون أفعاله الصادرة عنه في قابلها أفعالاً مُسْتَضْمَرَةً بالحب وشهود الحق تعالى، فيكون عطاؤه بحب، وعمله بحب، وكلامه بحب، وصمته بحب، وغضبه بحب، وعقابه بحب، وهكذا دواليك. وهل يعاقب الوالد ولده بحقد وكرهية أم بحب؟! وهل يعاقب الحق تعالى عباده حين يعاقبهم بحب أم بحقد وكره؟! حاشاه أن يعاملهم تعالى بما لا يتصف به، وهو الذي أوجدتهم عن حب ورحمة كما يقول ابن عربي. وشتان ما بين عقاب بحب، وعقاب بحقد. صحيح أنهما قد يتشابهان في الظاهر، لكنهما يفترقان في الباطن؛ فالأول يصدر عن نية حسنة، وعن طاقة إيجابية، ومآله إلى الإصلاح لا الإفساد؛ لأن الطاقة الإيجابية طاقة إحياء وبناء وإعمار. وأما الآخر فنابع من الحقد والكرهية ونوايا السوء، وطاقته طاقة سلبية سوداء، ومآله إلى الإفساد ومزيد من الأحقاد، فالطاقة السلبية طاقة تدمير وتخريب عمياء، وهي لا شك طاقة شيطانية. ويُعَدُّ ما بين هذه وطاقة الحب الرحمانية بُعْدُ ما بين آثارهما في الوجود؛ فآثار الحب حياة، وآثار الحقد والكرهية خراب.

إن هذه المعاني إذا ما استوعبتها الذات الإنسانية استيعاب ذوق وسلوك لا استيعاب فكر وحسب، فإنها ستجد لها صدى إيجابيًا نحو ما ذكرناه آنفًا من حديث عن غياب أدبيات الصراع وأخلاقياته بين الأنا والآخر، فإن كان ولا بد من الصراع فليكن صراعًا إنسانيًا رحيمًا، لا صراعًا شيطانيًا يدمر الأخضر واليابس.

والحاصل أن الصوفي يتخلق بخلق الحب الإلهي، ويسعى إلى استدراج أبصار الناس إليه، ثم من بُعد بصائرهم، ليدوقوا نعمةً لشدَّ ما هي قريبة منهم، ولشدَّ ما

<sup>1</sup> ديوان أبي الحسن الششتري، ص 80

يحتاجونها، لكنهم غافلون عنها. إن الصوفي يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وكما سبق القول عن سيدنا علي كرم الله وجهه في تصنيف الأخوة، فالصوفي يحب لأخيه في الدين ما يحب لنفسه، وكذلك يحب لأخيه في الإنسانية.

ولأن الحب يتبوأ مكانة مرموقة في مفهوم التصوف الإسلامي، بل له موقع المركز من الدائرة، تجد شعراء الصوفية على مختلف مشاربهم وأحوالهم ومقاماتهم كأنهم لا يعرفون موضوعه غير موضوعه الحب الإلهي، يتغنون بها، ويحكونها باللغة صوراً ورموزاً وإيقاعات ليصنعوا منها لوحات شعرية، يشهد على جمالها الحسي وثرائها الوجداني والإنساني القاصي قبل الداني. ولا يقتصر هذا الوصف على خطاب الشعر وحده، إنما يتخطاه إلى غير قليل من أنواع خطاب النثر الصوفي الذي يتناول بجمالياته التعبيرية والتصويرية ليزحم جماليات الشعر.

وليس غريباً أن تجد لخطاب الشعر الصوفي حظوة وقبولاً لدى جمهور واسع من المتلقين على مختلف مشاربهم؛ ذلك أنه خطاب تعمل فيه أخيلة الشعراء على تصوير الفكرة المجردة وتشخيصها وإحيائها، فكأنما هي كائن جميل تودُّ لو تلمسه بيديك. ولما كان الحب يثري حياة الإنسان في واقعه وسلوكه، فإنه كذلك يثريه في أذواقه الأدبية والفنية.

ولعل خلاصة القول في الحديث عن موضوعه الحب في التصوف أنه يُختزل في عبارة موجز، وهي أن الحب روح التصوف، والتصوف روح الإسلام.

**رؤية التصوف في الخلاف والائتلاف: جلال الدين الرومي وابن عربي:**

ثمة حكاية شعرية رمزية أبدعها مخيال جلال الدين الرومي الصوفي، يشخص فيها ببصيرة ثاقبة، وروح ملهمة، حقيقة النزاع الوهبي الذي تقع في حباته عقول أصحاب الفرق والمذاهب، على نحو يجعل كل واحد منهم يرى في وهمه أنه على صواب، وأن سواه على خطأ، ويصرُّ على تحقيق مراده دون مراد الآخر، فينتهي الأمر إلى الفرقة والنزاع. وقد غاب عن هؤلاء أن مطلبهم واحد، وأن تنوع الطرائق في الوصول إليه هو الذي أوقعهم في وهم اختلاف المطالب وتعددها. ولا شك في أن مثل هؤلاء لا يتوقرون على المعرفة الكافية للخروج من سيئات الخلاف إلى حسناته، ولا على ملكة

- الاستبصار المدربة الخبيرة لتسعفهم في رؤية الوحدة في التنوع، والحكمة من تعدد الأنظار واختلافها الذي ينبغي أن يكون اختلاف رحمة لا اختلاف نقمة. كما جاء في الأثر: "اختلاف أمتي رحمة"<sup>1</sup>. يقول جلال الدين الرومي في حكاية نزاع أربعة أشخاص حول العنب؛ لأن كلاً منهم كان قد عرفه باسم يغير معرفة الآخر به:
- أعطى رجلٌ درهمًا لأربعة أشخاص. قال أحدهم: لنشتري به "أنكور".
  - قال آخرٌ وكان عربيًّا: أنا أريد عنبًا، ليس "أنكور" أيها المحتال.
  - وكان الثالث تركيًّا فقال: هذا لي، وأنا لا أريد عنبًا، بل أريد "أوزوم".
  - وكان الرابع روميًّا فقال: أتركوا هذا القيل، فأنا أريد "أستافيل".
  - وانتهى النزاعُ بذلك النفرِ إلى المشاجرة، ذلك أنهم كانوا غافلين عن أسرار الأسماء.
  - وتضاربوا بالأيدي من البله. كانوا شديدي الجهل، خاوين من المعرفة.
  - ولو كان هناك صاحبٌ سرٌّ عزيزٌ عارفٌ بالأسماء لوفَّق بينهم.
  - ولكن قد قال: إنني بهذا الدرهم الواحد سوف أحقق رغباتكم جميعًا.
  - ولو أودعتموني قلوبكم بلا نفاق، لقام درهمكم الوحيد هذا بعدد من الأعمال.
  - ولصارَ درهمكم الوحيد هذا أربعةً، والمراد أن أربعة من الأعداء، من الممكن أن يتوحدوا بالاتفاق.
  - فإن قول كل واحد منكم على حدة يبعث على الحرب والفراق، وقولي أنا يوحد بينكم.
  - من ثمّ، فاسكتوا أنتم، وامضوا إلى حال سبيلكم حتى أصبح أنا عند النقاش لسانكم.
  - وكلامكم، وإن كان يبدو على نمط واحد، إلا أن في أثره النزاع والسخط.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، ص 26-27

<sup>2</sup> المثنوي، الكتاب الثاني، ص 305-306

فلم يكن العارف في هذه الحكاية عارفاً إلا لأنه امتلك أفقاً معرفياً أعمق وأوسع، أقدره على استشراف الحقيقة، وعلى رؤية الوحدة في الكثرة والخروج من الخلاف إلى الوفاق. أما الأربعة الرجال فقد اختلفوا وتشاحنوا لأنهم وقفوا عند اختلاف الأسماء، ولم يعرفوا المسعى، ولم يدركوا أنهم يطلبون مطلباً واحداً.

إن المعنى الذي تستضمرة حكاية جلال الدين الرومي لا يرمي إلى كشف الوهم الزائف عند أصحاب الفرق والمذاهب في الدين والواحد فحسب، إنما يرمي أيضاً إلى نزع قشور الاختلاف عن بصائر أهل الديانات جميعاً، وخرق حجب التأويلات الإيديولوجية القاصرة، وذات الرؤية الأحادية والإقصائية، ليضعهم بإزاء حقيقتين جوهريتين منسيتين تنتظمان الوجود الإنساني والكوني، الحقيقة الأولى: أن أصحاب الديانات على اختلاف ألوانهم ومشاربهم يعبدون إلهاً واحداً علموا ذلك أم جهلوا. والحقيقة الثانية: أن المحبة سبب أصيل في إيجاد العالم؛ لأن الحب مقام إلهي كما تقدم من قول ابن عربي. ويتفق جلال الدين الرومي مع ابن عربي في الكشف عن هذين الأصلين الكونيين الحاضنين للبشرية جمعاء. ولا مرية في أن هذين الأصلين حقيقان أن ينهضا بشيء من عبء التأسيس لحوار مدني حضاري أمثل.

يقول ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة  
وبيئت لأوثان وكعبة طائف  
أدين بدين الحب أنني توجهت  
ويقول أيضاً:

وعن الحب صدزنا  
فلذا جئناه قصدا  
وعلى الحب جيلنا  
ولهذا قد قبلنا<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق، ص 245-246

<sup>2</sup> الفتوحات المكية، 2/322

إن لغة الحب في الخطاب الصوفي في مدونات ابن عربي وجلال الدين الرومي، تعدّ من أقدر وسائل الخطاب التي يُعوّل عليها في استثارة عاطفة الحب المشتركة بين الأناسي، وفي مخاطبة العقل والوجدان على نحو يبيّنهما بوجود هذه العاطفة أولاً، ثم يطلعهما ثانيًا على طاقتها الإيجابية الخلاقة، وقدرتها الوثيقة على روحنة الفرد والمجتمع، والتقريب بين الأنا والآخر. وليس هذا سوى استثمار ذكيّ وملهم لهذا المنبت الواحد الذي نبتت فيه الإنسانية قاطبة، وعنه تفرّعت شعوبًا وقبائل ومذاهب ومعتقداتٍ شتى.

فالغاية من التفرّع الإنساني وتغايره وكثرته هو تعايش الأفراد والمجتمعات والشعوب تعايشًا سلميًا وتعارفًا بناءً. وتبدو الوسيلة الأجدى لدى ابن عربي والرومي لتحقيق التعارف المثمر، هي اختيار طريق العشق؛ لأنه، في أيسر نتائجه، يفضي إلى محو حجب الكثرة والتغاير والخلاف والتضاد التي تعمّقت في النفوس البشرية بفعل توهم مزاحمة الآخر للأنا، بما يفضي إلى استفحال الصراع الفكري والمادي، واللجوء إلى أساليب الإقصاء والقمع والبطش والاستئصال. إنّ اختبار العشق إن هو إلا شكلٌ من أشكال تحويل طاقة الخلاف والصراع السلبيتين المدمرتين. إلى طاقة تجاذب وحوار إيجابيتين خالقتين.

إن النتائج المؤلمة التي تنتهي إليها البشرية تنطلق أساسًا من صنع وهم بشريّ محض، ينبني على قلب الحقائق رأسًا على عقب، مثلهم في ذلك مثل من يضع العربية أمام الحصان وهو يظنّ أنه يحسن صنعًا. فبدلًا من أن يُراعى الأصل الذي انبثقت منه الإنسانية وجبلت عليه، وهو العشق الذي يرى فيه كلُّ من ابن عربي<sup>1</sup> والروميّ أنه أساس كلِّ حركة ووجود كلِّ موجود<sup>2</sup> جعل الوهم البشريّ الفروع تحلُّ محلَّ الأصل الواحد، وتنامى أو نسي هذا الأصل، وترع في وهم الكثرة والخلاف الزائفين. ولذلك يدعو الروميّ الناس كلَّهم على مختلف مشاربهم وأديانهم إلى نزع الحجب التي تمنع

<sup>1</sup> الفتوحات المكية، 322/2

<sup>2</sup> جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، ص 137

بصائرهم من الكشف عن هذا الكنز الإلهي المضمّر في ذواتهم، واختباره في حياتهم العملية. يقول الرومي: "أما محبة الحق فكامنة في العالم كله وفي الناس كلهم، من مجوس ويهود ونصارى، وفي الموجودات جميعًا. إذ كيف لا يحب الإنسان مُوجده؟ المحبة كامنة في كل إنسان، ولكن ثمة موانع تحجبها؛ وعندما تزول تلك الموانع تظهر تلك المحبة"<sup>1</sup>. وليس من ريب في أن ظهور المحبة الإلهية واستحكامها في النفوس سيترك آثارًا طيبًا لدى أصحاب الملل والنحل في علاقاتهم الدنيوية ومعاشاتهم العاجلة. أو كما يقول ابن عربي: "علامة الحب الإلهي حب جميع الكائنات في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيّلة..."<sup>2</sup> أما الآجلة فمردها إلى الله تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113].

إن هذا الوجه من الخطاب الصوفيّ، يضحّ في الأحوال العادية، والمشاهد اليومية التي تلامس أبصارنا وأيدينا وأسماعنا وحواسنا- روح العشق والحكمة والأخوة الإنسانية، ويستبطن فيها معاني نسجتها يراعُ عاشق ثمل بعشق الحقيقة المطلقة، وتحزّر من وهم الأنا والأنثى، والأسود والأبيض، والتبر والتراب. وانعتق من عشق الصور ليرتوي من عشق المعنى.

يقول الروميّ في سياق الحديث عن الأصل الواحد المتجلّي في الكثرة، التي من مظاهرها الأنا والأنثى وتعدّد الصور:

- لا، إنهما اثنان ما دمت عابداً للصورة، وهما أمام من نجا من الصورة واحد.
- وعندما تنظر إلى الصورة فأنت تنظر بعينين، فانظر إلى النور الذي انبعث من العينين.
- فلا يمكن التمييز بين نور إحدى العينين ونور الأخرى، عندما يُلقى المرءُ بنظرة إلى النور.
- وعندما تُحضرُ عشرة مصابيح إلى مكان ما، ويكون كلُّ منها في شكله مختلفًا عن الآخر؛
- فإنك لا تستطيع أن تميز بين نور كل منها، عندما تتجه إلى نورها بلا شك ولا ريب.

<sup>1</sup> كتاب فيه ما فيه، ص 295

<sup>2</sup> الفتوحات المكية، 113/2

- وإنك إن أتيت بمائة ثمرة من التفاح أو السفرجل، فإنها لا تظل مائةً عندما تقوم بعصرها.
- وليس في المعاني قسمةٌ أو أعداد، وليس في المعاني تجزئة ولا أفراد.
- واتحاد الحبيب بالأحبة أمر طيب، والتمسك بقدم المعنى فالصورة متمردة.
- والصورة المتمردة أذبحها بالألم، حتى ترى الوحدة تحتها كأنها كنز.
- وإن لم تذبها أنت فإن عناياتِه - جلّ شأنه - تذبها، يا من قلبي غلام له.
- إنه هو الذي يبدي نفسه للقلوب، وهو الذي يرتق خرقه الدرويش.
- لقد كنا جوهراً واحداً سارياً في العالم، كنا بلا بداية ولا نهاية وهو المبدأ للجميع.
- كنا جوهراً واحداً وكأننا الشمس، كنا بلا عقد، نتميز بالصفاء كالماء.
- وعندما تصوّر ذلك النور الصافي، صار عدداً، كأنه ظلّ الشرفة.
- فحطم الشرفة بالمنجنيق، حتى تمضي الفروق عن هذا الفريق<sup>1</sup>.

إن الأصل والواحد الذي لا يملّ الرومي من الإشارة إليه، والذي يفرد له حيزاً كبيراً في خطابه الشعري والنثري، هو أنّ عشق الحقّ تعالى كامنٌ في البشرية جمعاء، بل في الكون بأسره، وما على البشرية سوى أن تدرك هذا الأصل الواحد الذي تشترك فيه، وأن ترقى من حالة الإدراك الذهني إلى حالة الممارسة الفعلية؛ من أجل أن تكون قادرة على تجاوز الفروق الصورية الظاهرة، لا سيما الفروق الواقعة في صور الأديان والمعتقدات، فما دام المحبوب واحداً، والكلُّ يقصده بحبه، فليست صورة القصد بأهمّ من المقصود. وإذا كانت صور القصد تفرّق، فإن المقصود يجمع. ومع ذلك، ومع كلّ ما يمكن أن يُقال في سبيل تعميم هذه الرؤية التوحيدية لا التفريقية، فإن أفراد البشرية سيظلون يتشبثون بصور المعتقدات، وهو أمر لا يمكن دفعه أو إنكاره، بل

<sup>1</sup> المثنوي، الكتاب الأول، ص 93-94

ينبغي التسليمُ به، ولكن ينبغي أيضًا لهؤلاء جميعًا استيعابُ الأصل الواحد والمراد الواحد، وهو الأصل الذي سيمكّن البشرية من التعايش بحبّ، أو في أقل تقدير دون كره أو حقد؛ وبذلك يحتفظ كلُّ عابد بصورة معتقده الخاصّة به، وفي الوقت ذاته يكون متّصلًا بالآخر ومتجانسًا معه تجانس إخاء وحب عبر مضمون الصورة وغايتها اللذين أشار إليهما الروميُّ، واللذين يتلخصان في محبّة الحقّ تعالى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويحكم بين الخلائق. وقد قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: 118-119].

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن حجر العسقلاني: الزهر النضر في نبأ الخضر (تحقيق وتعليق: مجدي السيد إبراهيم)، مكتبة القرآن، القاهرة، د. ت.
2. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون (تحقيق: درويش الجويدي)، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1995م
3. أبو الحسن الششتري: ديوان أبي الحسن الششتري (حققه وعلق عليه: د. علي سامي النشار)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1960م
4. أبو مدين التلمساني: الديوان (جمعه ورتبه: العربي بن مصطفى الشوار التلمساني، وقام بنشره: محمد بن العربي بن صطفى الشوار)، مطبعة الترقى، دمشق، ط1، 1938م
5. أبونصر السراج الطوسي: اللمع (حققه وقدم له وخرج أحاديثه: د. عبد الحلیم محمود، وطه عبد الباقي سرور)، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960
6. أحمد بن عجيبة الحسني: اللطائف الإيمانية المملوكية والحقائق الإحسانية الجبروتية في رسائل العارف بالله الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني (ضبطها وصححها وعلق عليها: د. عاصم إبراهيم الكيالي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م
7. أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية والمناجاة الإلهية (تحقيق: أحمد عبيد)، المكتبة العربية، دمشق، د. ت
8. أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم (تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله)، دار المعارف، القاهرة، د. ت،
9. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: سجع الحمام في حكم الإمام (جمع وضبط وشرح: علي الجندي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد يوسف المحجوب)، دار القلم، بيروت، د. ت.

10. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: نهج البلاغة (جمعه وندسق أبوابه: الشريف الرضي، شرحه وضبط نصوصه: محمد عبده)، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ت.
11. الأمير عبد القادر الجزائري: كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط2، 1966م
12. جلال الدين الرومي: المثنوي (ترجمه وشرحه وقدم له: د. إبراهيم الدسوقي شتا)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1996م
13. جلال الدين الرومي: كتاب فيه ما فيه (ترجمة: عيسى على العاكوب)، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 2004م
14. الحسين بن منصور الحلاج: الديوان (صنعه وأصلحه: د. كامل مصطفى الشيبلي)، دار آفاق عربية، بغداد، ط2، 1984م
15. د. عناية الله إبلاغ الأفغاني: جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1987م
16. شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الهجرة، بيروت، 1986م
17. عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ: كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب (تحقيق: ه. ريتز)، دار صادر، بيروت، د.ت.
18. محمد بن عبد الجبار النفري: كتاب المواقف والمخاطبات (تحقيق: أرثر يوحنا أربري)، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د.ت.
19. محمد بن فتوح الحميدي: الجمع بين الصحيحين: البخاري ومسلم (تحقيق: د. على حسين البواب)، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 2002م
20. محمد غازي عرابي: النصوص في مصطلحات التصوف، دار قتيبة، دمشق، 1985م

21. محمود محمود الغراب: الحب والمحبة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، اسم المطبع لم يذكر، دمشق، ط2، 1992م
22. محيي الدين ابن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت.
23. محيي الدين ابن عربي: ذخائر الأعلام شرح ترجمان الأشواق (تحقيق ودراسة: د. محمد علم الدين الشقيري)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 1995م

## دور اللغة العربية في نشأة اللغة الفرنسية

- الدكتور محمد حميد الله الحيدرابادي<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري<sup>2</sup>

إن هذا فقط رأي واستنباط ونظرية، وفي المراحل الأولى من التحقيق، ويحتاج أيضًا إلى بعض التمهيد.

" وَبَشِّرِ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ " (13:13) و " وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ " (44:14).

بغض النظر عن الآيتين السابقتين وما يماثلهما من الآيات، نجد أنه لا يمكن للجَمادات أو حتى النباتات أن تصدر أصواتًا بإرادتها، وأن هذا أمر يخص الكائنات الحية فقط، ومن ضمنها يمتلك الإنسان القدرة الكبيرة على ذلك. وقد كشفت الآلات المكبرة للصوت أن الأسماك أكثر من يصدر الأصوات. وتمت معرفة لغات مختلفة للحيوانات، وأن ما تصدرها من الأصوات في حالة السرور والخوف وغيرها تختلف فيما بينها، ولذلك فلا حاجة في زمننا هذا أن نؤمن بما ذكر في القرآن من "منطق الطير" (18-27:16)، و"قالت نملة" لأجل الإيمان والاعتقاد فقط، (إنما ثبت ذلك بالتحقيق العلمي).

أما ما يتعلق بالبشر فإذا استنبطنا من "خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا" (71:14) فيمكن أن نقول إنه خرجت في البداية أصوات فطرية مفردة، ثم استخدم الإنسان أصواتًا مركبة

<sup>1</sup> كاتب ومحقق كبير

<sup>2</sup> أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

ومجموعات الأصوات حسب ضرورته تدريجيًا. صوت أو مجموعة واحدة لغرض واحد وصوت ومجموعة ثانية لغرض آخر.

وربما أشار القرآن إلى ذلك في قوله: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (2:31)

ويمكن التمييز بين الأشياء المختلفة والمعاني بأسمائها، وهذا ما فعله آدم. وهذه القصة المذكورة في الإنجيل أيضًا، (سفر التكوين، 2: 19-20). وفيها يسمي آدم الأشياء بنفسه. ( إن أهمية الأسماء المذكورة في كتب كونفوشيوس أيضًا، ولكن بذكر التفاصيل نبتعد عن موضوعنا الأصلي)

ربما تكون الحاجة قد برزت لأداء معنى الماضي والحال والمستقبل إضافة إلى التمييز بين الأمر والنهي بعد الأسماء والأفعال، وهكذا خرجت اللغة إلى حيز الوجود، وكانت الكلمات محدودة في البداية، ثم تطورت تدريجيًا في كل جيل. ومع نشأة المهن والاختصاص كان من اللازم التمييز في المعلومات الفردية.

إن بداية عدة لغات وليست لغة واحدة من زوج واجد (آدم وحواء)، ثم وجود الفروق فيها لدرجة أن الشخص لا يفهم اللغة التي يتحدث بها الآخر لشيء محير في كل زمان. وقد ذكر في الإنجيل (سفر التكوين، 11: 1-9) أن لغة البشر كانت واحدة قبل طوفان نوح، وإن الأشخاص الذين نجوا من الغرق توجهوا إلى أرض شنغار وبدؤوا هناك بإنشاء مدينة من اللبن، وأرادوا بناء منارة يصل علوها إلى السماء، (ربما أرادوا رؤية الرب)، ولم يعجب الرب عملهم هذا فنزل من السماء وفرقهم في الأرض، وبذلك تفرقت لغاتهم، وسمي ذلك المكان بـ(بابل) والذي يعني اختلاف اللغات وولادة لغات جديدة.

ولا يوجد ما يثبت هذه القصة في القرآن الكريم أو الحديث، ولكن ذكرت في القرآن آية بليغة: "ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" (20: 22) لا أدري إن كان قد ذكر شيء مشابه لهذا في الآداب الهندوسية (السنسكريتية). على كل فما كان الحال أيام نزول القرآن باقي إلى الآن، وإن اختلف شيء فهو أنه كانت هناك محاولتان لتصنيع وتطوير لغة جديدة في أوروبا:

وولابوك (Volapuk) والتي أنشأها جون مارتين شلاير (J.H.Schleyer) في عام 1879م، والثانية ايسبرانتو (Esperanto) التي كانت إصلاحًا لسابقتها وقد أنشأها البروفيسور تسامنهوف (Zamenhof) لتسهيل الروابط بين الشعوب. وهي باقية إلى يومنا بعد جهد جهيد، وليس هناك شعب مستقل يتحدث بها ولكن يوجد في العالم أشخاص يمكنهم فهمها والتحدث بها.

ولا توجد في العالم لغات مختلفة فقط وإنما لهجات وفروع مختلفة أيضًا. فمثلًا في اللغات الهندية هناك فرق واضح بين اللغة الأردية والدكنية. إن إخواننا المواطنين الذين سكنوا إنجلترا ومرّ عليهم جيل كامل هناك يذكرون أن اللغة الإنجليزية تطورت وما زالت لدرجة أن أبناء الإنجليز المسيحيين أنفسهم لا يفهمون اللغة المستعملة في الإنجيل.

إن ما وصلنا إليه من أسباب وطرق اختلاف اللغات ونشأة لغات جديدة من علم لقصة طويلة، وأكتفي بمثالين من زمننا:

1. سنحت لي فرصة زيارة المدينة لجنوب إفريقية جوهانسبرغ، وتسكن هناك عائلة ميان المحبة للعلم، شاهدت في مكتبهم كتابًا من تأليف رجل أبيض من هناك. يذكر أنه عندما سيطر الهولنديون على البلاد استقدموا العمال والعبيد بطرق مختلفة ليقوموا بأعمال المستعمرة الصعبة. واضطر هؤلاء العمال إلى تعلم اللغة الهولندية، وكانوا يتحدثون بها بطريقة خاطئة دون مراعاة لقواعد اللغة الهولندية، ثم جاء الإنجليز، وكان عدد هؤلاء العبيد من البغاليين والمالاباريين والملاويين والجاويين والعرب والحبشيين قد زاد على عدد البيض بكثير، وكانت اللغة الهولندية الخاطئة رائجة بينهم لدرجة أن الإنجليز القادمين اضطروا إلى التحدث بها حتى يتفاهموا مع عمالهم. ثم بدأ الهولنديون البيض وبسبب كراهيتهم للإنجليز دراسة هذه اللغة والتأليف بها. ولكن كان المسلمون المحليون قد بدؤوا التأليف بها قبلهم بفترة طويلة. وكانوا يسمونها اللغة الإفريقية. ويذكر مؤلف هذا الكتاب أن نماذج الأولى المكتشفة للغة أفريكانس الموجودة (الإفريقية) مكتوبة من قبل المسلمين بالخط العربي. وهي كتب تتعلق بالإسلام.

على كلِّ فإن الأثر الذي تركته العربية والحبشية على الهولندية، تولدت نتيجة لذلك اللغة الإفريقية. وهي الآن اللغة الرسمية لجمهورية جنوب إفريقيا.

2. إذا كانت هولندا قد احتلت جزءًا من جنوب إفريقيا، فقد احتلت فرنسا جزءًا آخر، وكان الفارق الوحيد أن العمال كانوا يتحدثون الهولندية في جزء والفرنسية في الثاني. وكانت النتيجة واحدة، أي ولادة لغة جديدة. ولغة المنطقة الفرنسية تدعى كريول (Kreol)، ويوجد بها الآن كمية أدب يعتدّ به، ولو أنه قليل مقارنة بالإفريقية التي تحتوي على تراجم كاملة للقرآن الكريم.

بقي أثر اللغتين (الإفريقية والكريول) محدودًا، ولم تتأثر بهما اللغتان الأصليتان المستعملتان في هولندا وفرنسا. والسبب، كما يعلم، أنه لم يوجد هناك من يتحدث بهما. قد تساعد هذه الأمثلة الحديثة على فهم واقع الزمن الماضي.

#### تأثير اللغة اللاتينية:

اندثرت اللغة اللاتينية والتي انتشرت في أجزاء كثيرة من أوروبا بسبب الفتوحات الرومية قبل ألف عام تقريبًا، وأصبحت لهجاتها المحلية لغاتٍ مستقلة. نريد بتلك الأسبانية والإيطالية والفرنسية. ونظيرتنا في نشأة هذه اللغات أنها كانت بسبب اللغة العربية.

ولكن قبل الإدلاء بالتفاصيل والأدلة نجد من المناسب أن نذكر ميزة مهمة للغة العربية، فاللغات بشكل عام تتطور وترتقي تدريجيًا، ويقال أن اللغة تصبح غير مفهومة بعد 500 سنة، فمثلًا لا يستطيع الشخص الإنجليزي فهم منظومات الشاعر الإنجليزي الشهير شاسر (Chaucer) المتوفى سنة 1400م حتى في مسقط رأسه لندن، إلا من تخصص في الإنجليزية القديمة. والحال نفسه بالنسبة للفرنسية والألمانية والروسية وغيرها. والاستثناء الوحيد في هذه الحالة في تاريخ العالم هو اللغة العربية، وحتماً بركة كلام الله لم يتغير نحوها وصرفها ولم تتغير معاني المفردات فيها، وحتى النطق منذ 1500 سنة الماضية. فإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًا لفهم الراديو العربي والصحف العربية بسهولة تمامًا مثلما كان يفهم معاصروه العرب، أو كما نفهم نحن القرآن والحديث. فليس هناك فرق في لغة العصرين، إن اللهجات

المحلية قد اختلفت ولكن لغة العرب في التأليف والقراءة هي واحدة في كل مكان. وإن لم تكن هذه القوة موجودة في اللغة العربية لكانت الضرورة أن يرسل الرحمن الرحيم رسولاً جديداً وينزل القرآن بلغة جديدة.

وكانت هذه هي اللغة العربية في قمة قوتها السياسية والعسكرية والتي اصطدمت باللغة اللاتينية.

دخل المسلمون إلى الأندلس في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عام 27هـ، واستولوا تدريجياً على جميع مناطق البرتغال وأسبانيا، وكذلك على جزء كبير من إيطاليا وجنوب فرنسا. وقد حكموا أسبانيا لمدة 800 سنة تقريباً، ومكثوا في إيطاليا وخاصة صقلية مدة طويلة، وفي جنوب فرنسا نفسها كانت هناك دولة إسلامية مستقلة دامت 150 سنة تقريباً، وأوامر الحاكم المسلم بمنح الإقطاعات محفوظة حتى في زمننا هذا.

وليس من غير المناسب إن ذكرنا أن آلاف الأسبان الحديثي العهد بالإسلام ظلوا يتحدثون الأسبانية ولكنهم كانوا متأثرين باللغة العربية. وكان العرب يطلقون كلمة "الخميدو" على هذه اللغة. وهي محولة من "الأعجمية"، (تتحول اللام إلى الخاء في الأسبانية)، وكانت هذه الخميدو تكتب بالخط العربي، وتوجد فيها تراجم قرآنية، وكتب الطب والعلوم الدنيوية الأخرى. وتوجد مئات من نسخها في مدريد وإيسكورال وغيرها حتى اليوم. وكذلك الحال بالنسبة للبرتغالية المكتوبة بالخط العربي.

#### تأثير العربية وخاصة على الفرنسية:

لم تكن اللغة اللاتينية رائجة فقط في إيطاليا، إنما في أسبانيا وفرنسا أيضاً، وكانت تحتل مكانة اللغة العلمية فيها.

وصل العرب إلى هذه البلدان ومكثوا فيها لمدة طويلة، فكان من اللازم أن يضطروا إلى التحدث باللاتينية. ولم تبق هذه اللغة على حالها لدى هؤلاء الأجانب كما كانت لدى علماء الفرنجة، وإن حاول العرب إفسادها فكان هدفهم هو تسهيلها، ثم أدخلوا

بعض خصائص اللغة العربية على هذه اللاتينية الجديدة. وبقيت هذه اللاتينية الخاطئة تنمو وتتطور. وهكذا ولدت اللغات الأسبانية والإيطالية والفرنسية.

لا يهمني في هذا الموضوع عدد الكلمات العربية في اللغة الفرنسية. فلا تتغير اللغة بأخذ كلمات من لغة أخرى، بل تصبح الكلمات المستعارة تابعة لقواعد وجو اللغة التي دخلت إليها. وهذا يحدث دائمًا في اللغات الموجودة الحية. قد أرسل الروس قيل فترة قصيرة كرة بدأت تدور حول الكرة الأرضية، وسموها "إسبوتينك"، و فورًا دخلت هذه الكلمة إلى كل لغات العالم. مثلما حدث مع تليفون وعراموفون سابقًا. وما يهمني هي الكلمات التي تدخل إلى لغة ما زالت في مرحلة التطور من لغة أخرى، ولأن هذا البحث في بدايته، لذلك لا يمكن التوقع بوجود أمثلة كثيرة.

على كل حال، فالجميع يعرف أن اللاتينية لا تحتوي على علامة المعرفة، ولكنها توجد في فروعها الثلاثة: الفرنسية والإيطالية والأسبانية. في العربية توجد ال التعريف (الإسلام)، وفي الإيطالية IL، وفي الأسبانية EL وفي الفرنسية كما يلي:

إذا أدخلنا أداة التعريف على اسم يبدأ بحرف العلة مثلًا (ل) L' وهذا موجود في العربية أيضًا، فإذا سبق ال التعريف حرف الباء فتسقط ألف ال التعريف، وتبقى اللام، فتصبح كلمة بالإسلام بلاسلام في نطقها. ولا نطقها بالإسلام.

إذا أدخلنا ال التعريف على كلمة تبدأ بحرف صحيح فندخل LE في حالة المفرد المذكور، و LA في حالة المفرد المؤنث، و LES في حالة جمعهما. (ولا توجد طريقة التعريف هذه في اللغة العربية)

إذا وجدت A بمعنى على قبل أداة التعريف فتتحول A LE إلى AU بمعنى على ذلك الشيء. ويقابلها في العربية اللام الشمسية والقمرية. فيختلف نطق اللام عندما تدخل على حروف مختلفة. مثلًا: الإسلام تنطق (ال إسلام) والسلام تنطق (اس سلام).

على كل فلم تكن علامة التعريف موجودة في اللغة اللاتينية ولكنها جاءت في فروعها. فال العربية، و (EL) الأسبانية و (IL) الإيطالية و (L) الفرنسية ملفتة للانتباه.

شيء آخر مهم هو أن الفعل في اللاتينية يأتي في نهاية الجملة مثل الأردية، وفي العربية يكون الفعل والفاعل في البداية ثم تأتي المفاعيل والمتعلقات الأخرى. ونجد في الفرنسية وغيرها من اللغات المتفرعة من اللاتينية القاعدة العربية، والاضطرار إلى تغيير الشيء الموروث يحتاج إلى مؤثر خارجي قوي.

أذكر هنا شيئاً آخر، لا يوجد صوت (ج) في اللغة اللاتينية، وتستخدم (ي) مكانها، ولا فرق في الإيطالية، وتحولت في الفرنسية إلى (ژ)، وهي لهجة العربية في دول شمال إفريقيا. وكذلك الحال في لبنان. ولإظهار هذا الفرق أضيفت (i) إلى (ا). ونفس الشيء في الإسبانية ولكنهم ينطقون (ج) (خ)، فجبرالتر هي خبالتر، والواقع أن الـ(ج) لها نطق مختلف في القبائل المختلفة، ففي مصر تنطق (ج) (ك)، (ك) (عبد الناصر)، وفي اليمن تتحول إلى (ي)، في الحجاز تبقى (ج)، وفي لبنان وشمال إفريقيا (ژ)، وفي شرق إفريقيا (خ).

وفي النهاية من المهم جداً أن نذكر أن أقدم استخدام لأداة التعريف في اللغة الفرنسية وجد في Cantilene de Saint-Eulalie والذي ألف في 880م تقريباً، كما علم من الأكاديمية الفرنسية، وهو نفس زمن وجود المسلمين في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا.

في الوقت الذي كان المسلمون يحكمون ليست إسبانيا فقط وإنما جنوب فرنسا وإيطاليا أيضاً، وكانوا يسيطرون على مناطق من سويسرا في نفس الفترة. وكما يعرف زملاؤنا الأفاضل من كتابات المرحوم البروفيسور هارون خان الشيرواني، فبعد بحث اكتشفنا أن هناك لغة محلية في سويسرا تسمى رومانش (Romansch)، وهي أيضاً فرع من اللاتينية، وفي هذه اللغة أيضاً تستعمل (ll) لجعل الكلمة معرفة، وبكلمات أخرى فإن للعربية تأثيراً في تشكيل لغة الرومانش أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى أن عامية شمال إفريقيا (المغرب، الجزائر، تونس) تسقط فيها ألف ال التعريف. فيكتبون اسم عالم Larbi وأصله "العربي"، وكذلك Lahbabi ويراد به "الجبالي". ويمكن ذكر آلاف الأمثلة لذلك. وقد علم أن العرب الذين وصلوا إلى جنوب فرنسا في القرن الثاني والثالث الهجري، وأثروا على اللاتينية الراجحة هناك، كانوا

يسقطون الف ال التعريف. ونتيجة لذلك عندما دخلت أداة التعريف إلى الفرنسية أصبحت (LE) أو (L)، ولم تصبح (IL) أو (EL) مثل الأسبانية والإيطالية والرومانش. على كلٍ فإن اللغات اللاتينية قد تأثرت بالعربية، وما أضيف إلى صرفها ونحوها من قواعد عربية، ظهرت فيها ال التعريف بشكل جلي. وأنهى على هذا والله أعلم بالصواب.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> نشر الأصل في مجموعة المقالات "نذر مختار" لجامعها مالك رام، ص 129-138

## بيمارستانات الهند خلال العهد الإسلامي

- أ. د. محمد زبير الصديقي<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي<sup>2</sup>

ذكر ابن جبير في رحلته<sup>3</sup> أنما شهدته بدمشق من البيمارستانات تدلّ على عظمة الإسلام وسطوته ومنها اثنان شهدتهما في 1182م. قد وضع فيهما سجل للموظفين يذكر فيه فهرس أدوية المرضى وأغذيتهم وحاجياتهم الأخرى بجانب أسمائهم فكان يزورهم الأطباء صباح كلّ يوم فكانوا يأمرّون بإعداد الأدوية والأغذية لهم طبقاً لأدوائهم، وأما بيمارستانات غيرها من المدن والبلاد من مثل جزيرة العرب والشام ومصر وإفريقيا والعراق وإيران والدول الإسلامية الأخرى فقد ذكرها ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء والمقريزي في كتاب الخطط وابن جبير في رحلته والمؤرخون الآخرون في كتبهم ومؤلفاتهم. وكذا فصل سيريل ألوود ذكر بعض البيمارستانات الإسلامية في كتابه "Medical History of Persia" (التاريخ الطبي لإيران).

فأول بيمارستان بني في العهد الإسلامي هو الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق في 88هـ/707م كما أقام دوراً للضيوف ومباني خاصة بالعميان والمجنونين، ونظّم لهم الأغذية والملابس والحاجيات الأخرى. وشدّد على أن لا يقيموا سوى ما اختصّ بهم من المباني. وعلاوة على ذلك فقد بنى الخليفة المذكور أعلاه بيمارستانات للمرضى، وعيّن الأطباء لمداواتهم، ونظّم كلّ ما احتاج إليه المرضى.

<sup>1</sup> رئيس قسم اللغة العربية وآدابها الأسبق لجامعة كلكتة، كولكاتا

<sup>2</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية،

نيو دلهي، الهند

<sup>3</sup> الصفحة 296

وبجانب فتوح المسلمين<sup>1</sup> بنيت البيمارستانات في البلاد المفتوحة كما نظمت البيمارستانات المتحركة لإسعاف أهالي القرى الصغيرة. فكان الأطباء يجولون في تلك القرى، وكانوا ينزلون بها حسب الحاجة، ويداؤون أهاليها. وقد أقيمت بيمارستانات عديدة في المدن الصغرى للبلاد المفتوحة طبقاً لحاجاتهم ففي مدينة صغيرة كأربيل أقام أميرها أبو سعيد الكوكبوري أربعة بيمارستانات<sup>2</sup> للعميان والمرضى ذوي الأمراض المزمنة<sup>3</sup> وهكذا فقد ازداد شيئاً فشيئاً عدد البيمارستانات في الدول الإسلامية. فلما سافر طوديل كايين يامين بغداد في 1160م، كما يقول الغود، وجد بها 60 معهداً طبياً منظماً كان يوقر الخليفة المستنجد بالله من بيت ماله ما احتاج إليه هذه المعاهد كلها. إنه يقول: كان كل مريض فقير يوقر له غذاؤه من قبل الخليفة منذ دخوله في البيمارستان حتى خروجه منه. وعلاوة على هذه البيمارستانات كان بها "دار المرفتان" فكان يقام بها كل مجنون عثر عليه في موسم الصيف مربوطاً بالسلاسل حتى يشفى. وعندما أفيق كان يسمح له الرجوع إلى داره. وقد عين مسؤولون حكوميون للعناية بهم كانوا يعودونهم شهرياً بصورة منتظمة، وعندما صحّ المرضى تمّ تحريرهم فوراً. كان هذا كله موقر من قبل الخليفة الذي كان يحب كل من زار بغداد أو أقام بها. كان الخليفة (المستنجد بالله) تقياً صالحاً، وكانت أفكاره نقية صافية من شوب أي منكر.

ويمكن لنا أن نقارن نظم وبهاء هذه البيمارستانات من مستشفيات عصرنا الحاضر النامي<sup>4</sup> وهذا يبدو مما يلي من البيمارستانات.

فأقام عامل المغرب بيمارستاناً بها في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فصلّ ذكره الغود محيلاً إلى عبد الواحد المراكشي. يقول المراكشي:

<sup>1</sup> كتاب الخطط والآثار (باب البيمارستان)

<sup>2</sup> Medical History of Persia، ص 173

<sup>3</sup> طبقات الأطباء، 222-221/1 وتاريخ الحكماء، ص 193-194

<sup>4</sup> Medical History of Persia، ص 172

"وبنى بمدينة مراکش بيمارستانًا ما أظنّ أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخيّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحريير والأديم وغيره، بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجًا عمّا جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشرطة والأدهان والأكحال، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء؛ فإذا نقه المريض إن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيًا دفع إليه ماله وترك وسببه؛ ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراسم من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت؛ وكان في كل جمعة بعد صلواته يركب ويدخله، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القوامة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج؛ ولم يزل مستمرًا على هذا إلى أن مات رحمه الله".<sup>1</sup>

وفي 1282م بنى مثل هذا البيمارستان سلطان مملوك يسمّى "محمد قلاؤن منصور" بالقاهرة متبعًا بيمارستانات دمشق النورية فقد بنى هذا البيمارستان في قصر واسع كما يشير إليه المقريزي، كانت مساحته 10600 قدم مربع. كان هذا القصر يحتوي على أربعة مبانٍ، وكان أمام كلّ مبنى ميدان واسع يوجد فيه غدير وشلال. ولقد وقف مؤسسه أراضي لهذا البيمارستان وغيره من أعمال رفاهية الشعب، كان يبلغ دخلها السنوي مليون درهمًا كما عين موظفين عدة لتنظيم هذه الأراضي وترتيبها ودخلها وصرفها. وكان هذا البيمارستان مفتوحًا لكل من غني وفقير، سيد وعبيد، رجل وامرأة، حر ورقيق، موظف حكومي وعامة الناس. وقد وقّرت فيه أدوية كل نوع، والملابس

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 177

والأغذية للمرضى. وقد عُيِّنَ فيه الأطباء المهرة، والخدم من الذكور والإناث والممرضون والمرضات، وحُدِّدَ لكل منهم راتبٌ. وقد خُصِّصَتْ حجرات بالنساء والرجال، والمعانين بالأمراض المختلفة. كذا خُصِّصَتْ الحجرات الواسعة في المباني الأربعة بالحصى وغيرها من الأمراض والأوبئة كما أفردت حجرات بأمراض العين وأمراض المعدة والعمل باليد. وكان الماء يجري إلى كل حجرة. وهكذا خُصِّصَتْ حجرات بصنع الأدوية وتوزيعها، وقد حُدِّدَتْ حجرة لرئيس الأطباء كان يعلم فيها الطب. ما حُدِّدَ عددُ المرضى في البيمارستان ولا حُدِّدَتْ مدة قيامهم به، وقد وُقِرَ دعمُ كلِّ نوع للمرضى الخارجيين.<sup>1</sup>

وقد نُظِّمَ لتعليم طلاب الطب في بيمارستانات بغداد العضدية كما فُعِلَ في بيمارستانات القاهرة المنصورية فكان يعلم فيها الطبُّ أشهرُ أطباء العصر كما وُقِرَتْ للطلاب فرصة تجربتهم الطبية فيما فكان يعمل عشرة طلاب تحت إشراف كلِّ طبيب من بين خمسين طبيباً في بيمارستان تبريز كما كان خمسة طلاب يعلمون تحت عناية كل جراح، وقد فُوِّضَ لكل طالب ما يقوم به من الواجبات. والبديهي أن هذه الحالة كانت توجد في البيمارستانات الأخرى الكبيرة. ألحقت مكنتبات إلى بعض منها<sup>2</sup> كما كانت صيدليات البعض منها أماكن للنماذج للجميلة للصناعة اليدوية فذكر رشيد الدين فضل الله: البيمارستان الذي أقيم بتبريز جمع فيه المرتبانات الصينية للأدوية فكانت بعض البيمارستانات الواسعة تضاهي بالقصور الملكية.<sup>3</sup>

ولم تتخلف الهند عن الدول الإسلامية الأخرى في إقامة البيمارستانات في عهدها الإسلامي فقد كانت 70 بيمارستاناً في دلهي وحدها خلال حكم محمد بن تغلق كما يقول إليت.<sup>4</sup> ويقول فرشته إن فيروز شاه بنى خمسة بيمارستانات الأخرى في دلهي فقال فيروز شاه في كتابه "فتوحات فيروز شاهي": إنه بنى بيمارستاناً كان مرضى كلِّ قسم يتم مداواتهم وكانت توفّر لهم الأدوية والأغذية مجاناً، عُيِّنَ فيه العديد من الأطباء

<sup>1</sup> كتاب الخطط والآثار (باب البيمارستان)

<sup>2</sup> مجموعة محاضرات براون عن الطب العربي (بالإنجليزية)، ص 109

<sup>3</sup> Medical History of Persia، ص 181

<sup>4</sup> إليت وداسن، 576/2

للمداواة". والواقع أن ملوك وسلاطين الهند المسلمين وأمراءهم وعمّالهم ومسؤوليهم الآخرين قد أقاموا بيمارستانات خيرية كعادة خلفاء الإسلام وأمراءهم وعمّالهم ووقفوا لها أراضٍ كما كان بعض سلاطين الهند المسلمين ماهراً في علم الطب، وكان يعالج المرضى والمصابين فكان محمد بن تغلق حاذقاً في علم الطب، وكان يداوي مختلف الأمراض، ويناقش مع الأطباء الكبار عن القضايا الطبية. وكذا كان فيروز شاه طبيباً حاذقاً، وكانت له رغبة خاصة بعلم الطب فجمع أجود مؤلفات هذا الفن كما ألف كتاباً في علم الطب باسم "طب فيروز شاهي" ذكر فيه الأمراض وأدويتها التي ما ذكرت في القانون لابن سينا ولا جاءت في "ذخيره خوارزم شاهي". إنه كان ماهراً في جبر العظام كما رغب في أمراض العيون. فمزج جلود الأفاعي السوداء ببعض الأدوية، وصنع بها كحلاً يسمّى "كحل فيروز شاهي"، كان نافعاً في العديد من أمراض العيون.<sup>1</sup> ويقول عفيف: إن السلطان فيروز شاه أقام بيمارستاناً كعادة سلاطين دلهي لمداواة المرضى لأجل معافطته معهم، وعيّن فيه الأطباء الحذاق، وأمّرههم بأن يعاطفوا المريض كلما يجيئهم، وأن يبحثوا عن نبضه، ويشخّصوا المرض، ويعطوه الدواء المفيد كما أوضح على موظفي البيمارستان أن هذا البيمارستان بني لمرضى كل نوع وفرقة. فعُيّن فيه الأطباء المجربون والجراحون والإخصائيون في أمراض العيون، والممرضون والممرضات وعامة الخدم. ووقّرت فيه أدوية وأغذية كل قسم، وهي توزّع مجاناً. يزوره المرضى من مختلف المناطق فليعتن بهم فوراً وليشخّص الأطباء الحذاق الجالسون على السرير على قرب الباب الرئيسي، وليعطوهم ما يفيدهم من الأدوية. وقف فيروز شاه كثيراً من الأراضي دخلها ثلاثة ملايين تنكة على البيمارستانات والأعمال الخيرية الأخرى.<sup>2</sup> والأدوية المفردة والمركبة التي كانت متوفرة في البيمارستان ذكر فهرستها في الباب الرابع لفيروز شاهي. وكذا يبدو من هذا الكتاب أن فيروز شاه نفسه كان يزور البيمارستان، وكان يداويهم. إنه أصدر الأمر بأنه إذا أصيب أحدٌ بالجنون فليدخل في البيمارستان، ويتم مداواته بأدويته المجربة، ويعطى الأطعمة التي وصفها السلطان ذاته. وهكذا يبدو من

<sup>1</sup> سيرت فيروز شاهي (مخطوط مكتبة خدابخش ببته)، ص 161-176

<sup>2</sup> تاريخ فيروز شاهي، ص 353-359

هذا الكتاب أن فيروز شاه قد أقام العديد من البيمارستانات الثابتة والمتحركة، وعيّن في كلّ منها أطباء حذاقاً. وبنى محمود شاه بيمارستاناً فخماً في ماندو، وجعل مسؤوله الحكيم فضل الله الذي لقبه السلطان بـ "حكيم الحكماء".<sup>1</sup>

أمر تيمور أن يبنى مسجد ودار للضيوف وبيمارستان بكل مدينة في حدود سلطنته<sup>2</sup>، وكذا عيّن السلطان شير شاه السوري طبيباً في كل دار للضيوف بناها في حدود سلطنته. ومن الاثني عشر حكماً التي أصدرها السلطان جهانغير بعد تولّيه العرش أن يبنى بيمارستان في كل مدينة كبرى، ويعيّن فيه أطباء يداوون المرضى على حساب الحكومة. وهكذا بنت جهان آرا بيغم بنت السلطان شاهجهان داراً للشفاء<sup>3</sup> وذكر السيد أحمد الماهروري في كتابه "آثار خير" العديد من بيمارستانات الهند التي أقيمت في مالوا وبهاغ ناغار وأغره وأحمد آباد وسورت وغيرها من المدن.<sup>4</sup>

وعلاوة على سلاطين دلهي فقد بنى أمراء وعمّال بعض الولايات بيمارستانات في المدن التي كانوا يحكمونها فبنى علاء الدين أحمد شاه الهميني بيمارستاناً فخماً في بيدر، ووقف عليها العديد من القرى التي كانت تكاليفها تؤدى بدخلها، قد جعل فيه حكماء يونانيون وأطباء محليّون. إنهم كانوا يعالجون المرضى طبق كلا الطبين، وكانت الأدوية والأغذية توزّع للمرضى مجاناً. وحينما تولّى العرش قلي قطب شاه سلطان غولكنده أسّس حيدرآباد (بهاغ ناغار) كما أقام بها بيمارستاناً سميّ بـ "دار الشفاء". يوجد مبناه حتى الآن وهو يدلّ على بهاء وعظمة البيمارستان. عيّن فيه الأطباء المجربون (والأطباء المحليّون تقريباً) مداواة المرضى. كانت الأدوية والأغذية توزّع مجاناً للمرضى، وكانت رواتب الأطباء والموظفين وكافة تكاليف البيمارستان تدفع من بيت مال الحكومة.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> آثار خير، ص 89

<sup>2</sup> Medical History of Persia، ص 173

<sup>3</sup> إليت وداسن، 512/6

<sup>4</sup> آثار خير، ص 569

<sup>5</sup> سلاطين الدكن الهمينية (بالإنجليزية)، ص 227-228

وفي عهد السلطان جهانغير كان نواب إتاوه خير أنديش خان طبيباً حاذقاً فأقام بيمارستاناً كبيراً في إتاوه، وعين فيه حكماء حذاقاً وأطباء محليين فقال في ديباجة كتابه "خير التجارب": أقام هذا العبد القليل البضاعة وكثير العصيان المسىء بـ"محمد خان" والملقب بـ"خير انديش خان" بيمارستاناً بإتاوه لثواب الآخرة، وأمر أصدقائه من الأطباء اليونانيين والمحليين بأن يوقروا الأدوية الثمينة للفقراء من المرضى، ويختاروا طرقاً ملائمة لمداواتهم فيجري هذا العمل بفضل الله". وقد ذكر خير أنديش أسماء الأطباء اليونانيين والمحليين فمن الأطباء اليونانيين عبد الرزاق النيسابوري، وعبد الماجد الأصفهاني، والميرزا محمد علي البخاري، ومحمد عادل، ومحمد أعظم. ومن الأطباء المحليين كنول نين، وسوكها نند، ونين سكه.

والأسف أن مؤرخي الهند لم يقدموا تفاصيل بيمارستاناتها قدرما قرأها مؤرخو الدول الإسلامية الأخرى، ولكننا ذكرناه من أخبار بيمارستانات بيدر إتاوه يمكن بها تقدير أن الأطباء المحليين قد تمتعوا من العناية بما قد تمتع منها الأطباء اليونانيون في بيمارستانات الهند بل كان أطباء كلا العلمين (الطب اليوناني والطب المحلي) يتبادلون الأفكار والآراء في القضايا الطبية العديدة، وقد ساهموا في تأليف الكتب الطبية في الهند. والواقع أن المسلمين قد تعاونوا مع الهندوس في كل دولة من دولهم، وفي كل عهد من عهود حكمهم فكان الأطباء اليهود والنصارى يتعاونون مع الأطباء الهندوس في بغداد والقرطبة لأداء خدمة العلم والوطن، وكان الأطباء الهندوس مثل مانك وأبندهن يُوظفون في بيمارستانات البرامكة، وكانوا يداوون المرضى حسب علمهم. وكما وُظفَ أطباء كلاً العلمين في بيمارستانات الهند وغيرها من الدول الإسلامية فكذلك يمكن أن تكون طريقة مداواتهم موحدة في هذه الدول، وعسى أن تكون حجرات خاصة لمرضى كل نوع، وحجرات مفردة بصنع الأدوية، ومدارس طبية ملحقة بها، وأشياء أخرى ذات الصلة بالطب.

ولقد تأثرت بيمارستانات أوروبا بهذه البيمارستانات فأقيم العديد من البيمارستانات في أوروبا اتبع فيها أسلوبها وسلك طريقها فيقول ميور هوف عن بيمارستانات القرون المتوسطة إنها ستكون صوراً مأخوذة من البيمارستانات الإسلامية ذات المستوى

العالي، ولعلها أقيمت على أشكال بيمارستانات دمشق النورية وبيمارستانات بغداد المنصورية<sup>1</sup> فما نشهده اليوم من القسمين الكبيرين (الداخلي والخارجي) في مستشفيات إنجلترا وأوروبا وغيرهما من البلاد، وتخصيص الأقسام بمرضى مختلف الأمراض والأنواع، وأصول تشخيص الأمراض، وحضور الأطباء الإخصائيين في المستشفيات في أيام خاصة للأسبوع، وتخصيص الحجرات لصنع الأدوية وقتيتها وتوزيعها للمرضى مما يرجع فضلها إلى بيمارستانات القرون المتوسطة فيقول أَلغود: إذا أحبَّ أحدٌ أن يشهد طريقة عمل البيمارستانات العربية (الإسلامية) فليزر أي مستشفى في لندن في يوم من الأيام".<sup>2</sup> فاعتبروا يا أولي الأبصار.<sup>3</sup>

---

<sup>1</sup> تراث الإسلام (بالإنجليزية)، ص 349-350

<sup>2</sup> Medical History of Persia، ص 178

<sup>3</sup> نشر الأصل في مجموعة المقالات "نذر عابد" لجامعها مالك رام، ص 219-232

## رسائل شبلي النعماني حول علاقته بندوة العلماء

- د. أورك زيب الأعظمي<sup>1</sup>

إن الرسالة لوسيلة تنبئ الإنسان بما يكتنه قلب أحد من الأسرار والغيوب، وعسى أن لا ينكشف ما في داخل أحد من السر في خطبته وكتابته إلا أنه يجب بيانه في رسالته لأنه يظهر فيها ما يخفيه في الكتابة أو الخطابة ولذا فالرسالة أهم وسيلة لعلم ما في صدر أحد من الأسرار والخفايا، وفيما يلي محاولة موضوعية للعلم بعلاقة شبلي مع ندوة العلماء في ضوء رسائله التي تحتوي على مجلدين جمعتهما تلميذه البارز العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى. وها هي ذي:

### رحلته إلى ندوة العلماء

إن العلامة شبلي رحمه الله كان مبدعًا ومجددًا في العديد من المجالات ومنها التعليم. إنه يرى أن يأتي بتغيير كبير في التعليم، وذلك أن يدخل في المنهاج الدراسي للمدارس العلوم الحديثة لاسيما اللغة الإنكليزية لكي يكون عالمنا الإسلامي ملماً بما في الجديد من العلوم والفنون فيكلم كلام الجديد من الرجال ومعه ثروة القديم من العلوم، فلما رأى العلامة هذه المدرسة ووجدها حسب مرضاته ارتحل من جامعة علي كره إلى ندوة العلماء فهو يقول:

"لم أزل أقول في ندوة العلماء- وإني لصادق- إني تركت الكلية- أراد بها علي كره- لمجرد هذه المدرسة"<sup>2</sup>.

وفي موضع آخر قال وهو يثني على ندوة العلماء:

<sup>1</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

<sup>2</sup> رسائل شبلي (جمعها: السيد سليمان الندوي)، مطبعة معارف، أعظم كره، 1966م، 1/120

"إن ندوة العلماء موضع نلعب فيه دورًا إسلاميًا كبيرًا ويمكن أن نترك فيه آثارًا كثيرة إسلامية"<sup>1</sup>.

إنه- رحمه الله- جاء الندوة لمجرد الخدمة الإسلامية فهو يقول:

"إني لا أدري لِمَ أتوا إلى هذه المدرسة وماذا قصدوا بها؟ وإني والله أتيتها لمجرد الخدمة الدينية. وأما الجاه الدينيوي، والصيت والذكر الحسن فلا أبغهما وتركتهما في كلية علي كره"<sup>2</sup>.

### أسف على مهاجها القديم

كان من أهداف ندوة العلماء أن تصلح المنهاج الدراسي، وتربي الجيل الجديد، وتقضي على النزاع الشائع بينهم كما قال العلامة شبلي النعماني:

"كان من أهداف ندوة العلماء أمران:

الأول: إصلاح المنهاج الدراسي وفيه اعتني بأمرين:

أن يعدّ البارعون في كل فن فلذلك أريد القيام بالدرجة العليا.

وأن يعدّ العلماء الذين يعرفون ويخبرون بما يحتاج إليه الجديد فلذلك مسّت الحاجة إلى العلوم الجديدة لاسيما اللغة الإنكليزية.

فعلى ذلك عدّ هذان الأمران من أهم أهداف دار العلوم وإلا فالمدارس الإسلامية القديمة قد أسست من قبل.

والثاني: رفع الخلاف من بين الناس أي أن يقضى على العصبية الشائعة بيننا وأن تعمل كل فرقة إسلامية في الأمور العامة كمثل نشر الإسلام وغيرها من الأمور التي تعم كل فرقة إسلامية"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 143/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 40/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 179-178/2 (1971م)

ولكن أهل الندوة لم يعتنوا بهذه الأهداف ورجعوا بعد قليل إلى مناهجهم القديم الذي أرادوا الفرار منه فالعلامة شبلي النعماني يتأسف على ذلك، ويقول في إحدى رسائله إلى الأستاذ حبيب الرحمن خان الشيرواني:

"بلغني اليوم مناج دراسي صدر عن دار العلوم فلما قرأته وجدت فيه الكتب التالية:

(1) ملا جلال، (2) شرح جامي، (3) فصول أكبري، (4) الكافية، (5) المييزي و(6) الشافية.

أيها الأخ: كيف وماذا نجيب عند الله السميع البصير، هل هذا الذي ادّعت به ندوة العلماء بناء منزل ديوبند القديم كعبة الله. أنت رئيس لجنة المناهج هل لهذا؟ نعم كنا مختلفين في أمور في المناهج الدراسي ولكن الذي اتفقنا عليه ماذا تريد فيه قل لمن يدرّس بالمدرسة ماذا يصنعون؟ هل لا يندم هؤلاء الظالمون، أسفًا لهم وحسرة عليهم"<sup>1</sup>.

ويكتب إليه في رسالة أخرى:

"كتبت- لقولك- رسالة طويلة إلى الأستاذ عبد العي. لعلها لم تبلغ إياك. إن وضع الندوة الراهن تفتّر به عزيمة. أنظر إلى الأعضاء الرميمة قد اقترحوا لهذه المرة كتب العقائد النسفية والهدية السعيدية ونور الأنوار وهذا من الأستاذ حفيظ الله، رحمه الله، إنه لم يسمع غير هذه الأسماء"<sup>2</sup>.

### اللغة الإنكليزية

إن العلامة شبلي النعماني كان يرى الإنكليزية أهم وأكثر اعتناء بها بين العلوم الحديثة الأخرى. فلذلك أصرّ على اعتنائهم باللغة الإنكليزية في مناهجهم الجديد وقال:

"قد سعت في مجلس الإدارة للاعتناء بالإنكليزية حتى أذكيها وأكدت على كتابتها. نعم قد بقي البحث عنها ولكني لم أجد أي سبب لعدم كتابة حركتي هذه في سجّل الإدارة"<sup>3</sup>.

ولكنه لما سعى لها ترددوا فيها كأنهم لا يعتنون بها. يقول العلامة شبلي متأسفًا لذلك:

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 149/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 126/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 122/1

"لي رجل شيرواني ثاقب الفكر اعتبره إمامًا لينظر إلى باله: هو يخاف من ذكر الإنكليزية، إنه قد رضي بعد جهد جهيد بمقترح الإزلاق للمسلمين ولكنه متردد في القيام به واني لا أريد أن نعلّم الإنكليزية جميع الطلاب غير أن يتعلمها نفر منهم وإن هذا القدر من الكلام خطير عنده كممثل الجامعة الخيالية للأستاذ محسن الملك.

فمن يتهمياً لهذا القدر من التشجيع"<sup>1</sup>.

فبعد ذلك تبيّن الأمر أنهم لا يعتنون بها وهي عندهم ليست مما يهتمّ من الأمور فهو يقول: "إني مائل إلى الصحة ودار العلوم في ذهني. قد عادني الأستاذ خليل الرحمن وحثني على العمل وأياً كان الأمر فقد استعدت للذهاب إلى هناك ولكن أخبرني بماذا أفعل هناك؟ ولا يريد المحاسب أظهر علي والأستاذ خليل الرحمن والأستاذ فاروق رئيس المعلمين بدار العلوم إلا أن يربوا طلاباً هم مستطيعون بالدراسة الكاملة للكتب الدراسية وليس غير وما من زيادة أو نقصان هو يحملهم على سوء الظن وما جرى بيننا من الحديث كشف الغطاء عن ذلك السر فالأعضاء الراهنة يفعلون ذلك ولي:

چو كارے بے فضول من

إن اسم الإنكليزية يجعلهم تستل منهم أرواحهم.

إن ترد أنت والأعضاء الأخر أي عمل مني فأخبروني بماذا أفعل؟ إن مقترحاتي لا يمكن أن يتركز عليها منهاجهم الدراسي إلا أن تقوم النزاعات وتنشأ العصبيات وهذا لا يفيد. ففكر مراراً ثم أجب واستشر فيه الأستاذ محمد علي"<sup>2</sup>.

ولذلك وما يليه قال العلامة شبلي النعماني: "إن داء ندوة العلماء معضل لا دواء له"<sup>3</sup>. ومن عنايته بالعلوم الجديدة لاسيما الإنكليزية أنه لما علم أنهم قد اعتنوا بها قليلاً وفهم أسقام وأمراض عديدة سرّ ورضي بالإقامة بها. يقول:

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 127-126/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 121-120/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 114/1

"قد اهدت ندوة العلماء وأدخلت الإنكليزية في مناهجهم الدراسي ووضعت أموال الله آباد في البنك فإني أحب أن أقيم بها وفيها أمراض عديدة"<sup>1</sup>.

### أهل الندوة في عداوتهم للعلامة شبلي النعماني

إن وجهة النظر التعليمية للعلامة شبلي النعماني قد حملتهم على عداوة شديدة مثل قول الشاعر:

وَأَلَدَّ ذِي حَنْقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلَى عداوة صدره في مرجل  
إنهم كانوا متشتمين في العداوة له ومتفرقين في البغضاء عليه. تارة يعدون مناجه مناج الملحدين وأخرى يكفرونه وثالثة ينشرون الكتيب في عداوته فعداوتهم له قد تشتت وتنوعت حتى بلغت أن لا تحصي ولا تعد ومنها:

### تكفيره

لما كَفَرُوا العلامة شبلي النعماني اشترك في إذاعة ذلك أهل الندوة ونشروه وأشاعوه حتى ألصقوا الأوراق على الجدران. يقول العلامة في رسالة إلى الأستاذ حبيب الرحمن خان الشيرواني:

"لو كنت في دلهي لهذه المرة لوجدت حلاوة. بلغني قبل الحفلة أنهم قد أفتوا تكفيرك. إن تؤخر الحفلة تكن بالخير وإلا فتشتهر مكفراً وقد كان يقسم عند الحفلة أربع فتاوى بين الناس قد أصدرها الأستاذ عبد الحق- صاحب التفسير الحقاني- وقد نشرها أسفار الندوة في مدن أخرى فقد أتاني بها أحد أخذاً إياها من جدار في راي بريلي والآن سعوا لمنع نشر السيرة. أقوال ممتعة!! هذا من الذين هم يدعون بتقواهم وعبادتهم. إذا جاء المولوي في العالم كان أكبر منا عاشقاً لهذه الدنيا الرذيلة. إن ما مضى في الحفلة من القيامة كان أجدر بأن يُرى ويستلذ به"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 1/135

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 1/210-211

### منع الأساتذة والطلبة عن لقائه

إن أعداءه قد منعوا الأساتذة والطلبة عن أن يلتقوا به أو يسألوا عن أي أمر دينيًا كان أو علميًا. قال العلامة في رسالة إلى أخيه الإمام حميد الدين الفراهي رحمه الله: "انتهت العداوة هنا إلى أنهم أصدروا أمرًا بأن لا يذهب الطلبة إلى الخارج لدراسة ما. لأنهم مضطربون حيارى لأنهم كانوا يأخذون العلم عن غيري من الأساتذة العديدة ولما لم يطيعوا ذلك. هناك كيود شتى لعدم لقاء أحد من الأساتذة وكان من العام أني حينما كنت أدرّس كنت ألقى الأساتذة"<sup>1</sup>.

### منهاجه الدراسي من الإلحاد والزندقة

قد اختاروا أنواعًا من الكيود لرغم العلامة النعماني وتذليله. تارة كقروه وأخرى منعوا الطلاب والأساتذة عن لقاءهم إياه وثالثة أنكروا ما عرض لهم من آرائه القيمة الثمينة، ومن هذه الأنواع عدّ منهاجه الدراسي من الإلحاد والزندقة فإنهم لما فشلوا في كل من الكيود اختاروا هذا الكيود الرذيل وجعلوه ملحدًا منهاجه فهو يقول في رسالة إلى صفي الدولة حسام الملك النواب السيد علي حسن خان رحمه الله: "قد كتبت إليك رسائل عديدة ردًا عن رسالتكم الكريمة، قد جعل الأعداء ينشرون أني قد جعلت منهاج الندوة الدراسي من الإلحاد والزندقة وهو سائر بينهم، وقد أشير إلى ذلك في بياض النواب إسحاق خان"<sup>2</sup>.

### إقالته من ندوة العلماء

قد خالف العلامة كثيرًا من أهل الندوة حتى من أعزته وأقربائه وعقدوا له عداوة شديدة فعلى ذلك أراد العلامة أن يقبل منها. يقول في رسالة: "قد جعلني أعمال الندوة الماضية موقفًا بأنهم قد أساءوا الظن بي فهم يخافون من اشتراك في عملي وإني لا أكره أحدًا على شيء، ولكني أيضًا لا أحب أن أكون منافقًا أو

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 53/2

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 176/2

أن يُجْعَلُوا منافقين فقد كتبت إلى الأستاذ عبد الحق رسالة في ذلك. خذ عنه واقرأ واجعلي بريئاً عنها"<sup>1</sup>.

ويقول في موضع:

"إنكم لا تتركوني أن أعمل فيما استطيع وأحبه، وفكرت فيه مديداً من الزمان. إن رسالة "الندوة" ومنهاجها الدراسي كنت أحبهما ويحبّانني ولعلي استطيع أن أعمل ذلك فقد جعلتموني غير عامل في كلا الأمرين وإن كنت أريد الصيت منه فكانت كلية علي كره أنسب منها. والمقصود من جهدي أن أعمل هذا العمل بأحسن ما استطيعه ولكنكم تخافوني كما أني إذا اشتركت فيه جعلت بناء الدين والمنهاج مهديماً. وعلى كل صورة إنني لا أعترض لظن أحد وزعمه فلما بلغ الأمر هذا الحد فلا فائدة في التعرض في الأمر فاعفوا عني واجعلوني بريئاً عن الندوة فإن تريدون أن أعمل كطبال فلا نزر للناس فأسفاً لقلوبنا المسلمين كيف تغيّرت ومالت إلى جانب آخر فقد كنت استعدت للحفلة ولكنه لا فائدة في الاشتراك في حفلة أهلها أساءوا الظن بي"<sup>2</sup>.

وأيضاً يقول حينما رأى أنهم لا يعينونه في جهده:

"قد كلمت الأستاذ مسيح الزمان وأقرانه في حفلة كلاماً فصلاً: إن تريدون أن تقيموا بإدارة المدرسة فأحسنوا العمل وإلا فإني بريء عنها"<sup>3</sup>.

ورسائله في استقالته عن ندوة العلماء كثيرة لا تعد وأيضاً يبدو من رسالة له أنهم قد حثوه على الاستقالة فهو يقول في إحدى رسائله إلى مولانا أبي الكلام آزاد الدهلوي:

"اليوم ضيق شديد للحرب- التي شاعت بيننا- قد اجتمع السهارةنפורي والشاهجانفوري والفلواري والكاكوري جميعاً. توضع التقارير وتكتب المقالات ويوضع أيضاً تقرير جريمتي بل قد وضعوه وقد عدّ كتيب اعتراف العقائد الذي سيعرض عليّ وأكره على الاعتراف به والرئيس العام لكل هذه الأمور هو الأستاذ الشاه وقد أقام هنا إقامة دائمة ثم كل هذه الأوراق سترسل إلى الأعضاء هكذا يسعون منظماً العزلي عن هذا المنصب ثم عن هذه المدرسة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 142/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 143/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 154/1

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 275-274/1

وأخيراً استقال الأستاذ عن ندوة العلماء فيقول في رسالة إلى الأستاذ السيد النواب علي البروفيسور السابق لكلية "بروده" (Baroda):  
"قد لزمني بك الصمت حتى استقلت عن ندوة العلماء"<sup>1</sup>.

### كيف خدم العلامة النعماني الندوة؟

إن العلامة شبلي النعماني قد خدم ندوة العلماء خدمة مثلى. قد نالت الندوة الصيت الحسن في الآفاق من أجله. إنه قد استعمل كثيراً من الرسائل لذكرها. تارة نشرها في الجريدة وأخرى عقد حفلة نشر بها ندوة العلماء وتارة ثالثة ألقى خطبة أذاع بها دار العلوم والعلامة هو نفسه كان وسيلة للذكر والصيت وإني أرى أن أبين بعضاً منها وما هي ذي:

#### إدارة العلوم والفنون:

إن العلامة شبلي رحمه الله كان مديراً للعلوم والفنون فإنه خدم مديداً من الزمان، وربى أساتذة نشروا العلوم الإسلامية، ونالوا الصيت في العالم. يقول وهو يذكر:  
"اعلم أني قد قبلت منصب الإدارة للعلوم والفنون، ولكن الثورة انتهت إلى أني لا أدري هل يقبلني هذا المنصب أم لا؟"<sup>2</sup>.

#### إقامة الحفلة:

إن العلامة شبلي النعماني قد أقام لسمعة ندوة العلماء حفلة سنوية ولهذا الصيت ربما غير المكان وسعى له سعياً حثيثاً. يقول:

"إن حفلة الندوة هذه ستقام في عطلات "إيستر" وقد نسبت حجرة لدار الإقامة إليك تذكاراً لمن توفيت فعليك أن تعرض هذه الأموال عند الحفلة. لأن بناء دار الإقامة سيبدأ على الفور والمدرسة تبنى بسرعة"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 313/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 129-128/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 41-40/1

وأيضًا يقول وهو يذكر الرابع عشر من أغسطس:

"إن تشهد حفلة الرابع عشر من أغسطس وإن لم استطع الشهود فعليك أن تجيئي ولا يمكن أن تصرف النظر عني"<sup>1</sup>.

ذكرها بالجرائد:

إن الأستاذ العلامة اختار وسائل كثيرة لذكر الندوة. تارة أقام الحفلة وأخرى أرسل رسائل ذكر فيها الندوة وثالثة ألقى خطبة لم ينس فيها الندوة. ومن هذه الوسائل ذكرها بالجرائد والمجلات. إن الأستاذ أشار على أصحابه أن يكتبوا مقالات يشيرون فيها إلى الندوة ومميزاتها وأعمالها. يقول في إحدى رسائله إلى السيد سليمان الندوي:

"إن ذكر المقترحات مقصور في جريدة "وكيل" وهي لا تؤثر في النفوس. ينبغي أن ينشر في العديد من الجرائد، وإن ترسل البرقية إلى الجرائد الإنكليزية لاسيما "إندين تيليغراف" و"ليدر" تنشر المقترحات"<sup>2</sup>.

دعوة البارعين إلى الإفادة:

إن العلامة قد دعا الأساتذة البارعين في العلوم والفنون إلى أن يقيموا بهذه المدرسة، ويعطوا الفرصة لاستفادة الطلاب منهم. يقول في رسالة إلى المفسر الملهم حميد الدين الفراهي:

"إن حجرتي في ندوة العلماء خالية لا نفس فيها تعال ودرّس التفسير بهدوء وسكون إن شئت وإلا فلا حاجة إلى ذلك.

نعم درّس كتاب "الدروس الأولية" جعلك الله عالية درجتك فلتكن عالية فكرتك"<sup>3</sup>.

ويتأسف حين لم ينزل الفراهي بندوة العلماء:

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 119/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 105/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 27/2

"أسفًا لك قد مضت مدة طويلة لعطلتك ولم تنزل هنا، فبقي كتاب "الدروس الأولية" غير معلّم"<sup>1</sup>.

وأيضًا يقول حينما اقترح مجلس الإدارة لندوة العلماء أمرًا وهو ذهاب طالب إليه ليتعلم منه هذا الكتاب:

"قد اقترح مجلس الإدارة لندوة العلماء أن يذهب طالب بمنحة مالية إلى الأستاذ حميد الدين الفراهي ليعلمه "الدروس الأولية" و"الإلهية الجديدة" وأن يأتي بتجربة عند الإمكان في "بيت الآلات" فيرسل طالب إليك وأخبر بأنه كيف يقيم وكيف تعلمه بالتجربة وإن تنزله عندك فلك أن تأخذ راتبك"<sup>2</sup>.

#### سروره برقي ندوة العلماء

إن العلامة كان يغمره السرور حينما كان يبلغه شيء عن ازدهار ندوة العلماء وإنه وضع أمورًا جعلها ضرورية لتطورها فيقول:

"إنه لا بد لبرقي ندوة العلماء من أمور تالية:

مدى التأثير وجودة الخطابة والكتابة وسير حوالي البلاد والتأثير في نفوس الأقران والعلامة بالمملكة"<sup>3</sup>.

من أمثلة سروره من تقدّم ندوة العلماء أنه حينما وجد أساتذة برعوا في العلوم سرّ بهم وقال:

"الآن قد بلغت دار العلوم مبلغها. كنا مضطربين عن جهة التدريس ما كان هنا أيّ رجل بارع في الفن وما كانوا راغبين في المطالعة"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 28/2

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 29/2

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 89/2

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 174/2

ويقول في رسالة إلى المحاسب محمد أمين:

"إنك تُسرُّ من أنه مالت الحكومة إلى ندوة العلماء وكرمت عليها. سألني المدير هل تريد أي إعانة منا فأكدت على المعونة وأرجو ذلك منه"<sup>1</sup>.

ويقول أيضًا في إحدى رسائله:

"قد بدأ بناء دار العلوم، ما أكثر الموقع سرورًا! أودّ أن أراه كلَّ يوم"<sup>2</sup>.

ويقول في رسالة إلى السيد سليمان الندوي:

"بلغني أن المدير الراهن والأستاذ احتشام علي يجاهدان في دعم مالي لندوة العلماء وذهبا إلى شملة لكي يلتمسا الحكومة أن تديم الإعانة. وإن صحَّ هذا الخبر فإني مسرور للغاية. وكنت مهمومًا من جهة أنه يمكن أن يهدم هذا البناء"<sup>3</sup>.

من أقوى أمثلة ذلك سروره من جهاد أعدائه في رقي ندوة العلماء حيث يقول:

"نفعت الندوة عداوة الأعداء بأنهم قد انهمكوا في أعمال الندوة"<sup>4</sup>.

### حزنه على سوء بالها

لا بد لمن يُسرُّ بحسن بال أحدٍ من أن يحزن على سوء باله فالعلامة النعماني كما سُرَّ برقي ندوة العلماء حزن على سوء بالها، وأبدى ذلك الحزن في العديد من رسائله. وإني أقدم مثالًا سيكفي دليلًا على ذلك. يقول العلامة شبلي في إحدى رسائله إلى المحاسب محمد أمين:

"قد تلَوّن الدهر بالندوة وساء بالها. ما لهذا الخير والاستقلال لا يغادر أي شيء رافعًا إلا وجعله خافضًا. كل شيء إلى فساد وسوء بال"<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 233/1

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 264/1

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 96/2

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 302/1

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 253/1

ومن يرد مزيد الأمثلة فليراجع رسائله، رحمه الله، لاسيما رسائل المجلد الأول.

### هل انقطع حبله بندوة العلماء؟

إن ما فعل أعداؤه قد كان أجدر بأن لا يرجع إلى ندوة العلماء لأنها- كما قال العلامة النعماني- كانت آنذاك مثوى للأشرار: "إن ندوة العلماء صارت مثوى للأشرار"<sup>1</sup>.  
ولكن العلامة النعماني كان عاشقاً لها لأنه قد جاهد لها وجعلها حسب رأيه ولو لم يفز بسبب أعدائه ولكن المستقبل صدق قوله:

"وأما المنهاج الدراسي فإن الدهر سيصلحه. لن يمكن أن تصير الندوة ديوبند"<sup>2</sup>.

فهو يقول ويعدها مركزاً لفكره ومحوراً لدوران حياته:

"ولو قد استقلت من ندوة العلماء ولكنها ستكون مركزاً لفكري، ومحوراً لحياتي، وأعينكم بالضمير والعمل"<sup>3</sup>.

### هل الندوة شكرته من قبل أو من بعد؟

إن ما سعى العلامة النعماني لندوة العلماء وجاهد لها أظهر من الشمس وأشهر من نار على علم، ولكن أهل الندوة لم يشكروه لا من قبل ولا من بعد. إنهم عاملوه معاملة سيئة لا حسنة. في قديم الزمان بالغوا في عداوته حتى جعلوه كافراً وفي هذا العصر أصبحت الندوة محتلة من قبل ورثة عبد الحّي الحسني أحد أعداء العلامة شبلي اللدّ.

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 1/119

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 1/303

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 1/339

## العلامة فضل حق الخيرابادي وخدماته الأدبية

- أ. د. غلام يحيى أنجم<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي<sup>2</sup>

العلامة فضل حق الخيرابادي أشهر من نار على علم في مجال تحرير البلاد، والواقع أن وطيس حرب الاستقلال لم يحم إلا من فضله، وما وجهه العلامة من إسهام بالغ في هذا المجال وما قدمه من الثبات يستحق الثناء عليه. إنه تعلم وترى على أيدي والده الجليل فضل إمام والشاه عبد القادر المحدث الدهلوي والشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي وفرغ من نيل المعقول والمنقول من العلوم في عمر بلغ 13 سنة ثم أفاد الطلاب بما حصل عليه لمدة طويلة حتى قبل الوظيفة الحكومية في نهاية عمره.

وفي 1831م شرفه النواب فيض الله محمد خان والي جهجر (في بنجاب) بالدعوة إليه ونذر له 500 روبية هندية فلما غادر دلهي لجهجر واره بهادر شاه رداءه الملكي ولم تصبر عيناه أن تذرفا الدموع فقال: بما أنك عازم على السفر فليس لي مجال سوى أن أجزك للسفر، ولكن الله يعلم أن كلمة الوداع لا تخرج من شفتي. ولقد ذكر الميرزا غالب هذا الحادث بصورة مؤثرة في إحدى رسائله (يادگار غالب، دلهي)

وبعد وصوله إلى جهجر غادره لألور على دعوة من ملكه ثم سافر إلى تونك، وكذا توظف في رامفور على دعوة نواب رامفور، وبعدها جاء لكتناؤ وعمل مسؤولاً عن "صدر الصدور" و"حضور تحصيل" وكذا أقام بسهارنפור لسنتين على منصب كبير فيما وهكذا كان مسؤولاً في محكمة دلهي في العاصمة.

<sup>1</sup> رئيس قسم الدراسات الإسلامية، جامعة همدر، نيو دلهي، الهند

<sup>2</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

في 1956م ترك العلامة فضل حق لكتناؤ وذهب إلى دولة ألور، وكان آنذاك يحسّ ببداية الثورة في قلبه وذهنه فحاول أن يؤيده ملك ألور في هذه القضية ولكنه لم تتكلم جهوده بالنجاح. جاء العلامة دلهي في 1857م. وحينذاك كانت قضية الرصاصات قد بلغت زباها فقد أثار مزج شحم البقرة والخنزير كلاً من المسلمين والهندوس. وتلك أن الإنجليز قد مسحوا شحم البقرة والخنزير على رصاصات البندقية والبقرة محرّمة لدى الهندوس بينما الخنزير حرام لدى المسلمين ولم يمكن أن تخرج هذه الرصاصات من البناديق بدون معونة الأفواه فلما علم عن هذا الجيش ثارت ثورة من ميرث إلى دلهي وأغارت الجنود على دلهي في 11/ مايو 1857م وعمّ القتل والنهب وتمركزت هذه الجهود الجهادية على ملك دلهي، ولم يتخلف العلامة في إشارته على الملك في هذه القضية فيقول المنشي ديون لال في الصفحات (217-240) من مذكراته:

"16/ أغسطس 1856م حضر العلامة فضل البلاط الملكي وقدم الجنيه كنذر وتحدّث مع جلالة الملك عن الوضع الراهن ثم لقي الملك في 6 و7/ سبتمبر".

ويقول عبد الشاهد خان الشيرواني مؤلف "باغي هندوستان" (الهند الثائرة):

"هذه المذكرة تدل على أنشطة العلامة الثورية". (ص 214)

أخبر أحد مخابر الإنجليز تراب علي في 28/ أغسطس 1857م فقال:

"منذ أن جاء العلامة فضل حق دلهي انشغل بإثارة المواطنين والجنود ضد الإنجليز وقال هنا وهناك إنه قرأ إعلاناً للبرلمان البريطاني نشر في آغره غزت قيل فيها أن يقتل الجنود كافة الإنجليز ويهدموا المدينة كلها ليخبروا المتأخرين أنه قد استعمرت هنا مدينة باسم دلهي ولا يترك سوى منارة للمسجد الجامع" [غدارون كے خطوط (رسائل الثائرين)، ص 203]

وخلال هذه الفترة لما التقى الجنرال بخت خان فاستشاره ثم خاطب العلماء في مسجد دلهي الجامع بعد صلاة الجمعة وقدم الاستفتاء فوقّ عليها المفتي صدر الدين خان آرزو صدر الصدور في دلهي والشيخ عبد القادر والقاضي فيض الله الدهلوي والشيخ فيض أحمد البدايوني والشيخ وزير خان الأكبرابادي والسيد مبارك شاه الرامفوري، ولما نشرت

هذه الفتوى ثار الناس في البلاد واجتمع في دلهي تسعون ألف جندي في مدة قليلة وأما ما حدث بعدها يمكن أن يرى تفصيله في الكتب التي ألفت في هذا الموضوع، وعلى كل حال فقد أغارت شركة الهند الشرقية على دلهي بكل قوتها في 14/ سبتمبر 1857م وسيطر عليها في 19/ سبتمبر وألقي القبض على بهادر شاه ظفر من قلعة همايون في 21/ سبتمبر. وأما العلامة فضل حق الخيرابادي فقد وصل إلى أفده بعدما هرب مختفياً من دلهي فحوكم عليه في 1859م وحكم عليه بالنفي إلى كالا باني (المياه السوداء).

والمحاكمة التي جرت ضد العلامة فضل حق الخيرابادي اتهم فيها ما يلي:

1. أعان الحكومة الثائرة في دلهي وأفده وغيرهما من المناطق في 1857م و1858م
2. عمل كالمستشار المؤتمن للرئيس الثائر ممو خان (أفده) في 9/ مايو 1858م
3. أمر لقتل عبد الحكيم موظف الحكومة الإنجليزية في شهر مايو 1858م

وبناء على هذه الاتهامات عدته الحكومة جانباً وفي 4/ مارس 1859م حكم عليه بالقيود طول الحياة وعبور البحر الميت كسجين حكومي وبمصادرة أملاكه.

كان العلامة بنفسه يدافع عنه فكان يتهمه ثم يزيل التهمة بنفسه. ولما شاهد القاضي هذا كله تحيروا، ولما رأى القاضي ذكاء العلامة الحادّ بعينه تأثر به كثيراً فشفق عليه ورحمه، ولكن العلامة كان يقبل كل ما قيل ضده فقد صدّق بيان شاهد المخابر الذي شهد بفتواه وقال إن تلك الفتوى صحيحة وأنا كتبها ولا أرى غير ما ذكر فيها فلما صدّق العلامة هذا البيان حزنّت المحكمة وحكم عليه بالسجن المؤبد مما قد قبله العلامة برحابة صدره ولقد حكم على العلامة بهذه العقوبة لأجل كتابته لهذه الفتوى. يقول رئيس أحمد الجعفري:

"لم يكن للعلامة نظير في سعة اطلاعه فنفي إلى أندمان جراء فتوى الجهاد والخروج على الحكومة فحمل عليه خدمات عديدة ملؤها ذلّ وتحقير فلم يتحملها فتوفي ودفن بها" [بهادر شاه ظفر اور ان كا عهد (عصر بهادر شاه)، ص 315]

كان العلامة عبد الحق خيرابادي ابن العلامة فضل حق خيرابادي الذي كان رئيس المدرسين في المدرسة العالية فقال عنه و. و. هنتر في كتابه "همارے هندوستاني مسلمان" (شعبنا الهندي المسلم):

"رئيس المدرسين الحالي ابن عالم قام بدور بارز في ثورة 1857م فلقى عقوبة جرائمه من حيث إنه نفى إلى جزيرة في بحر الهند حتى الموت، وتوجد مكتبة هذا العالم الثائر، والتي صادرتها الحكومة، في كلية كلكتة" (همارے هندوستاني مسلمان، ص 202)

وبعد قراءة هذه الشواهد المتينة إذا قال الواحد إن العلامة لم تكن له صلة بحرب الاستقلال البتة فلا نقول له سوى "بريس عقل ودانش ببايد گداخت" (لندم على هذا العقل) ومن يجدر بالذكر ممن قال بهذا الشيخ امتياز علي عرشي ومالك رام فنراه يعبر عن رأيه ذلك في المقالة "مولانا فضل حق خيرابادي اور 1857 كا فتوى جهاد" (فتوى العلامة فضل حق خيرابادي للجهاد في 1857م) المنشورة في شهر أغسطس 1957م مجلة "تحريك" الشهرية (بدلهي). يقول عرشي:

"لقد ذكر العلامة فتوى العلماء الصالحين والأئمة المجتهدين ولكنه لم يذكره فيثبت من هذا أنه ولو كان العلامة قد شارك في كتابة الفتوى لأشار إليها حين إشارته عن إعانة الحكومة بمشورته" (نقلًا عن باغي هندوستان، ص 419)

ويقول مالك رام:

"لم يشارك العلامة فضل حق في حركة 1857م البتة فيمكن أنه أرشد الناس قبل هذه، ولكنه انعزل عن الثائرين حين وقوع هذه الثورة فلا ساهم فيها ولا أفتى لها ولا أخذ السيف". (فضل حق خيرابادي اور 1857م، 79)

وهل تجد أشنع مثال من هذا لتشويه التاريخ وهذا لا يخفى على من له حجي، وهناك مؤرخون مزعومون دونوا التاريخ مليئًا بالعصبية فشطبوا اسم العلامة من فهرست مجاهدي حرب الاستقلال إما على اختلافهم المذهبي أو عداوتهم الشخصية، وارتكب هذه الجريمة من يكررون قال الله وقال الرسول. وإن قام بهذه إخواننا المواطنين الهنود

لما شكونا، ولكن يشوّه التاريخ من هم منا، وأما عناصرها وأسبابها فلها حكاية طويلة سأقصّها بمناسبة أخرى.

كان العلامة فضل حق الخيرابادي عالماً كبيراً كما كان أبوه فضل إمام وولده عبد الحق من عباقرة العلماء، واعترف بهذه الحقيقة علماء وباحثون منصفون فكانت لهم اليد الطولى على العلوم العقلية كما كانوا مولعين بالأدب، ويشهد بهذا صداقته مع الميرزا غالب. فكان يختلف إليه الميرزا غالب وانضمّ إلى حواشي فضل حق في عمر بلغ 25 سنة فما نراه من سهل البيان في شعر غالب الأردوي يرجع فضله إلى العلامة فضل حق، ولقد تأثر غالب بالعلامة فضل حق إلى حد أنه شطب 268 غزلية قالها قبل اتصاله بالعلامة والتي كانت مشتملة على 1498 بيت فيقول الشيخ محمد حسين آزاد عن مختار كلام غالب وديوانه:

"بلغني عن السلف ممن أثق بهم أن ديوانه كان ضخماً وهذا مختاره، كان الشيخ فضل حق الخيرابادي عالماً فاقد النظير والذي كان مسؤولاً في محكمة دلهي في زمن من الأزمان --- فسمع معظم غزلياته وقرأ ديوانه فنّبّه الميرزا على صعوبتها فردّ عليه الميرزا أنه قد فات الأوان فأشار عليه العلامة أن يختاره ويشطب ما صعب منها ففوّض الميرزا ديوانه إليه فاختر كلاهما فهذا الديوان هو المختار الذي تكتحل به عيون الأدباء". (آب حيات، ص 512)

من الأمثال السائرة "أهل مكة أدرى بشعابها" فيكفيني تقدير درجة العلامة الخيرابادي ما أدلى به السير سيد من انطباعات عنه وهي كما يلي:

"كان العلامة جامعاً بين الكمال الصوري والمعنوي، صاحباً للصفات الظاهرية والباطنية، وملك الأزهار في حديقة الكمال، ومتولياً على أريكة الصواب، وحائزاً على مقعد الأفكار، ومتصفاً بالخلق المحمدي، وموردًا للسعادة الأزلية، وحكماً للمناظرات، وممسكاً بناصية المناقشات، وصفواً ضميره لا كدرًا، وثالث ثلاثة هو والبيدي والحري، وألمي زمانه، ولودعي عهده، وفرزدق عصره ولبيد وقته، ومبطلًا للباطل، ومحققًا للحق" (آثار الصناديد، ص 562)

عسى أن لا نجد من يماثل العلامة الخيرابادي في الصفات التي كان يتصف بها فنحتاج إلى ندوات عديدة أو كتب ضخمة لا بد من عقدها أو كتابتها في شخصيته المتعددة الجوانب فالأسف أن القوم قد نسيه فأهتئ منسق الندوة السيد رفيق الذي أعاد ذكرى الأسلاف ومنهم علامتنا الخيرابادي ولكن كما قال رئيس أحمد الجعفري:

"مسّت الحاجة إلى أن يتم تأليف كتاب مفصّل في شخصية العلامة الخيرابادي وسيرته وخلقه وعلمه ولكنه كان فردًا من قوم سرعان ما ينسى أسلافه وأخاف أن يسألنا أجيالنا عن العلامة فضل حق الخيرابادي؟" (بهادر شاه ظفر اور انكا عهد، ص 854)

وبجانب كونه إمام الحكمة وقائد حرب الاستقلال كان العلامة الخيرابادي كاتبًا كبيرًا فيبلغ عدد مؤلفاته حوالي أربعة وعشرين كتابًا فقد خلف مؤلفات وحواشٍ على قضايا المنطق والفلسفة المعقدة يندر من يفهمها فمن أبرز مؤلفاته "امتناع النظر" و"تحقيق الفتوى في إبطال الطغوى" ولكن الشيء الذي أخلد ذكره هو ديوانه الذي هو أوثق مصدر لتاريخ ثورة الاستقلال ويسمى هذا الديوان بقصائد الثورة الهندية التي كتبها العلامة الخيرابادي على الأقماش بالفحم أو قلم الرصاص ثم بعث بها المفتي عنايت أحمد الكاكوري (ت 1862م) إلى ولده العبقري العلامة عبد الحق الخيرابادي (ت 1898م) من جزيرة أندمان في 1277هـ/1860م.

يبدو من دراسة هذه القصائد أن العلامة الخيرابادي كان أديبًا بارعًا وشاعرًا كبيرًا للغة العربية وزدّ على هذا امتلاكه ناصية الفلسفة وكذا كانت له اليد الطولى على العربية والفارسية والأردوية واعترف بفضلها في الأدب من مهر في هذا المجال، ويشبه نثره نثر الشاه ولي الله الندوي (ت 1762م) والعلامة غلام علي آزاد البلغرامي (ت 1786م) والإمام أحمد رضا القادري (ت 1921م).

لقد نظم العلامة "قصائد الثورة الهندية" أيام سجنه مما يثبت أنه كان شاعرًا مطبوعًا. ولقد كتب قصيدتين أولاهما "القصيدة الهمزية" والأخرى "القصيدة الدالية" وهكذا كتب قصيدة نونية بلغ عددها ثلاثمئة بيت ولكن المنية سبقت تكميلها فقد قال الشيخ

رحمان علي في "تذكره علماء هند" أن كلام العلامة فضل حق الخيرابادي يحتوي على أربعة آلاف بيت". (تذكره علماء هند، ص 382)

لقد برع العلامة فضل حق في الأدب العربي والفارسي والأردوي فيقول الشيخ آزاد عن براعته في الأدب الفارسي:

"كان العلامة فضل حق عالماً لا مثيل له --- وكان تلميذاً للميرزا قتيل وكان يكتب النثر والنظم الفارسي جيداً وعلى هذا فربما أصلح كلام غالب الفارسي. ولما قرأ العلامة ديوان غالب ديوانه فقال إنما تقوله لن يفهمه الناس فردّ عليه غالب أنه قد فات الأوان فأشار عليه العلامة أن يختاره ويشطب ما صعب منها ففوّض الميرزا ديوانه إليه فاختر كلاهما فهذا الديوان هو المختار الذي تكتحل به عيون الأدباء" (آب حیات، ص 512)

فشطب غالب ثلث ديوانه على مشورة من العلامة فضل حق ثم ترك تلك الطريقة الصعبة. (آب حیات، ص 201)

هذه كانت قصة شغفه بالأدب الأردوي والفارسي وأما اطلاعه على الأدب العربي فحدّث عنه ولا حرج، فقد كان شغف العلامة به أكثر من شغفه بهما، يقول عبد الشاهد خان الشيرواني:

"لقد برع العلامة في الأدب العربي إذ فاق معاصريه من شعراء العرب، وأما نثره العربي فيشبه شعره العربي ويشهد بذلك رسالته "ثورة الهند" وبعض خطبه العربية فقد نظم ما حدث في ثورة 1857م والمصائب التي عاناها في سجنه في جزيرة أندمان وهذا كله يتصف بالفصاحة والبلاغة، وهي شاهد عدل على براعته في الأدب العربي وقدرته عليه". (باغي هندوستان، ص 94)

ولو أن مجموعة كلامه العربي تحتوي على آلاف بيت ولكني أنشد لكم مما قرضها في سجنه بجزيرة أندمان:

حجزوا عليّ وأسكنوني حجرة      لم يأتها غير السموم هواء  
يا ويلها من حجرة جدرانها      تشوي الشواء وتراها رمضاء

يا ويل سجن لا مبال بساحة  
منعوا أشد المنع أن يلقاني الأ  
وسلبت أثوابي وبعد تجردي  
سلبوا الكسى لبسوا عليّ كساءهم  
سلبوا الأواني والنعال بظلمهم  
لم يكتفوا ظلمًا بجبسي بل ربا  
أسروا وأسروني إلى جبل به  
قد مات أحياء من الإسرائء والـ

وكنيفه ما فيه قط خلاء  
حباب والإخوان والأبناء  
للبس أعطي ميزر وكساء  
مالي سوى ذاك الردي رداء  
لم يبق عندي قصعة وإناء  
فوق اجتسابي غربة وجلاء  
قد باد من أرائهم إسرائء  
باقون لا موتى ولا أحياء

فكل بيت من هذه القصيدة ينبئك عما عاناه هو ورفقاؤه في السجن، وفوق أنواع  
المظالم لم يأل الإنجليز بجهد في إزعاجهم وعقابهم بأي طريقة خطرت ببالهم. بقي  
العلامة فضل حق في هذا السجن لـ 19 يومًا و 9 أشهر وسنة واحدة حتى لَبَّى دعوة ربه  
فيه في 20/ أغسطس 1861م.

فلما بلغ غالب نعي العلامة فضل حق قلق واضطرب فكتب في رسالة إلى الشيخ لطيف  
أحمد البلغرامي:

"إن موت صديق هو مفخرة لدى الخلق كمثل الشيخ فضل حق ترك غالب لا  
يحيى ولا يموت:

مرتے ہیں آرزو میں مرنے کی موت آتی ہے پر نہیں آتی  
آگے آتی تھی حال دل پہ ہنسی اب کسی بات پہ نہیں آتی  
(أردوئے معلیٰ، علی کرہ، 1907م، ص 32)

في جانب كان العلامة فضل حق يعاني من المصائب والشدائد في السجن وفي جانب آخر  
كان يسعى كل من حفيده الشيخ شمس الحق والمنشي غلام غوث بيخير ختن حبيبه  
خان بهادر المفتي إنعام الله الغوبامثوي وخان بهادر ذو القدر المير منشي قائد عام ولاية  
أفده الغربية والشمالية لإطلاق سراحه. تكلفت جهودهم بالنجاح فتوجه الشيخ شمس

الحق نحو جزيرة أندمان بوثيقة إطلاق السراح فلما نزل من الباخرة وقعت نظرتة على جنازة يتبعها ازدحام كثيف فسأل الناس عنها فردّوا عليه بأن العلامة فضل حق توفي في 12/ صفر المظفر 1278 هـ وهذه جنازته فلا نقول بهذه المناسبة سوى ما قال الشاعر:

قسمت تو دیکھے کہ ٹوٹی کہاں کند دو ایک ہاتھ جبکہ لب بام رہ گیا

وما قدّمه العلامة فضل حق ورفقاؤه العلماء من الإسهام في تحرير الوطن من براثن الإنجليز لا نجد له مثلاً في مكان ما، والواقع أنه لو لم يخرج العلماء لهذا الخطب العظيم لما تحققت أمنيته وعلى هذا فقد مارس الإنجليز الظلم والضييم عليهم فعاقبوهم بكل طريقة ظالمة، ونفوهم من وطنهم، وصلبوهم حتى الموت، وصادروا أملاكهم. يقول مؤرخ إنجليزي:

"حكم الإنجليز على أن يقضوا على العلماء في 1884م حتى 1887م وهذه السنوات الثلاث أوجع سنة في تاريخ الهند فقد صلبت الإنجليز في هذه الفترة حوالي أربعة عشر ألف عالم فلم تكن شجرة من دلهي حتى خيبر إلا ويعلّق فيها عنق عالم فقد شويت أجسادهم بالنحاس، ولقوا بجلد الخنزير ثم ألقوا في التنور الموقد، وأركبوا على الفيل ثم علّقوا في الشجرة ثم أجري الفيل، ولما دخلت خيمتي في دلهي أحسست برائحة نتنة فخرجت إلى ورائها فوجدت النار موقدة والعلماء ملقون على الشعل عريانين، وكنت حاضرًا إذ دعي 40 عالمًا آخرون فعروا أمامي وقال الضابط الإنجليزي: أيتها العلماء! سندشويكم كما شويينا هؤلاء غيركم وسنطلق سراح كل منكم لو قال إني لم أحضر حرب 1857م. وبالذي خلقتني لم أجد عالمًا منهم إلا وشوي جسده ولكنه لم يبطأ رأسه أمام الضابط" (مذكرة إيدورد تامسن، ص 43 أخذًا من راشثيه سهارا، شهر أغسطس، 2006م)

لقد نسيت الحكومة تضحيات العلماء هذه جنبًا بجنب القوم فالأسف عليهما، وساءت الحال إلى غاية أن العلماء الذين ضحّوا بأنفسهم لتحرير الوطن يعتبر حفتهم إرهابيين، والمدارس التي تخرّجهم متصفين بعواطف الحب والرحمة تعدّ مركزًا للإرهاب... لتقم الحكومة بخطوات شديدة ضدّ من يثير هذه العواطف المضادة

للوطنية ولتحي تضحيات أولئك العلماء لكي لا يكدر صفو الجو الوطني ولا تنمو مثل تلك الأفكار الباطلة فيمن يعادي الوطن والمجتمع كليهما، نتأسف على أن معاملة الحكومة مع هؤلاء العلماء الذين ضحوا بأنفسهم لتحرير الوطن ليست بحسنى، وأجبر على أن أنشد ما يلي من البيتين بعد قراءة تاريخ حرب الاستقلال الحالي:

میرے لہو کی دہار سے وطن کی بیڑیاں کٹیں      مگر کتاب حریت میں میری داستاں نہیں  
ورق ورق الٹ چکا تلاش میں کمی نہ کی      میرے لہو کے رنگ کا کہیں کوئی نشان نہیں<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> مقالة لم تنشر حتى الآن

## دور جائزة الملك فيصل ودورها في نشر اللغة العربية وأدائها- أبو الحسن علي الندوي نموذجًا

- د. هيفاء شاكري<sup>1</sup>

### مدخل في الموضوع:

تطرح جائزة الملك فيصل العالمية التي تمنح سنويًا الفرصة لتكافئ الذين أوقفوا حياتهم للعلم، وحققوا إنجازات فريدة وتحولًا إيجابيًا في مجالات إبداعهم، تمنح لمن خدموا الإسلام والمسلمين وللذين كان لنتائج بحوثهم الأثر في تحقيق تقدم جوهري في تخصصاتهم العلمية خدمة للإنسانية.

أنشئت جائزة الملك فيصل العالمية عام 1397هـ/1977م وقد أصبحت من أرقى الجوائز العلمية العالمية ويقوم القائمون عليها باختيار الفائزين بدقة تلتزم بالحياد وتطبيق كامل لقواعد الترشيح والتعاون الموجود بين المؤسسات العلمية من داخل المملكة وخارجها.

ويجدر بالذكر أنه لا تقبل الترشيحات الفردية ولا ترشيحات الأحزاب السياسية، إنما تقوم المنظمات الإسلامية والمؤسسات العلمية والجامعات في مختلف أرجاء العالم بترشيح من تراه مؤهلًا في كل فرع من فروع الجائزة الخمسة وهي كالاتي:

1. خدمة الإسلام
2. الدراسات الإسلامية
3. اللغة العربية والأدب

<sup>1</sup> أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

4. الطب

5. العلوم

وتتكون الجائزة في كل فرع من فروعها الخمسة من:

- (1) براءة مكتوبة بالخط العربي داخل ملف من الجلد الفاخر، تحمل اسم الفائز وملخصاً للإنجازات التي أهلتها لنيل الجائزة
- (2) ميدالية ذهبية عيار 24 قيراط وزن 200 جرام
- (3) مبلغ 750,000 ريال سعودي (ما يعادل 200,000 دولار أمريكي).

وقد منحت هذه الجائزة منذ إنشائها إلى أكثر من مائتي فائز من أربعين دولة، أما بالنسبة للهند فقد ارتبطت بالدول العربية وبالتالي باللغة العربية منذ القدم عن طريق القوافل التجارية ثم الفتوحات الإسلامية في مختلف العصور ولكون الإسلام ثاني أكبر ديانة في الهند فإن المسلمين يهتمون باللغة العربية لأنها مرتبطة بأمور دينهم إضافة إلى الفوائد الدنيوية التي يحصلون عليها من وظائف وشهادات ومكانة اجتماعية مرموقة نتيجة تعلمهم للغة العربية وقد أثرى علماء الهند اللغة العربية بنفائس التأليفات التي لعبت دوراً بارزاً في مجال التحقيق والبحث وتوجد فيها آلاف المخطوطات التي تحمل في طياتها ذخائر قيمة ترفع من المكانة العالمية التي تحملها اللغة العربية. وقد حصلت عدة شخصيات من الهند على جائزة الملك فيصل منهم أبو الحسن الندوي الذي اتخذناه نموذجاً لبيان دور الجائزة في تطوير اللغة العربية، والدكتور علي أحمد غلام محمد الندوي ومحمد نجاته الله الصديقي. وقد قام هؤلاء من خلال دراساتهم وبحوثهم بتأصيل حب العربية في المجتمع الهندي المسلم وذلك ما سنوضحه من خلال هذا البحث الذي يقدم شخصيته أبي الحسن الندوي كنموذج حيث كان لجائزة الملك فيصل دور في إبراز أعماله ليس في الهند فقط ولكن على المستوى العربي والعالمي.

موجز عن أسرته وحياته:

أسرة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي تفرعت من الأسرة النبوية الهاشمية وهي تنتهي إلى عبد الله الأشرار ابن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن

السبط بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم. نزحت في القرن السابع الهجري من المدينة المنورة عن طريق بغداد وغزنة إلى الهند وكان كبير الأسرة قطب الدين محمد المدني (ت 677هـ) ابن أخت السيد عبد القادر الجيلاني. قد أقام السيد قطب مدة في دلهي عاصمة الهند ثم خرج داعياً ومجاهداً مع أصحابه إلى ولاية أوترا براديش واستقرّ مع افراد أسرته في قسبة كرامانك بور كما استوطن بعضهم في قرية نصيراباد.

وعرف عن هذه الأسرة بأنها لم تخل في أي عصر من عصور التاريخ من بذور طيبة أنبتت داعية أو مجاهداً أو مصلحاً أو عالماً جليلاً أمثال الشيخ علم الله الحسيني الذي تحوّل من نصيراباد وجعل مقرّ أسرته على شاطئ نهر سي وبضاحية مديرية راي بريلي وسوّى المقرّ تكية كلان (التكية الكبيرة) وشيّد مسجداً صار فيما بعد مركزاً للصالح والكفاح والجهاد في سبيل الله.

وكان من رجالات هذه الأسرة الشيخ أبو سعيد وهو أخصّ أصحاب الإمام الشاه ولي الله الدهلوي كما كان من شيوخها الشيخ فخر الدين والسيد ضياء النبي الحسيني والأوّل هو جدّ سماحة الشيخ أبي الحسن بينما الثاني جدّ أمه وأما والده العلامة عبد الحي الحسيني وشقيقه الدكتور عبد العلي رحمهما الله فكان كلّ منهما عالماً بارزاً في حقل العلم والدعوة ولهما أيادٍ بيضاء في الإشراف والرعاية ونهضة ندوة العلماء بالهند وتخرج العلماء والدعاة والصالحين. وصدق العلامة أبو الحسن حيث قال:

"يطلعنا تاريخ الأسرة القديم والمعاصر على حقيقة لها شأنها وهي أن الأسرة منذ قدومها إلى الهند لم تزل متمسكة بعقيدة التوحيد الخالص، بعيدة عن الأعمال الشركية --- وكانت الدعوة إلى التوحيد واتباع السنة المطهرة شعارها الدائم وميزتها البارزة"<sup>1</sup>.

ولد سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي في قرية تكية كلان بمديرية راي بريلي في 6/ محرم الحرام عام 1333هـ: 1914م العام الذي توفي فيه شيخ الإسلام محمد شبلي النعماني الهندي فكان شبلياً قام وشبلياً توفي. نشأ وترعرع في كنف أبوين كريمين

---

<sup>1</sup> مسيرة الحياة، 34/1-35

فكان أبوه العلامة عبد الحي الحسني عالماً هندياً فاقد النظر بينما كانت أمه عالمة ربانية تتهجّد آناء الليل تتلو كتاب الله العزيز.

ربّي الوالد ولد تربية جيدة إلا أنه لم تسايره لمدة طويلة إذ توفي 15/ جمادى الآخرة عام 1341هـ/1923م فلم يتجاوز العلامة الندوي عشر سنوات إذ رفع عن رأسه ظل والده الجليل فتولّت الأم خير النساء تربية ولدها. وكانت أمه كاتبة وشاعرة فألهمت في ولدها ما وفّقت له من ميزات وخصائص. حفظ العلامة الندوي بعض سور القرآن كما تعلّم مبادئ بعض اللغات والعلوم حتى جاء به شقيقه الأكبر الدكتور عبد العلي إلى لكاناؤ ليتلقى المزيد من العلوم والفنون.

ولكاناؤ وما أدراك ما هي؟ مركز اللغات والعلوم والفنون والثقافات تربّي هنا العلامة أبو الحسن في ظل شقيقه كما استفاد من أساتذتها البارعين في لغاتهم وعلومهم وفنونهم فعلاوة على شقيقه الأكبر تعلّم العلامة الندوي اللغة العربية على الشيخ خليل بن محمد اليماني الذي كان شهيراً في براعته في اللغة العربية ثم التحق بجامعة لكاناؤ ونال شهادة "فاضل أدب" كما نال شهادة "فاضل حديث" ثم درس اللغة الأدرية وآدابها في الفترة ما بين 1927-1930م وبعد ذلك شرع يقرأ اللغة الإنجليزية فكان معلّمه للإنجليزية الأستاذ محمد سميع الصديقي إلا أن أمه أرشدته إلى نيل البراعة في اللغة العربية وآدابها ودراساتها فتلمذ العلامة أبو الحسن على الدكتور تقي الدين الهلالي وهو الذي وصّى له العلامة سيد رشيد رضا فنشرت مقاله عن الإمام سيد أحمد الشهيد. بعدما فرغ العلامة أبو الحسن عن هذه الأشغال انتسب إلى ندوة العلماء فقرأ على المحدث العصر الشيخ حيدر حسن خان صحيح البخاري ومسلم وسنن الترمذي وأبي داؤد وشيئاً من تفسير البيضاوي وبعض سور القرآن ونال شهادة الإجازة في الحديث وكذا قرأ الفقه على الشيخ شبلي المتكلم ثم ارتحل إلى دار العلوم بديوبند فاستفاد من الشيخ حسين أحمد المدني في مجال الحديث النبوي كما تلقى دروس الفقه على الشيخ إعزاز علي وأخذ دروس القرآن من الخواجه عبد الحي الفاروقي المقيم بهذه الدار. وأخيراً تتلمذ على العلامة أحمد علي اللاهوري وبعدما أكمل دراساته ارتحل إلى لاهور فلقى الشاعر الإسلامي العلامة محمد إقبال. وأما في مجال المعرفة الروحية فقد استفاد من الشيخ المرشد غلام محمد وجعل يصلح ويربّي الطلاب والمسترشدين.

تزوَّج العلامة الندوي من حفيدة الشيخ الصالح السيد ضياء النبي الحسيني ثم انتقل إلى رحاب دار العلوم وجعل يدرّس فيها الأدب العربي وتفسير القرآن الكريم، ومن خلال تجربته التدريسية هذه شعر بحاجة التغيير في المقررات الدراسية فألّف كتاب "القراءة الراشدة" وسلسلة "قصص النبيين" و"مختارات من أدب العرب" مما قد فاز عليها بجائزة الملك فيصل العالمية. ومن خلال هذه الكتب خطر ببال العلامة الندوي أهمية الأدب الإسلامي الذي برز في صورة "رابطة العالم الإسلامي" المنظمة الإسلامية العالمية التي أحيت الأدب الإسلامي في كل لغة ورقت به إلى المستوى الدولي. وبجانب مهمته للتدريس فقد جعل مسؤولاً عن إدارة ندوة العلماء فجعل رئيساً لها كما جعل رئيساً للعدد من المنظمات الدعوية والمؤسسات العلمية والمعاهد البحثية وعضواً للعدد من المنظمات المحلية والدولية. توفي العلامة الندوي إثر مرض طويل في شهر ديسمبر عام 1999م وبه انتهى القرن العشرون للميلاد. اعترف العالم الإسلامي بجلالة قدره العلمي والأدبي والدعوي فأثنى كل من أبرز علمائه على هذا الداعية الأديب ونكتفي فيما يلي بذكر أقوال بعض منهم بالنسبة لخدمته للغة العربية وأدائها ودراساتها:

فيقول الدكتور أحمد بن عثمان التويجري: "--- جمع (أبو الحسن) بين الزهد والجهاد والفكر والأدب"<sup>1</sup>.

ويقول الدكتور عبد الغفار: "إن العلم والتعلم والتحقيق والتأليف أصبح ديدنه منذ تخرجه من الندوة"<sup>2</sup>.

ويقول الدكتور مانع بن حماد الجهني: "--- إنه أعجمي أعرب من كثير من فصحاء العرب الآن ومفكر إسلامي حمل همّ الدعوة والإصلاح"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الرائد، 22/16-13/41

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 24/16-13/41

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 25/16-13/41

ويقول البروفيسور إسحاق أحمد فرحان: "لقد كان رحمه الله عربياً فصيحاً اللسان، وإن كان ولد في الهند -- أحبّ العربية وأتقنها لأنها لغة القرآن الكريم وألّف فيها وحاضر المنتديات العلمية وبين الجماهير العربية في مصر والشام والأردن والعراق والجزيرة العربية"<sup>1</sup>.

ويقول الدكتور راشد الراجح: "التقيت بفضيلته في مكة المكرمة فلمست من فضيلته العلم الجم والأدب الرفيع والخلق الكريم"<sup>2</sup>.

ويقول الأستاذ محمد حسن بريغش: "لقد تميز، رحمه الله، بعلمه الغزير وعمله الدؤوب وخلق الفاضل وحكمته وأناته وكثرة نشاطاته وبعد فكره"<sup>3</sup>.

### جهود العلامة أبو الحسن علي الندوي في نشر اللغة العربية وآدابها

وبجانب خدمات جليلة في سبيل الدعوة والإصلاح وتربية الناس تربية روحية فقد خلف العلامة أبو الحسن علي الندوي مؤلفات تزهو على مائتي كتاب ورسائل ومقالات بحثية وخطابات لا تحصى ولا تعدّ وهذه الكتب إما تخدم اللغة العربية مباشرة أو تتناول جانباً من جوانبها وكذا أعدّ تلامذة بارعين خدموا اللغة العربية وآدابها بمؤلفات ورسائل ومقالات ومختلف أساليب التعليم والتربية وهكذا قام العلامة الندوي بتأسيس أو رئاسة منظمات ومؤسسات عديدة خدمت اللغة العربية وآدابها، وأما جهوده في إعداد المقررات الدراسية للغة العربية وآدابها فهي لن تنكر وقد اعترف العلماء والكتّاب العرب بأهميتها وفضلها على غيره من المهرة في التعليم والتربية. ونودّ أن نقسم جهوده في نشر اللغة العربية وآدابها في أربعة مباحث تالية:

### المبحث الأول: جهوده في إعداد المقررات الدراسية

من أبرز خدماته للغة العربية وآدابها إعداد مقرراتها الدراسية وهي خدمة يستفيد منها طلاب اللغة العربية وآدابها منذ أن أعدّها العلامة الندوي حتى يومنا هذا ولقد

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 22/16-13/41

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 25/16-13/41

<sup>3</sup> المصدر نفسه، 28/16-13/41

تعلمناها والآن نعلم تلاميذنا هذه الكتب المقررة في المدارس الإسلامية والجامعات الهندية. ومما يعتز به الوطن الهندي أن كتب أبنائها موضوعة في المقررات الدراسية في الجامعات الخارجية لاسيما العربية فقد تم تقرير كتابه "مختارات من أدب العرب" في الجامعات العربية العديدة. ونودّ فيما يلي أن نشير إلى كتبه التي حظيت بوضعها في المقررات الدراسية:

1. مختارات من أدب العرب: هذه مجموعة مختارة لأي من القرآن وخطب للنبي العربي وخطب وكتابات العلماء والأدباء المسلمين. في مجلدين ويحتوي على خير خطب وكتابات العلماء والأدباء المسلمين في مختلف المواضيع مما يسر للطلاب الوصول إلى الكتابات الجيدة الرائعة لعلماء الإسلام وأدبائها في مختلف الموضوعات. يقول فيها الأستاذ علي الطنطاوي:

"إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة، وكلهم من الأدباء، يبحث ويفتش فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن أجود كتب المختارات المدرسية وأجمعها بفنون القول وألوان البيان "مختارات أبي الحسن"<sup>1</sup>.

2. القراءة الراشدة: هذا الكتاب ألفه العلامة أبو الحسن الندوي حين تدرسه في ندوة العلماء وهو مثل القراءة الرشيدة الصادر عن مصر إلا أنه أضاف إليها دروساً عن الهند وأعلامها ومعالمها وهكذا فإنه صبغها صبغة هندية محتوية ويسر بها تعلم اللغة العربية للطلاب الهنود في جوّ هو جوهم. هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء. يعرف السيد أبو الحسن عمله هذا:

"وقد شعرت بعد بدئي بهذا العمل، بأن الله تعالى ألانه ويسره لي، فكنت أكتب عفواً مرتجلاً دون كلفة حتى كأنني أتكلّم، وقد التزمت فيه بأربعة أمور:

<sup>1</sup> كتاب المسلمون (مقدمته)

أولاً: أن تكون ثروة الألفاظ فيه أقلّ القليل، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار والإعادة.

وثانياً: أن يكون الكتاب في لغة القرآن، وتوضع الآيات الكريمة في محالّها كالفصّ في الخاتم.

وثالثاً: أن يشتمل على تعليم العقائد الأساسية (التوحيد والرسالة والمعاد) وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

ورابعاً: أن تبسّط القصص وتزوّد الأطفال بما يكره إليهم الكفر والشرك والمعاصي، وتحبّب إليهم الإيمان والعقيدة، وترسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء وجلالة مكانهم، وكل ذلك بطريق لا يشعر الطالب بثقله وأنه يلقي عليه، بل يتلقاه ضمناً وعفواً وينسجم معه<sup>1</sup>.

3. قصص النبيين: هذا كتاب جميل ومفيد للغاية للأطفال والواقع أنه روح تجاربه التدريسية والدعوية والأدبية فقد أعدّها العلامة الندوي بأسلوب طفلي جميل. ومن صفاتها أنه يعلم بها الطلاب تعاليم الإسلام ويدرّهم عليها من حيث لا يدرون ولا يشعرون فكأنه دليل إسلامي في ضوء تعليم اللغة. هذا في أربعة أجزاء وأتمّ هذه السلسلة التعليمية على سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم. يقول فيها الأستاذ سيد قطب الشهيد:

"لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال، بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وشاركت في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال في مصر، مأخوذ كذلك من القرآن الكريم) ولكنني أشهد في غير مجاملة أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصص التي بين يديّ جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلية في ثنايا القصة، ولكنها توحى بحقائق إيمانية ذات أهمية، حين تستقرّ في قلوب الصغار والكبار<sup>2</sup>."

<sup>1</sup> قصص النبيين (المقدمة)

<sup>2</sup> في مسيرة الحياة، 1/145

4. منشورات: ولو أن هذه المجموعة ليست من صنع أيديه إلا أنه تم تأليفه بإشارة منه فقد قام بإعداده الشيخ محمد الرابع الندوي الرئيس العام لندوة العلماء بلكناؤ. هذه المجموعة في مجلدين وتم تقريرها في مختلف المدارس الإسلامية والجامعات الهندية<sup>1</sup>.

5. وإليها نضيف ما قام به أساتذة ندوة العلماء من إعداد مقررات دراسية من مثل "معلم الإنشاء" في أربعة مجلدات و"الأدب العربي بين عرض ونقد" و"تاريخ الأدب العربي" كل هذه أعدت على إشارة من العلامة أبي الحسن الندوي أو استلهاماً منه رحمه الله تعالى.

#### المبحث الثاني: تأسيس ورئاسة وعضوية المنظمات والمؤسسات العلمية والأدبية

وبجانب إعداد المقررات الدراسية للغة العربية وآدابها وإشارة العلماء والكتّاب وتشجيعهم على إعداد كتب مدرسية رائعة فقد قام العلامة الندوي بتأسيس منظمات أدبية وعلمية ورئاستها وعضويتها وهي كما يلي:

1. أسس المجمع الإسلامي العلمي في لكناؤ في 1958م<sup>2</sup>
2. كان رئيساً لمجلس التعليم الديني بولاية أوترا براديش، والتعلم الديني يشمل في الهند تعليم اللغة العربية وآدابها<sup>3</sup>.
3. كان رئيساً للمجمع الإسلامي العلمي في لكناؤ (الهند)<sup>4</sup>
4. كان رئيساً لدار المصنفين بأعظم كره وهذه هي الأكاديمية التي أصدرت مؤلفات قيمة عن الدراسات العربية والإسلامية<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص 49

<sup>2</sup> سماحة الداعية المجاهد الإمام أبي الحسن علي الحسيني الندوي ومؤلفاته العربية، ص 52

<sup>3</sup> المصدر نفسه، ص 56

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 58

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 58

5. كان رئيسًا لمركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية في جامعة أوكسفورد وقد تشرف أحد باحثيه الدكتور محمد أكرم الندوي أيضًا بهذه الجائزة<sup>1</sup>.
6. كان مديرًا لندوة العلماء بلكناؤ التي روجت للغة العربية الجديدة في الهند ونادت بإصلاح المناهج الدراسية في العالم الإسلامي، وأود أن أنقل هنا قول العلامة علي الطنطاوي عنها: كم أتمنى لو رددت إلى عهد الصبا فأعود لأتعلم في هذه الدار، واتلمذ على شيوخها وأرافق طلابها وأتنفس في رحابها وأقتبس منها العلم والإيمان<sup>2</sup>.
7. كان رئيسًا لرابطة الأدب الإسلامي العالمية وبذل أقصى جهوده في إحياء الأدب الإسلامي العالمي وهذه المؤسسة فعالة إلى الآن في إحياء الأدب الإسلامي<sup>3</sup>.
8. كان عضوًا لمجلس الشورى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وما لعبته الجامعة الإسلامية من تطوير اللغة العربية ومن بعث متخرجيها إلى دول العالم لا يخفى على أحد منا<sup>4</sup>.
9. كان عضوًا مراسلًا للمجمع العلمي بدمشق فكتب لمجلته مقالات عديدة<sup>5</sup>.
10. كان عضوًا لمجمع اللغة العربية بالأردن<sup>6</sup>.
11. كان عضوًا لرابطة الجامعات الإسلامية بالرباط<sup>7</sup>.
12. كان عضوًا لمؤسسة آل البيت لشرق الأردن وحضر غير مرة في ندوات وجلسات مجمع بحوث الحضارة الإسلامية<sup>8</sup>.
13. كان عضوًا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة<sup>9</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 60

<sup>2</sup> الرائد، 20/16-13/41

<sup>3</sup> مفكر إسلام حضرت مولانا سيد أبو الحسن ندوي، ص 256-252

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 256

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 259

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص 259

<sup>7</sup> المصدر نفسه، ص 259

<sup>8</sup> المصدر نفسه، ص 259

<sup>9</sup> المصدر نفسه، ص 260

14. كان أستاذًا زائرًا لكلية الشريعة لجامعة دمشق فألقى محاضرات فيها حفزته لتأليف كتابه "رجال الفكر والدعوة"<sup>1</sup>.

المبحث الثالث: تعليم وتربية الأساتذة البارعين في اللغة العربية والخادمين لها

وبجانب إعداد المقررات الدراسية وتأسيس ورئاسة المنظمات والمؤسسات العلمية والأدبية فقد علّم العلامة أبو الحسن الندوي ودرّب العديد من العلماء والأدباء للغة العربية وأدائها والذين قاموا بخدمة اللغة العربية وأدائها بشكل أو آخر وفيما يلي ذكر بعض منهم بالإشارة إلى خدماتهم في هذا المجال:

1. الشيخ معين الدين الندوي: كان من مديري ندوة العلماء بلكنائو ودار المصنفين بمحافظة أعظم كره (أوترابرايش) كما أدار تحرير مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين. والمعلوم أن هذه المجلة اعتنت بالدراسات العربية والإسلامية وحاولت جهودها للرد على اعتراضات المستشرقين على الإسلام ورسوله العربي ورسائلته الغراء وخلفائه الراشدين ودار العروبة. ألف الشيخ معين الدين الندوي كتبًا عديدة أبرزها "ترجمة السيد سليمان الندوي" تلميذ وخلف العلامة شبلي النعماني وكتاب "دروس العربية" و"المعجم الجديد للعربية" و"أرض القرآن" و"العلاقات بين الهند والعرب". والكتاب الآخر الشهير له "تاريخ إسلام" (في ثلاثة مجلدات) يبيّن فيه الشيخ الندوي تاريخ العرب الجاهليين وصدر الإسلام وسيرة النبي حتى العصر العباسي. وله ترجمة من العربية للسيرة النبوية التي كتبها العلامة السيد أبو الحسن الحسيني الندوي. هكذا ترجم الشيخ من العربية إلى الأردوية مثل ترجمته لكتاب "الثقافة الإسلامية في الهند" للشيخ عبد العلي الحسيني الندوي. هذه بجانب المقالات العديدة التي كتبها الشيخ الندوي بالأردوية عن الدراسات العربية والإسلامية.
2. الشيخ مجيب الله الندوي: الشيخ مجيب الله الندوي كاتب إسلامي كبير له مؤلفات جليلة بالأردوية عن الفقه الإسلامية كما أنه ألف تراجم الصحابة المهاجرين. أقام جامعة إسلامية تدرّس اللغة العربية وأدائها. وكذلك إنه أدار تحرير مجلتين

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 256

إحداهما بالأردنية والأخرى بالعربية وكتاهما باسم "الرشاد". لعبت مجلة "الرشاد" دورًا بارزًا في نقل التراث العلمي والإسلامي إلى اللغة العربية كما أنها اعتنت بنشر المقالات العديدة عن اللغة العربية وآدابها. ساهمت هذه المجلة في نشر اللغة العربية في الهند. إضافة إلى ذلك انتسب لدار المصنفين التي تشتهر ببحوثه وتحقيقاته العربية والإسلامية. هذه الدار نشرت بعض مؤلفاته عن تراجم الصحابة والصحابيات. من أبرز مؤلفاته "فقه إسلامي" و"تذكرة الصحابيات" و"تذكرة المهاجرين".

3. الدكتور عبد الحلیم الندوي: الدكتور ثم البروفيسور عبد الحلیم الندوي أستاذ في مجال اللغة العربية وآدابها في الهند. بدأ حياته التعليمية من جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية بحيدرآباد (الهند) وبعدها أقام قسم اللغة العربية وآدابها في هذه الجامعة على شكل متطور توجه نحو دلهي فأقام بالجامعة الملية الإسلامية قسمًا للغة العربية وآدابها وهذا القسم شهير في تطوير اللغة العربية وآدابها وبها يعمل عشرة أساتذة للغة العربية وآدابها وهم يواصلون جهودهم في تطويرها ولهم مساهمات جلييلة في هذا المجال. قام البروفيسور عبد الحلیم الندوي بتأليف كتب مهمة عن اللغة العربية وآدابها بما فيها "تاريخ الأدب العربي" في ثلاثة مجلدات. هذا التاريخ باللغة الأردية فترجم فيه البروفيسور الندوي الأبيات العربية إلى الأردية الفصحى كما قام بترجمة النصوص العربية إلى هذه اللغة. وله كتاب ينطق عن مراكز العلم والتحقيق في الهند. وهو كتاب جامع حافل بالموضوع.

4. الدكتور عبد الله عباس الندوي: والدكتور عبد الله عباس الندوي كاتب شهير في الدول العربية وله مساهمات جلييلة في الدراسات العربية والإسلامية كما أنه قام بتأليف كتاب في النحو الأردني بالعربية. وهذا أول كتاب يعلم العرب اللغة الأردية التي هي الآن أصبحت لغة العلم والأدب والفن. وله معجم عربي-إنجليزي للقرآن الكريم كما له كتاب عن ترجمات القرآن الإنجليزية. كان شاعرًا للعربية فهو يقول بعدما بلغه نعي الشاه محمد أمان الله القادري الفلواروي (م1405هـ):

قبر الأمان! تحية وسلاما	العلم والعرفان فيك أقاما
ومحاسن الأباء فيك تجمعت	يبكى عليك اليوم والأعواما
يا أرض تيهي، فالدفين كريم	ويا قبر رحب به ووسع مقاما

- ابن لمحيي دين الله جلّ جلاله ونفـل لمن عاش بدرأ تماماً  
ياربّ أكرم رفـده وحضوره وانعم عليه رحمة وإكراماً<sup>1</sup>
5. الشيخ السيد محمد رابع الندوي: والشيخ محمد الرابع الندوي أشهر من نار على علم في الهند وهو مدير ندوة العلماء ورئيس تحرير صحيفة "الرائد" النصف شهرية. وهذه الصحيفة نشرت كتباً ومقالات وأخباراً وقصائد عربية لا تحصى. وهي أول صحيفة هندية تعتنى بأخبار العالم الإسلامي وتبّـغ العرب ما يحدث في الهند بالنسبة للمسلمين. له كتب عديدة بما فيها "النقد الأدبي العربي" و"الغزل الأردّي" وقد كتب مقالات عديدة في صحيفة الرائد وكذا في مجلة "البعث الإسلامي" كما كتب في ملحق الرائد عن العرب ومجتمعهم وقام بترجمة أبيات إقبال الأردية إلى العربية. وهو الآن قائم مقام العلامة أبي الحسن الندوي في الهند.
6. الشيخ سعيد الرحمن الندوي: والشيخ سعيد الرحمن الندوي ومجلة "البعث الإسلامي" توءمان فلا تذكر المجلة إلا ويأتي ذكره. إنه أحيى بواسطة هذه المجلة الصحافة العربية في الهند. قام بإدارة تحريرها منذ خمسين عاماً بل أكثر. وهذه المجلة لم تزل تنشر مقالات جيدة عن اللغة العربية وأدائها كما أنها نشرت قصائد عربية غراء للهنود والعرب على السواء. له مساهمات جلييلة في اللغة العربية بما فيها "تراجم شعراء الرسول" و"الصحافة العربية في الهند" وكذا قام الشيخ الأعظمي بترجمة أعمال العلماء الهنود إلى اللغة العربية مثل كتاب الشيخ أمين أحسن الإصلاح الذي ينطق عن مراحل الدعوة وطرقها وهكذا له مساهمات لا يستهان بها في مجال الدراسات الإسلامية. ولجلالة قدره العلمي قام الباحثون الهنود بإعداد بحوثهم الجامعية عن حياته وخدماته في اللغة العربية وصحافتها.
7. الشيخ محمد الحسني: هذا هو الشيخ محمد الحسني الذي أسّس مجلة "البعث الإسلامي" ولو أنه لم يوفق عمراً طويلاً إلا أنه أحيى اللغة العربية في الهند. كانت افتتاحياته يحفظها العرب عن ظهر قلوبهم وكانوا يقرأونها في جلساتهم حتى أن بعض الحكومات العربية مثل حكومة مصر منعت وصول هذه المجلة إلى بلادها. له

<sup>1</sup> الطلح المنضود في شعراء العربية الهنود، ص 487

مؤلفات جلييلة لاسيما "الإسلام الممتحن" الكتاب الذي أثار ضجة في الدول العربية وعاد بثناء جميل لكاتبه.

8. البروفيسور محمد محسن العثماني: البروفيسور محمد محسن العثماني كاتب ومفكر إسلامي. له مساهمات جلييلة في الدراسات الإسلامية والعربية وموضوعه الحبيب هو العرب وأخبارهم وأوضاعهم. خدم اللغة العربية في مختلف الجامعات الهندية فأولاً خدمها في جامعة الإصلاح بسرائ مير (أعظم كره) ثم علّمها في جامعة دلهي ثم ارتحل إلى حيدرآباد حيث علّمها في جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية وكذا كان عميد كليتها للغات. له مجلة عربية "أقلام واعدة" وهي تعني بنشر المقالات عن شعراء الأردية ونقل أبياتهم إلى العربية كما أنها نشرت قصائد شعراء الهند للعربية. صدرت بعض مؤلفاته من بيروت. زار البلاد العربية عدة مرات.

9. البروفيسور شفيق أحمد الندوي: البروفيسور شفيق أحمد خان الندوي كان رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة المليية الإسلامية بنيو دلهي. علّم اللغة العربية لمدة طويلة ثم تقاعد عنها إلا أنه ترجمان رابطة الأدب الإسلامي بالهند. له خدمات قيّمة بالنسبة لنشر اللغة العربية وتطويرها في الهند. من أبرز مؤلفاته "اللغة العربية الوظيفية" في مجلدات ضخمة. كذلك أعدّ دليل الدروس التي ذكرت فيها. له مقالات وبحوث نشرت في مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس القومي للعلاقات الثقافية في الهند.

10. البروفيسور ضياء الحسن الندوي: كان البروفيسور رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة المليية الإسلامية بنيو دلهي كما كان عميد كليتها للغات. خدم اللغة العربية لمدة طويلة وتوفي إثر نوبة قلبية. كان البروفيسور مدير تحرير مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس القومي للعلاقات الثقافية في الهند. هذه المجلة مشهورة لبحوثها ومقالاتها التحقيقية عن الهند وخدماتها في مختلف مجالات العلم والفن. من أبرز خدماته للغة العربية العدد الخاص لهذه المجلة بالعلامة الجليل الشيخ أبي الحسن الحسيني الندوي. ألف كتاباً عن الأدب المهجري باللغة الأردية. له مقالات عديدة نشرت في مختلف مجلات الهند كما أفاد الناس بخطاباته العربية وحضوره المكرّر في الندوات العلمية المنعقدة في الهند وخارجها.

وكذا استفاد من العلامة أبي الحسن الحسيني الندوي الدكتور السيد حبيب الحق الندوي أستاذ قسم اللغة العربية وآدابها في إفريقية الجنوبية، والبروفيسور مشير الحق نائب شيخ جامعة كشمير (بالهند) والشيد رضوان علي أستاذ جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض والبروفيسور محمد راشد الندوي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقاً (جامعة علي كره الإسلامية) والشيخ السيد واضح رشيد الندوي عميد كلية اللغة العربية بدار العلوم بندوة العلماء بلكناؤ ومدير تحرير صحيفة "الرائد" العربية والبروفيسور السيد محمد اجتباء الندوي أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقاً في جامعة كشمير والشيخ نذر الحفيظ الندوي صاحب كتاب "الأستاذ أبو الحسن على الحسيني الندوي كاتباً ومفكراً" والبروفيسور محمد يونس النغراكي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها سابقاً بجامعة لكاناؤ.

#### المبحث الرابع: المؤلفات والمقالات المتعلقة باللغة العربية وآدابها

وقد ألف العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي كتباً تفوق على مائتين كما له مقالات وبحوث ومحاضرات لا تعدّ ولا تحصى، والحديث عن كل منها أمر صعب ويقتضي مجلدات من الكتب فنقصر كلامنا على أبرز مؤلفاته المتعلقة باللغة العربية وآدابها:

1. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: هذا أجلّ كتاب للعلامة الندوي وهو لعب دوراً في التعريف به في العالم العربي والإسلامي. تمت ترجمته إلى اللغات المحلية والعالمية العديدة. الكتاب في خمسة أبواب وكل باب له فصول عديدة والواقع أن هذا الكتاب دراسة تاريخ العالم من منظور إسلامي. يقول فيه الدكتور محمد يوسف موسى:

"وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقلّ من يوم، وأغرمت به غراماً شديداً، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد فرغت منه: إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام"<sup>1</sup>.

وقال المستشرق سارجنت في جامعة كيمبريدج:

<sup>1</sup> ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 18

"لو كانت بريطانيا تستسيغ حظر كتاب من الدخول في هذه البلاد لأوصيت بحظر دخوله فإنه كتاب ينزل على الحضارة الغربية كصاعقة"<sup>1</sup>.

وقال الدكتور بكنجهام أستاذ كرسي الدراسات الشرقية في جامعة لندن: "إنه بحق وثيقة تاريخية أنموذجية لأحسن وأفضل جهد علمي للنهوض بالمسلمين في هذا القرن"<sup>2</sup>.

2. السيرة النبوية: ومن أهم مؤلفاته "السيرة النبوية" والواقع أن العلامة أبا الحسن قد شغف حبًا بالنبي العربي فيقول:

"فقد كانت السيرة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام، المدرسة الأولى التي تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب وقد دخلها في سن مبكرة لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال"<sup>3</sup>.

وكذلك أنه يعتبر السيرة النبوية أقوى عنصر للعقل والنفوس بعد القرآن فهو يقول:

"ومن المقرّر أن السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيرًا في النفوس والعقل بعد القرآن"<sup>4</sup>.

وهذا الكتاب تم تأليفه طبقًا للعصر الحديث وبغاية من الإيجاز، استفاد فيه المؤلف من القرآن الكريم ومن مصادر السيرة الموثوق بها وحاول أن يردّ على اعتراضات أعداء الإسلام عليها<sup>5</sup>.

3. الطريق إلى المدينة: هذه مجموعة خطبه وأحاديثه التي ألقاها أمام العرب خلال عدة زيارته وكلها مليئة بحب الرسول العربي عليه الصلاة والسلام. إن لغتها

<sup>1</sup> الرائد، 24/16-13/41

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 24/16-13/41

<sup>3</sup> السيرة النبوية، ص 9

<sup>4</sup> المصدر نفسه، ص 10

<sup>5</sup> المصدر نفسه، ص 10-11

فصيحة وتأخذ بمجاميع القلوب فيقول أديب العربية الكبير علي الطنطاوي عنها:

"يا أخي أبا الحسن: لما قرأت كتابك (الطريق إلى المدينة) أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ولكن هموم العيش وطول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار، وأفزاح كتابك عن جوهره الغبار، وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر، إلا أنه بغير نظام، فيا أبا الحسن: لك الشكر على أن رددت إليّ ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي"<sup>1</sup>.

4. الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية: هذا الكتاب الصغير في 144 صفحة كان محاضرة ألقى بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب التابع لوزارة الإعلام بالكويت بمناسبة القرن الخامس الهجري الجديد عام 1983م ولكنها توسّعت فيما بعد وبرزت في صورة هذا الكتيب. استفاد فيه العلامة الندوي من المراجع الإسلامية والأجنبية واستعرض الموضوع استعراضاً علمياً وتحليلاً دقيقاً وجاء بعشرة معطيات رئيسية ومنح أساسية هامة من الإسلام على الإنسانية. يقول فيه البروفيسور اجتباء الندوي: "الكتاب جدير بأن يقرأه كل مسلم وكل مثقف"<sup>2</sup>.

5. العرب والإسلام: هذا كتاب قيّم فريد يتحدث عن تضامن العرب والإسلام ولا يفرق بينهما فالإسلام خرج من مسقط رأس الرسول العربي وهم ضحّوا بما كان لديهم لإذاعته وإعلاء كلمته فالعرب والإسلام لا يتجزآن ولو أنهما يبدوان جزئين. يقول عنه كاتبه كما يلي:

"عقد الله بين العرب والإسلام للأبد وربط مصير أحدهما بالآخر فلا عزّ للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا

<sup>1</sup> الطريق إلى المدينة، ص 12

<sup>2</sup> أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص 137

مشعلهُ، وقد حرص رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدّس بين العرب والإسلام، فجعل جزيرة العرب مركز الإسلام الدائم وعاصمته الخالدة، وحرص على سلامة هذا المركز وهدوئه وشدة تمسّكه بالإسلام"<sup>1</sup>.

6. المسلمون في الهند: جاء الإسلام بلادنا الهندية في القرن الأول الهجري ومن ثم تنوّرت أنحاؤها بنور الإسلام وسعى أهلها وعلى رأسهم الدعاة والعلماء ليعمّ البلاد كلها. ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا يسكنها المسلمون في عدد غير قليل وهم يفتخرون بدينهم ويعتزون بنبيهم ويتمسكون بكتابتهم العربي العزيز. ذكر العلامة الندوي في هذا الكتاب ورود الإسلام في الهند، وأحوال المسلمين قديمًا وحديثًا، وما هي المشاكل التي يعانون منها، وما هي الميزات التي يتصفون بها، وما هي العواطف التي يملكونها تجاه الإسلام والمسلمين في البلاد وخارجها. كل هذا مذكور في هذا الكتاب الصغير حكمًا كبير نفعًا. وتتجلى لنا قيمته حينما نقارن الكتب الأخرى في الموضوع المكتوبة باللغة العربية.

7. إذا هبّ ربح الإيمان: هذا كتاب جميل جليل كتب بلغة بليغة سلسلة حلوة، وبأسلوب عصري قصصي مؤثر، ملؤه الروعة والصفاء، يسجّل صفحات خالدة من البطولة الخالدة المؤثرة في سبيل إعلاء كلمة الله في الهند ألا وهو السيد أحمد بن عرفان الشهيد. يقول عنه البروفيسور محمد اجتباء الندوي: إذا أمسك القارئ هذا الكتاب ليقراه فلا يكاد يتركه حتى ينهيه وينسى نفسه، بل يجدها تتلاءم معه وتتوافق"<sup>2</sup>.

8. دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية: ولو أن هذا الكتاب يبدو إسلاميًا بحثًا إلا أنه يتعلق بجانب مهمّ من جوانب الأدب الإسلامي ألا وهو سيرة ذاتية فكل كاتب أو خطيب يتحدث عن نفسه في أقواله وآرائه كما أن كلامه يدل على ما يكمنه صدره فمن هذه الجهة دراسة الأقوال النبوية السائرة

<sup>1</sup> العرب والإسلام، ص 4

<sup>2</sup> أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص 144

بالنسبة للدعاء أمام الرب جل جلاله دراسة ممتعة قام بها العلامة أبو الحسن الندوي وسعى سعيه الحثيث لإبراز جوانب سيرته عليه الصلاة والسلام. هذه مبادرة جميلة لمن يريد أن يتقدّم في هذا المجال.

9. **روائع إقبال:** الشاعر الإسلامي العلامة محمد إقبال ليس غريباً لدى العرب هذه الأيام، فقد ترجمت دواوينه العديدة كما ترجمت خطبه ومحاضراته، والعلامة أبو الحسن علي الندوي لقيه حين أولى زيارته إلى باكستان ومن ثم تعلق به وكلف ولما وجد الفرصة، أعلى ذكره في العالم العربي الذي كان يميل إلى طاغور ميلاً فنشرت خطبه ومحاضراته عليه في مختلف إذاعات الدول العربية. هذا الكتاب مجموع مقالاته عن حياة وأفكار العلامة إقبال، وعلاوة على تقديم فكرته الإسلامية للعرب ما يهّمنا هو ترجمته العربية البليغة لأبيات إقبال، الأمر الذي فتح باباً لترجمة أبياته الأخرى ومن ثم دواوينه إلى العربية. يبدو من دراسة هذه الترجمات أن العلامة أبا الحسن كان قادراً على ترجمة الأبيات الأردية والفارسية إلى اللغة العربية. لغة هذه المجموعة بليغة سلسة يملؤها إسلامية الروح.

10. **روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة:** هذا الكتاب أيضاً مجموعة المختارات الأدبية من القرآن والسيرة النبوية وهي مثل كتابه "مختارات من أدب العرب" وتنبي عن الرجوع إلى الأدب الإسلامي الذي حمل لواءه العلامة الندوي.

11. **نظرات في الأدب:** هذا الكتاب يتحدث بإيجاز عن نظرات مختلفة في الأدب وبعد دراستها التحليلية يرشدنا إلى الأدب الإسلامي الذي كان يدعو إليه العلامة الندوي. ومثله كتابه الآخر "نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي".

12. **كلمة عن أدب التراجم والحديث عن الكتب:** أدب التراجم فرع من الآداب العربية يذكر فيه الكاتب ترجمة كاتب بأسلوب عربي مبين كما يتناول مختلف جوانب حياته، وهكذا حينما يريد الكاتب أن يتحدث عن كتاب فهو ينطق عن كاتبه ثم يدرس الكتاب دراسة نقدية وتحليلية. هذا الكتاب أيضاً إضافة قيّمة للعلامة الندوي إلى الأدب العربي.

13. مؤلفاته الأخرى: والحديث عن كافة المؤلفات والرسائل المتعلقة باللغة العربية صعب ولا يسعه المجال فنحصيها كما يلي:

أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية وأثره البعدي في اتجاهاتها وقياداتها، دور الجامعات الإسلامية المطلوب، في مسيرة الحياة (سيرة ذاتية للعلامة)، تأملات في القرآن الكريم، المدخل إلى دراسات الحديث، مصادر العلوم الإسلامية، دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانتها، سياسة التربية والتعليم السليمة، قصص من التاريخ الإسلامي، قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم، كيف توجه المعارف في الأقطار الإسلامية، الإسلام والمستشرقون، شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها، جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية، دور الإسلام الإصلاحي في مجال العلوم الإنسانية، دور الإسلام في تقدّم البلاد التي دخلها، دور الإسلام في نهضة الشعوب، ندوة العلماء مدرسة فكرية شاملة.

14. رحلاته: ولقد زار العلامة أبو الحسن الندوي بلادًا عربية عديدة فشهد ما لم تشهده الأعين وأعجب بها كما تأذى بسوء حالها وعند عودته من كل بلد إسلامي كان يكتب رحلته، وهذه الرحلات خير نموذج للأدب الإسلامي لأنها باللغة العربية. والحديث عن محتوياتها صعب ويتسبب في التطويل والإملاط فنذكر فيما يلي أسماءها:

1. الفتح للعرب المسلمين
2. كيف دخل العرب التاريخ؟
3. العرب يكتشفون أنفسهم
4. كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب
5. مذكرات في الشرق الأوسط
6. من نهر كابل إلى نهر اليرموك
7. نفحات الإيمان من صنعاء إلى عمان
8. مذكرات سائح في الشرق العربي

9. أسبوعان في المغرب الأقصى

10. نحن الآن في المغرب

15. مقالاته: وقد كتب العلامة أبو الحسن الندوي مقالات قيّمة عن العرب والإسلام والرسول العربي والأدب العربي وهي لا تعدّ ولا تحصى فنودّ أن نسجّي نزرًا يسيرًا منها كما يلي:

اسمعي يا مصر، اسمعي يا سورية، اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)، من العالم إلى جزيرة العرب، من الجزيرة العربية إلى العالم، اسمعوا مني صريحة أيها العرب، إلى الراية المحمدية أيها العرب، أ جاهلية بعد الإسلام أيها العرب؟، لا تخرجوا الأوفياء للإسلام بموقفكم أيها العرب، ردة ولا أبا بكر لها، أحاديث صريحة إلى أمريكا، اسمعي يا إيران.

#### ملخص القول:

بدا مما قدّمناه موجزًا أن العلامة أبا الحسن الحسيني الندوي كان قد نشأ وترعرع في بيئة دينية وعربية ربّته أمه الكاتبة الحسنية كما تلقّى العلوم الإسلامية والعربية على العلماء العرب وعلى رأسهم الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي، ثم جعل يعلم الأدب العربي وكتاب الله العزيز المنزل بلسان عربي مبين. كان عارفًا بالعلوم الجديدة واللغة الإنجليزية كما عرف اللغات الأخرى المحلية والعالمية. صدرت أول رسالته في المنار ومن ثم نشرت رسائله وكتبه تترى من بينها كتابه المعجز "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" والذي كتبه حين لم يتجاوز عمره الثلاثين سنة. اعتبره العلماء الهنود والعرب علمًا من أعلام التاريخ الإسلامي فدعوه لرئاسة المؤتمرات وحضور الندوات وإدارة المجمعات. ألّف العلامة حوالي مائتي كتاب ورسالة بجانب المقالات والمحاضرات والخطب التي لا تحصى ولا تعدّ وعلى خدماته الجليلة هذه انتخبته حكومة المملكة العربية السعودية لتشريفه بأئمن جائزتها "جائزة الملك فيصل العالمية" كما أنه منح جوائز أخرى وطنية ودولية. حقًا كان العلامة أبو الحسن علامة زمانه ورئيس أدباء الأدب الإسلامي وصدق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ

حيث قال: "إن وفاة الشيخ أبو الحسن الندوي خسارة كبيرة للأمة الإسلامية"<sup>1</sup>. وفي النهاية ننشد بعض أبيات قرضها الدكتور عدنان في رثاء هذا الفقيه العلام:

أبا الحسن الندوي! ذكرك روضة	يموج بها الزهر الندي ويورق
لك النسب الأتقى وجوهر معدن	تجلى به درب شققت ومنطق
بنيت فأعليت البناء وقد سمت	عزائم ترقى بالهدى وتحلق
معاهد تبقى في الحياة منائرًا	إذاما جلاها هديها المتأنق
غدوت قلوب الناشئين بحكمة	تفيض بحزم المتقين وترفق
أبا الحسن الندوي! كم من مآثر	بنيت وعلم في الصحائف يشرق
حنانك! كم هاج الهوي فتلفتت	ضلوعي والآمال تنأى وتفترق
يطاردها شوقي فلا هو مدرك	مداها ولا طرفي مع الشوق يلحق <sup>2</sup>

<sup>1</sup> الرائد، 22/16-13/41

<sup>2</sup> المصدر نفسه، 61/16-13/41

المصادر والمراجع

1. الدكتور أورنك زيب الأعظمي: الطلح المنضود في شعراء العربية الهنود (مخطوط)
2. الدكتور عبد الله عباس الندوي: مير كاروان (أمير القافلة)، المجلس العلمي، ذاكر باغ، نيو دلهي، 1999م
3. الدكتور محمد أسجد القاسمي الندوي: مفكر إسلام حضرت مولانا سيد أبو الحسن ندوي (مفكر الإسلام السيد أبو الحسن الندوي)، دار الكتاب، ديوبند، 2000م
4. الشيخ أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم، دمشق
5. الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الطريق إلى المدينة، دار القلم، دمشق
6. صحيفة "الرائد" النصف شهرية الصادرة عن مؤسسة الصحافة والنشر، لكتناؤ، الهند
7. مجلة "البعث الإسلامي" الشهرية الصادرة عن مؤسسة الصحافة والنشر، لكتناؤ، الهند
8. محمد اجتباء الندوي: أبو الحسن علي الحسيني الندوي، دار القلم، دمشق، 2001م
9. محمد طارق زبير الندوي: سماحة الداعية المجاهد الإمام أبي الحسن علي الحسيني الندوي ومؤلفاته العربية، مكتبة حراء، لكتناؤ، 1996م

## سوبهاش تشاندرا بوس

- أ. د. وزير حسن<sup>1</sup>

ممن اجتهد وجاهد لاستقلال الهند رجل يجلّ عمله ولكن يقلّ ذكره وهو سوبهاش تشاندرا بوس (Subhash Chandra Boss). إنه لم يجاهد لتحرير بلادنا فحسب بل اجتهد وجاهد حتى نحر ذاته لاتحاد الهندوس والمسلمين ولسلامة الوطن الهندي فهو رجل مليء بالحبّ النموذجي للوطن وأهاليه ومخلوق يفوه بالإنسانية والحب لها. نريد في الأسطر التالية أن نلقي بعض الأضواء على حياته من مولده إلى شبابه وإلى كهولته ومن ثم على جهاده المخلص لاستقلال الهند ولإبقاء سلامتها عن طريق خلق الوحدة والاتحاد فيما بين أبنائها.

ولد سوبهاش تشاندرا بوس في قرية صغيرة من أوريسة تسمّى "كوداليا" في 23 من شهر يناير عام 1897م. كان أبوه، روي باهادور جانكي ناث بوس، ذا موهبة ربانية وجدارة لاهوتية فائقة. ففي جانب كان محامياً ناجحاً يتهافت عليه الناس من أصحابه وأعدائه وفي جانب آخر نال منزلة رفيعة معترفاً بها لدى الشعب الهندي. كانت أمه متدينة للغاية ولكنها مع ذلك الجانب الديني الخالص ربّت فلذة كبدها خير تربية وأمثلها كما ساهمها في هذا العمل الجليل أخوه الأكبر منه المسمّى ساروت تشاندرا بوس.

بدأ سوبهاش دراسته من مدرسة نصرانية حيث قضى سبع سنوات أخذاً من درر علومها وفنونها ومعارفها وخصائصها ثم التحق بمدرسة ريونشا كالجيت من حيث نجح في اختبار الثانوية ونال شهادتها. بعد ذلك توجه نحو كلية بريزيدنسي، كولكاتا.

<sup>1</sup> بروفيسور، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بنارس الهندوسية، فارانسي، أوتارا براديش، الهند

خلال هذه المدة (في 1913م) غلب عليه أثر الرهبانية. ازداد هذا الأثر لأجل تربية والدته التي كانت تعتني بالدين عناية مثالية وممّلة في بعض الأحيان فعزم الولد البارّ سوهاش تشاندرا على ترك هذه الدنيا الفاتنة الخادعة وفي ليلة مظلمة غادر داره الأنيس متوجّهًا نحو الغابة المتوحشة حيث قضى أيامًا معدودات متوكلاً على الفواكه والأوراق باحثًا عن مرشد روحي يهديه إلى سواء الصراط وقصده. ولكنه، بما أنه كان قد ترعرع في رعدة العيش ورخاء البال، لم يكد يصبر على هذا الكفاف الجاف فرجع بعد ليال وأيام وأصابه المرض الشديد.

اعتنى أبواه في علاجه عناية فائقة فشفاه الله من هذا المرض فاستأنف دراسته وبدأ يتعلّم ويستفيد ففاز في امتحان إيف. إيه ولكنه لم يتم البكالوريوس وهذا لسبب مهمّ وهو كما يلي:

كان عميد كلية بريزيدنسي البروفيسور سي. إيف. أوتين، الرجل الإنجليزي المحشوّ بالكبرياء والبغض تجاه الهنود فذات يوم لطم البروفيسور طالبًا من البكالوريوس لطمه غضب منها طلاب الكلية بمن فيهم سوهاشنا هذا، وحكموا على الإضراب عن الدراسة فحدث الأمر المفعول وبعدما استمر الإضراب ليومين وقع المدير في يده وقبل طلب الطلاب وانصرف عن عادته الشنيعة كهذه ولكن ولد الأفعى يشبه والدته فعاد لشنشته الفطرية. ومرة أخرى لطم طالبًا آخر فسخط منه الطلاب وطاش غضبهم حتى وجّه أحد منهم ضربات شديدة إليه، الأمر الذي سبب إخراج عدد من الطلاب بمن فيهم سوهاش تشاندرا. قضى زعيمنا عامين في هذه الحالة من الغربة ثم التحق بكلية "اسكاتش" ببولكاتا في البكالوريوس ونجح فيه. أثناء ذلك انسلت في سلك التدريب العسكري للجامعة ونال جوائز عديدة فيه.

وبما أنه كان ذا ذهن حدّاد وعقل ثاقب فقد تفكر أهل عائلته في إرساله إلى إنجلترا لنيل المزيد من الدراسات العليا وصرف عنايته عن الأمور التافهة عندهم عن طريق جمالها وجلالها فوصل سوهاش إلى إنجلترا ملتحمًا بصف أي. سي. إيس. لم تفتنه تلك العيشة الخلابة فقضى بها حياة بسيطة غير مزاج نفسه من أهاليها، ونال شهادة

البكالوريوس في الفلسفة من جامعة كيمبريج كما فاز في امتحان آي. سي. إيس بتقدير ممتاز.

لم يحصل سوبهاش من إنجلترا إلا على زيادة في حريته وعدوانه على الإنجليز فاستقال عن منزلة آي. سي. إيس في 1921م بعدما قضى مدة وجيزة للغاية وأصبح عميد الكلية الوطنية التي قام بتأسيسها السيد يوتسي. آر. داس ومن ثم جعل يدرّب ويعدّ شبابًا وكهلة راضين ومستعدّين للتضحية بنفوسهم الغالية للوطن. وكذلك لعب دورًا فعّالًا في رفض التهنئة لولي عهد إنجلترا الذي جاء الهند لتقديم الشكر إلى الهنود لدعمهم ضد أعدائه فأرسل سوبهاش وراء قضبان الحديد لمدة ثماني سنوات.

في 1922م تم تعيينه كعضو لمجلس المؤتمر لعموم الهند فحضر جلسته السنوية التي تم عقدها تحت رئاسة سي. آر. داس ولكن المؤتمر انقسم إلى جزء آخر باسم "حزب سوراج". وذلك لاختلاف آراء أعضائه حول قضية السيطرة على المجلس التنفيذي ثم نصب هذا الحزب مرشحيه في الانتخاب فغلب سي. آر. داس على خصمه في انتخاب البلدية كما تم تعيين سوبهاش كمسؤول تنفيذي كبير فأدى الزعيم الوطني مسؤوليته تجاه منصبه خير أداء ولكن الحكومة لم ترض بدوره فتم إلقاء القبض عليه في 25 من أكتوبر عام 1924م تحت قانون بنغال وألقي في سجن مانديلي.

لم يقض سوبهاش مدة طويلة في السجن حتى أصابه أمراض مختلفة فأصبح طريح الفراش. ولما سمعت العامة عن هذا الخبر المروع ظاهروا ضد الحكومة وطلبوا منها إطلاق سراحه بدون شرط لكي يعالج نفسه فرضيت الحكومة به وقبلت طلبهم. خرج الزعيم الهندي من السجن وعولج فشفى من المرض. بعد ذلك استأنف فعاليته السياسية فتم اختياره كرئيس لهيئة المؤتمر في الولاية كما تقرّر كأمين عام للمؤتمر لعموم الهند.

في 1930م ألقى في السجن لاعتدائه المدني ولما خرج منه اختير رئيسًا لمؤتمر اتحاد التجار لعموم الهند فسعى وجاهد للتقريب بينه وبين المؤتمر الهندي الوطني. وفي 1932م ألقى القبض عليه مرة أخرى فألقي في السجن ولكن أطلق سراحه لفساد صحته وحصل على

الإجازة لزيارة أوروبا لعلاج. أراد الزعيم أن يلقي والدته ولكنه لم يستطع لأجل منع الحكومة فذهب محروماً من ذلك. وفي 1934م تسلّم رسالة عاجلة من قبل والدته، قائلة إن والده مريض شديداً فغادر أوروبا فوراً بالطائرة ولكن لم يستطع زيارته إذ عاجلته المنية ففارقه للأبد قبل أن يصل إليه. ألقى عليه القبض مرة أخرى وسجن في داره ولكنه مرض مرة ثالثة فأجيز أن يزور أوروبا. فذهب إليها وأقام بها لعام 1936م.

في 1936م تم اختياره كأمين عام للمؤتمر فرجع إلى الوطن ولكن الحكومة قد ألقت عليه القبض وسجنته في برودا فظاهر الشعب الهندي ضدها وطلبوا منها إطلاق سراحه بدون شرط فقبلت الحكومة طلبهم وأطلقت سراحه غير المشروط في مارس 1937م.

في 1938م تم اختياره كرئيس المؤتمر بصفة متفق عليها وذلك لأن المرشحين الآخرين، مولانا أبو الكلام آزاد وجواهر لال نهرو وجان عبد الغفار خان، قد سحبوا ترشيحهم فاتفقت الأعضاء على اختيار هذا الرجل. إثر استيلائه على هذا المنصب واجه قضية الدكتور خارى الذي لم يطلع رئيس المؤتمر على تخليه عن منصب رئيس الوزراء. إنه فعل هذا لأجل سخطه من سردار باتيل فغضب منه سوهاش وأنتج من ذلك أن المؤتمر يحتاج إلى إصلاحه من داخله فوضع جماعة أخرى باسم "جماعة متطرفة" عقدت أول جلساتها في مومبائى تحت رئاسة سوهاش ذاته. بعد هذه الجلسة طوّف سوهاش في كافة ولايات الهند معرّفاً بأهداف جماعته ومندّداً على اتهام الناس بأنه تسلّم الأموال من روما وطوكيو وماسكو وما شابهها من البلاد كي يضع هذه الجماعة. هنأه العامة على هذا الأمر الصافي وقبلوه من أعماق قلوبهم ولكن لقي الزعيم معارضة شديدة في بهار حيث رمى أصحاب غاندي الأحجار والأحذية عليه وعلى أعضاء جماعته بمن فيهم سوامي سهجاناند.

أراد سوهاش أن تكون جماعته الجديدة متكونة من أفراد جماعات متطرفة أخرى ولكن الآخرين لم ينضموا إليه مخافة فقد امتيازهم وهويتهم إلا أنهم وضعوا رصيفاً آخر أرادوا به دعم هذه الجماعة. كانت العامة قد توقعت كثيراً من هؤلاء ولكنهم لم يفعلوا شيئاً يذكر.

نظرًا لهذا الاعتداء عزم المؤتمر على أن يتحفظ على جبهتين- جبهة تقول بمنع أي مظاهرات بدون إجازة رئيس المؤتمر وجبهة أخرى تعطي شيئًا من الحرية لهيئات المؤتمر في مختلف الولايات وهذه ستمدّ في تقليل الاعتداء. خالفهما سوبهاش في 9 من يوليو، الأمر الذي سبّب طرده من منصب الرئاسة لمدة ثلاث سنوات كما طرد هو من رئاسة المؤتمر على نطاق الولاية إلا أن العامة قد أدلت الصوت في حقه فقام المؤتمر بإبطال هذه الهيئة.

والآن وقد حُرِمَ سوبهاش المنصب الرئيسي فلم تحصل له العزة إلا في بنغال وكيف لولاية واحدة أن تضرم النار في كافة الولايات فبدأت العامة ينسونه ويضعونه وراء ظهورهم. نظرًا لهذا الأمر الممقوت أراد سوبهاش أن يؤكد كيدته فيظاهر ضد علامة جحر أسود منصوبة في كولكاتا فألقت الحكومة القبض عليه تحت قانون دفاع الهند. ظهرت العامة ضد هذه الخطوة شبه السياسية مظاهرات شديدة حتى اضطرت الحكومة إلى أن تقبل طلبهم وبالتالي فأطلق سراحه ولكن الحكومة لم تصبر على هذا فألقت عليه القبض على أن كتب مقالة تم نشرها في "فاروررد بلوك". فأصابه المرض مرة أخرى وازداد هذا لأنه أضرب عن الطعام مظاهرًا ضد ظلم الحكومة على أسرى السياسة. لما سمعت العامة عن فساد صحته ظهرت ضد خطوة الحكومة البغيض فأطلق سراحه وخرج زعيمنا من السجن.

كان سوبهاش قد خرج من السجن لأجل علاج مرضه وكان يواصل هذا ولكنه فاجأ الشعب الهندي غيابه في 26 من يناير، اليوم الذي يتم الاحتفال به كعيد الجمهورية ولم يقدر الهنود، كما يعتقد، حتى على الاطلاع على الواقع فظن بعضهم أنه سافر إلى بلد آخر بينما ذهب الآخرون إلى غيابه في الغابة ولكن الخبر المنشور في جريدة "تائمس آف إنديا" (2001/01/29م) يكذب هذا الرجم بالغيب ويصدّق أنه سافر إلى يابان حيث ذهب ضحية تلك النار التي وقعت في الطائرة التي كان يركبها سوبهاش. حدث هذا في 19 من أغسطس عام 1945م.

المصادر والمراجع

1. جريدة "تائمس آف إنديا" اليومية الصادرة عن نيو دلهي
2. جريدة "سهارا" اليومية الصادرة عن نويدا، أوترا براديش
3. مجلة "آجل" الشهرية الصادرة عن حكومة دلهي
4. مجلة "نيادور" الشهرية الصادرة عن حكومة أوترا براديش
5. نذر سوهاش، تقديم: أكاديمي الأردية بدلهي، 1997م

## الشيخ حبيب ريحان خان الندوي الأزهري عالمًا ربانيًا

(3/ أغسطس 1937م-18/ أغسطس 2009م)

- أ. د. فيضان الله الفاروقي<sup>1</sup>

أنجبت الهند، عبر تاريخها الطويل، علماء ربانيين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام وإقامة عوج البشر، وشغفت أفئدتهم حبًا بالعلم والحكمة ومن ثم فقد خلدت أسماؤهم على صفحات التاريخ الإسلامي-الهندي وستضجّ بها كل جلسة تنعقد للدعوة الإسلامية وكل دورة تعقد لنشر العلم وتطويره. ومن هؤلاء الرجال الربانيين الشيخ حبيب ريحان خان الندوي الأزهري الذي كانت حياته موقوفة لإصلاح الناس ونشر العلم وتدعيمه من كل وجه وسبب. وفي هذه العجالة نودّ أن نسلط بعض الأضواء على حياته وأعماله ومآثره بصورة موجزة للغاية.

**خلفيته العائلية:** كان الشيخ حبيب ريحان ينهدر من عائلة دينية وعلمية معًا فكان المفتي عبد الهادي خان، وهو من سلفه الصالح، قد احتل منصب الإفتاء في رئاسة بهوفال (Bhopal) لمدة 19 سنة طوألًا كما كان جدّه الحافظ محمد إلياس خان مشير المهام عن الأوقاف في حكومة النواب حميد الله خان ثم برز من تلك العائلة كاتب ومترجم كبير وهو الشيخ محمد عمران خان الندوي الذي جمع بين العلم والدين فاعتنى بشؤون المساجد الدينية بجانب اهتمامه بنشر العلم وتوسيع نطاقه وكذا كانت أمه آمنة سلطان مهتمة بشؤون البنات التعليمية وهي التي أقامت أول مدرسة دينية للبنات في بهوفال. وعلى كل حال فكان شيخنا حبيب ريحان خلفًا صالحًا لسلفهم وسرًا لأبيه أثبت ذلك برغبته في نشر الدين وتدعيمه للعلم والعلماء فإنه كان

<sup>1</sup> بروفييسور، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

عالمًا كبيرًا ومالكًا لناصية اللغة العربية كما كان يقيم بمسجد تاج المساجد محلًا عن عقد قضايا المسلمين الراهنة ومشرفًا على المعاهد العلمية الشهيرة وعلى رأسها ندوة العلماء ودار المصنفين.

مولده ودراساته: ولد الشيخ حبيب ربحان في 13/ أغسطس سنة 1937م في بهوفال حيث تلقى العلوم البدائية على أمهر أساتذتها الشيخ عبد الرحمن والشيخ إشفاق الرحمن الكاندهلوي والشيخ عبد الرشيد المعروف بـ"مسكين" والشيخ سيد حشمت علي والشيخ نعمان. وبعدما شرب من هذا المنهل الصافي توجه نحو دار العلوم بندوة العلماء (لكناؤ) حيث التحق بصفّ العالمية فظفر هنا بثلاثة أصدقاء؛ البروفيسور محمد سالم القدوائي، والبروفيسور راشد الندوي، والشاه شبير المعروف بـ"عطا". نال شيخنا الفراغ منها في 1951م ثم التحق هنا بصفّ الفضيلة من حيث تخرّج في 1953م. وفي 1955م نال شهادة التكميل في الاختصاص بالبحث والتحقيق. وممن استفاد في الندوة من الأساتذة والشيخوخ المحدث شاه حليم المعروف بـ"عطا" والمحقق عبد الحفيظ البلياوي والمفسر أويس النغرامي والشيخ محمد ناظم الندوي والشيخ السيد أبو الحسن الندوي والمفتي محمد سعيد والشيخ أبو العرفان الندوي والشيخ حبيب الرحمن الأزهري والشيخ محمد عمران خان الندوي الأزهري.

ثم نال منحة عبيد الله خان في 1958م لكي ينال الدراسات العليا في جامع الأزهر في مصر فنال فيه شهادة العالمية في 1960م كما تخصصّ في التدريس في 1962م ونال شهادة الليسانس من جامعة القاهرة وشهادة الدبلوم في اللغة العربية الجديدة في غضون هذه السنوات. ومن العلماء والشيخوخ الذين استفاد منهم في مصر عددهم كثير فنذكر طرفًا منهم كما يلي:

الدكتور محمد حب الله، والدكتور عبد الواحد وافي، والدكتور محمد فتح الله بدران، ومحمد الغزالي، والشيخ أحمد غزلان، والدكتور محمد شوقي ضيف، والدكتور عز الدين فريد، والدكتور محمد مندور، والدكتور إسحاق الحسيني، العلامة محمد أبو زهرة، والدكتور مصطفى الزرقاء، والدكتور محمود شلتوت، والدكتور موسى شاهين

لاشين، والدكتور عبد الحلیم محمود، والدكتور عبد المنعم النمر، والدكتور محمد صالح حرب، والشيخ محمد البیصار وعباس محمود العقاد، والدكتور أحمد حسن الزيات، والدكتور محمد شاکر وغيرهم كثير.

في مجال التدريس: بعدما تخرّج من ندوة العلماء درّس بها لسنتين (1953-1955م) في صفّ التكمیل كما درّس مجاناً في تاج المساجد، بهوفال من يوليو 1955م حتى 1958م وكذا علّم في معهد البحوث الإسلامية في ليبيا، ومعهد الإمام مالك منذ 1962م حتى 1987م وهكذا علّم فيه بعدما رجع من ليبيا في 1987م فكان يدرّس فيه كلّ يوم 15 فصلاً بجانب تحمّل مسؤولية الرقابة التعليمية. أنفق فيه الشيخ حبيب ریحان أربعين سنة طوّلاً يدرّس فيه ويهتمّ بشؤونه. كان رقيبته التعليمي منذ 1987م حتى وفاته في 2009م.

في مجال التأليف والخطابة: كان الشيخ حبيب ریحان خان مطبوعاً على الكتابة والترجمة فقد أترى المكتبات الإسلامية بكتابات العربية والأردوية وحتى لم يترك الكتابة بالأردوية وهو غريب في ليبيا. إنه بدأ يكتب المقالات منذ 1950م، ومنذ 1953م جعلت تنشر مقالاته في مختلف مجلات الهند وخارجها فأول مقالة له نشرت في المجلة الأسبوعية "نشان منزل" الصادرة من بهوفال ثم نشرت له مقالة في مجلة "رياض" الصادرة عن كراتشي وكذا صدرت له مقالات علمية وأدبية في مجلات "صدق جديد" و"برهان" و"معارف" و"ترجمان القرآن". عدد مقالاته العربية والأردوية يبلغ ثلاثمائة مقالة. وفيما يلي فهرس بعض مقالاته العربية:

1. محمود سامي البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة
2. محمد بن علي السنوسي وجهاد السنوسيين ضد الاستعمار البريطاني إلى استقلال البلاد
3. موجز تاريخ ليبيا من العصور القديمة إلى استقلال البلاد
4. أبو العتاهية حياته، وحبّه، وغزله
5. عبد الرحمن شكري شاعر الديوان، حياته وشعره

6. انتهاك حرمة الشهر الحرام يعتبر انتهاكاً للقرآن الكريم
7. الإسهام الهندي في ترجمة الكتب والمؤلفات العربية من اللغة الأردية
8. نظرية التعليم العربي الجديد في المدارس الحديثة والجامعات والمعاهد الدينية
9. مساهمة ندوة العلماء في تعليم اللغة العربية
10. تدوين القرآن الكريم وتطور التفاسير في العهد الأموي والعباسي
11. تدوين الحديث الشريف في العهد الأموي والعباسي
12. تدوين الفقه الإسلامي وتطوره في العهد الأموي والعباسي
13. لمحة موجزة عن تاريخ دخول العرب إلى الأندلس وبداية الشعر العربي
14. تطور الشعر العربي الأندلسي في العصر الذهبي (عصر الخلافة) إلى نهاية حكم المسلمين
15. العلامة ابن حزم الأندلسي موجز حياته ونماذج من فقهه
16. مقومات النهضة العلمية الحديثة
17. إحياء التراث القديم ونشره وترجمته
18. دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد
19. الجامع الأزهر ومكانته الاجتماعية والدينية
20. أهمية التقويم القمري الإسلامي وضرورته
21. أهمية اللغة العربية العالمية
22. أبو الكلام آزاد وحياته العلمية والسياسية

يبدو من النظرة الخاطفة على العناوين المذكورة أعلاه أن الشيخ حبيب ریحان كان شخصية متعددة الجوانب العلمية والدعوية وكان له اطلاع واسع على العلوم والفنون والآداب بجانب امتلاكه قلباً جياشاً وحنوناً للإسلام والمسلمين.

وبجانب قدرته على الكتابة بالعربية والأردوية فكان الشيخ حبيب ریحان قادراً على الخطابة، ومن ميزات خطبه أنها كانت مليئة بالظرافة فيقول الدكتور سفيان حسان الندوي مشيراً إلى هذا الجانب الفكاهي من خطبه:

"كان للشيخ المرحوم (حبيب ربحان) أسلوب يختص به للخطابة وهو اتصافه بالفكاهة، الصفة التي قد حبّته إلى الناس".

ويقول البروفيسور محمد حسان خان:

"كان له أسلوب خطابي مميّز أحبه الناس فكانوا يدعونهم لإلقاء الخطب فيهم".

مؤلفاته ورسائله: وبجانب هذه الكثرة الكاثرة من المقالات والخطب فقد قام الشيخ حبيب ربحان خان الندوي بتأليف كتب ورسائل مهمّة باللغة الأردوية تم طبعها من مختلف مطابع الهند كما فاته إتمام بعض الكتب والرسائل العلمية بالإضافة إلى كتبه ورسائله التي لما تر النور. وهي كلها كما يلي:

1. تخليق إنساني كا مقصد دين وشريعت كا قيام (الهدف وراء خلق الناس إقامة الدين والشريعة)، طبع في 1972م
2. مسلم پرسنل لا بورڈ دو سؤالون كا جواب (هيئة قوانين المسلمين الشخصية: ردّ على سؤالين)، طبع في 1973م
3. دار التصنيف والترجمة كاتعارف (التعريف بدار التصنيف والترجمة)، طبع في 1991م
4. إسلام خصوصيات وعقائد (الإسلام ميزاته ومعتقداته)، طبع في 1994م
5. مغربي تهذيب انحطاط وعلاج (الحضارة الغربية، زولها وحله)، طبع في 1996م
6. تحريرين اور تقريرين (كتابات وخطب)، طبع في 1996م
7. قرآن پاك كے نام اور قرآني دعائين (أسماء القرآن وأدعيته)، طبع في 1997م
8. مجموعة مضامين (مجموعة المقالات)، طبع في 1999م
9. جوربين پر مسح (المسح على الخفين)، طبع في 2006م
10. إسلاميات (مباحث إسلامية، لم يطبع)
11. عقائد (العقائد، لم يطبع)
12. يهوديت ومسيحيت (اليهودية والنصرانية، لم يطبع)
13. سفرنامہ (رحلات، لم يطبع)

رسائله: المراد من الرسائل هي Letters والتي قد أكثر كتابتها الشيخ حبيب ریحان وهي تعلق الحصر فلو جمعت لجات في كتاب ضخمة ولأفادت الدعاة والكتّاب والهائمين بالإسلام وأتباعه. إنها مجموعة معلومات مهمة عن العلم والدعوة والتربية.

**الملخص:** بدا مما أسلفناه من البحث الموجز أن الشيخ حبيب ریحان خان الندوي الأزهری كان رجلاً ذا اطلاع واسع على العلوم والفنون والآداب، وكان له هيام بالإسلام وأتباعه، وهو قد أفرغ جهده في إصلاح المسلمين بقلمه ولسانه، كما أدى دوراً فعالاً في إحياء المعاهد الإسلامية والمجامع العلمية وبناء المساجد والمدارس والمجمّعات الدينية العلمية. إنه كان يهيم بدار العلوم بندوق العلماء المركز الهندي الكبير للدراسات العربية والإسلامية. والحق أن موته قد سبّب فراغاً يصعب ملأه، وأن موته موتٌ قوم لا موتٌ رجل واحد.

المصادر والمراجع

1. مجلة "كانفرنس غزيت" (مجلة المؤتمر) الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، أوترا براديش
2. مجلة "معارف" الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، أوترا براديش
3. معلومات بلغتني عن العلماء والأساتذة
4. مولانا حبيب ريجان خان ندوي ازهري للبروفيسور محمد حسّان خان، مؤسسة الشيخ محمد عمران خان التعليمية والرفاهية، بوفال، مادهايا براديش
5. وثائق أخذناها من البروفيسور حسان خان، بوفال، مادهايا براديش

## رجال السند والهند إلى القرن السابع، تاريخ علمي وثقافي للسند والهند

- أبو محفوظ الكريم معصومي<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي<sup>2</sup>

قبل بضع سنوات بلغني عن سيد محترم فيما بلغني في أنشطة علمية للمكرم القاضي أبي المعالي أطهر المباركفوري أن القاضي المحترم بدأ عمله برجال السند والهند، ولقد غمرني السرور بهذه البشري لأن موضوع تاريخ السند العلمي والحضاري كفى بنفسه للفت نظر كل كاتب وباحث إليه.

وأكبر عرقلة في دراسة تاريخ السند وشمال الهند قلة المواد ونزارتها لاسيما عن تاريخهما الحضاري والثقافي فإن موادها مبعثرة هنا وهناك فهناك كتب معدودة من مثل چچ نامه وتاج المآثر وطبقات ناصري وبجانب الأبواب الضمنية المتعلقة بفتوح السند لكتب الهند التاريخية، وكذا من جوانب عديدة كتب مثل "آداب الحرب والشجاع" و"لباب الألباب" و"جوامع الحكايات" وغيرها من الكتب مصادر ومراجع أولوية أصلاً عسى أن نضع بها هيكل تاريخهما السياسي ولكننا لا نملك، بالنسبة لتاريخهما العلمي والثقافي، وثيقة مرتبة وموثوقاً بها تصلح أن تثبت معلماً في هذا السبيل.

لا شك في أن ثقافة الإسلام قد قلبت السند رأساً على عقب فأنجبت عدداً كبيراً من الرجال البارزين في هذه المنطقة، لا يقل نصيبهم في بناء وتطوير الثقافة العربية والإسلامية مقابل رواة العلم والأدب لبغداد والقرطبة ولكنه بما أنها دنت من مراكز

<sup>1</sup> أحد أعلام المحققين في الهند

<sup>2</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

الثقافة الإسلامية الأصلية دمشق وبغداد والحرمين الشريفين ولأجل أوضاع سياسية خاصة بقيت مركزيتها في العلم والأدب ملحقة لهذه المراكز العلمية الكبرى فلم يحظ رجالها في داخل حدود وطنهم بما تيسر لهم من الحظوة من فرص إبراز ما تكن صدورهم خارج وطنهم وعلى هذا فيرجع فضل خلود ذكرهم إلى غربتهم وإلا فلن يذكرهم الخطيب وابن النجار من بغداد ولا ذكرهم السمعاني من مرو ولا ترجمهم ابن عساكر من دمشق. ياليت ابن الفرضي أو ابن بشكوال بُعث لرواة العلم والأدب السنديين فأعلا ذكرهم وأعلاه وسأوى هؤلاء الرجال المجهولين من كبار علماء الإسلام، ولما حرمتنا ضياع تراجمهم وسيرهم. هذا من الواقع أن علماء السند الذين قد صانت كتب التراجم والطبقات سيرهم الموجزة صعب علينا أن نلقي الضوء الفاضي على سيرهم وخدماتهم ولو أجهدنا أنفسنا وقلبنا المئات بل الآلاف من صفحات التاريخ.

وعلى كل حال فلا يقدر قطع هذه الأرض القاحلة ذات الأحجار والأشواك ثم صعوبة أداء حق الموضوع والصبر عليها لا يقدرها إلا من وُقِّقَ للبحث والتحقيق فالبحت عما صانته كتب الطبقات والتراجم في بطون صفحاتها من ظلال علماء السند والهند ضمناً أو أصالة. وتدوين تراجم القدماء بعد معرفتهم ذات الشعور بالمسؤولية مثل جمع الضدين فالقاضي أظهر المباركفوري على الرغم من مسؤولياته الصحافية يفقد نظيره في أداء مثل هذه الخدمة العلمية والثقافية الخالصة فخلاصة دراسته المتواصلة في أيدي العلماء والباحثين في صورة كتاب "رجال السند والهند إلى القرن الرابع"<sup>1</sup>. نرجو أن هذا الكتاب سيعتبر إضافة ثمينة في مكتبة الدراسات الإسلامية نظراً لصعوبة الموضوع وذوق كاتبه للبحث والتحقيق.

فهذا الكتب يوقر لنا مجموعة من تراجم وسير جماعة كبرى من محدثي السند والهند ومفسريهما وفقهائهما وأدبائهما وشعرائهما وأطبائهما وغيرهم ممن يجدر بالذكر من رجالهما فيتصدر الكتاب تقاريط منظومة ومنثورة من علماء العالم

---

<sup>1</sup> المطبعة الحجازية، 59 شارع محمد علي، بومباي-3 (الهند)، ذو الحجة 1377هـ/يونيو 1958م

الإسلامي كله فلقد صدق كتابها في الإعراب عن عواطفهم وأخيلتهم وانطباعاتهم عن هذه الخدمة الكبرى للمؤلف، وأما مقدمة المؤلف الطويلة (من الصفحة 11 حتى الصفحة 46) فهي تقدّم تعريفًا مفصلاً لمناطق السند والهند المنجبة بالرجال ومدنهما المهمة تاريخيًا بجانب ذكر موجز لمصادر السند التاريخية والجغرافية القديمة ثم تأتي حصة التراجم والسير من الصفحة 47 حتى الصفحة 309 ويتبعها فهرس الرجال حتى الصفحة 325 وفي النهاية جاء فهرس المصادر والمراجع حتى 328.

وبجانب الاعتراف بالجهد الجهد للمؤلف يجب علينا علميًا وخلقياً أن ندلي برأينا عن القضايا التي تتطلب البحث والتحقيق، ونوضح الشواهد والقرائن راجين أن يعتبر المؤلف ما نقول في الأسطر التالية حديثاً علمياً خالصاً فيتدبر اختلافنا عنه ويتفكر في أسباب الاختلاف فلقد تشبثنا بذيل العلم والتحقيق حتى الوسع في أداء هذه الفريضة علينا.

(1) لقد اعتبر المؤلف السند والهند إقليمين مستقلين على عادة المؤرخين والجغرافيين العرب الأقدمين ولقد كان يتطلبه طريقة البحث المطردة لدينا إلا أنه ضمّ إلى بلاد السند من المناطق ما لن يمكن أن نستشهد على كونها منها بأقوال الجغرافيين العرب الأقدمين. ونفصل حديثنا الموجز هذا كما يلي:

(الألف) اعتبرت باميان منطقة للسند ونقلت تراجم العديد من رجالها في أصل الكتاب فأرى أنه لا يعني هنا انضمام رجال باميان إلى طبقة علماء وحكام السند والهند فيعدها السمعاني ما بين بلخ وغزنة حين بيان نسبة "الباميان" كما يذكر حصونها المنيعة ومعابدها الشامخة وزخرفتها ويسمي الصنم الأحمر والأندي ولا يزيد على بيان السمعاني الجغرافي الشهير ياقوت الحموي في معجم البلدان سوى أن بين بلخ وباميان عشر مراحل وأن بين غزنة وباميان ثماني مراحل وأما بيان "جغرافيه حدود العالم" الكتاب الفارسي المكتوب في القرن الرابع فلا يختلف عما ذكر السمعاني شيئاً فقد ذكرها فيما بين غزنة وخراسان وكذا يضعها ابن الفقيه في "الربع الثالث من خراسان" حين قسمة خراسان المحلية (راجع: الأنساب للسمعاني، ص

63/ب ومعجم البلدان، 48/1 واللباب لابن الأثير، 92/1 وحدود العالم (ترجمة)، ص 109 وكتاب البلدان للفيقيه، ص 321) فربط باميان بالسند خطأً بيئاً.

(الباء) وكذا أرض الداور أو الزمنداور لن تنضم إلى حدود السند طبقاً للبيان الجغرافي الصحيح ولكن المؤلف لم يتردد في ذكر علماء الزمنداور في كتابه هذا وقدم ما كتبه ياقوت فيها في مقدمته فتقع بلاد الداور بين غور ونجد حدود خراسان. (حدود العالم، ص 111). يقول ابن خرداذبة وهو يعدّ مدن سجستان:

"والراجح وبلاد الداور هي مملكة رستم الشديد ملكه كيقاؤس" (المسالك والممالك، ص 50 طبعة 1889م)

ونفس الكلمات أعادها ابن الفيقيه في كتابه (البلدان، ص 208 طبعة 1885م)

وكذا لا يتبين من كلمات ياقوت ربط الداور بالسند تحت كلمة "الداور" بطريقة أو أخرى، وما كتبه في ذكر الصنم المرصع لبلاد الداور من "صنم كان في بلاد الداور من أرض السند" يخالف ما سبق ذكره وما كتبه غيره من الجغرافيين فإن أراد الكاتب أن يستدل ببيان ياقوت هذا الأخير فلا يسوغ له في ضوء أقوال الجغرافيين الموحدة.

(2) لقد أبقى التصحيف السابق في اسم بيرون مدينة السند الشهيرة المختلف فيها فيرى الكاتب أن صحة "بيرون" (بالياء الموحدة) لا يشك فيها فقد أخذه من بيان القلقشندي الذي لا يحوي تحقيق هذا الاسم وضبطه ومن القانون المسعودي للبيروني. لقد طبع القانون على أساس بعض نسخه الخطية فجاء فيه اسم هذه المدينة "نيرون" بالنون ولقد اتفق عليه كافة الباحثين فيذكر البيروني طول هذه المدينة 94 درجة و30 دقيقة بينما عرضها 24 درجة و45 دقيقة من عين ما قد نقله القلقشندي.

وعلى كل حال فنذكر بيرون بالباء في صبح الأعشى تصحيف (القانون المسعودي، 552/2)

والواقع أن هذه الكلمة لم يضبطها أي جغرافي قديم إلا أنها قرئت بالباء (بيرون) في كتب الجغرافيين ففي كتاب المسالك والممالك للأصطخري ذكرت هي بالباء (بيرون) ولكن نسخها الخطية يوجد فيها صور نيرون ونيروز فالصورة الأخيرة هي بالزاء المعجمة بعد الواو، ولم يذكرها البلاذري في فتوح البلدان سوى مرة واحدة فيقرأها المستشرق دخويه بالباء حسب العادة بينما النسخة الأصلية كتبت فيها السرون بدون الإعجام (راجع: فتوح البلدان، ص 437 هامش الكلمة، طبعة أوربا) وأما نسخ ابن حوقل الخطية ففيها البروزق في موضع بينما جاءت "السدود" في موضع آخر ولكن المحقق اختار هذه القراءة (المسالك والممالك، ص 227-230) وقد ضبطت اللوزوز في النسخة الوحيدة لحدود العالم وسنذكر تعليق مينورسكي مترجمها وشارحها الإنجليزي، ولقد اختلفت صورها في نسخ أحسن التقاسيم للمقدسي ونزحة المشتاق في اختراق الآفاق للإديسي وستقدها من الصفحات المذكورة أدناه (المقدسي، ص 477 مع الهامش ووصف الهند وما يجاورها من البلاد (نزهة المشتاق)، 26، 29-30 طبعة 1954 م بعلي كره)

لا يذكر ياقوت بيرون (الباء) في كتابه الضخم للجغرافيين وأما مدى الثقة بقول ابن سعيد المغربي فسندكرها في موضع آخر إن شاء الله فنى أن مدينة السند هذه كانت نيرون (بالنون) كما يذكرها المحققون. (راجع: هوامش جج نامه، ص 256 وغيرها)

(3) لا تتعلق بموضوع رجال السند والهند سوى رجال يصدقون أحد الشرائط التالية:

(الألف) مَنْ مولده ومنشأه منطقة من السند والهند وقد قضى فيها معظم أجزاء حياته ولو أنه توفي في خارج الوطن.

(الباء) مَنْ ثبت انتماؤه إلى السند والهند ولكنه ولد في خارجهما وتوفي بها.

(الجيم) مَنْ هاجر إلى أي منطقة من السند والهند فتوطنها.

ولعل أحدًا لا يختلف عن أي شرط من الشروط السابقة ولكن يبدو فورًا تحليل الكتاب تحليلًا عاجلاً أن الكاتب قد خالف الشرطين الأولين عمدًا فلم يضع أمامه تصميمًا واضحًا للدلائل والقرائن والشواهد المحتاج إليها للدلالة على كون أحدٍ سندي الأصل أو سندي المولد. ولنعلم أن في كتب التراجم والطبقات عددًا كبيرًا ممن اسمه أو كنيته سندي أو هندي، أو أبو السندي أو أبو الهندي ولكن لا شاهد عامة على كونه سندي الأصل فيكفي لدى المؤلف عن كون أحدٍ سندي الأصل أن يمتلك ذلك المرء هذا الاسم أو تلك الكنية فلا تثبت علاقة معظم رجال هذا الكتاب بنفس الموضوع سوى أن بعضهم كان هنديًا أو سنديًا، وكانت كنية بعضهم أبا الهندي أو بعضهم أبا السندي، بعضهم ابن السندي أو بعضهم ابن الهندي. ونودّ أن نوضح فيما يأتي أن ذكر السندي أو الهندي، أبي السندي أو أبي الهندي لا يكفي دليلًا في كل موضع على نسبة أحدٍ إلى السند أو الهند ما لم يصرح مصدر عن نسبته إلى أحدهما أو لا تؤيد نسبته إليها قرائن وشواهد قوية.

ولا ندلي برأينا سوى عن نسبة السندي والهندي والديبلي من بين هذه الكلمات المثيرة الشك وذلك لأنها سيطرت على ذهن وعقل الكاتب.

(الألف) فكلمة السندي بالعربية نسبة إلى السند وراجت كعلم ولقب<sup>1</sup> كليهما فلقد أوضح السمعاني كلا النوعين في كتابه "كتاب الأنساب" فالرجال الذين استخدم لهم السندي كعلم أو لقب لا يلزم لدينا أن يكونوا سنديّ الأصل قطعًا. وعلى كل حال فلا تنس صراحة كتاب الأنساب التالية: "واسم على وزن هذه النسبة وهو السندي بن شاهك صاحب الحرس إلخ" ويوثق ويوضح بيان السمعاني ما جاء في "اللباب في تهذيب الأنساب" لابن الأثير فكلماته صريحة وهي "وفي الأسماء ما يشبه هذه النسبة" ونتعجب من أن المؤلف قد قرأ كلا الكتابين مرارًا كثيرة ولكنه مع ذلك لم يتفكر في

<sup>1</sup> والكاتب ذاته نقل قول الذهبي في ترجمة سهل بن عبدويه الرازي "يلقب السندي (رجال السند، ص 145) ولعله نقل كلمات صاحب العبر (ابن خلدون) في ترجمة أبي معشر نجيج بن عبد الرحمن السندي محيلاً إلى ابن العماد "وكان أبيض أزرق سمعنا قيل له السندي من اللقب بالهند".

هذا البيان المشترك وبالتالي فقد وقع في سوء فهم نكير، وعسى أن يناسب المحل لتعضيد البيان المشترك للسمعاني وابن الأثير أنه لم يتزوج مجرد سندي أو السندي كعلم ولقب بل ذكرت بكثرة أعلام وكثي على وزن المناطق والمواضع الأخرى في كتب التراجم والطبقات ولكن الرجال الذين سمو أو اشتهروا بها لا يثبت أصلهم أو علاقتهم العرقية مع تلك المناطق مثل المكي بن بندار بن المكي بن عاصم أبي عبد الله الزنجاني من رجال تاريخ أصبهان لأبي نعيم (تاريخ أصبهان، 326/2، طبعة أوروبا) فيرجع أصله إلى زنجان فإن اعتبره أحدنا مكياً بناء على شهرة جده وحفيده بالمكي فسيكون أضحوكة وكذا جنيد بن الكوفي بن جنيد من رجال أصبهان (المصدر نفسه، 252/1) فكان أبو جنيد يسمّى كوفياً فلو استنتجنا منه أنه كوفي يثبت عجباً عجباً.

ولو سردنا مثل هذه الأعلام لطال البحث فلا نريد بهذا سوى أن يتفكر الكاتب جيداً في المواضع التي جاء فيها السندي علماً فلو ثبتت نسبة أحد منهم بصراحة المؤرخين أو دلالة القرائن فيصح ذكره في رجال السندي وأما ربط أحد بالسندي لمجرد البناء على الاسم أو العلم وبدون دليل قوي عليها لا يفعل سوى إرضاء هوى صنع السندي ولا يمت إلى البحث بصلة.

(الباء) ونفس الأمر مع الهندي أو أبي الهندي فالهندي لم يكن نسبة فقط بل استخدم كعلم أيضاً فلا يكفي هندي الأصل أن يسمّى بهذا فـ"هند" كانت أحب أسماء العرب وراج لتسمية الذكور والإناث كليهما في العهد الجاهلي وكذا يروج "الهندي" كعلم عربي فلا نحتاج إلى دليل لشهرته ولكن ننقل جملة من لسان العرب لإزالة سوء فهم الكاتب والتي أخذها من كتاب تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري وهي "ومن أسماءهم هندي وهناد ومهند" (لسان العرب، 450/4) وسيظهر فيما بعد أن الكاتب قد زلت قدماء في هذا الأمر كذلك.

(الجيم) السندي والهندي كلمتان لهما درجة مشتركة للعلم والنسبة فعلياً أن نشير هنا إلى أنواع من النسبة تم تصحيفها فتبلي الكتاب مراراً لنسبتها إلى مدن لها أسماء مشتركة أو لأجل تشابهها الخطي فنذكر كمثال نسبة المنصوري

والبوقاني والديبلي فالكلمة الأخيرة "الديبلي" (بتقديم الياء المثناة) جاءت نسبة إلى مدينة السند الديبل (المدال المفتوح والياء المثناة الساكنة والياء الموحدة المضمومة واللام) ولقد فصل الكاتب عن مدينة الديبل (رجال السند والهند، ص 27-28) ولكنه لم يلتفت إلى أن ديبل السند هي بتقديم الياء المثناة كما هي منطقة شهيرة بنفس الاسم بتقديم الياء الموحدة والتي لا علاقة لها ببلاد السند فلم يبرز رجال الحديث والرواية في الديبل مدينة السند فحسب بل مضى محدثون وقراء عدة كانوا منتمين إلى الديبل (بتقديم الياء الموحدة بدلاً من انتمائهم إلى ديبل السند فقد جاء ذكر كلتا النسبتين في مواضعهما في كتاب السمعاني فقد ضبطت نسبة الديبلي (بتقديم الباء الموحدة) من حيث "بتقديم الباء وبفتح الدال وكسر الباء --- هذه النسبة إلى ديبل وهي قرية من قرى الرملة" (الأنساب) وفيما يلي نقدّم تفصيل كلا الموضوعين من المصادر اللغوية والجغرافية فيقول الفيروزبادي صاحب القاموس تحت مادة (دبل) أولاً عن ديبل بتقديم الباء الموحدة على زنة أمير: "موضع بالسند". هذا القول كما صرح عنه الزبيدي شارح القاموس مأخوذ من أبي علي القاري فقال الزبيدي:

"عن الفارسي وأنشد سيبويه:

سيصبح فوقى أقتم الرأس والقفا بقاليقلا أو من وراء ديبل

(تاج العروس، 317/7)

فالفارسي نحوي موثوق به واعترف بإمامته في النحو والعربية ولكن لا يعتنى بأي قول منه في الجغرافيا لاسيما جغرافيا خارج جزيرة العرب ثم يخالفه أقوال كافة الجغرافيين المحققين. وفي هذا البيت أيضاً يشير ذكر قاليقلا مدينة شهيرة بأرمينية أن ديبل تقع على قرب منها فيقول الجغرافي الشهير أبو عبيد البكري الذي يعتبر من أصحاب الطبقة العليا من رجال النحو واللغة عن ديبل على زنة خليل في "معجم ما استعجم" متبرّءاً من قول الفارسي هذا:

"مدينة من الشام معروفة، ودبيل بتقديم الياء موضع آخر يذكر في موضعه".  
(معجم ما استعجم، ص 543 طبعة مصر)

وأما الموضع المؤخر الذكر الدبيل بتقديم الياء المثناة فيقول فيها البكري:

"الدبيل بفتح أوله وبالياء المعجمة بواحدة المضمومة مدينة معروفة في أرض السند  
ويقال لها أيضاً الديبلان. أنشد أبو عمرو عن ثعلب عن ابن الأعرابي:

كأن ذراعاه المشكول منه سليل من رجال الديبلان

(معجم ما استعجم، ص 569 طبعة مصر)

يشير هذا البيان إلى شيء جديد وهو أن دبيل السند كانت تسمى "الديبلان" كذلك  
ولكني أرى أنه من معطيات الشعر فقد اعتاد العرب على استخدام العديد من  
مناطق جزيرة العرب مثناة وعلى هذا فسماها القائل بالديبلين. وأما قول الفارسي  
فيبدو ضعفه من صراحة الفيروزبادي ذاتها وهي:

"ودبيل بضم الباء الموحدة وبسكون الباء المثناة التحتية والبدال مفتوحة ويقال  
الديبلان على التثنية".

وفي تعريف هذه الدبيل نقل العلامة الزبيدي رأي الصغاني التالي:

"قصبة بلاد السند التي تدفأ إليها السفن. قال الصاغاني أهلها صلحاء وأمرؤها  
طلحاء قديماً وحديثاً يشاركون قطاع طريق سفن البحر ويضربون معهم بسهم" (تاج  
العروس، 317/7)

فكان شر أمراء الدبيل وتعاضدهم مع القراصنة بقيا حتى عصر الصغاني، والسبب  
القوي من بين أسباب فتوح السند كان شر تلك القراصنة فيتجلى من كلتا الجملتين لتاج  
العروس أن الدلالة على "دبيل" (بتقديم الباء الموحدة) هي ما أجاءها القاري فحسب ولم  
يكن يقف عليها الصغاني فإن كان مكان في السند يسمى بهذا الاسم لعلمه الصغاني البتة  
فعدم معرفة الصغاني بها يكفيننا راداً على قول الفارسي وكذا أعربنا عن وقوع التصحيف  
في أسماء دبيل الشام ودبيل السند في قول البكري المذكور أعلاه فلنقم بالبحث

والتحقيق حيث نجد نسبة الديبلي هل هذه النسبة لديبل السند أو ديبل الشام وذلك أن هذه النسبة تم تصحيحها في المخطوطات والمطبوعات بتصريف قليل في الأسماء فلقد ذكر ياقوت تحت كلمة "الديبل" مواضع عديدة صغيرة وكبيرة في داخل جزيرة العرب وخارجها ولنعلم على الأخص ديبل أرمينية وديبل الرملة (الشام) (ياقوت: معجم البلدان، 549/2، ابن الثقفة، ص 287) عسى أن لا يشرك خطأ في تاريخنا العلمي والثقافي علماء الديبل غير ديبلنا وكذا يذكر ابن خرداذبة كور ديبل من مواضع أرمينية الثالثة (المسالك، ص 122) وقد نقلت كلماته هذه في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر. (نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص 246 وغيرها)

وبعد نقاط البحث الأصلية هذه نقوم بتحليل مفصلٍ نسبياً لحصة الكتاب الخاصة بالتراجم. نقسم هذا التفصيل كما يلي:

1. ذكر تراجم من سمي بالسندي أو لقب به
2. ذكر تراجم من كني بأبي الهندي أو أبي السندي
3. ذكر تراجم لعدم معرفة نسبة مصحفة أو نسبة مشتركة
4. ذكر تراجم على توسيع حدود السند الجغرافية خلاف ما حدده الجغرافيون العرب أو على الاعتراف ببيان جغرافي لا يؤيده التحقيق
5. تراجم لم يؤف حق البحث والتحقيق فيها
6. إشارة إلى تراجم يجب ذكرها في الكتاب طبق نظرية كاتبه
7. تراجم يقتضي ذكرها الموضوع
8. أخطاء ضمنية في الكتاب ارتكبتها الكاتب في تحقيقه أو نقله أو طبع الكتاب.

ولقد بين الكاتب نظريته عن القسم الأول فالجزء الكبير من الكتاب يحويه تراجم يصعب علينا ربطها بموضوع رجال السند والهند ولا نخوض في مناقشة كل ترجمة بل نقدّم فهرساً لها ثم نشير إلى أمور واجبة:

## مجلة الهند

الرقم المسلسل	الترجمة	صفحة رجال السند والهند
1.	أحمد بن السندي بن حسن بن بحر الحدّاد	54-47
2.	أحمد بن السندي بن فروغ المطرز البغدادي	54
3.	أحمد بن السندي الباغي الرازي	56-55
4.	ابن الهندي- أحمد بن سعيد بن إبراهيم المالكي الهمذاني	275—56
5.	ابن السندي- أحمد بن القاسم بن سيما أبو بكر البيّع البغدادي	57
6.	إبراهيم بن علي بن السندي	69-68
7.	إبراهيم بن السندي بن شاهك	75-70
8.	إبراهيم بن عبد السلام ابن أخي السندي بن شاهك	76
9.	إبراهيم بن عبد الله بن أخي السندي بن شاهك	76
10.	إسماعيل بن محمد بن رجاء السندي	82-81
11.	رجاء بن السندي النيسابوري أبو محمد	128
12.	السندي بن شاهك	143-139
13.	سندي بن شماس البصري	144
14.	سندي بن صدقة الشاعر	143

146-144	سندي بن عبدويه الكلبي الرازي	.15
152-151	سهل بن عبد الرحمن	.16
152-151	سهل بن عبدويه	.17
148-146	سندي بن علي الوراق البغدادي	.18
150-148	السندي بن يحيى الحرشي	.19
153-152	أبو السندي- سهل بن ذكوان المكي الواسطي	.20
198-194	كشاجم بن الحسن بن شاهك (السندي)	.21
198-194	محمد بن الحسن بن سندي بن شاهك	.22
218-217	محمد بن رجاء السندي	.23
237-236	محمد بن محمد بن رجاء السندي	.24
252-250	موسى بن السندي الجرجاني	.25
258	ابن السندي- نصر الله بن أحمد القاسم بن سيما	.26

فتجد في هذا الفهرست الذي ليس بنهائي أن السندي أو الهندي استخدم في كل ترجمة كعلم أو لقب، ويمكننا أن نقول بكل وثوق إنما وقّره الكاتب من المواد في تعريف هذه الشخصيات تخلص من الصراحة بأن أصولهم سنديّة. ولقد استخدم المؤلف في ترجمة هؤلاء الشخصيات أشهر كتب المكتبة الإسلامية من مثل تاريخ بغداد وكتاب الأنساب للسمعاني وحلية الأولياء وشذرات الذهب، ولكن أصحاب هذه المؤلفات لم يعتبروهم ذوي أصل سندي والحال أنه لو نظرتهم على كتب الطبقات فتجدون أن هؤلاء المؤلفين عادة يصرحون عن ينحدر من السند ولا يعتبر أحد سندياً لمجرد اسم أو لقب فتجد العديد من رجال هذا الفهرست (الأرقام: 7 و8 و9 و19) أفراد من سندي بن شاهك بينما العديد الآخرون (الأرقام: 10 و20 و21) أفراد

من رجاء بن السندي النيسابوري. فإن علمنا عن نسبة سندي بن شاهك ورجاء بن السندي فسهل لنا العلم عن نسة هؤلاء الرجال فسندي بن شاهك ورجاء بن السندي شخصيتان لهما صيت ذائع وسمعة حسنة في التاريخ وفن الرجال. وبالرغم من ذلك لم نجد من صرح عن نسبتهم السندي بل تقتضي أقوال السمعاني وابن ماکولا أن لا ينسبا إلى بلاد السند. فيقول السمعاني "واسم على وزن هذه النسبة وهو السندي بن شاهك صاحب الحرس قال ابن ماکولا وكذلك رجاء بن السندي ومن ولده أبو بكر محمد إلخ" (الأنساب، ص 313/ب)

وملخص القول أن ابن شاهك ووالد رجاء النيسابوري كانا قد سميا سنديين ولم يكونا منتميين إلى بلاد السند ثم أطلقت كلمة "السندي" على أبنائهما لمجرد نسبتهم إليهم فقد صرح السمعاني في ترجمة كشاجم "يقال له السندي لأنه من ولد السندي بن شاهك" (الأنساب، ص 314/ظ) وقد بلغنا أن بعض الكتاب الموثوق بهم قد اعتبروا رجاء بن السندي سنديًا ولكنهم لم يستدلوا على قولهم.

ونقول عن القسم الثاني أن الكاتب قد ضمّ سهل بن ذكوان المكي الواسطي إلى رجال السند لكنيته "أبو السندي" ولا نجد غير هذا حتى أضعف قول روي في انتمائه إلى السند. وأما ترجمته الكاملة فيراجع لها الكتاب (ص 152-153 و275) فليحكم القارئ حتى متى يصح اعتباره سنديًا لمجرد كنيته.

لقد ذكر الكاتب ثلاثة رجال كنيتهم أبو الهندي ومنهم اثنان من رواة الحديث، ومن العجيب أنهما من المجاهيل فقد نقل المؤلف ذاته قول الذهبي عنهما: "لا يعرف" (راجع: رجال السند، ص 286-287) والثالث منهم هو أبو الهندي الكوفي الشاعر (رجال السند، ص 287-288). نقلت ترجمته من كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ونجد بيتين من منظومة الشاعر:

ولما حللنا رأسه من رباطه      وفاض دمًا كالمسك أو عنبر الهند  
أخو قوة يبدي لنا وجهه صفحة      كلون رقيق الجلد من ولد السند

وبجانب كنية الشاعر يحتوي بيتاه كلمتين (عبر الهند) و(ولد الهند) استدل بهما الكاتب على كونه سنيًا فقال في نهاية ترجمته: "كان الهندي من الشعراء المجيدين المشهورين يأتي بذكر وطنه وصفاته في أشعاره وكان من القدماء" (رجال السند، ص 288)

نتأسف كيف عدّ أبو الهندي من رجال السند والهند على دليل ضعيف للغاية والواقع أن أبا الهندي كان عربيًا بحثًا ولو أنه عاش طول حياته في خراسان وسجستان وكان كغريب في وطنه. اعتبره المؤرخون ممن سبق شعراء الخمر المشاهير الخليل وأبا هفان وأبا نواس، وقد ذكر ابن قتيبة ترجمة موجزةً كعادته في كتابه "الشعر والشعراء" وسمّاه عبد القدوس بن شيبث بن الربيعي وأما قبيلته فهي بنو زيد بن رياح بن يربوع وما نقله ابن فضل الله من قصيدته الدالية نقل منها بيتين ابن قتيبة (الشعر والشعراء، ص 262 طبعة مصر). توجد ترجمة أبي الهندي المفصلة في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (راجع: المجلد: 21 والصفحات: 177-180). يذكر الأصبهاني اسمه غالب بن عبد القدوس ابن شيبث بن الربيعي. لم نجد في الأغاني شيئًا ينم عن انحداره من السند دعه يصرح عنها. إنه يعتبر من شعراء الدولتين. كان حيًا حتى العهد العباسي، وكان مشغوفًا بشرب الخمر حتى قال الأصبهاني:

"--- وإنما أخمله وأمات ذكره، بعده من بلاد العرب ومقامه بسجستان وخراسان وشغفه بالشراب ومعاقرة إياه وفسقه وما كأنه يتسلم يده من فساد الدين واستفرغ شعره بصفة الخمر وهو أول من وصفها من شعراء الإسلام فجعل وصفها وكده وقصده إلخ" (الأغاني، 177/21)

وستجد خمسة أبيات للقصيدة الدالية لمسالك الأبصار في الأغاني (178/21) كما توجد تسعة أبياتها لدى ابن المعتز (طبقات الشعراء المحدثين، ص 59) ولقد فصلت قصة إدمانه شرب الخمر في كلا الكتابين. يسمّيه ابن المعتز عبد الله بن الربيعي بن شيبث بن الربيعي الرياحي ثم يقول: "وتين اسمه غالب بن بني رياح بن يربوع بن حنظلة" وكذا يسمّيه أبو منصور الجمالي في شرح أدب الكاتب عبد الله بن شيبث (شرح أدب الكاتب، ص 232 طبعة مصر) ويقول ابن المعتز عن عدم ارتباطه ببلاد العرب:

"وقع إلى خراسان واستوى آخر عمره بسجستان وهو أحد الدهاة، فصيح، جيد البلد حاضر الحوب وقد أدرك الدولتين إلخ" (طبقات، ص 58)

ويقول عن تقدمه في ذكر الخمر:

"وكانوا جماعة مثل أبي نواس والخليل وأبي هفان وطبعهم أنما اقتدورا على وصف الخمر بما رأوا من شعر أبي الهندي وبما استنبطوا من معاني شعره" (طبقات، ص 61)

أقام بسكة الخسران في سجستان والتي سميت في زمن ابن المعتز بسكة العدول (طبقات، ص 58) ويسمى أبو الفرج الأصبهاني بجبل الخسران (الأغاني، 178/21) ويسمى ابن السيد البطليوس وابن منظور الإفريقي والزبيدي أبا الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس (الاقضاب، ص 348، لسان العرب، 75/2، تاج العروس: مادة عرب)

ولدينا قول ابن المعتز أوثق قول.

ولا شك في كون أبي الهندي عربياً قحاً ونستدل فيما يلي بيتين له:

مثبت جدي وجدي مؤثر      لم ينازعي عروق المرتشب  
من بني شيبان أصلي ثابت      وبني يربوع فرسان العرب  
(طبقات ابن المعتز، ص 61)

فلعله ورد أي منطقة من السند لأجل إدمانه شرب الخمر ولا نؤمن بأكثر من ذلك ولعل هذا هو السبب في ذكر كلمات هندية خالصة وهو أول من عرب "بهات" بـ"هبط" فقد ذكر ابن منظور والزبيدي منظومته تحت المادة (العرب) وهي تستهل بما يلي:

فأما الهبط وحيثانكم      فما زلت منها كثير السقم

ولكن هذا البيت قد عزي إلى شاعر أشجعي مجهول تحت كلمة "الهبط". وعلى كل حال فلن يمكن أن ينسب أبو الهندي إلى الهند كما يبديه التفاصيل المذكورة أعلاه فلو كان الأمر مع هذه الشخصية المشهورة فكيف يمكن لنا أن نؤمن بسندية أو هندية رواة الحديث المجاهيل الذين اشتهروا بالهندي أو السندي؟

ونود أن نناقش بالتفصيل عن تراجم عدة في القسم الثالث فقد ذكرنا في الأسطر السابقة أن الكاتب زعم العديد من الرجال سنديين وهم من ديبيل (بتقديم الباء) لالتباسه في ديبيل السند ونفصّل ما قلنا فيما يلي:

(الألف) أحمد بن محمد هارون المقرئ الديبلي الرازي البغدادي (رجال السند، ص 62)

ذكر الكاتب مقتبسين من الخطيب البغدادي وابن الجزري ولكنهما لا يضبطان نسبة الديبلي إلا أنها ثبتت بعد التحقيق أنها الديبلي (بتقديم الباء الموحدة) أي ينحدر صاحب الترجمة إلى ديبيل الرملة لا إلى ديبيل السند فينسبه الفيروزابادي إلى ديبيل الرملة (القاموس، المادة: دبل) ويوثقه مرتضى الزبيدي من كلمات الخطيب البغدادي: الرازي الديبلي المقرئ الحربي قال الخطيب: مات سنة 380هـ" (تاج العروس، 317/7)

فيبقى أحمد بن محمد بن هارون المقرئ الديبلي (؟) الرازي أبو بكر الحربي الذي ذكره الخطيب يبقى غريبًا في طبقات رجال السند والهند وليحكم الكاتب نفسه ولكنه ليس وحيدًا في الوقوع في سوء الفهم هذا فقد سبقه باحث آخر في هذا (راجع: India's Contribution to the Study of Hadith Literature، ص 35 طبعة داكه)

(الباء) شعيب بن محمد أبو القاسم الديبلي المصري (رجال السند، ص 157)

ولو أن الكاتب ليس مسؤولًا عن هذه الترجمة ولكنه زلّت قدماه لثقتة بالسمعاني بدون البحث والتحقيق فقد جاء ذكره تحت النسبة إلى ديبيل السند في كتاب الأنساب للسمعاني والحال أنه قد فصلّ السمعاني ترجمته تحت النسبة إلى ديبيل الرملة. فيقول تحت نسبته إلى ديبيل الرملة:

"أبو القاسم شعيب بن محمد بن أحمد بن شعيب (رجال السند: سعيد؟) بن بزيع بن سيار (ديبيل السند: سوار) البزاز (ديبيل السند: لم يذكر هذا) الديبلي العبدي الفقيه المعروف بابن أبي قطران (الديبلي: قطعان) قدم أصهبان سنة خمس وثلاث مائة وأنا عنخ عبدان، يروي عن أبي زهير أزهر بن المرزبان المقرئ" (الأنساب، ص 222/ص)

فإن تقم بدراسة مقارنة لكتابات السمعاني في كلا الموضوعين تجد شخصية واحدة تحتهما من حيث أن ما جاء من التفصيل تحت الديبلي (دبيل الرملة) قد حذف تحت الديبلي (دبيل السند) كما يوجد بعض التصحيف في النسخ في كلا الموضوعين فيبدو أن السمعاني قد اعتراه شك في نسبة الشخصية يزول بعد الرجوع إلى المحققين المتأخرين فاللباب لابن الأثير الذي هو تهذيب وتقسيم كتاب الأنساب للسمعاني لا يذكر أبا القاسم شعيب بن محمد تحت النسبة إلى دبيل السند، ونفس الأمر مع ياقوت فيذكران أبا القاسم شعيب تحت دبيل الرملة (راجع: اللباب، 437/1 ومعجم البلدان، 549/2) ويقول الحافظ عبد الغني الأزدي (ت 409هـ) المعروف في تحقيق النسب المشكوك فيها في "باب الديبلي والديبلي":

"فأما الديبلي بتقديم الباء المتعجمة نبقتين من تحتها فهو --- وشعيب بن محمد بن أبي قطران الديبلي" (مشتبه النسبة، ص 29 طبعة الله آباد، سنة 1327هـ)

جاءت ترجمة شعيب في تاريخ أصبهان كما دلّ عليها السمعاني (راجع: 344-345) لقد شكّا الكاتب أنه لم يجد ترجمة شعيب مفصلة ولعل هذه الشكوى جاءت على أنه ركّز على مكان والحال أن السمعاني ذاته قد فصلها، وأما المزيد عنها فتفيدنا المصادر المذكورة أعلاه. ولقد سبق المؤلف السيد<sup>1</sup> سغهاحب والدكتور محمد إسحاق في نسبهما أبا القاسم شعيبًا إلى دبيل السند في ضوء حديث وحيد للسمعاني.

(الجيم) محمد بن عبد الله الديبلي الشامي، أبو عبد الله الزاهد (رجال السند، ص 224-225)

لهذه الترجمة ثلاثة مصادر: صفة الصلوة وغاية النهاية وطبقات الشافعية. لم يضبط في أي منها نسبة الديبلي ولا ألحق أي مؤرخ نسبة الهندي إليه كيلا يشتبه الأمر فقد التبس على المؤلف أنه ظن نسبة الديبلي إلى الديبلي ونتيقن أن هذه النسبة

<sup>1</sup> لينظر: مجلة "معارف" الشهرية، 220/24 وأيضًا India's Contribution to the Study of Hadith، ص 35

إلى ديبيل الرملة ويؤيدها نسبة الشامي. ويفصل عن الأمر قطعاً حديث السمعاني فهو يقول تحت الديبيلي (بتقديم الباء الموحدة):

"وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الديبيلي كان من مجردي القراء إلخ" (الأنساب، ص 22/ب)

فيذكر ابن الجوزي وابن الجزري وابن السبكي ترجمة هذه الشخصية (محمد بن عبد الله الديبيلي) التي ذكرها السمعاني، وزدّ عليها أن نسبة الديبيلي صحيحة بالضبط في طبقات ابن السبكي ولكن المؤلف قد غلبه عاطفة "التهنيد" وسيوضّح دعوانا هذه ما يلي من التفصيل.

(الدال) علي بن أحمد بن محمد الديبيلي (رجال السند، ص 174-176)

فالترجمة كلها مأخوذة من طبقات الشافعية لابن السبكي ولم نشعر بالحاجة إلى الشعور بالمصدر فقد كفانا التفكير فيما ذكره الكاتب فاقتباسات السبكي التي ذكرها المؤلف يبدو منها مبدءان عن نسبة علي بن أحمد الوطنية:

أ. كان علي بن أحمد معروفاً بنسبة "الزبيلي" فضبط ابن السبكي نسبته بالكلمات التالية: الزبيلي بفتح الزاي ثم باء موحدة مكسورة".

ب. قد شكّ بعض الناس في هذه النسبة وكانوا يرون أن الزبيلي تصحيف الديبيلي فقد ضبط ابن السبكي نسبته "الديبيلي" هذه فقال:

"لعله الديبيلي بفتح الدال وبعدها باء موحدة مكسورة ثم آخر الحروف ياء ساكنة".

فكلا الحديثين يبدي ميل ابن السبكي إلى أن نسبة علي بن أحمد الصحيحة لعلها الديبيلي واشتهرت الزبيلي خطأ. وفي تعضيد ميله هذا أحال إلى نسخة من كتاب علي بن أحمد كتب على لوحها "إنه سبط المقرئ" أي أن علي بن أحمد صاحب هذا الكتاب كان حفيد مقرئ هذه المنطقة. ولعل هذه الكلمات تثبت لغزاً فيكتب أنه قد اشتهر إمامان للقراءة في هذه المنطقة وهما أبو عبد الله الديبيلي (بتقديم الباء) الذي كان يسمّى مقرئ الشام وثانتهما أحمد بن محمد بن الرازي (لقد مضى حديثنا عن تراجعهما تحت الألف والجيم) وكلاهما من رجال القرن الثالث فالرجل الذي يمكن

أن يكون حفيده علي بن أحمد هو أبو عبد الله الدبيلي (بتقديم الباء الموحدة) كما يرى ابن السبكي.

لا حاجة لنا إلى أن نخوض في البحث عن الرجل الذي كان علي بن أحمد حفيده فالبحث هو مدى صحة إلحاق علي بن أحمد إلى ديبيل السند وقد ثبت من حديث ابن السبكي المذكور أعلاه أن علي بن أحمد كان مشهورًا بالزبيلي ولكن البعض لم يروها صحيحة فكانوا يرونها "الدبيلي" ولقد ضبط ابن السبكي كلتا النسبتين (الزبيلي) و(الدبيلي) فلن تصح نسبة علي بن أحمد إلى ديبيل السند ولكن الكاتب يحيط به عاطفة بحثه هذا من حيث لم يعتن بما ضبطه وحققه ابن السبكي فأصلح في كل موضع ذكر اقتباسه الزبيلي والدبيلي (بتقديم الباء الموحدة) فذكر بين القوسين الدبيلي (بتقديم الباء المثناة) حتى كتب في النهاية متيقنًا ومطمئنًا ما يلي:

"كان علي بن أحمد الدبيلي من رجال المائة الثالثة وما هو زبيلي ولا دبيلي بل هو دبيلي وكان جده أبو عبد الله محمد بن عبد الله المقرئ من الديبل" (رجال السند، ص 176) ولا مجال للكلام! فلقد أحلنا إلى السمعاني (تحت الجيم) عن أبي عبد الله محمد بن عبد المقرئ وقد مضى حديثه عن نسبة علي بن أحمد الزبيلي والدبيلي ولقد أخذنا من اقتباس المؤلف ذاته إلا أننا نودّ أن نقول شيئًا في هذا الشأن بأنما ذكره حاجي خليفة في كتابه من الرتبلي (بالراء ثم التاء) عن علي بن أحمد هو تصحيح النسخة فيغلب الظن أنه لما أحال حاجي خليفة إلى ابن السبكي قام بتصحيح ضبط هذه النسبة بقلمه (أي الزبيلي بالزائ) ثم جاء الناسخون فنسخوها بالرتبلي. ونرى أنما يلي من التراجم يجب تحقيقها وذلك فإنه لو قمنا بالتحقيق لثبت أنهم من ديبيل الرملة:

- (1) أحمد بن محمد الحافظ الزاهد الدبيلي المصري (رجال السند، ص 58-59)
- (2) أحمد بن نصر بن الحسين القاضي الدبيلي الموصلبي الأنباري (رجال السند، ص 65)
- (3) الحسن بن حامد الدبيلي البغدادي (رجال السند، ص 96-98)

(4) الحسين بن محمد بن أسد الديبليي الدمشقي (رجال السند، ص 105-106)

(5) محمد بن الحسين بن محمد الديبليي الشامي (رجال السند، ص 216)

(الهاء) وهناك نسبة مصحفة وهي اليوقاني والتبس فيها المؤلف. لا شك أن يوقان منطقة شهيرة للسند وهناك مناطق أخرى تشبهها خارج الهند والتي نسب إليها العديد من المحدثين ورواة العلم فيسهل أن يتم تصحيف هذه الأسماء المتشابهة فالثقة بنسبة اليوقاني في كل موضع بدون بحث ولا تحقيق عسى أن توقع الكاتب في الأخطاء. وقد ذكر الكاتب ترجمة فضل الله بن محمد أبي المكارم البوقاني السندي (رجال السند، ص 193) وأحال إلى تذكرة الحفاظ للذهبي، وذكر الذهبي فضل الله ضمن ترجمة البغوي صاحب المصابيح فنقل الكاتب ما يلي من كلماته:

"--- وأخر من روى عنه بالإجازة أبو المكارم فضل الله بن محمد البوقاني شيخ حيّ إلى حدود الست مائة".

فقد أضاف الكاتب، حسب عادته، نسبة السندي والحال أن جملة الذهبي تخلو من هذه النسبة فقد ذكر تذكرة الحفاظ نسبة البوقاني بدون ضبط ولا تحقيق. وأما مدى تصحيف وتحريف طبعة تذكرة الحفاظ فلا يخفى على أحد من العلماء والباحثين فلقد أعرب القزويني عن أسفه على هذا في غير موضع من كتابه. وعلى كل حال فلدينا ما صرح به الذهبي عن أبي المكارم فضل الله والذي يحقق نسبته البوقاني (بالباء الموحدة) فيحقق عن تلك النسب المتشبهة في موضع واحد في كتابه "كتاب المشتبه في أسماء الرجال" ويقول: "البوقاني، النوقاني، النواقاني، النواقاتي"، إنه لا يذكر بوقان السند ثم يقول: النوقاني بنونين الأولى مفتوحة" (فالنون الأولى مفهومة لدى ياقوت) ثم يقول: "فوقان هي قصبه طوس" ومحصياً كل من انتسب إليها يذكر ترجمة فضل الله أبي المكارم بالكلمات التالية:

"--- أبو المكارم، فضل الله بن الحافظ محمد بن أحمد بن النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى، سمع عبد الجبار النخواري، وله إجازة من محيي السنة البغوي كتب

عنه أبو الرشيد الغزّال، مات بنوقان سنة 60، ولد 86 سنة" (كتاب المشتبه، ص 33  
طبعة ليدن، 1863م)

عثرنا على نسبة أبي المكارم فضل الله الصحيحة بعد هذه الصراحة وتثبت نسبته إلى  
بوقان السند المبنية على نسبة تذكرة الحفاظ غير المضبوطة. ولقد ضمّ المؤلف إلى  
الكتاب ما يلي من التراجم بدون تحقيق ولمجرد نسبتها "البوقاني". ونوجس في أنفسنا  
خيفة أنه لو قمنا بتحقيقها لتقلب الأمر من ظهر إلى بطن. وتلك التراجم هي:

(1) محمد بن أحمد بن محمد البوقاني (رجال السند، ص 206)

(2) محمد بن أحمد منصور البوقاني (رجال السند، ص 206)

(3) محمد بن أسعد البوقاني (رجال السند، ص 206)

(الواو) ولقد أضلّ المؤلفَ عدمُ معرفته عن المناطق المتشابهة الاسم فهو يرى أن  
نسبة "المنصوري" لا تكون سوى إلى منصور السند فإنه لا يعلم أن هناك بلادًا  
تسمّى بهذا الاسم فالحاق كل منصوري إلى هذه المنصورة غلط محض فهناك مدن  
عديدة في خوارزم وأرمينية وطبرستان دون السند تسمّت بهذا الاسم ويمكن تصديق  
ما ادّعينا بمراجعة كتب الجغرافيا (راجع: ابن خرداذبة، ص 122، قدام كتاب  
الخراج، ص 227 وابن الفقيه الهمداني، ص 314 ومعجم البلدان لياقوت وغيرها)

ذكر الكاتب ترجمة أحمد بن محمد أبي بكر الفقيه المنصوري البكر آبادي أخذًا من  
كتاب تاريخ جرجان لحمزة بن يوسف السهبي (رجال السند، ص 58) ولا تحتوي هذه  
الترجمة الموجزة بداخلها على أي قرينة تنم عن سندية البكر آبادي ولكن الشيء  
الواضح للغاية هو نسبة المنصوري البكر آبادي فالمعلوم المحقق عن بكر آباد أنها  
موضع من طبرستان فلم لا ترجع نسبة المنصوري إلى منصور طبرستان؟ وإن خالفنا  
ذلك فلا نفعل سوى تضخيم الكتاب ولا يفيد هذا العلم والتحقيق.

ومما يجدر بالذكر عن البكر آبادي أن كتاب الأنساب للسمعاني يحدّد لنا الصورة  
الصحيحة للكلمة وهي البكر آبادي (بالزاء المعجمة) فكلماته كما يلي:

"بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون الكاف وفتح الزاي المعجمة بواحدة وفي آخرها الذال المعجمة، هذه النسبة محلّة معروفة بجرجان ---".

وأما ياقوت الحموي فلم يضبط هذه الكلمة (راجع: معجم البلدان، ص 705)

(4) ولقد مضى بحثنا المنهجي عن القسم الرابع مما يخرج تراجم علماء بلاد الداور وباميان من موضوع الكتاب، وهذه التراجم هي:

(1) الحسن بن علي الداوري (رجال السند، ص 104)

(2) عبد الله بن محمد الداوري (رجال السند، ص 168)

(3) أحمد بن الحسين بن علي الباميان (رجال السند، ص 177)

ونودّ أن نفصّل شيئاً عن هذه التراجم:

فأولاً تقع نظرنا على ما يلي من حديث الحافظ عبد الغني الأزدي التالي:

"ومما يخاف تصحيفه الذي يشتبه بأحمد فهو أحمد بن الحسين الباميان، خراساني، وهو بالياء المعجمة من بنقطتين بعد الحاء المهملة (المؤتلف والمختلف، ص 4، طبعة حيدرآباد، 1327هـ)

وبجانب صحيح ضبط هذا الكتاب فبدا منه أن الحافظ عبد الغني الأزدي لا يعتبر أحمد بن الحسين الباميان سنيّاً خلاف هذا المؤلف بل يعتبره خراسانيّاً وهذا هو الحق.

وثانيّاً لم يجد الكاتب هذه الترجمة إلا في معجم البلدان لياقوت الحموي فنقلها قائلاً: "لم أقف على أحواله غير ذلك وكان من قدماء المحدثين".

نتعجب من أنه لم يراجع كتاب الأنساب للسمعاني وإلا فوقف على أشياء مفيدة للغاية لم يذكرها ياقوت فننقل فيما يلي المختار من جمل السمعاني كي يشبع غليل الكاتب التحقيقي:

"--- سكن بلخ وروى عن المكي بن إبراهيم وعلي بن الحسن الرازي المعروف بكراع ويزيد بن إبراهيم والليث بن مساور وغيرهم من البلخيين، روى عنه محمد بن أحمد

يحيى وعبد الله بن محمد بن طرخان وهو مستقيم الحديث من الثقافات" (الأنساب، ص 63/ب)

فقد حذف ياقوت إقامته ببلخ، وروايته، وأسماء تلاميذه، واستقامة روايته. ولعل السبب في ذلك أن ياقوت لم يأخذ من كتاب الأنساب مباشرة بل قد ذكر جمل "اللباب في تهذيب الأنساب".

(5) محمد بن علي بن أحمد أبو بكر الباميانى (رجال السند، 231) مأخذ هذه الترجمة معجم البلدان لياقوت الحموي فقد جاء في كتاب الأنساب للسمعاني ما يلي:

"وأبو بكر محمد بن علي بن أحمد الباميانى، شيخ مكثّر، ثقة، رحل إلى ابن أبي الحديد السلمي و(سمع) أبا بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ، وغيرهم. روى لنا عنه أبو الفتح محمد بن أبي الحسن البسطامي ببلخ، وأبو شجاع عمر بن محمد بن عبد الله الإمام بعسقلان وتوفي في حدود سنة تسعين وأربعمائة ببلخ" (الأنساب، ص 63/ب)

ذكر الكاتب أنه توفي سنة 390هـ محيلاً إلى ياقوت، ولكن حديث السمعاني يقوم بتصحيحه. وكذا جاء في الجمل المنقولة من ياقوت كلمات "في سلخ رجب" ونرى أن "سلخ" تصحيف "بلخ" وأما السمعاني فلم يصرح عن الشهر إلا أنه جاء في اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير كلمات "في رجب ببلخ" ويبدو أن صراحة الشهر بنيت على نسخة صحيحة وموثوق بها للسمعاني قد كانت بيدي ابن الأثير (اللباب، 92/1) ولقد أخذ ياقوت من اللباب في تهذيب الأنساب مباشرة. يؤيد ذلك دراسة مقارنة لكليهما.

(6) ومن أجزاء دعوانا عن القسم الرابع أن المؤلف قد ذكر في كتابه رجالاً لا يمتون بالموضوع صلة بناءً على بيانات جغرافية غير محققة، وسيكفيها تصديق هذه الدعوى ترجمة محمد بن أحمد البيروني السندي الخوارزمي (رجال السند، ص 207) وأما اعتبار أبي الريحان سندياً فهو يبني على تحقق منطقة البيرون للسند. اقتبس المؤلف من معجم الأدباء وطبقات الأطباء (لابن أبي أصيبعة) وتقويم البلدان (لأبي الفداء) وتاريخ آداب اللغة العربية. ولأجل إثبات أبي الريحان

البيروني اعرف بالبيرون (بالباء) في مبحث الكتاب الجغرافي. ولقد تحدّثنا عن هذه القضية قليلاً في البداية ولا شك أن ابن سعيد المغربي ينسب من لدنه أبا الريحان إلى البيرون مدينة السند ولا نجد قولاً آخر غير ابن سعيد يثبت أن هناك موضعاً في السند بهذا الاسم وأما أبو الفداء وابن أبي أصيبعة فقد أعادا ما قال ابن سعيد بدون تحقيق. ويذهب مذهبه كاتب تاريخ آداب اللغة العربية ولكن قول ابن سعيد لا يقبل لأسباب تالية:

(1) لا يعلم المحققون الجغرافيون عن أي موضع بالسند باسم "بيرون" سوى عن طريقة ابن سعيد فمن رجّح هذا القول فقد تأثر بتفرد ابن سعيد هذا.

(2) المؤرخ والجغرافي الشهير ياقوت الذي هو أعلم بالبيروني والسند من ابن سعيد لا يذكر بيرون السند في جغرافياه "معجم البلدان" ولكنه يذكر نيروز مدينة بالسند تحت حرف النون بصرف النظر عن أن آخر حرف معجم البلدان هو الزاء المعجمة. والمتحقق أن في السند مدينة تسمى نيروز أو نيرون ذكر ياقوت موقعها الجغرافي وطولها وعرضها (معجم البلدان، 4/856) فذكر ترجمة مفصلة للبيروني في كتابه معجم الأدباء وحقّق هذه النسبة ولكنه صامت تماماً عن نسبته إلى أي مدينة اسمها بيرون. والحال أنما كان يطويه ياقوت من دافع قوي على البحث عن البيروني بادٍ تماماً، وزدّ عليه تمتعه من الفرصة لجمع المعلومات الموثوق بها وعلى هذا فقد قرأ ياقوت أهم مؤلفات البيروني لاسيما عن الجغرافيا والتاريخ بما فيها ما كان بخط المؤلف ولقد علّق منيورسكي على قول ابن سعيد في "شرح حدود العالم" وقال في نهايته:

"---- and generally speaking the thirteen century Spanish geographer was hardly in a position to improve the reading of a doubtful Indian name".

(Hududul Alam, P: 372, 1937)

ترجمة: وأما بشأن القرن الثالث عشر فلم يقدر جغرافي إسباني، عادة، على أن يطوّر علمه عن قراءة اسم هندي مشتبه.

(3) السمعاني يمكن أن يكون أعلم عن رجال السند و خوارزم من ابن سعيد لا يذكر سوى أبي ربحان البيروني تحت نسبة البيروني ويقول في تحقيقها: "هذه النسبة إلى خارج خوارزم فإن من يكون من خارج البلاد ولا يكون من نفسها يقال له بروني ---" (الأنساب، ص 98/ب) ولقد وصل ياقوت في بحثه هو إلى "وما أظنه يراد به من أهل الرستاق يعني أنه من بر البلد".

(4) لا يعتبر محققو البيروني الجدد مغربيًا كان أو مشرقيًا ابن سعيد مما يوثق به.

(5) حتى أن جمل البيروني نفسه جاءت في خوارزم في كتاب الآثار الباقية تعتبر خوارزم مولده الحقيقي وهذا ما يقتضيه البيت التالي لمنظومته المشهورة:

فإنه إعراق من غدوني بدرهم ومنصور منهم قد توّلى غراسيا

فإلحاق البيروني إلى أي موضع بالسند لا يصح لدينا بناء على ما سبق من الأسباب.

وأما التراجم التي شعرنا بقلّة البحث والتحقيق عنها نشير إليها بتفاصيلها:

(الألف) أحمد بن محمد بن صالح التميمي القاضي المنصوري (رجال السند، ص 61)

نرى أن المؤلف قد زعم شخصيتين شخصية واحدة فأولاهما أحمد بن محمد بن صالح التميمي الذي ذكره ابن النديم وأبو إسحاق الشيرازي والسمعاني والذهبي، والأخرى القاضي أبو محمد المنصوري يذكر البشاري المقدسي لقائه معه فهو يقول إنه ألف كتبًا وكان يملي ويدرس. نرى أن مراد المقدسي من أبي محمد هو صالح بن عبدويه المنصوري الذي كان جدّ القاضي أبي العباس أحمد فالبيديهي أن جعل قول المقدسي سهواً ووهماً معتبراً القاضي أبي محمد وأبي العباس رجلاً واحداً خلاف القرينة.

اقتباس السمعاني الذي ذكره الكاتب في التعريف بالقاضي أبي العباس أحمد يحتوي على شيء يلفت الأنظار فالجدير بأن ننقل كلمات السمعاني:

"أبو العباس أحمد بن محمد بن صالح التميمي القاضي المنصوري من أهل المنصورة، سكن العراق وكان من أظرف من رأيت من العلماء. سمع بفارس أبا العباس من الأثرم بالبصرة بأروق والهزائي" (رجال السند، ص 62)

يفهم عامة الناس من الكلمات التي تحتها خط أن السمعاني كاتب "كتاب الأنساب" كان يتمتع من رواية أبي العباس أحمد بن محمد. والحال أن بين عهد أبي العباس والسمعاني بعداً لا يدع السمعاني يصح في دعواه لو ارتكها فلقد نقل المؤلف كلامه بدون تفكير ولم يخطر بباله هذا الإشكال. والواقع أن حديث "كتاب الأنساب" ليس بكامل فإن قرأنا بإمعان كل ما قيل في كتاب الأنساب تحت المنصوري فيسبقنا هذه الكلمات:

"منها أحمد بن محمد بن قاضي المنصوري سكن العراق وفارس ويكنى بأبي العباس. كان إماماً على مذهب داؤد الأصبهاني، سمع الأثرم وطبقته، روى عنه الحاكم أبو عبد الله الحافظ وأبو العباس أحمد بن محمد بن صالح التميمي إلخ" (راجع الحديث المنقول لهذه السلسلة)

ففي البداية يبدو أحمد بن محمد القاضي شيخ الحاكم النيسابوري وأبو العباس أحمد بن صالح التميمي شخصيتين، ولكن ينفي هذا الرأي شواهد داخلية عديدة بأن كليهما يكنى أبا العباس وأباهما واحد وكلاهما يستوي في الرواية عن الأثرم وشيوخ تلك الطبقة، كلاهما اعتبر إماماً لمذهب وانسلك بسلك قضاء المنصورة. والفرق ليس سوى أن لقاء السمعاني للمؤخر الذكر أي أبو العباس أحمد بن محمد بن صالح التميمي يثبت من ظاهر الكلمات لكتاب الأنساب. وأما أول الذكر فهو من شيوخ الحاكم النيسابوري فإن اعتبرنا كلمات "كتاب الأنساب" صحيحة تامة فوجب علينا أن نعتبرهما شخصيتين ولكن هذا التقدير يؤيده قوة موحدة للشواهد الداخلية لن يغلبها كلمات كتاب الأنساب. فنرى الحل الحقيقي لهذا الإشكال أن نعترف بشيء من السقوط في العبارة فكأن ترجمة شخصية واحدة (أحمد بن محمد أبي العباس القاضي التميمي) تأتي منذ البداية ثم نقلت كلمات الحاكم النيسابوري في الوسط إلا

أن بعض الكلمات سقطت من نسخة الكتاب الابتدائية فكلمات "وكان أظرف من رأيت من العلماء" هي للحاكم النيسابوري لا للسمعاني.

ولقد اعترف أحد باحثي شرقي بنغال الدكتور محمد إسحاق بأن أحمد بن محمد القاضي وأحمد بن محمد بن صالح التميمي القاضي شخصيتان (راجع: India's Contribution to the Study of Hadith Literature، ص 38، طبعة داكه) على أنه انتبه على السقوط المذكور أعلاه. واختلف عن عبارة السيد سليمان الندوي<sup>1</sup> الذي يبني على ما ظهر من عبارة السمعاني، وأحال إلى لسان الميزان لابن حجر (274/1) فكأنه اتفق مع السيد المرحوم مع أنه ظفر بالنتيجة الصحيحة والحال أنه لما اعترفنا بالسقوط المذكور أعلاه فلا تبقى شخصية أحمد بن محمد القاضي مختلفة عن شخصية أحمد بن محمد بن صالح التميمي.

وعلى كل حال فقد سقط مؤلف هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه في خطأ هو برئ منه، وقد أوضحناه فيما سلف.

#### (الباء) الصمة مولى كنده (رجال السند، ص 162)

لقد وهم المؤلف أن الصمة مولى كنده قد ذكر في معجم البلدان لياقوت باسم الصمة بن عبد الله القشيري ولذا فقد يبدو مائلاً إلى توحيدهما لأجل اشتراكهما في الاسم وبعض القرائن الأخرى. ولم يبحث الكاتب عن أخباره في كتب الطبقات والتراجم وإلا فاتضح له أنهما اثنان لا واحد. كان الصمة بن عبد الله القشيري أشهر شعراء الغزل للدولة الأموية (حتى 132هـ) وذكر الأصبهاني ترجمته المفصلة في كتابه الأغاني (34/5). توفي في عهد بني الأمير في موضع في طبرستان، وبالعكس من ذلك فقد كان الصمة مولى كنده في وسط القرن الثالث، وفي حوالي 255هـ انتهز فرصة الخروج في السند كما صرح عنه الكاتب ذاته فكيف يمكن أن يتحد الاثنان بعد هذا البعد البعيد من الزمان.

<sup>1</sup> مجلة "معارف" الشهرية، 24/24

(الجيم) مبارك الهندي المروزي (رجال السند، ص 201)

القصة التي ذكرت بالإحالة إلى كفاية شعبية ذكرت تحت كلمة "مرو" في آثار البلاد لذكريا القزويني بالإشارة إلى الفرق بأن الكفاية تشير إلى كون سيد مبارك الهندي غنيًا مجهولًا من مرو بينما يذكره ذكريا القزويني قاضي مرو الذي يسمّى نوح بن مريم كما توجد اختلافات جزئية في كلا الكتابين فليراجع للتفصيل آثار البلاد، ص 306.

(الدال) محمد بن إبراهيم البيلماني (رجال السند، ص 206)

مصدر هذه الترجمة معجم البلدان لياقوت (كلمة نجران) وقد ذكر ياقوت نفس الرجل تحت كلمة بيلمان وسمّاه محمد بن عبد الرحمن البيلماني (معجم البلدان، 799/1) ولقد زعم المؤلف محمد بن عبد الرحمن مختلفًا عن محمد بن إبراهيم وعلى هذا فقد أحال إلى كلمة نجران في ترجمة ابن إبراهيم. وندعي أنهما واحد إلا أن ياقوت قد سمّاه محمد بن إبراهيم تحت كلمة نجران مما يحتاج إلى الدليل والصحيح محمد بن عبد الرحمن. والدليل على توحيدهما أن ياقوت قد أعاد هذه الفقرة في محلين "حدث عنه عبيد الله بن العباس بن ربيع النجراني". وزدّ عليها ما قال السمعاني في نسبة النجراني عن عبيد الله بن العباس بن الربيع النجراني: "حدّث عن محمد بن عبد الرحمن البيلماني" (الأنساب، ص 455/ب) وهكذا فقد ثبت ما قال ياقوت تحت كلمة بيلمان. ويعضّد دعواي أن كتب التراجم والرجال قد ذكرت عبيد الله النجراني من تلامذة محمد بن عبد الرحمن البيلماني بينما ذكرت في ترجمة عبيد الله النجراني محمد بن عبد الرحمن البيلماني من شيوخه، ولكن لا يأتي ضمنه محمد بن إبراهيم. وأما السمعاني فيؤيد فقرته المذكورة أعلاه تهذيب التهذيب لابن حجر الذي جاء فيه ذكر عبيد الله النجراني من تلامذة محمد بن عبد الرحمن حين ترجمة الأخير (تهذيب التهذيب، 293/9). ولعل الكاتب وهم أن تهذيب التهذيب ذكر عبيد الله العباس بن الربيع الحارثي في الموضع فنود أن نصح لإزالته أن بني الحارث قبيلة من نجران فنسب الحافظ ابن حجر عبيد الله إلى قبيلته.

وملخص القول أن ذكر ترجمة محمد بن إبراهيم البيلماني بصورة مستقلة لا يعني الموقع فيناسب أن تذكر تحت عبد الرحمن.

وهناك أمر آخر يحتاج إلى التوضيح وهو أن المؤلف قد أضاف نسبة "الهندي" إلى محمد بن إبراهيم من عنده، والحال أن هذه النسبة لا توجد في كتاب ياقوت ذاته. والعجب أن ياقوت لا يميلن إلى أن تعتبر بيلمان من مناطق الهند والسند مع أنه واقف على بيان البلاذري الصحيح فأحال إليه في النهاية. فيعتبر ياقوت عن ميله بالكلمات التالية "ويشبه أن يكون بأرض اليمن ينسب إليه محمد بن عبد الرحمن البيلماني إلخ" وأما ميل ياقوت هذا فليس فارغاً من أصل لأن الصاغاني الذي يلمّ تماماً ببلاد السند والهند يشدد على ترديد قول البلاذري ويقول: "لا أعرف بالسند ولا بالهند موضعاً يقال له بيلمان" (معارف، مارس/1959م). وأما أنا فلا ألزم شخصياً ترديد البلاذري لأن ابن خرداذبة ذاته يضمّ بيلمان إلى بلاد السند. (المسالك، ص 57 طبعة ليدن، 1306هـ)

(الهاء) مسعود بن سعد بن سلمان الشاعر اللاهوري (رجال السند، ص 240)

نركب العجب أن الكاتب لم يفصل ترجمة مسعود وتركها ناقصة حتى أنه أخطأ في سنة وفاته فالعجب كل العجب أن الذي ولد بلاهور في عهد السلاطين الغزنويين ونشأ وترعرع وتوفي بعدما أسنّ قال فيه: "وتوفي سنة خمس عشرة وثلث مائة كذا في بعض الكتب" والحال أن الدولة الغزنوية لم تكن موجودة في 315هـ حتى في أذهان الناس. ولا أدري أي كتاب أراده المؤلف ببعض الكتب بينما هو يعتاد على الكتب الموثوق بها فلا شك أن ذلك الكتاب قد وقع فيه الخطأ المطبعي الذي نقله المؤلف حسب عادته ولم يتفكر فيه. فقد ذكر تقي كاشي وفاة مسعود في 525هـ ولكن المحقق الشهير محمد بن عبد الوهاب القزويني ذكر سنة وفاته الصحيحة 515هـ ولقد رتب القزويني المرحوم ترجمة مسعود ضمن تعليقات "چهار مقاله" آخذاً من شواهد داخلية في ديوانه الفارسي ونشر ترجمتها الفارسية البروفيسور براون في مجلة Royal Asiatic Society بلندن كما نقلها إلى الأردوي البروفيسور الشيخ عبد القادر، بروفيسور كلية

ألفنستن في 1916م فنشرها بالحلقات في المجلد الأول لمجلة "معارف" الصادرة عن أعظم كره (الهند).

(الواو) هارون بن موسى الملتاني (رجال السنند، ص 261)

نقلت عبارة مروج الذهب كلها وأما الإحالة إلى أبي دلف فلعلها مأخوذة من كتاب "تاريخ سنده" (بالأردوية) للشيخ أبي ظفر الندوي ونجد هارون بن عبید الله في رواية أبي دلف ونحب أن نوضح أن هذا الاختلاف لا يتعلق إلا بالرواية وإلا فالمسعودي وأبو دلف لا يريدان إلا رجلاً واحداً. وأما هارون فأقدم ترجمته، كما أعلم، هي التي جاءت في كتاب الحيوان للجاحظ. والمسعودي أيضاً مأخذه هذا الكتاب، ولكن الجاحظ يسميه هارون مولى الأزدي بدلاً من ابن موسى الملتاني فقال الجاحظ بمناسبة:

"وقد جمع هارون مولى الأزدي الذي كان يرد على الكميت ويفتخر بقحطان وكان شاعراً مولداً ولا أعرف من شأنه وصناعته، وقد قال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة الخ".

ومضيقاً إلى هذا البحث فقد نقل الجاحظ قصيدته اللامية آخذاً من صفوان بن صفوان الأنصاري كما شرح كلماتها الصعبة. كان صفوان الأنصاري من رواة داؤد بن مزيد (يزيد) مرزبان الهند (راجع: الحيوان، 24/7-26، طبعة ألساسي 1907م) ونجد بيانه المفصل في موضع آخر كيف كان الهنود يربون الفيل الوحشي وقد واجه هارون بمناسبة فيلاً مدهشاً ولكن شجاعته وبسالته طردتا الفيل، وبهذه المناسبة ذكرت قطعتان منظومتان لهارون بجانب القصيدة اللامية فمن إحدى قطعتيه ما يلي:

مشيت إليه وادعاً متمهلاً      وقد وصلوا خرطومهم بحسام

هي في سبعة أبيات.

وأما القطعة الثانية فتستهل بما يلي:

ولما أتاني أنهم يعتدونهم      بقائم سيف فاضل الطول والعرض

هي في تسعة أبيات.

وبهذه المناسبة جاءت كلمات "هارون بن فلان المولى، مولى الأنصار"، وبما أن المسعودي مأخذه كتاب الحيوان فأغلب الظن أن كلمة "موسى" في نسخ مروج الذهب هي تصحيف "مولى" وسقطت كلمة "فلان" من الوسط، ولقد ذكرنا أن هارون بن عبد الله لأبي دلف، هو هارون مولى الأزدي. والدليل على ذلك أن زكريا القزويني يسميه، متأثراً برواية أبي دلف، هارون بن عبد الله مولى الأزدي وينقل القطعة السميية تمامًا التي قد دللنا عليها في كتاب الحيوان للجاحظ (راجع: آثار البلاد، ص 81-82، 1848م)

(الزاء) أبو الصلح السندي (رجال السندي، ص 276)

وبين أيدي الكاتب كتب ابن النديم وزكريا القزويني ففي آثار البلاد للقزويني جاء أبو الضلع بالضاد المعجمة بينما هو بالصاد المهملة في الفهرست لابن النديم، ومنظومته العربية التي هي نشيد وطني جيّد قد نقلت في آثار البلاد للقزويني ولقد ذكرها السيد سليمان الندوي أول مرة في كتابه "عرب وهندك تعلقات" (بالأردوية) ثم نقلها بترجمتها الأردوية الشيخ أبو ظفر الندوي في "تاريخ سنده". ولعل الكاتب لم يراجع كتاب القزويني مباشرة ولذا فقد وقعت أخطاء متعددة في كتابة المنظومة.

ذكر هذا الشاعر في كتاب الحيوان مرتين فمرة نقلت خمسة أبياتها (الحيوان، 50/7) ومرة أخرى نقل بيتان من هجوه (الحيوان، 64/4) طبع أبو الأصلح وأبو الصلح بالصاد المهملة في كتاب الحيوان وأما ابن النديم والقزويني فقد ذكرنا ما فهمنا وأرى أنها أبو الضلع بالضاد المعجمة لأن النسخة الوحيدة لابن الجراح قد ضبطها كذلك والأبين من ذلك أن أبا عبد الله المرزباني يذكر أبا الضلع السندي تحت الضاد المعجمة في أبواب الكنى لمعجم الشعراء. (معجم الشعراء، ص 513)

نجد ترجمة أبي الصلح السندي في كتاب الورقة لابن الجراح ورويت أبياته عن دعبل وأبي جفان وعبد الصمد بن موسى. يعتبره عبد الصمد بن موسى مولى لموسى الهادي بينما يعدّه دعبل من موالي آل جعفر بن أبي طالب فقال دعبل عنه: "نزل بغداد ومات بها وكانت له أشعار فصاح ملاح" وليراجع للتفصيل كتاب الورقة (ص 90-91) وننقل فيما يلي بيتين لأبي الصلح من كتاب الورقة:

يا نفس صبرًا لا تهلكي بأسًا      قد فارق الناس قبلك الناسا  
صبرًا جميلًا فلسنت أول من      أورثه الطاعنون وسواسا  
(6) ولو أننا قد أوضحنا اختلافنا عن نظرية الكاتب في اعتبار أحدٍ سنديًا أو هنديًا  
ولكننا نود أن نشير إلى تراجع طبّقًا لنظرية الكاتب، نتيقن أن العديد منها قد  
حرمت انضمامها إلى الكتاب وهي تتطلب المزيد من البحث والتحقيق، وما برز لي  
من التراجع لتوفير المواد لهذا الاستعراض أشير إليها كما يلي:

(الألف) السندي بن بختاشة: ذكره الطبري في تاريخه في موضعين على الأقل. أولهما  
في وقائع سنة 223هـ حيث جاء في فهرست من ساهم في مؤامرة عبد الله بن المأمون:  
"وأما السندي بن بختاشة فأمر المعتصم أن يوهب لأبيه بختاشة لأن بختاشة لم يكن  
يتلّخ بشيء ما أمر العباس فقال المعتصم لا يفجع هذا الشيخ بابنه فأمر بتخلية  
سيبله" (تاريخ الأمم والملوك، 3/266 طبعة أوربا)

وثانيهما أن جيشًا أرسل لمواجهة الروم في عهد المنتصر بن المتوكل فقد عيّن على  
ميمنته، كما يقول الطبري، السندي بن بختاشة (تاريخ الأمم والملوك، 3/481 وقائع  
248هـ) فيمكن أخذ ترجمة بختاشة من هذه العبارة طبق نظرية الكاتب.

(الباء) يذكر تاريخ الطبري رجلًا يسمّى السندي بن عصم (?) كما ذكر رجل آخر اسمه  
السندي المنجم (راجع: الفهرست الذي رتبّه دخوبه)  
(الجيم) يذكر زكريا القزويني طبيبًا من باميان فيقول:

"--- ينسب إليها الحكيم أفضل الباميان، كان حكمًا فاضلاً عارفاً بأنواع الحكمة،  
طلبه صاحب فارس أتاك سعد بن زكي وأكرمه وأحسن إليه وقال أريد أن تحكم على  
مولودي فقال أفضل: الأحكام النجومية لا يوثق بها، قد تصيب وتخطيء، لكني أفعل  
ذلك لسنة أو سنتين من الماضي. فإن وافقه عملت للمستقبل فلما فعل ذلك قال  
الملك له ما أخطأت شيئاً منها وكان عنده حتى مات" (آثار البلاد، ص 103)

(الدال) أبو العباس بن السندي: يذكر محمد بن الحارث الخثي ترجمة موجزة لأبي العباس بن السندي في كتاب علماء إفريقية فيقول:

"ومن رجالهم رجل يعرف بأبي العباس بن السندي، كان مذهبه مذهب الشافعي والنظر إلا أنه لم يكن فيما علمت من أهل المناظرة وكان ممن ضربه الشيعي وعذبه وأخذ نعمته، مات قبل سنة عشرين" (علماء إفريقية، ص 283، الرقم: 126، طبعة مصر 1372م)

(الهاء) وتتطلب نظرية الكاتب ذاته أن يذكر ما يلي من الترجمة:

"إبراهيم بن السندي بن علي بن بهرام، أبو إسحاق، كان يخضب بالحمرة، توفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، صاحب أصول، يروي عن محمد بن أبي عبد الرحمن المقرئ ومحمد بن زياد الزيادي" (تاريخ أصبهان لأبي نعيم، 1/193)

ولعل هذا الرجل الذي ذكر ترجمته الكاتب باسم إبراهيم بن علي بن السندي (رجال السند، ص 658) ولم يذكر سوى اقتباس حلية الأولياء لأبي نعيم. والفرق أن في تاريخ أصبهان إبراهيم بن السندي بن علي بينما حلية الأولياء يسميه إبراهيم بن علي بن السندي. وتزول شكوى الكاتب الذي يشكو نصيب توحيدهما "لم أقف على ترجمته غير ما ذكرته" أن تاريخ أصبهان يذكر يوم وفاته بجانب التفاصيل الأخرى.

(7) إن موضوع الكتاب يقتضي أن يشار إلى تراجم قد حرمت انضمامها إلى الكتاب على الرغم من علاقتها المتينة مع الهند والسند وهي كما يلي:

(الألف) فتتعلق تراجم الإمام أبي حنيفة نعمان بن ثابت بن زوطي وحماد وإسماعيل بن حماد من بين أولاده وأحفاده بموضوع الكتاب بناءً على الروايات الصريحة ولا توسعاً من الموضوع فكان الإمام ينحدر من كابل على الرواية الشهيرة ويقول ابن خلكان عن كابل: "وهي ناحية من بلاد الهند" (وفيات الأعيان، 5/39-46، الرقم: 736 طبعة محيي الدين عبد الحميد) ولا نود أن نسعى بالإمام إلى زمرة رجال السند والهند بناءً على هذه الرواية ولكن هناك رواية ذكرت في أخبار القضاة لوكيع تثبت عليها سنديّة الإمام المحترم. فكلّمات الرواية كما يلي:

"أخبرني إبراهيم بن أبي عثمان قال حدثني أبو خالد الأسلمي يزيد بن يحيى قال أخبرني هزان التميمي قال حدثني أبي قال رأيت ثابتاً أبا أبي حنيفة شيخاً جندياً من مولد السند بخاراً قال وهو مولى امرأة منا صحيح الولاء" (أخبار القضاة، 2/167 ترجمة إسماعيل بن حماد، طبعة مصر 1947م)

وعلاوة على هذه الرواية فكان سلف الإمام يسمّى "زوطي" اسمًا هنديًا خالصًا ألا وهو من قوم الزط. وهذا يكشف عن ارتباطه بهذا القوم.

(الباء) كانت أسرة البرامكة، كما حقق السيد المرحوم، ذات أصل هندي وستجد تفصيلها الكامل بالدلائل والقرائن التاريخية واللغوية في كتابه "عرب وهند كـ تعلقات" ولعل الكاتب يقف على تحقيق هذا الكتاب جيداً ففراغ الكتاب من تراجم البرامكة يحير العقول فلم تذكر إلا ترجمة فرد من هذه الأسرة وهو عمران بن موسى بن يحيى البرمكي وذلك رجاءً أنه ولد ونشأ في السند (رجال السند والهند، ص 189-190) والحال أن البرامكة كلهم يرجع أصلهم إلى السند والهند على الدلائل الراجعة ولو أنها قضية متنازع فيها.

(الجيم) أبو حفص عمر بن محمد بن سليمان المكراني: ذكرت شخصيات عدة من مكران في الكتاب، ولكن ترجمة أبي حفص حرمت ذكرها في الكتاب. يعرف السمعاني بهذا المحدث الفاضل في كلمات تالية:

"ورد العراق وخرج إلى الحجاز وحدث بها عن أبي الحسين محمد بن أحمد البزاز (أصل: المزار) روى عنه أبو القاسم الشيرازي (الأنساب، ص 541/ظ)  
وأما كلمات ابن الأثير فهي مختلفة قليلاً. إنه يقول:

"حدث عن أبي الحسين بن النقور البزاز روى عنه أبو القاسم هبة الله بن عبد الوارث الشيرازي سمع منه بالحجاز" (اللباب في تهذيب الأنساب، 3/173)

(الذال) عبد الرحمن بن البيلمان مولى عمر بن الخطاب: المراجع التي استفاد منها الكاتب في ذكر ترجمة محمد بن عبد الرحمن البيلماني (رجال السند والهند، ص

231) تقتضي بأجمعها أن لا يغمض النظر عن شخصية عبد الرحمن البيلماني فتشهد اقتباسات كتاب الضعفاء للنسائي وتهذيب التهذيب لابن حجر أن عبد الرحمن البيلماني كان من رواة الحديث وبلغه الأحاديث عن والده فندل على بعض المراجع عن ترجمة عبد الرحمن:

ذكرت ترجمة مفصلة له في تهذيب التهذيب لابن حجر وهي تبتدئ بما يلي:

"مولى عمر قال أبو حاتم عبد الرحمن بن أبي زيد هو ابن البيلماني إلخ" (تهذيب التهذيب، 149/6-150) وأقدم مأخذ لهذه الترجمة الطبقات الكبير لابن سعد وكلماته كما يلي:

"عبد الرحمن البيلماني من الأخماس أخماس عمر بن الخطاب وقال عبد المنعم بن إدريس كان من الأبناء الذين كانوا باليمن وكان ينزل نجران وتوفي في ولاية الوليد بن عبد الملك" (طبقات ابن سعد، 490/5 طبعة أوربا)

ويقول الزبيدي في شرح القاموس:

"عبد الرحمن بن أبي يزيد البيلماني مولى عمر بن الخطاب تابعي روى عن ابن عباس وابن عمر ونافع وابن جبير وعنه ابنه محمد وربيعه الرأي وابن إسحاق قال أبو حاتم فيه لين وذكره أبو حيان (كذا، صحيح ابن حبان) في الثقات كان من فحول الشعراء" (تاج العروس، 25/8)

لم يثبت سماع عبد الرحمن البيلماني سوى عن صحابي يسمّى سوقًا كما يقول الحافظ صالح جزرة. (راجع: تهذيب التهذيب، 150/6، الرقم: 4018، طبعة كولكاتا)

(الهاء) لقد أحى الكاتب ذكرى امرأة سندية نباذة بذكر خمار القندهارية وقد صين اسمها لأجل أبيات شاعر الخمر أبي دلامة. كانت هي تسمّى "دوم" ولنسمع العلاقة بينها وبين أبي دلامة على لسان إسحاق بن إبراهيم الموصللي. يروي ابن المعتز:

"قال أصحاب بن إبراهيم الموصللي: نزل بأبي دلامة أضياف له فغذاهم ثم بعث إلى سندية نباذة يقال لها دوم وأرسل إليها بجرة فوجهت إليه فشربوها ثم أعاد فبعثت بأخرى وجاءت تقتضيه الثمن فقال ليس عندي ما أعطيك ولكن أدعو لك فقال:

ألا يا دوم دام لك النعيم      واحمر ملاً كفك مستقيم  
شديد الأصل ينبض حالباه      قوي فوقه فهو عظيم  
يقويه الشباب ويزدهيه      وينفخ فيه شيطان رجيم  
(راجع: كتاب البديع، ص 31 سلسلة ذكرى غب)

ونفس الحدث ذكره الأصبهاني في كتابه "الأغاني" (13/9) ويروي أبو عبيدة معمر بن المثنى أن هذه القصة تتعلق بشاعر آخر يدمن الخمر ألا وهو الأقيشير (الأغاني، 89/10)

(الواو) غلب عجيف بن عنبسة على الزط المفسدين في البصرة وضواحيها في عهد المعتصم بالله في بداية القرن الثالث. قد أسر الزط بنسائهم وأطفالهم وكان فيهم شاعر لم يعرف اسمه ولكن ذكر الطبري نموذجاً ممتعاً من شعره. ولقد فصل الطبري من خلال وقائع 220هـ أسر هؤلاء الرحالة وحملهم إلى بغداد وتقديمهم للمعتصم في السفن وفي النهاية عمّروا في عين زربة على حدود الشام حيث واجهوا غارات تترى من قبل الروم. يقول الطبري:

"فأغارت عليهم الروم فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد فقال شاعرهم:

يا أهل بغداد موتوا دام غيظكم      شوقاً إلى تمر برني وشهريز  
نحن الذين ضربناكم مجاهرة      قسراً وسقناكم سوق المعاجيز  
لم تشكروا الله نعماء التي سلفت      ولم تحوطوا أياديته بتغزيز  
فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم      من يازمان ومن بلخ ومن قوز  
ومن شناس وأفشين ومن فرج      المعلمين بسديباج وإبريز  
واللابسي كمخان الصين قد خرطت      أردانه در زبرواز السدخاريز  
والحاملين الشكي نيطت علائقها      إلى مناطق خاص غير مخروز  
يفرى ببيض من الهندي هامهم      بنو بهلة في أبناء فيروز  
فوارس خيلهم دهم مردعة      على الخراطيم منها والفراريز  
مسخرات لها في الماء أجنحة      كالابنوس إذا استحضرن والشيز

متى تروموا لنا في غمر لجننا  
أو اختطافاً وإرهاقاً كما اختطفت  
ليس الجلال جلال الزط فاعترفوا  
نحن الذين سقينا الحرب دهرها  
لنسفعنكم سفعاً يُدل له  
فابكوا على التمر بكى الله أعينكم  
حذرًا نصيدكم صيد المقاييز  
طير الرجال حثًا بالشناقيز  
أكل الثريد ولا شرب القواقيز  
ثفيها مقامسة الكواليز  
رب السرير ويشجى صاحب التيز  
في كل أضحى وفي فطر ونيروز  
وعلاوة على إفادة هذه المنظومة في دراسة الكلمات المولدة والدخيلة فهي وثيقة تاريخية ممتعة تحتوي على تحدي شديد لبغداد والدولة العباسية. ويشهد التاريخ أن العباسيين قد غلبوا على هذه الجماعة في النهاية، ولكنهم أجبروا على التضحية بما لا يحسب فصح قول الشاعر أن قتال الزط كان كنوع من تناول اللقمة السائغة (الطبري، 1169/3-1170، طبعة أوربا)

(الزء) ونور بن علي: عسى أن يكون هذا الرجل من الزط وكان من شيعة علي فالجماعات الوفية التي تجمعت حول علي بعد وروده البصرة تحت قيادة شتى الرؤساء كان منها الزط والسيابجة الذين كان يرأسهم ونور بن علي (الطبري، 1/3181 طبعة أوربا)

(8) ولا يكون غير ملائم لو ألقينا نظرة سارحة على زلات وأخطاء الكتاب المطبعية فلو أن الكاتب صحح بعض الأغلاط في النهاية إلا أن الحاجة كانت ماسة إلى قائمة التصويبات المفصلة فقد جمعنا ما يلي من الأغلاط من نظرة عاجلة:

رقم الصفحة	الخطأ	الصواب
30	عبد الرحمن الريان الهندي	الريان --- (لم تذكر ترجمته ضمن التراجم)
31	المهوات	المهواة
	بالمهدي البيض	بالمهندة البيض
40	الأقصة	الأقصى
42	--- بعد صعبة ---	--- بعد مصعبة ---

42	--- أمعنت في عينها	--- أمعنت في عيونها
43	بن	من
62	عن أبي روق الحضرائي	--- الهزاني
88	جاراكا، لطبيب	العرب القدامى يسمونه شاناق الذي هو تعريب چانك (چانكيا) وكذا جاراكا تعريب چانكيا ولكن تبديل حرف النون بالراء ليس بصحيح (صينت نسخ كتابه المواضع بجانب برلن. <sup>1</sup> أعدّ هذا الكتاب بكافة النسخ)
99	الشوارد	الشوارد
99	درر السحابة	درّ السحابة
100	نماني إلى	نماني أبي
	ذيل النأي	ذيل النوى
142	وكان من أجمل النساء	وكانت ---
183	اللهاوري، روى شيخ	الصواب بإسقاط "روى"
207	حديثًا مكثراً	حديثًا منكرًا (الأنساب للسمعاني، ص 401/ب)
211	ولوة باسمي	ونوّه باسمي
211	يجزى على الأدب	يجزى على الأدب
213	البيرون بنسب التي	البيرون التي ينسب

<sup>1</sup> لتراجع ملاحظة عن هذا الكتاب في نهاية هذه المقالة.

## مجلة الهند

225	غير أن أقتل أو أجنّ	--- أقتل حيًّا أو أجنّ
231	ولم يسمعه	ولم يسمّه
231	عبد الله بن العباس	عبيد الله بن العباس (التهديب، 293/9)
233	بالمهند البيض	بالمهندة البيض
235	أحمد بن موسى السكري	--- العسكري (الأنساب، ص 236/ب)
235	محمد بن محمد بن خلف (بحوالة معجم البلدان)	محمود بن محمد بن خلف (معجم البلدان، 372/2 طبعة أوروبا)
260	وأصحاب الخيل	وأصحاب الحيل (بالحاء المهملة)
261	فطن الأسد	فطن الإنس
261	وأطرف من نسبه ذوله	وأكرم من فشة ذولت
261	الخنشبييل	الخنشبييل
261	غليظ الدارك	غليظ الوراك (?)
262	بخطو خفيق	بخطو خفيف
262	قول الأنهاري	قول الأنصاري
272	بأمثل	بالأمثل
272	إذا ما مدح وسهم الهند	إذا ما مدح الهند إلخ
272	يستعمل	ليستعمل
272	الأفادية	الأفاديه
272	الكوك	الكرك (الكركي؟)
272	الحيل	الجبل
272	اهتزت الهتز	هزّت اهتزّ

الجحفل	الجحفل	272
منجلان (بالميم)	لنجلان	278
فما اسم حديدة	فما اسم حديد	278
طلبت بها الأخوة	طلبت الأخوة	278
جاجهن	بآجهن	278
لم تجد	لم نجد	278
خروع	فروع	278
قام سعر التمزاء	قام سعر صاعاً بدرهم	278
بابن سليم	ياسليم	279
فما اسم حديدة	فما اسم حديد	281
بفصيح من صالح الغلمان	بفصيح صالح من صالح	282
بكل لسان	كل لسان	282
بعض بياني	بعض بناتي	282
بعض الزوايا	بعض زوايا	287
ابن قمانص اسم ملك أشرف على شاناق كتب له شاناق كتاب السموم. فاعتبار شاناق ابن قمانص خطأ والعجب أن الكاتب قد أخطأ بعدما نقل عبارة ابن أبي أصيبعة (رجال السند، ص 155)	ابن قمانص الهندي هو شاناق	291
الطيب	الطيب	291

ولقد بقي لنا أشياء تجدر بالذكر ولكننا قدّمنا ما مسّت الحاجة إليه ونوقن أننا أشرنا إليها من نقاط البحث لا يجب موافقة الكاتب أو غيره من الباحثين عليها ولو أننا لم نقصر عن تقديم الدلائل والشواهد لتوضيح مواقفنا حسب المستطاع والمعرفة.

الملاحظة: تصان نسخ كتاب السموم في أستانبول والموصل ودار الكتب المصرية ولقد تم تصحيح ثلاثة كتب في ضوء هذه النسخ كلها ثم نشرت من برلين في سنة 1934م بتحقيق Bettina Strauss. ولقد حذف فصل من الكتاب بأمر من الخليفة مأمون الرشيد ولعل هذا الفصل كان مشتملاً على طريقة تعويد الفتيات على تناول السم. فيما يلي كلمات عباس بن سعيد الجوهري:

"قال المأمون ينبغي أن يسقط من هذا الكتاب نعت الجارية المسمومة لأن هذا فعل الجاهلية من الهند لا حاجة بنا إليه لأنه يتلف فيه آلاف طفيل من قبل أن يسلم واحد فأسقط ذلك من هذا الكتاب" (كتاب السموم، ص 63، طبعة برلين، سنة 1934م).<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> نشر الأصل في مجموعة المقالات "أدبيات" لجامعها الدكتور محمد صدر الإسلام، ص 406-444

## رجال السند والهند- تاريخ علمي للسند والهند

- الشيخ عبد الله المعروف<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري<sup>2</sup>

إن كتاب "رجال السند والهند" تذكرة علمية وثقافية لأرض السند والهند. ويحمل الكتاب شهرة عالمية، وعدم وجوده في المراكز العلمية والأكاديميات والمكتبات داخل البلد وخارجه يعتبر نقصاً علمياً، وكل طالب يرغب في دراسة التاريخ العلمي والثقافي والتطور للبلدان والشعوب لا يعتبر الحصول على الكتاب ضرورياً فقط، بل يفخر بوجوده في مكتبته الشخصية. ومهما اتجه في طريق بحثه وتحقيقه بعد اعتبار الكتاب ميلاً، يكون توجهه مفيداً ومثمراً. ولإثبات هذه الدعوى أقدم تعليماً للمحقق الإسلامي الكبير العلامة محمد تقي العثماني حفظه الله (قاضي المحكمة العليا في باكستان):

"شرفني أحد علماء العراق في زيارته إلى باكستان، وأخبرني أنه يحقق في التاريخ العلمي والثقافي والإسلامي للهند المتحدة، وأنه يريد أن يؤلف كتاباً عن العلماء والمحدثين وأعظم الرجال في الهند الإسلامية. وطلب مني أن أوجهه الوجهة الصحيحة، وأرشدته إلى المصادر والمراجع باللغة العربية حتى تسهل عليه الاستفادة منها. فأخبرته أنه لا يوجد في شبه الجزيرة الهندية كلها (الهند وباكستان وبنغلاديش) إلا كتابان للتحقيق الجيد، الأول "نزهة الخواطر" للسيد عبد العلي الحسيني، والثاني "رجال السند والهند" للقاضي أطهر المباركبوري، ولا ثالث لهما". (ترجمان الإسلام، بنارس، العدد الخاص بالقاضي أطهر، ص 12، نقلاً عن "البلاغ" كراتشي)

<sup>1</sup> أستاذ قسم التخصص في الحديث، دار العلوم بديوبند، الهند

<sup>2</sup> أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

### الموضوع والخلفية:

لا شك أن الهند والسند (والذين كانا بلدين مستقلين عند المؤرخين العرب) قد ولد فيهما كثير من الأئمة والأعلام الذين كانت لهم جهود جبارة في تزويد الثروة العلمية والأدبية والروحية والدينية لا تقل عن البلدان الإسلامية الأخرى. وكم من الشخصيات الجليلة هنا لا يقل إسهامها في بناء وتطوير الثقافة العربية عن رواة العلم والأدب في بغداد وقرطبة، ولكن بالرغم من كونها قريبة جدًا من مراكز الثقافة الإسلامية الأصلية وهي دمشق وبغداد والحرمين ظلت مركزيتها ضمنية بسبب الظروف السياسية الخاصة، ونتيجة لذلك فما حظي به العلماء من تقدير الخارج لم يقدر لهم في وطنهم. وهذا هو السبب في كون الشخصيات السندية المعروفة خالدة لأنهم سكنت في غير موطنها الأصلي. ولو عاشت في السند لما ذكرهم الخطيب البغدادي (463هـ)، وابن النجار (643هـ)، والسمعاني (562هـ) من مرو، وابن عساكر (571هـ) من دمشق، والذين أبرزوا أعمالهم الجليلة وأظهروها. ولو حظي علماء السند والهند بأمثال ابن الفرضي (1013م) أو ابن بشكوال (1183م)، لكان كثير منهم قد ذكروا من ضمن المشاهير. إن مصادر التاريخ العربي تتضمن بعض الأبواب المتعلقة بفتوح السند وبعض الكتب (جج نامة، تاج المآثر، طبقات الناصري، وآداب الحرب والشجاعة، لب الألباب، جوامع الحكايات، وغيرها من المصادر)، ويمكن عن طريقها أن نكون صورة عامة عن تاريخ البلدين، ولكننا لم نكن نملك مستندًا مرتبًا والذي يكون بالفعل مصدرًا ثابتًا. ووجدت مواد متفرقة في كتب التاريخ والجغرافيا والسير والتي يمكن تسميتها بظلال لعلماء السند والهند. وقيد هذه الظلال في قبضة التحقيق حسبما يقول العلامة أبو محفوظ الكريم المعصومي "التعرف عليها ثم تزيين مجالس العلماء بها بمثابة جمع الأضداد.

وقد قام القاضي أظهر المباركبوري بجهود مضيئة للتعرف على هذه الشخصيات وتزيين المجالس بها فعلاً. ويمكن أن نتعرف في هذا الكتاب على المحدثين والمفسرين والفقهاء والأدباء والمتكلمين والفلاسفة والشعراء والأطباء وشخصيات أخرى في السند والهند من القرن السابع الهجري دفعة واحدة. ويجب أن ننظر إلى أهمية

الكتاب في ضوء صعوبة الموضوع. وقد ذكر المؤلف في مقدمة الكتاب الأمور السابقة بالتفصيل، ثم ذكر بعض الأعمال الجليلة التي قام بها من سبقه في هذا الموضوع، والحاجة إلى تأليف "رجال السند والهند" بعد وجود هذه المؤلفات، فيقول:

"فرحم الله الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي فإنه أول من أحسّه وقام بملء هذا الخلاء، وجمع تراجم علماء الهند ومشائخها كيف ما تيسرت له نهج القدماء، فكتب "سبحة المرجان في آثار الهندوستان" و"مآثر الكرام" بالفارسية وكتب المولوي رحمن علي الناروي "تذكرة علماء هند" بالفارسية، وفي الآخر ألف الشيخ السيد عبد العلي الحسيني المتوفى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، كتابه "نزهة الخواطر" في تراجم أعيان الهند، وهو كتاب كبير معتمد، لم يظهر إلى الآن مثله في تراجم أهل الهند، ولكن لما كان الأمر أوسع من ذلك أردت أن أجمع رجال السند والهند إلى القرن السابع، فإنه لم يكتب إلى هذه المدة تراجم رجال الهند إلا قليلة يسيرة، حتى أن الجزء الأول من نزهة الخواطر الذي يشتمل على التراجم من المائة الأولى إلى المائة السابعة مختصر جدًا، وأكثر أعيان هذه القرون ورجالها الذين كتب عنهم هم الذين قدموا الهند من بلاد شتى، وأما بعد المائة السابعة فتوجد تراجم كثير من المشائخ والعلماء، ولهذا بذلت الجهد في جمع التراجم إلى القرن السابع، فتصفح كتب التراجم والتواريخ والطبقات وغيرها أعوامًا وسنين، وهأنذا أقدم نتيجة جهدي باسم "رجال السند والهند" وهم العلماء، والفقهاء، والمحدثون، والرواة، والمشائخ، والقضاة، والأمراء، والأعيان، والشعراء، والأدباء، والنحاة، واللغويون، والأطباء، والفلاسفة، والمتكلمون، وأهل الملل والنحل وغيرهم من أهل الإسلام". (رجال السند والهند، طبعة دار الأنصار، ص 12-13)

#### النهج والترتيب، المرحلة الأولى:

قد اكتمل الكتاب في مرحلتين في الحقيقة، المرحلة الأولى تنتهي في ذي الحجة 1377هـ (يوليو 1958م) عندما ظهرت الطبعة الأولى لكتاب "رجال السند والهند" من المطبعة الحجازية، شارع محمد علي، بمباي. ونهج الكتاب وترتيبه كما يلي:

1. ذكرت في الصفحات الأولى من الكتاب تقارير علماء وأصحاب الأقلام والشخصيات المعروفة من البلدان المختلفة نظماً ونثراً، وهم:

1. العلامة أبو الوفاء الأفغاني، رئيس دائرة إحياء المعارف النعمانية، حيدرآباد.
2. المحقق والأديب الشيخ عبد المنعم النمر، عضو بعثة الأزهر في الهند.
3. الشيخ عبد العال العقباوي، عضو بعثة الأزهر في الهند.
4. المؤرخ والمحقق أحمد السباعي المكي، محاسب وزارة المالية السعودية ومؤلف تاريخ مكة.
5. الشيخ سليمان الداراني، مدرس جامع بني أمية دمشق.
6. الشيخ سعد بن عبد الله الثملان، البحرين.
7. الأستاذ أحمد فريد، بمباي.
8. الشيخ محمود بن النذير الطرازي المدني، مدرس الحرم المكي.

2. تمتد مقدمة مفصلة من ص: 11 إلى ص: 46، وقد ذكر فيها المؤلف صعوبة الموضوع وقلة المواد مع ذكر الكتب التي ألفت سابقاً عن السند والهند، ويمكن بذلك أن نتبين النقص والخلل فيها بجانب أهميتها وفائدتها. ويبن المؤلف سبب تأليفه الكتاب إلى جانب منهجه وطريقة بحثه. ثم أوضح المنزلة العلمية والأدبية والثقافية للسند والهند في العالم الإسلامي. وعرف المؤلف المدن المشهورة التي تكرر ذكرها في الكتاب، ورتبها حسب الترتيب الهجائي حتى يسهل العودة إليها وقت الحاجة. ويبدأ الجزء الأساسي للكتاب وهو الخاص بالتراجم والسير من ص: 47 وينتهي عند ص: 319، ثم ذكر فهرس طويل للمصادر والمراجع إلى ص: 328.

3. وضع ترتيب التراجم حسب الحروف الهجائية، مثلاً بالألف: أحمد، إبراهيم، أبان، أنكو وغيرهم. وفي الباء: باجر، بختيار، بشر وغيرهم، وهكذا. ولكن قدّم اسم أحمد في الألف ومحمد في الحاء للبركة. وإن اشترك الرجال في اسم واحد فرتبت أسماء آبائهم على الحروف الهجائية لتسهيل البحث. وذكرت الكنى بعد الأسماء بنفس

الطريقة، مثلاً: أبو جعفر، أبو حارثة، أبو رواح وغيرهم. وفي النهاية ذكر المجاهيل ومن لم يعرف اسمه.

4. الموافقة مع المؤرخين العرب فقد ذكر المؤلف السند والهند كدولتين منفصلتين، ولو أنهما جزءان لدولة واحدة.

5. قُدِّمَ في هذا الجزء نوعان من العلماء والأعيان، الأول من ولد في السند أو الهند ومكث فيهما ولو أنه توفي خارجهما، والثاني من كان أصله سندياً أو هندياً، ولكن انتقل أباه وأجداده إلى خارجهما وولد هناك وعاش وترعرع في الخارج، أما الأشخاص الذين قدموا إلى الهند من دول أخرى ومكثوا هنا، لم يذكرهم المؤلف في هذا الجزء، إنما أبقاهم للجزء الثاني.

6. كما علمنا أن تراجم العلماء والأعيان الهنود كانت قليلة جداً في كتب المؤلفين هنا، لذلك استفاد المؤلف بشكل عام من أكثر من مئة كتاب من كتب التاريخ والرجال، وكتب الطبقات، وكتب البلدان والمناطق الأخرى في التاريخ، إضافة إلى الحديث والسير والمغازي والجغرافيا واللغة والشعر والأدب وبعض العلوم والفنون الأخرى، وأثرى بها الترجمة المقصودة.

7. نقلت في الترجمة الاقتباسات من الكتب الأخرى، ولم ينقل بالمعنى ولم ينقص منها، بل بلغت الدقة لدرجة أنه إن وجد خطأ حسب تحقيق القاضي أظهر، نقلت العبارة كما هي ثم نبّه إليها وصحّح الخطأ، مثلاً في ص: 254.253 ذكرت ترجمة ملك أُلور "مهروك بن رايق" المنقولة من كتاب "عجائب الهند" لبزرك بن شهريار، ونقلت فيها كلمة "ملك الرا" بدل "ملك أُلور"، ويقول القاضي بعد نقل الترجمة: "كان مهروك بن رايق من رجال المئة الثالثة وكان ملك " أُلور " و"الرا" في كل موضع من هذه العبارة تصحيف النسخ أو الطبع".

8. اهتم المؤلف بتعيين عصر صاحب الترجمة وسنة وفاته، وحاول تعيين العصر في حالة عدم وجود التفاصيل في المصادر وذلك باستنتاج زمنه بالنظر إلى شيوخه وتلاميذه ومعاصريه. مثلاً: نقلت ترجمة أحمد بن السندي البغدادي المطرز من تاريخ

الخطيب البغدادي في سطرين ونصف فقط، وذكر فيها شيخه يعقوب بن إبراهيم الدورقي، ثم يقول القاضي: ذكره السمعاني في كتاب الأنساب أيضًا ولم أجد سنة وفاته، ومات الشيخ الدورقي في سنة اثنتين وخمسين ومئتين، فكان أحمد بن السندي المطرز من رجال المئة الثالثة.

9. إذا ورد ذكر قبيلة أو عائلة أو شعب غير معروف لكن يحمل أهمية ضمن العبارات المنقولة في الكتاب، كتب المؤلف عليها ملاحظات مفصلة ومقنعة. مثلًا نقلت في ص: 272 ترجمة أبو سالم الزطي الهندي من فتوح البلدان للبلاذري، وجاءت فيها كلمات "السيابجة" و"الزط"، وبشرحهما القاضي بقوله: "السيابجة معرب سياه بجه وعلوج السند، قال ابن فقيه الهمداني في كتاب البلدان: في اليمن، وقال الكلبي: علوج مصر القبط، وعلوج الشام جراجمة، وعلوج الجزيرة جرامقة، وعلوج السواد نبط، وعلوج السند سيابجة، وعلوج عمان المرزن، وعلوج اليمن سامران.

والزط معرب جاث، وقد كان قدومهم إلى العرب في أيام الجاهلية، وكان كثير منهم في جند المسلمين أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأسلموا وحسن إسلامهم ولهم في الإسلام روايات وآثار".

ثم يذكر القاضي في صفحتين ونصف طريقة عيش الزط ومحل إقامتهم من الناحية الجغرافية وخدماتهم في نشر الإسلام وخصائصهم مثل الأنفة والشجاعة وذلك بمساعدة مصادر مختلفة.

10. لأن هذا الكتاب كتاب تراجم وليس كتاب مناقب، لذلك لم تذكر الألقاب الثقيلة مع أسماء العلماء والأئمة والشخصيات، إلا إذا كانت موجودة في عبارة منقولة فذكرت، فكان المؤلف اتبع طريقة أسلافه في هذا الشأن.

سار به الركبان:

وقد تحدثت الأوساط العلمية عن كتاب القاضي وهو في مرحلة التأليف، وكان أصحاب العلم ينتظرونه بفارغ الصبر. ومن شاهده من العلماء وأصحاب الذوق العلمي والتحقيق قبل الطباعة أعجب به وشجّع القاضي على إتمام عمله.

1. يعرف العلامة أبو الوفاء الأفغاني بذوقه في التحقيق وسعة قراءاته وحبه للعلم، وقد كتب الكلمات التالية بعد أن شاهد مسودة الكتاب: قد طالعت تراجم من الكتاب الذي جمعه أخونا الفاضل الجليل القاضي أظهر النبيل في علماء السند والهند من كتب عديدة بجد وجهد، فسرتني جهده حيث ملأ الخلاء الذي لم يسبقه إلى ملئه أحد قبله، شكر الله مساعيه وبارك في قلمه وكشف عليه سبيل إتمامه. (ص: 4)
2. ومن المناسب أن نذكر الأبيات التي نظمها الشيخ بن النذير الطرازي المدني في مدح الكتاب:  
هنيئاً لكم يا سادة العصر أبشروا      كتاب "رجال السند والهند" ينشر  
كتاب به السند السنوية تزدهي      وسفر به الهند الحكيمة تفخر  
كتاب قضى في جمعه نصف عمره      مكرمنا القاضي المفسر أظهر  
يعيش لنا القاضي المؤلف قد أتى      بما جمعه في العصر لا يتصور  
أديب فقيه ناقد متكلم      بليغ ولكن لم تلده زمخشر
3. كتب العلامة سعيد أحمد الأكبرآبادي في مجلة "البرهان" الصادرة من دلهي في عدد شهر مارس سنة 1959م تقريراً شاملاً عن الكتاب، ذكر فيه أهمية الكتاب والخلفية وبعض النقائص أيضاً، ثم يقول: ومع ذلك فإن المؤلف يستحق التهنئة أنه قدّم خدمة جليّة بكتابته هذه التراجم باللغة العربية، وكان الضروري أن يطالع هذا الكتاب كل من يودّ معرفة تاريخ الإسلام في الهند وروابط العرب والهند في قرون الإسلام الأولى والمتوسطة.
4. وكتب المفتي محمد شفيع المفتي الأعظم في باكستان في رسالته للقاضي أظهر في 15 أبريل سنة 1959م: "لقد استفدت من تأليف العلامة قاضي أبو المعالي أظهر المباركوري، جزاه الله خيرًا، قد ملأت فراغًا بتقديمك المنظم لتراجم وسير هذه المجموعة التي تفتخر بها الهند والسند ولكنها مظلومة تاريخيًا". ثم يضيف: "وفق الله المؤلف للمزيد، ويجمع أيضًا تراجم الشخصيات التي وإن لم تولد الهند والسند ولكنها مكثت هنا طويلاً لأجل الاستفادة والإفادة، وجزى الله الناشر الذي

- قام بنشر هذه الخزينة العلمية وإظهارها أمام الأوساط العلمية". (ترجمان الإسلام، العدد الخاص بالقاضي أطهر، ص: 126).
5. يذكر العلامة عبد الماجد الدرابادي في "صدق جديد" عدد: 12 يونيو 1959م خصائص الكتاب: "قد رفع العلامة رأس الكتاب الهنود في العالم الإسلامي، فنهنته والناشر، ونرجو أن يتمكن القاضي من تأليف الأجزاء القادمة وذكر تراجم الشخصيات إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.
6. جاء في رسالة "معارف"، أعظم كره في يوليو 1958م: "قد ألف المؤلف هذا الكتاب بعد جهد جهيد، وجمع المعلومات من آلاف المصادر القيمة، وأضاف كتابًا قيمًا إلى كتب المسلمين العلمية والتاريخية والتراجم والسير، ونهى المؤلف على ذلك.
7. نشر في جريدة "الندوة" مكة المكرمة في شعبان 1378هـ موضوع بعنوان "نظرة في كتاب رجال السند والهند"، وقد ذكر المؤلف اقتباسًا منه في الطبعة الثانية. وكاتب المقال هو: أبو مأمون:....

#### النقد والملاحظة:

لقد صرف القاضي جل جهده وقدرته الاجتهادية في ترتيب وتنقيح الكتاب. ولكنه كان بشرًا، ولا يوجد كتاب على وجه الأرض لا توجد فيه زلات غير كتاب الله، وتزداد إمكانية الزلات إذا كان الموضوع جديدًا، والمواد نادرة، وطريقة العمل هي الحصول على نتيجة غير معروفة بالربط بين الأحداث، ولذلك تناول النقاد هذا الكتاب أيضًا بالنقد والملاحظة، ونشرت انتقادات هادفة أو غير هادفة وقد ظهر أثر ذلك في الطبعة القادمة، وسنذكر ذلك لاحقًا إن شاء الله. ويكون المقال ناقصًا لو لم نذكر هذه التنقيحات، ولذلك نذكر خلاصة أقوال اثنين من المحققين ممن يتصفون ببعد النظر ويستند إلى آرائهم في التحقيق:

1. يكتب العلامة سعيد أحمد الأكبرآبادي رئيس تحرير "برهان" التي سبق ذكرها: "لا يستبعد وجود أخطاء في الأسماء والبيانات في كتاب ضخيم كهذا، وهي موجودة فيه أيضًا، مثلًا في باب الألف الصفحة الأولى الفقرة الثانية السطر

الثاني، الأصح "سريج بن النعمان" بدل "بريج بن النعمان"، وفي الفقرة الثالثة السطر الأول الأصح هو "سندي بن الحسن" بدل "سندي بن البحر". وكذلك في ص: 54 ذكر في ترجمة أحمد بن السندي: "وذكره أنه سمع بالبصرة"، والأصح ذكر كلمة "عنه" بعد "سمع"، (الخطيب البغدادي، الجزء الرابع، ص: 187، وكذلك كان من الممكن المزيد من التحقيق والبحث في ترجمة المشاهير مثل اللغوي المعروف الحسن بن محمد الصغاني.

وأقول أن "سريج بن النعمان" صحيح، وقد ذكر كذلك في تاريخ الخطيب، وهو من الرواة الذين روى عنهم الخطيب بكثرة، ولا أدري لماذا لم يقيم المؤلف بالتصحيح في الطبعة الثانية! أما "سندي بن بحر" فلو أنه ذكر في تاريخ الخطيب مثلما كتب المعلق ولكنه مما لا يؤخذ عليه، لأن النسبة قد تكون إلى الجد بدل الوالد، وأما ما يتعلق بالصغاني فقد زاد وحذف المؤلف في الطبعة الثانية بعد إعادة النظر. بل ليس من الخطأ أن نقول إنه كتب هذه الترجمة من جديد. لاحظ (الطبعة الأولى ص: 104.98) والطبعة الثانية (95.92).

2. أما المقال النقدي الثاني فهو في الحقيقة دراسة مفصلة لكتاب "رجال السند والهند". كاتب المقال هو العلامة أبو محفوظ الكريم المعصومي، أستاذ التاريخ في المدرسة العالية بكونكاتا، ولأن التاريخ مجاله فقد قام بقراءة الكتاب بكل دقة، وراجع المراجع وقارن المعلومات بما لديه من ذخيرة علمية. وهو مقال طويل جداً لدرجة أنه طبع في ثلاثة أعداد من البرهان من يوليو إلى سبتمبر 1959م في حلقات في 40 صفحة تقريباً، ولا شك أن أكثر النقاط التي أثارها الناقد تلفت الانتباه، لذلك نقدّم هنا خلاصة المقال للاستفادة:

#### النقاط الأساسية:

النقد (1). من الصواب اعتبار السند والهند دولتين مستقلتين بالاتفاق مع المؤرخين والجغرافيين العرب القدماء، لكن توسيع الدائرة وإدخال بعض المناطق البعيدة وجعلها مناطق سنديّة يحتاج إلى إعادة النظر، فمثلاً جعل باميان من مناطق السند وذكر تراجم العلماء الباميانيين ليس بصحيح، (ثم يذكر المعصومي تحقيقاته)،

فذكر أحمد بن الحسين بن علي الباميانى ومحمد بن علي بن أحمد أبو بكر الباميانى غير صحيح، وكذلك يعتبر الناقد "زمن داور" أو "أرض الداور" مناطق غير سنديّة.

موقف القاضي: أما المؤلف فهو مطمئن بجعل باميان منطقة سنديّة، ولذلك أقر بالعلماء الباميانيين بل أضاف إلى الطبعة الثانية الحكيم أفضل الباميانى الذي ذكره الناقد. (انظر: الطبعة الثانية، ص: 73)

النقد (2). حافظ على التصحيح القديم في مدينة "بيرون" السنديّة المعروفة، والصحيح هو "نيرون" بالنون، وقد ذكرت ترجمة أبي الريحان البيروني في الكتاب بسبب التسليم ببيان جغرافي خاطئ، وقد ثبت بالتحقيق أنه كان من خوارزم.

موقف القاضي: إن رأي أغلب المؤرخين المستندين يوافق ما رآه القاضي، لذلك لم يعمل بالتحقيق الجديد، بل ذكرت ترجمة البيروني بشكل أفضل وأقوى في الطبعة الثانية، وأضيفت تصريحات تثبت كون البيروني سندي الأصل. (انظر: الطبعة الثانية، ص: 104).

النقد (3). إن الشخصيات المذكورة في كتاب "رجال السند والهند" هي التي كان مولدها ومنشأها إحدى مناطق السند، سواء كانت الوفاة في مدينة خارج السند، أو الذين كانت أصولهم سنديّة ولكن مولدهم ومسكنهم دولة أخرى، أو الذين هاجروا من بلدانهم إلى مناطق سنديّة.

وإذا نظرنا إلى تراجم الكتاب بشكل سريع نجد أن المؤلف خالف الشرطين الأولين عمدًا أو من غير قصد، فالشروط والقرائن التي تثبت كون الشخص سندي الأصل أو المولد غير متواجدة لدى المؤلف.

والحقيقة أنه توجد في كتب التراجم والطبقات كثير من الشخصيات التي سميت أو كُتبت أو لُقبت بالسندي، الهندي، أبو السندي، أبو الهندي، ابن السندي، ابن الهندي وغيره، ثم انتسب إليهم أولادهم فلقبوا بالسندي أو الهندي، ولذلك ليس من الضروري أن كل من تلقب بالسندي أو الهندي هو سندي أو هندي الأصل، إلا إذا ثبت ذلك بتصريح كتاب التراجم أو القرائن التاريخية. (ثم يذكر الناقد في عدة

صفحات الدلائل على ذلك، إضافة إلى فهرس الشخصيات التي لا ترجع أصولها إلى السند حسب الدلائل).

موقف القاضي: لم يقبل المؤلف تحقيق الناقد حول السندي، أبو السندي، الهندي، أبو السندي، لذلك لم يغير أي شيء، ولكن وامثالاً لما أشار إليه الناقد في شأن أبي الهندي المحدث (ص: 286)، وأبي الهندي المحدث الثاني (ص: 287)، وأبي الهندي الكوفي الشاعر (ص: 287) فقد حذف المؤلف تراجمهم لأنه لم يثبت انتمائهم إلى الهند حقيقة.

النقد (4). خطأ أساسي تكرر كثيراً هو أن بعض النسب التي تتعلق بمدن مختلفة ذات الاسم الواحد، أو أنها مختلفة ولكن تتشابه في الكتابة، أخطأ فيها المؤلف بسبب عدم التمييز بينها، مثلاً: يعتقد المؤلف أن "المنصوري" تكون نسبة "منصورة السند" فقط، ولكن كانت هناك مدن بنفس الاسم في خوارزم وأرمينيا وطبرستان وغيرها من المناطق، وكذلك نسبة "البوقاني"، فبوقان منطقة معروفة في السند، ولكن وجدت مناطق أخرى بأسماء مشابهة، ونسبة "الديبلي" إلى منطقة "ديبل" السندية المشهورة، وتوجد نسبة مشابهة "الديبلي"، وهي إلى منطقة "ديبل" الشامية. (وحاول الناقد إثبات قوله بأمثلة مدللة).

موقف القاضي: يكتب القاضي في مقدمة الطبعة الثانية في هذا الشأن:

"وما حاولت من نفسي تسنيد الرجال وتهنيدهم إلا من وجدت نسبه إلى السند والهند صراحة في كتب القوم، ومع هذا فأنا في شك من بعض الديبليين، أ هو من ديبل السند: بالياء المثناة ثم الباء الموحدة، أو من ديبل الشام: بالياء الموحدة ثم الياء المثناة، وكذلك من بعض البوقانيين أ هو من بوقان السند بالياء الموحدة، أو من نوقان بالنون، أو من نوقان بالياء المثناة". (رجال السند والهند، طبعة دار الأنصار، ص 14)

النقد (5). يقول الناقد أنه قد أتى بأدلة كافية وواضحة للاختلاف مع المؤلف في جعل الشخص سندياً أو هندياً، ولكنه يذكر بعض التراجم التي لم تذكر وكانت موافقة لوجهة نظر المؤلف. (ثم يذكر الناقد هذه الأسماء).

موقف القاضي: كتب الناقد اسم إبراهيم بن السندي بن علي بن بهرام بالإشارة إلى "تاريخ أصفهان" لأبي نعيم أنه يكمل شروط المؤلف، لذلك يجب ذكر ترجمته، وربما يكون إبراهيم بن علي السندي المذكور في (ص: 68) بالإشارة إلى "حلية الأولياء" هو نفسه، وإن اعتبرناهما شخصية واحدة فيمكن زيادة مواد ترجمته لأن سنة الوفاة مع تفصيلات أخرى مذكورة في تاريخ أصفهان. وقد ضم القاضي الشخصيتين وأعدّ ترجمة واحدة مفصلة. (انظر: الطبعة الأولى، ص: 68، والطبعة الثانية، ص: 59).

وكان الناقد قد أشار إلى بعض الأسماء بضرورة إدخالها إلى الكتاب لأنها تتعلق بالموضوع، وقد أدخل المؤلف ثلاثة منها في الكتاب وهي:

1. أبو حفص عمر بن محمد بن سليمان المكراني (الطبعة الثاني، ص: 179)
2. عبد الرحمن بن أبي يزيد مولى عمر بن الخطاب (ص: 164)
3. دوم السندي النبازية (ص: 113)

ولا شك أن أفضل المجهودات العلمية لا تصل إلى درجة الكمال إلا بعد النقد والنظر، وأن كثيراً من الجوانب المهمة المتعلقة بالموضوع أو الكتاب لا تظهر وتنقح إلا بعد نقد الناقلين، ولذلك قدّم المؤلفون جهودهم في كل عصر إلى أصحاب العلم الأجلاء وتدبروا التعديلات المقترحة.

ولا عيب إذا قلنا أن التميز الذي كان من نصيب الطبعة الثانية لكتاب "رجال السندي والهند" للقاضي أظهر لم يكن من الممكن الحصول عليه لولا المناقشات العلمية والنقد من قبل الناقلين إضافة إلى رؤيته النقدية وذوقه وتحقيقه الخاص. وذلك كما لاحظت في خلاصة مقال العلامة أبو محفوظ الكريم المعصومي.

المرحلة الثانية: تتكرر الطبائع بشكل عام بعد الارتباط بموضوع معين لأيام عديدة، وخاصة إذا كان الموضوع قد وصل إلى تمامه إلى حد ما، ولكننا لا نجد السامة والملل عند القاضي أظهر أبداً، كان يرجع إلى الموضوع مراراً وتكراراً، يعيد النظر في المواد يهذبها وينقحها، ويواصل سلسلة إضافة كل جديد إليها. كان القاضي قد كتب في

الطبعة الأولى: "ولم نذكر الذين جاؤوا إلى الهند وتأهلوا وتوطنوا فيها، ومن حقوقهم علينا أن نذكرهم أيضًا وهم كثيرون، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

ولذلك فقد قام بسد هذا الفراغ مع الأمور الأخرى المهمة، وهذب ونقح وأضاف وحذف خلال فترة العشرين عامًا، مما رفع من منزلة الكتاب وزاد من أهميته. وطبع الكتاب من بشكله الكامل من دار الأنصار بالقاهرة في 1978م. يكتب القاضي في ذكر سفره إلى مصر في يناير 1978م: "إنه لشيء ممتع بالنسبة لأهل العلم أن كتابي "رجال السند والهند" طبع قبل عشرين سنة ونسخه نادرة الآن، ويبحث عنه في البلاد العربية خاصة، علاوة على ذلك فقد أضفت كثيرًا من التراجم الجديدة، ورتبته من جديد وقمت بإعداد "الجزء الثاني" منه، وبذلك ازدادت أهميته، حملت معي في هذا السفر مسودة الكتاب لكي يطبع في دولة عربية، وتم الاتفاق مع دار نشر في القاهرة على طباعته ونشره، وإن شاء الله سوف يطبع وينشر من هناك بعد مزيد من التنقيح والتحقيق والإضافة". (ترجمان الإسلام، العدد الخاص بالقاضي أطهر. ص: 161).

#### مميزات الطبعة الثانية:

1. تم حذف تراجم الفلاسفة والأطباء الهنود قبل العصر الإسلامي إضافة إلى ملوك مالديب وحكام سومرة، وبذلك بلغ عدد الفلاسفة والأطباء المحذوفين 25، والمحذوفين من السلاطين والأمراء 32 أو أكثر.
2. حذفت تراجم بعض أصحاب العلم الذين ثبت للمؤلف أنهم ليسوا من أصول هندية أو سنديّة، مثلًا: المحدث المشهور عبد بن حميد الكسي (بالكسر)، فقد ذكر في الطبعة الأولى (ص: 165.167) وذلك نسبة إلى "كس" (بالفتح)، (يعني كس غجرات)، فقد كتب المؤلف في ترجمته: "إنما أوردنا جميع ما ذكره الحموي في "كسي" لأن الناس يختلفون فيها، ولأنه صرح أن عبد بن حميد الكسي من كس الهند وهي معرب "كجهر"، ولكن اتضح له فيما بعد أن النسبة هي للكس (بالكسر) والتي تقع في منطقة ما وراء النهر قرب "نخشب". وعلى هذا الأساس حذفت بعض الأسماء منها: سهيل بن ذكوان أبو السندي المحدث (ص: 152) أبو سعيد المالكي

الهندي الفقيه (ص: 375) أبو الهندي الشاعر (ص: 287)، ويبلغ عددهم ستة عشر فردًا أو أكثر.

3. أعيد النظر في بعض التراجم وتم الحذف أو الإضافة فيها، مثلًا: كانت ترجمة إبراهيم بن السندي بن شاهك مفصلة في الطبعة الأولى (ص: 70) ولكنها اختصرت جدًّا في الطبعة الثانية (ص: 64)، وكذلك أبان بن محمد السندي في الطبعة الأولى (ص: 66) وفي الطبعة الثانية (ص: 59).

4. زين الكاتب الطبعة الثانية بإضافة كثير من التراجم الجديدة، فقد تمت إضافة 75 من أصحاب العلم الذين لم يذكروا في الطبعة الأولى. ومن بينهم: المحدث المشهور إسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن عليّة، وولده حماد بن إسماعيل وإبراهيم بن إسماعيل، وبلغ عدد الشخصيات المذكورة في القسم الأول للطبعة الثانية بعد حذف عدد يعتد به من الطبعة الأولى 303 شخصية.

القسم الثاني: (5). كما علمنا فقد أضيف القسم الثاني إلى الطبعة الثانية، وهو تأليف مستقل، اشتمل القسم الأول فقط على الشخصيات التي ولدت في السند والهند وعاشت فيها ولو كانت وفاتها في أي دولة أخرى، أو التي كانت أصولها سنديّة أو هنديّة ولو أنهم عاشوا في بلاد أخرى، أما القسم الثالث فهو للشخصيات التي تعود أصولها إلى بلدان أخرى ولكن لأسباب سياسية أو اقتصادية أو دعوية سكنوا منطقة معينة من الهند أو السند، أو عادوا بعد إتمام مهمتهم، وهؤلاء لم يتم إضافتهم في القسم الأول عمدًا، وإن وجد بالخطأ غير المقصود فقد نقل إلى القسم الثاني في الطبعة الثانية، مثلًا: كانت ترجمة عمران بن موسى بن يحيى البرمكي المذكورة في الطبعة الأولى في (ص: 189) وهي الآن في القسم الثاني (ص: 468). ويعتبر هذا القسم عملاً جليلاً في تاريخ الثقافة السنديّة والهنديّة، وبلغ عدد صفحاتها 272 بترجمة 245 شخصية من ضمنهم 14 من الصحابة الكرام (بغض النظر عن أن هناك خلأً في كون بعضهم صحابياً، أو الراجح في البعض أنه لا يعدّ من الصحابة)، وقد قدّمهم المؤلف لشرفهم ومكانتهم، وكتب مقدمة قيمة ربّبت بعد مطالعة كتب علوم الحديث

عن قدوم الصحابة إلى الهند، ثم ذكرت تراجم الرجال الذين يكملون شروط القسم الثاني وذلك حسب الحروف الهجائية.

وبذلك يبلغ عدد التراجم في القسمين 548 ترجمة، والتي حسب قول القاضي لا تتجاوز جزءاً من ألف جزء لأصحاب العلم في السند والهند.

كان هذا بعض التفصيل للإجمال الذي ذكره المؤلف في قوله: "وفي خلال هذه الفترة حصل لي كثير من التراجم الجديدة في جنب الاستدراكات المفيدة فألحقتها في مواضعها... إلى قوله: "لتكون الطبعة الثانية أحسن من الأولى".

النهاية: كان هذا أول تأليف مهم للقاضي رحمه الله، والذي قطع فيه قلمه مسافات التدوين والتهذيب والتنقيح ووصل إلى مقصوده، واعترف به العالم أجمع، ولكن من المؤسف أن الناس عامة في الهند لا يعرفون أهميته، إلا أنه لا يقل عدد المعترفين به في العالم الإسلامي، والضرورة الآن أن يتم تحقيق هذا العمل الرائع حسب أصول التحقيق الحديثة ويتم طباعته بشكل جذاب لزيادة نفعه وفائدته. لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> نشر الأصل في العدد الخاص بالقاضي أظهر المباركفوري لمجلة "ضياء الإسلام" الصادرة عن مدرسة شيخ الإسلام بشيخوفوره، أعظم كره، ص 341-361

## الكلب

- الشيخ بدر جمال الإصلاح<sup>1</sup>

الكلب في المعاجم: الكَلْبُ جمعه كِلَابٌ وأكْلَبُ وجمع أكالِب وكلابات: كلّ سبع يعُضّ، وغلب على الحيوان النايح المعروف. والكلبة: أنثى الكلب، وولد الكلب: الجرو (بتثليث الجيم) ج جِرَاءٌ وأجرٍ وأجريّة.

الكلاب البريدية: هي التي عوّدت حمل البريد ونقله من مكان إلى آخر في أيام الحرب. كلب الماء أو كلب البحر: سمك بينه وبين الكلب بعض الشبه وهو طويل الذنب، قصير القوائم والأذنين، لونه أحمر قاتم. كفّ الكلب: عشبة منتشرة تشبه كفّ الكلب الحيواني.

لسان الكلب: نبات

كلب الجبار، والكلب الأكبر وكلب الراعي: أسماء نجوم سمّيت بذلك على التشبيه بالكلاب الكلب ج كلبون: المصاب بداء الكلب

الكلب: داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعض الناس فيكُلب الناس أيضًا إذا تمنعوا عن استعمال لقاح بالسنور.

الكلب: العطش الشديد، لأن صاحب الكلب يعطش.

الكلبان: آلة من حديد يأخذ بها الحدّاد الحديد المحمي، وآلة تُتخذ لقلع الأضراس النخرة، ويقال لها أيضًا الكلابة.

<sup>1</sup> أستاذ الأدب العربي بمدرسة الإصلاح، سرائر مير، أعظم كره (الهند)

الكُلبَة: الشدة والضيق، والقحط، وشدة البرد

الكَّلاب ج كلاليب: صاحب الكلاب، معلم الكلاب الصيد، حديدة في الرجل.

المكَّلب: معلم الكلاب الصيد<sup>1</sup>

يعرّف الكلب بأنه حيوان أهلي من الفصيلة، الكلبية ورتبة اللواحم، وفيه سلالات كثيرة، تربي للحراسة أو للصيد أو للحرب.

كَلَّبَ الأسير: قيده بالكلب، والكلب ونحوه، علّمه أخذ الصيد. وفي التنزيل العزيز (وما علمتم من الجوارح مُكَلِّبِينَ).

تَكَالَبَ القوم: تظاهروا بالعداوة، و--- على الأمر: حرصوا عليه، و--- على الشيء: توثبوا كما تفعل الكلاب<sup>2</sup>

الكَلْبُ كل سبع عقور، وفي الحديث: أما تخاف أن يأكلك كلبُ الله، فجاء الأسد ليلاً فاقتلع هامته من بين أصحابه، والكلب معروف، واحد الكلاب، قال ابن سيده: وقد غلب الكلب على هذا النوع النابج، وربما وصف به، يقال: امرأة كَلْبَةٌ، والجمع أَكْلَبٌ وأكالبُ جمع الجمع.

وكلابٌ: اسم رجل سعي بذلك ثم غلب على الحي والقبيلة.

والكالب: كالحامل والباقر، ورجل كالب وكلاب: صاحب كلاب، مثل تامر ولابن مُكَلَّب. مُفَرِّقٌ للكلاب على الصيد، معلّم لها، وقد يكون التكليب واقعًا على الفهد وسباع الطير. وفي التنزيل العزيز: وما علمتم من الجوارح مُكَلِّبِينَ، فقد دخل في هذا: الفهد، والبازي والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح. المُكَلَّبُ: الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد. وفي حديث الصيد، "إن لي كلابًا مكلبة فافتني في صيدها."

وأرض مُكَلَّبَةٌ، كثيرة الكلاب.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> المنجد في اللغة، مادة: كلب

<sup>2</sup> المعجم الوسيط، مادة: كلب

<sup>3</sup> لسان العرب، مادة: كلب

الكلب من الفصيلة الكلبية وينتهي إلى هذه الفصيلة أيضًا الذئب وابن أوى والثعلب، وكان يستخدمه الإنسان في الصيد والحراسة منذ فجر التاريخ كما عرف من الحفريات والصور التي نقشت على جدران الكهوف، والكلب أول الحيوانات التي ربّاه الإنسان لمأربه من صيد الهائم وحراسة مواشيهم وبيوتهم وقد ربّاه أولاً أهل فارس والعرب، وفراعنة مصر أيضًا كانوا يستخدمونه في شؤونهم المختلفة والأشوريون أيضًا كانوا يعرفونه، وكانت الكلاب توجد في لهرفا وموهن جودارو بوادي السند، ويضرب المثل بوفاء الكلب من قديم الزمان وكانوا يستعملونه حتى اليوم في الصيد وحراسة المواشي ولصيانة البيوت، ويستخدمه الشرطة في القبض على المجرمين وتفتيش الجرائم وتسمّى الكلاب الحمراء الوحشية في الهند (دهول) (Dholes) وهي تعيش في الأدغال والمناطق الجبلية مع الجماعات وانتشر هذا الجنس في جميع الأطراف من جنوب الهند وشمالها، حتى إلى جاوا وساماترا في جزر الهند الشرقية ويقطن على الخنازير البرية والغزلان ويهجم على المواشي الأهلية في بعض الأحيان وهو يعيش مع السرب ويشتمل السرب على اثني عشر فردًا أو زائدًا عليه وينام طول النهار في الغابات الكثيفة أو كهوف الجبال أو الشقوق الصخرية. وتلد الكلبة من 4 إلى 6 جراء في بطن واحد.<sup>1</sup>

كلب دنگو (Dingo) يوجد في غابات أستراليا، ووردها مع من جاء من الآسيويين القدماء، وكان يهجم على كنعر والغنم، ولونه كان ورديًا.

وقد اختلطت في عصرنا هذا مع الكلاب الأوروبية، والآن لا يوجد قسمه الأصلي.

الكلب (الاسم العلمي *Canaslupust amiliaris*) هو حيوان من الثدييات من فصيلة الكلبيات من اللواحم، دجن هذا الحيوان واستأنس 14000 إلى 150000 سنة عادة ما يتم وصف هذا الحيوان بالوفاء، ويطلق عليه لقب "أفضل صديق للإنسان" ذلك لقدرته العالية على تذكر صاحبه، ولو بعد انقطاع طويل عنه، توجد منه سلالات كثيرة مختلفة الطباع والمهمات، منها كلب الصيد، وكلب الحقول، وكلب الرعاة، وكلب الحراسة، والكلب البوليسي، وكلب جرای هاونو، وكلب مرافقة المكفوفين، وكلب الزلاقات، أي الكلب الذي يستعمل لجر العريات على الجليد.

---

<sup>1</sup> جامع أردو انسائيكلوبيديا، 340/6

التصنيف العلمي:

النطاق	حقيقيات النواة
المملكة	الحيوانات
الشعبة	الحبليات
الطائفة	الثدييات
الرتبة	اللواحم
الفصيلة	الكلبيات
الجنس	الكلب

**تاريخ الكلب:** الفصيلة الكلبيية (باللاتينية Cowda) التي تحوي الذئب والثعالب وأبناء آوى، ويعتبر الكلب من أوائل الثدييات التي روضها الإنسان من الذئب التي كانت قد ظهرت منذ 60 مليون سنة، وعاشت معه طوال 14 ألف سنة، وهو من سلالة الذئب التي كانت تتجول في أوروبا وآسيا وشمال أمريكا، وكانت الذئب تتجول في القرى في نصف الكرة الشمالي بحثًا عن الطعام 12 ألف سنة، وحاليًا توجد سلالات عديدة منها، وجدت هيكل عظام كلاب في الدنمارك وإنجلترا واليابان وألمانيا، والصين ترجع لعصر ما قبل التاريخ.

وكان ابن آوى يعرفه قدماء المصريين، وكانوا يصنعون التماثيل، جسمها جسم كلب، رأسه رأس حيوان ابن آوى، وقد وجد تمثال لأنوزيس في مقبرة نوف عنج آمون التي يرجع تاريخها إلى سنة 1330 ق. م، ولقد وجد أيضًا سلالة الكلاب السلوقية في مقابر قدماء المصريين، وكانت تحفظ منذ سنة 2100 ق.م. بجوار الفراعنة داخل الأهرامات، واستطاع الرومان والإغريق إنتاج سلالات منها، وكان نوع (الماشين) (باللاتينية Dalmation) مدرّبًا على الصيد وجر العربات منذ سنة 1800 ق.م.

**السلوك:** وكانت الكلاب يتخذها الإنسان في الحراسة والصيد وجر العربات، وكانت تستخدم في الحرب للحراسة وحمل الرسائل، وهناك كلاب مدرسية تقود العميان

والصم في الشوارع والعمل المتزلي كتنبيه الصم لجرس التليفون أو الباب أو قيادة الأعمى للتجول داخل البيت أو عبور الشارع.

وبعض أنواع الكلاب تتسم بحاسة شم قوية، ولهذا تدرّب على مهام أخرى كالكشف عن المخدرات والمفرقات والديناميت والنمل الفارسي والغرقى بالماء بالأعماق، يمكن البحث عن المفقودين في الزلازل والحرائق.

وبعض الكلاب يمكنها التنصت على الأصوات التي لا يسمعها الإنسان بأذنيه، حتى أن الكلب يقدر على دقات الساعة عن بعد 40 قدمًا.

والكلاب المنزلية تختلف في الشكل والمظهر والحجم واللون ورغم هذه الاختلافات في كل فصائل الكلاب إلا أنها لجميعها متطابقة من الناحية التشريحية، فعدد عظام الهيكل العظمي 321 عظم، وتختلف السلالات في أعداد عظام الذبل، لكن قفصها الصدري يتكون من 13 زوجًا من الأضلاع، يتكون العمود الفقري من 7 فقرات، في الرقبة و13 فقرة في الصدر، و7 فقرات قطنية، وثلاث فقرات في الحجز، والرجلين الخلفيتين، في كل منهما 4 مخالب و4 أصابع، وتوجد مخالب في أربعة أو خمسة أصابع بها، وللجرو 28 سنًا موققة، لكن بعد عمر 6 شهور تستبدل ويصبح عددها 42 دائمة.

وتعيش كل فصائل الكلاب في كل قارات العالم ما عدا القطب الجنوبي وفي الأحرش والغابات بالمناطق المعتدلة والمطيرة، وبالصحراء والجبال والتندرا.

وتعتبر الذئاب الرمادية أسلاف الكلاب الأليفة وهي أكلة اللحوم الحيوانات الكبيرة كالجاموس والحريث والأيل، والحيوانات الصغيرة كالآرانب والفئران.

والكلاب تستطيع بحدة سمعها وحاسة شمها لحراسة مناطق شاسعة من الذئاب أو للبحث عن الطعام. وتزاوج الذكور مع الإناث في شهر يناير، وتلد بعد ذلك من 5 إلى 6 جراء ترضعها الأم من حلمات ثديها، وتشاركها في الطعام بعد الفطام، تولد الجراء عمياء، وتكون غير قادرة على الوقوف، وتقضي 90% من وقتها نائمة، وبقيّة الوقت ترضع فيه، ولا يمكن للجراء مقاومة البرودة العالية بسبب عدم نضج دورتها الدموية،

لهذا تلتصق بأمها للحصول على التدفئة، وتنظف الأم الجراء وتقوم برعايتهم كغيرها من إناث الثدييات بينهما لا يقوم الأب بأي دور في تلك المهمة.

وتوجد بين الكلاب لغة من بينها لغة الجسم وتعابير الوجه ورفع الذيل وفرو الأذنين ووهوف الشعر فوق الظهر يدل على الخوف والانزعاج أو العدوان أو الخنوع، وهذه الإشارات لها أهميتها، كما أن في حالة الحدة والعداء الشديد يكشر الكلب عن أنيابه، ويرخي أذنيه وينتصب ذيله وتتصلب أرجله، وينتصب شعر ظهره ويزدم وينبح وتحدد الكلاب حدود مناطقها ببولها، فرائحة لغة تخاطب لتحذير بقية الحيوانات ولا سيما بين الكلاب الأخرى ويدافع عن هذه الحدود بالنباح أو الزمجرة، أو التعبير بلغته عامة، والكلاب الأليفة تميل للتدريب للتعبير عن ولائها لصاحبها ولنيل إعجابه. والكلب يعيش من 8-12 سنة حسب البيئة التي تعيش فيها والعناية به، وقيل اقتناء كلب يجب أن يكشف عليه الطبيب البيطري بعناية لعلاج أمراض المصاب بها أو تطعمه ضد مرض الكلب (أسعار) والكلب يحتاج إلى الغذاء الجيد، والنظافة والمأوى والتريض في الخارج والماء، والتدريب لمدة 16-30 دقيقة يوميًا وبصفة مستمرة.

**التكاثر:** تتكاثر الكلاب كغيرها من الثدييات عن طريق الاتصال الجنسي الذي ينتج عن تلقيح لبونصة الأنثى بحيوان منوي من الذكر، وتبلغ الأنثى في حوالي الشهر الثامن من العمر ويكون بظهور الحيض لأول مرة التي تصاحبها تغيرات في السلوك وداخل الجسد لاستعداد الجسد للاتصال الجنسي، بينما يبلغ الذكر قبل ذلك بشهر تقريبًا، وقد يتأخر لغاية سنتين في الكلاب ذات الأحجام الكبيرة، وتتراوح مدة الحمل في الكلاب من 56 إلى 72 يومًا بمتوسط 62 يومًا، يرجع سبب الاختلاف والتراوح في المدة إلى عدة عوامل كالمناخ والتغذية والنوع.

**في الثقافة العامة:** إن المصريين القدامى كانوا يقدسون الكلاب، وكانت من حيواناتهم المفضلة في بيوتهم، والمصريون يقدسون أيضًا ابن أوى بسبب الاحترام والخوف منه، وكان الإله "أنوبيس 19 كمنة" كان شبه الكلب، والعرب كانوا يعتقدون أن الكلب نجس ولكن كل العرب لم يكونوا يعتقدون ذلك، بل فهم من كانوا يحبونها ويربونها بسبب

وفائها وأمانتها وحرصها على أصحابها، وفي الكلب كتاب للإمام أبو بكر بن حلف بن المرزبان كتبه 387هـ وفيه أشعار جميلة وقصص في مدح الكلب.

إن الكلب هو أقدم الحيوانات المستأنسة أو على الأقل من أقدامها، ورسوماته موجودة في رسومات المصريين القدامى في العصور الفرعونية وكان في تلك الأيام يستخدم في الصيد.<sup>1</sup> نظرة عن أصل الكلب: ينسب علماء الحيوان الأصل المحتمل للكلب إلى ذئب صغير من الهند، يسمى باللاتينية (Cavis Pallipes<sup>2</sup>) وقد تم تدجين الكلب حوالي سنة 10 آلاف ق. م، أي قبل تدجين العتزة والخروف والخنزير والثور والديك الرومي، والقطة والدجاجة والحصان والحمار.

أما بموجب المعتقدات الشبيهة فيزعم البعض أن الكلب من الجن والحن (ضعفة الجن) ونوع من المسخ<sup>3</sup> على أساس أن أمتين مسختاهما: الكلاب والحيات<sup>4</sup> وهذا يدخل ضمن الأسطورة التي تزعم أن الكلاب أمة من الجن، مسخت على هذه الصورة<sup>5</sup> لذلك يذكر المسعودي في ذكر الأمم المخلوقة قبل آدم<sup>6</sup> "يقال أنه كانت الجملة ثمانين وعشرين أمة بإزاء المنازل العالية التي يحلها القمر... ومنها الجن ومنها ضعفه الجن، وهي أمة في صور الكلاب لها أذنان وكلامها همهمة لا يفهم، ومنها أمة تشبه بني آدم، أفواههم في صدورهم يصفرون تصفيراً".

ويعتبر الجاحظ<sup>7</sup> هذا الرأي ضمن الخرافات، وقيل أيضاً أن الكلب خلق من ريق إبليس<sup>8</sup>، لأنه بزق على آدم وهو طين، وخلق الكلب من ذلك الطين، فأصبح من الشياطين.

<sup>1</sup> ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

<sup>2</sup> Encyclopedia Unirversales، 752-748/VP

<sup>3</sup> كتاب الحيوان، 222/1

<sup>4</sup> المصدر نفسه، 292/1

<sup>5</sup> المصدر نفسه، 297/1

<sup>6</sup> أخبار الزمان، ص 32

<sup>7</sup> كتاب الحيوان، 68/4

<sup>8</sup> عجائب وغرائب للقلوبي، ص 221

كما قيل أن نوحًا أمر أهل السفينة أن لا يقرب ذكر من أنثى فخالف الكلب<sup>1</sup> ويحكى أيضًا عن نوح أنه ذبح سبعة حيوانات، منها الكلب وصب دماءهم في أصل كرمة يابسة فخملت سبعة ألوان من العنب.<sup>2</sup>

مواقف بعض الشعوب الشرقية القديمة تجاه الكلب: صورة الكلب نادرة جدًا في المنمنمات العربية في القرون الوسطى إلا في كتب الطب كإيضاح لداء الكلب، ولا توجد صورة الكلب في مقامات الحريري ولا في صور القرى والبيوت عند المسلمين.

بينما الشعوب الشرقية القديمة كالأشوريين والفرس صورت الكلب في منحوتاتها وخاصة كلب الصيد أو في مناظر الصيد.

غير أن الفرس (الزرادشتين) اعتبروا الكلب نجسًا إلا إذا كان يستخدم في حراسة الماشية، بهذا الأمر ينتهي الكلب إلى الخلقة الجديدة أو الرديئة<sup>3</sup> مثل الخير والشر.

وكان المجوس يستخدمون الكلب في اختبار الموتى، فالكلب لا يخفي على الميت من المغشي عليه، ولا ينفع عنده التماوت لذلك لا يحمل من مات من المجوس إلى النار حتى يدنى منه كلب<sup>4</sup>.

ويحكى عن بعض حكماء الفرس أنه قال: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه حتى انتهى في ذلك إلى الكلب، فقبل له: فما أخذت من الكلب، قال ألفه لأهله وذبه عن صاحبه<sup>5</sup>.

ونلاحظ في كليلة ودمنة، وأصله هندي، ولكنه وصل إلينا بواسطة الترجمة الفارسية، أنه لا يوجد باب أو قصة تتعلق بالكلب، وقد ذكرت كلمة كلب بلمحة خاطفة<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 224

<sup>2</sup> حيوة الحيوان الكبرى، 7/1

<sup>3</sup> C.De marles (L) Auiesta، ص 148-135

<sup>4</sup> كتاب الحيوان، 375/1 و789/2 و351/3

<sup>5</sup> حيوة الحيوان الكبرى، 7/1

<sup>6</sup> كليلة ودمنة، ص 85 و170

ويذكر القليوبي<sup>1</sup> خيانة الكلب في قصة الملك الفارسي گشت سب، وكيف أن الراعي صلبه عصا دقته الذنبة التي كانت تسرف الغنم وكان للملك وزير كثير الفساد يدعى "راست روش" فصلبه جزاء خيانتته بعد أن علم بقصة الكلب. وهذا يعني أن الفرس كانوا ينظرون بسلبية إلى الكلب بوفائه وأمانته. فإن صادق ذنبة ونام معها، فهذا يرجع لتكوينه الجنسي وميله نحوها، وليس لخيانتته.

أما عند المصريين القدماء فقد اشتهر آلهة مراسم دفن الموتى أو المقابر، وهي ترمز للكلب مثل أنوبيس<sup>2</sup> Anobis، وختامينو وأوجواء، ويبقى أنوبيس أشهرها حيث كان يظهر أحياناً بشكل إنسان ذي رأس الكلب أو بشكل كلب<sup>3</sup>، ويعود أصله إلى مصر العليا (الدلتا) ومركز هذه المنطقة سمّاها اليونان مدينة الكلب<sup>4</sup> Cynopolis ويقال أن حاكم مدينة عرف الفينيقية أرسل إلى فرعون مصر رسالة، يقول فيها:

"مولاي! أنا عبدك وغبار قدمك، أسجد عند موطن قدميك سبع مرات وأؤكد أنني خادم الملك وكلبه الأمين."

ويبدو أن الفينيقيين لم يأكلوا لحم الكلب مثل بعض سكان شمال إفريقيا وخاصة في المناطق الصحراوية، حيث كانت هذه العادة لديهم منذ القدم، واستمرت حتى الآن ومما يؤكد أن قرطاجة عرفت أكل لحم الكلب هو أن داريوس (Darius) منع القرطاجيين من ذبح الضحايا البشرية ومن أكل لحم الكلب<sup>5</sup>، ويقال أن جزركا ناري سمّيت بهذا الاسم بسبب هذه العادة، وفي جنوب الأطلس المغربي سكن شعب كان يتغذى بلحم الكلب<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> حكايات وغرائب، ص 92-93

<sup>2</sup> Histoire Generale des religions les Primitifs، ص 171

<sup>3</sup> هناك صور للإله أنوبيس في نفس المرجع، راجع: الصفحات: 159، 183 و 214

<sup>4</sup> 512/1. Encyclopaedia of Religion and Ethics

<sup>5</sup> Bulletin de liaison saharieme، ص 2

وفي الشرق الأقصى اشتهرت الصين وجزيرة سومطره بأكل لحم الكلب واستخدام أجزائه في الطب الشعبي، وفي الفلبين يعتبر لحم الكلب أشهى اللحوم في يومنا هذا.

<sup>6</sup> Bulletin de liaison saharieme، ص 3

أما عند اليهود فتحكي التوراة عن الكلب بتحقيقه، ويقصدون الكلاب الضالة التي تطوف الشوارع وتأكل القاذورات، تهاجم المارة والعابرين من السكان، لذلك استعملت كلمة كلب للتحقير، وكان يسمح تربية كلاب الماشية والرعي لاستعمالها في الحراسة والصيد. ويوجد في كتاب المسنة ما يميز بين الكلب العادي الذي يشبه الذئب، والكلب الضاري غير الداخن الذي يشبه ابن أوى.

وكان اليهود يعرفون داء الكلب. وكانت عندهم آراء مختلفة في تربية الكلاب منها<sup>1</sup> لا يربي الكلب إلا إذا كان مربوطاً بالسلسلة، الذي يربي الكلاب مثل الذي يربي الخنازير، سمح بتربية الكلاب شرط تعقيدهم في النهار وإطلاقهم في الليل، لا يسمح للإنسان أن يعيش في مدينة حيث لا ينبح فيها كلب،...

وهذا القول الأخير يعني أن اليهود يدركون أن وجود الكلب شرط لوجود المدينة، وهذا ما ذكره الجاحظ<sup>2</sup> أيضاً بقوله: "لا يكون البنيان قرية حتى ينبح فيه كلب ويزقو فيه ديك.

أما عند اليهود المتأخرين فيذكر التلمود أن الذين خالفوا وصية الله في تابوت نوح (سفينة نوح) ثلاثة: هم الكلب والغراب وحام، وهذا ما أجلب عليهم غضب نفسه فحوّل لونهم إلى الأسود.<sup>3</sup>

وكانت الروم لا تدفن ميتاً حتى تعرضه على الكلاب فيظهر لهم من شمعتها إياه علامة تستدل به من حياته أو موته<sup>4</sup>.

وفي المناطق التي سكنها العرب في الجاهلية كانت الصابئة<sup>5</sup> تحرم أكل لحم الكلب<sup>6</sup> والخنزير وكل ما له مخلب من الطير، كما كانوا يصلون ثلاث صلوات، يغتسلون من الجنابة ومن مسّ الميت.

<sup>1</sup> Encyclopedia Judaica VI S.V. ، ص 152

<sup>2</sup> كتاب الحيوان، 193/2

<sup>3</sup> سفر التكوين، الأصحاح، 36: العدد: 7

<sup>4</sup> حياة الحيوان الكبرى، 227/2

<sup>5</sup> الملل والنحل، 63/2

<sup>6</sup> المصدر نفسه، 115/2

أما العرب في الجاهلية فكانوا يتخذون بيوتاً للعبادة تنقسم إلى بيوت الأصنام وبيوت النيران وعلى رأسها الكعبة<sup>1</sup> والبيت العتيق، ومع ذلك لم يغز على صنم عبوده على صورة كلب.

هذه هي مواقف بعض الشعوب الشرقية القديمة، ولا بد أن العرب تأثروا بهذه المواقف حيث كان البعض منهم ينتهي إلى الوثنية أو اليهودية أو الأديان الأخرى إلا أننا لم نجد أي إشارة إلى عبادة صنم على شكل كلب ومع ذلك نرى قبائل مهمة من عرب الجاهلية تسمت بأسماء مشتقة من كلمة كلب.

إن أهم أجداد العرب تسموا الكلب وكلاب وكليب... وأبرزها جميعاً كلاب بن مرة في قريش وكناب بن ربيعة في هوازن.

ولم نذكر موقف العرب المتنصرين من الكلب بسبب عدم وجود وصايا عنه في الدين المسيحي كما أنه ليس للمسيحية موقف منه لاعتبارها أن النجاسة روحية فقط.

وما ذكره الجاحظ عن المسيح هو أنه حرق في الجوارين بجيفة كلب، فقال بعضهم ما أشد نتن ريحه، فقال المسيح: فهلا قلت ما أشد بياض أسنانه (الحيوان ج 2 ص 163) مع العلم بأنه لم نجد إشارة إلى ذلك في المصادر المسيحية.

**الكلب في القرآن المجيد:** جاءت كلمة "الكلب" في القرآن المجيد خمس مرات،

وأما كلمة "المكّبين" فجاءت مرة واحدة. وتفصيلها كما يلي:

1- فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ (الأعراف: 176)

2- وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (الكهف: 18)

3- سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ (الكهف: 22)

4- وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ (الكهف: 22)

<sup>1</sup> المصدر نفسه، 78-76/3

5- وَيَقُولُونَ سَبَعَةً وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ (الكهف: 22)

6- مَاذَا أَجَلَ لَهُمْ قُلْ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ" (سورة المائدة: 4)

ورد في القرآن المجيد ست سور سمّيت بأسماء بعض الحيوان والحشرات، وهي سورة البقرة، وسورة الأنعام وسورة النحل وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وسورة الفيل، علماً بأنه لم ترد في القرآن الكريم سورة باسم الكلب، رغم أن الكلب ورد ذكره أربع مرات في سورة الكهف ومرة واحدة في سورة الأعراف، كما وردت "مكلبين".

**الكلبُ في الحديث الشريف:** كثر ذكر الكلب في الأحاديث النبوية عن جهات عديدة ونشير إلى بعض منها كما يلي:

1- لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ (البخاري، بدء الخلق، 7، 17)

2- فأخبر بامرأة لها كلبٌ (أحمد بن حنبل 2، 146)

3- فوجدت نسوة لهن كلب (أحمد بن حنبل 6، 9)

4- الكلب الأسود شيطان (مسلم، صلاة، 265)

5- فإن أكل الكلب فلا تأكل (ابن ماجه، صيد، 3، 3)

6- فما منعني عن الدخول عليك إلا الكلب (مسلم، لباس، 81)

7- حتى يقتله البازي أو الكلب (الموطأ، صيد 8)

8- كان ذلك الكلب جرواً للحسن أو الحسين (الترمذي، أدب 44)

9- يمر بين يديه من ورائها الكلب والمرأة والحمر (مسلم، صلاة 249)

10- ما أمسك عليك كلبك، فكل (النسائي، صيد 16)

11- كل ما ردت عليك قوسك وكلبك المعلم (أبو داؤد، اضاحي 22)

12- إنّما دم أحدهم، دم كلب (أحمد بن حنبل، 4، 325)

- 13- كَأَنَّ ذُرَيْعَتَيْكَ، ذُرَيْعَتِي كَلْب (الدارمي، فضائل القرآن، 14)
- 14- فيَغْفِرُ لِأَكْثَرِ مِنْ عِدَدِ شَعْرِ غَنَمِ كَلْب (ابن ماجه، اقامه 191)
- 15- المَحْرُومُ مِنْ حَرَمِ غَنِيمَةِ كَلْب (أحمد بن حنبل 2، 356)
- 16- ثَمَنُ الْكَلْبِ حَرَامٌ (أحمد بن حنبل 356)
- 17- كُلُّ مَا قُدِّرَ عَلَى ذَبْحِهِ وَهُوَ فِي فِي الْكَبِ (المؤطا، صيد 68)
- 18- وَمُرٌّ بِالْكَلْبِ، فَأَمْرٌ بِالْكَلْبِ فَأُخْرِجَ (أبو داؤد، لباس 45)
- 19- إِنَّمَا سَمِّيَتْ، ذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَى كَلْبِكَ (البخاري، وضوء 33)
- 20- حَتَّى كَانَ يَسْتَأْذِنُ فِي كَلْبِ الْحَائِطِ (أحمد بن حنبل 6، 33)
- 21- فَأَجِدُ مَعَ كَلْبِي كَلْبًا آخَرَ (البخاري، ذبائح 1، 2، 9)
- 22- مَا عَلَّمْتَ مِنْ كَلْبٍ أَوْ بَاذٍ (أبو داؤد، اضاحي 32)
- 23- إِنَّ فِي دَارِكُمْ كَلْبًا، (داؤد، لباس 45)
- 24- إِنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ (مسلم، إسلام 154)
- 25- فَلَا نَدْعُ كَلْبًا إِلَّا قَتَلْنَاهُ (مسلم، مساقاة 45)
- 26- لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطْشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلْغِي (البخاري، مظالم، 23)
- 27- وَإِنَّ هَذَا الْكَلْبَ يَمْنَعُنَا بَعْدَ اللَّهِ (أحمد بن حنبل 6، 9)
- 28- حَتَّى قَتَلْنَا كَلْبَ امْرَأَةٍ جَاءَتْ مِنَ الْبَادِيَةِ (أحمد بن حنبل 1، 23)
- 29- وَإِذَا أُرْسِلَ الْمَجُوسِيُّ كَلْبَ الْمُسْلِمِ (المؤطا صيد 8)
- 30- لَا تَأْكُلْ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ كَلْبِيكَ هُوَ الَّذِي أَمْسَكَ عَلَيْكَ (أحمد بن حنبل 4، 7، 2)
- 31- إِنَّ لِي كَلَابًا مَكْلَبَةً (أبو داؤد، اضاحي 22)
- 32- كَانَتْ الْكَلَابُ تُقْبَلُ وَتُدْبَرُ (البخاري، وضوء 33)

33- الحياض، تردها السباع والكلاب (ابن ماجه، طهارة 76)

34- الأزارقة، الخوارج هم كلاب النار (ابن ماجه، مقدمه 12، 50)

35- لا تصغها على الكلاب (أحمد بن حنبل، 3، 468)

36- إنه قد صار مثل الكلب الكلب (أحمد بن حنبل 3، 158)

وجاء في كتاب حيوة الحيوان الكبرى للدميري (م: 808هـ) ذكر الكلب بالتفصيل، وإليكم بعض مقتبساته:

قال الدميري عن الكلاب عن خلقته الطبيعية وأخلاقه.

"الكلب: حيوان معروف، وربما وصف به فليل للرجل كلب وللمرأة كلبه، والجمع أكلب وكلات وكليب، مثل أعبد وعباد وعبيد وهو جمع عزيز. والأكلاب جمع أكلب قال ابن سيده: وقد قالوا في جمع كلابات. قال الشاعر:

أحبّ كلبٍ في كلاباتِ الناسِ إليّ نهجًا كلبُ أمّ عباس

وكلات اسم رجل من أجداد النبي ﷺ وهو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

قيل لأبي الدقيش الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب؟ وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسي أبنائنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. وكأهم قصدوا بذلك التفاؤل بمكالبة العدد وقهره.

وهو نوعان: أهلي وسلوقي نسبة إلى سلوق، وهي مدينة باليمن تنسب إليها الكلاب السلوقية، وكلا النوعين في الطبع سواء، وفي طبعه الاحتلام، تحيض إناثه وتحمل الأنثى ستين يومًا، ومنها ما يقل عن ذلك وتضع جراها عميًّا، فلا تفتح عيونها إلا بعد اثني عشر يومًا، والذكور تهيح قبل الإناث وهي تنزو إذا كمل سنة، وربما تسفد قبل ذلك، وإذا سفد الكلبة كلاب مختلفة الألوان أدت إلى كل كلب شبهه. وفي الكلب من اقتفاء الأثر، وشم الرائحة ما ليس

لغيره من الحيوانات، والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض. ويأكل العذرة ويرجع في قيئة، وبينه وبين الضبع عداوة شديدة وذلك أنه إذا كان في مكان عالٍ أو موضع مرتفع، ووطئت الضبع ظله في القمر رمى بنفسه عليها مخدولاً، فتأخذه فتأكله، وإذا دهن كلب بشحمها جن واختلط، وإذا حمل الإنسان لسان ضبع لم تنبح عليه الكلاب، ومن طبعه أن يحرس ربه ويحمي حرمه شاهداً وغائباً، ذاكراً وغافلاً، نائمًا ويقظان، وهو أيقظ الحيوان عيناً في وقت حاجته إلى النوم، وإنما غالب نومه نهائياً عند الاستغناء عن الحراسة، وهو في نومه أسمع من فرس، وأحذر من عقعق، وإذا نام كسر أجفان عينيه ولا يطبقها، وذلك لخفة نومه، وسبب خفته أن دماغه بارد بالنسبة إلى دماغ الإنسان، ومن عجيب طباعه أن يكرم الجللة من الناس وأهل الوجاهة، ولا ينبج أحداً منهم وربما جاد عن طريقه وينبح الأسود من الناس والدنس الثياب والضعيف الحال.

ومن طباعه البصبصة والترضي والتودد والتألف، بحيث إذا دعي بعد الضرب والطرده رجع، وإذا لاعبه ربه عضه العض الذي لا يؤلم، وأضراره لو أنشبهها في الحجز لنشبت ويقضي التأديب والتلقين والتعليم، حتى لو وضعت على رأسه مسرجة وطرح له مأكول لم يلتفت إليه، وإذا أخذت المسرجة عن رأسه وثب إلى أكله، وتعرض له أمراض سوداوية في زمن مخصوص، ويعرض له الكلب بفتح اللام وهو داء يشبه الجنون، وعلامة ذلك أن تحر عيناه وتعلوهما غشاوة، وتسترخي أذناه، ويندلع ويكثر لعابه، وسيلان أنفه، ويطأطأ رأسه وينحذب ظهره، وتعوج صلبه إلى جانب، ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه ويمشي خائفاً مغموماً كأنه سكران، ويجوع فلا يأكل، ويعطش فلا يشرب، وربما رأى الماء فيفزع منه، وربما يموت منه خوفاً، وإذا لاح له شبح حمل عليه من غير نبح، والكلاب تهرب منه، فإن دنا منها غفلة، بصبصت له وخضعت، وخشعت بين يديه، فإذا عقر هذا الكلب إنساناً عرض له أمراض رديئة، منها أن يمتنع من شرب الماء حتى يهلك عطشاً، ولا يزال يستقي حتى إذا سقي الماء لم يشربه، فإذا استحكمت هذه العلة به، فقعد للبول خرج منه شيء على هيئة الكلاب الصغار.

قال صاحب الموجز في الطب: الكلب حالة كالجدام تعرض للكلب والذئب وابن آوى وابن عرس والثعلب، ثم ذكر غالب ما تقدم، وقال غيره: الكلب جنون يصيب الكلاب

فتموت وتقتل كل شيء عضته إلا الإنسان، فإنه قد يعالج فيسلم. قال: وداء الكلب يعرض للحمار ويقع في الإبل أيضاً، فيقال: كلبت الإبل تكلب كلباً وأكلب القوم إذا وقع في إبلهم. ويقال: كلب الكلب واستكلب، إذا ضره، وتعود أكل الناس انتهى.

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات، أن بقربة من أعمال حلب بئراً، يقال لها بئر الكلب، إذا شرب منها من عضه الكلب برئ، وهي مشهورة. قال: وقد أخبرني بعض أهل القرية، أن المكلوب إذا لم يجاوز أربعين يوماً، وشرب منها برئ أما إذا جاوز الأربعين فإنه يموت ولو شرب منها. وذكر أنه شاهد ثلاثة أنفس مكلوبين، شربوا منها فسلم اثنان، وكانا لم يبلغا الأربعين، ومات الثالث وكان قد جاوز الأربعين. وهذه البئر يشرب منها أهل الضيعة.

وأما السلوقي فمن طباعه أنه إذا عاين الأطباء قربة منه أو بعيدة عرف المقبل من المدبر ومشي الذكر من مشي الأنثى، ويعرف الميت من الناس والمتماوت، حتى إن الروم لا تدفن ميتاً حتى تعرضه على الكلاب، فيظهر لهم من شمها إياه علامة تستدل بها على حياته أو موته، ويقال: إن هذا لا يوجد إلا في نوع منها يقال له القلطي، وهو صغير الجرم قصير القوائم جداً، ويسمى الصيني. وإنث السلوقي أسرع تعلمًا من الذكور، والفهد بالعكس كما تقدم، والسود من الكلاب أقل صبراً من غيرها.

**فضل الكلاب في الوفاء والأمانة والإيثارة:** وفي كتاب فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب لمحمد بن خلف المرزبان<sup>1</sup> عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه، قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً قتيلاً، فقال ﷺ: "ما شأنه؟" قالوا: إنه وثب على غنم بني زهرة، فأخذ منها شاة، فوثب عليه كلب الماشية فقتله. فقال ﷺ: "قبل نفسه، وأضاع دينه، وعصى ربه، وخان أخاه وكان الكلب خيراً منه.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كلب أمين خير من صاحب خؤون. قال: وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبة لهم، فخرج في بعض منزهاته، ومعه

---

<sup>1</sup> محمد بن خلف المرزبان بن بسام، أبوبكر المحوّلي، مؤرخ مترجم أديب بغدادي. مات سنة 309هـ.

ندماؤه فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته، فأكلا وشربا ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين. فعرف الأمر فأنشأ يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحـوطني      ويحفظ عرسـي والخليلُ يخون  
فيا عجبًا للخلِّ يهتكُ حرمتي      ويا عجبًا للكلب كيف يصونُ  
وذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي في بعض مصنفاته، أن رجلاً خرج في بعض أسفاره فمرَّ على قبة مبنية أحسن بناء، بالقرب من ضيعة هناك، وعليها مكتوب: من أحب أن يعلم سبب بنائها، فليدخل القرية. فدخل القرية، وسأل أهلها عن سبب بناء القبة، فلم يجد عند أحد خبرًا من ذلك، إلى أن دلَّ على رجل قد بلغ من العمر مائتي سنة، فسأله فأخبره عن أبيه أنه حدّثه أن ملكًا كان بتلك الأرض، وكان له كلب لا يفارقه في سفر ولا حضر، ولا نوم ولا يقظة، وكانت له جارية خرساء مقعدة، فخرج ذات يوم إلى بعض منتزهاته وأمر بربط الكلب لثلا يذهب معه، وأمر طبّاخه أن يصنع له طعامًا من اللبن كان يهواه، وأن الطباخ صنعه وجاء به فوضعه عند الجارية والكلب وتركه مكشوفًا، وذهب فأقبلت حية عظيمة إلى الإناء، فشربت من ذلك الطعام وردته وذهبت.

ثم أقبل الملك من منتزهه، وأمر بالطعام فوضع بين يديه، فجعلت الجارية تصفه بيديها، وتشير إلى الملك أن لا يأكله فلم يعلم أحدًا ما تريد، فوضع الملك يده في الصفحة، وجعل الكلب يعوي ويصيح، ويجذب نفسه من السلسلة، حتى كاد أن يقتل نفسه، فتعجب الملك من ذلك وأمر بإطلاقه فأطلق فغدا إلى الملك وقد رفع يده باللقمة إلى فيه فوثب الكلب وضربه على يده فأطار اللقمة منها فغضب الملك، وأخذ خنجرًا كان بجنبه، وهمّ أن يضرب به الكلب، فأدخل الكلب رأسه في الإناء، وولغ من ذلك الطعام، فانقلب على جنبه وقد تناثر لحمه. فعجب الملك ثم التفتت الجارية، فأشارت إليه بما كان من أمر الحية. ففهم الملك الأمر وأمر بإراقة الطعام، وتأديب الطباخ على كونه ترك الإناء مكشوفًا، وأمر بدفن الكلب وببناء القبة عليه، وبتلك الكتابة التي رأيتها. قال: وهي من أغرب ما يحكي.

وفي كتاب النشوان عن أبي عثمان المديني، أنه قال: كان في بغداد رجل يلعب بالكلاب فتركه ومشى حتى انتهى إلى قوم كان بينه وبينهم عداوة، فصادفوه بغير عدة قبضوا عليه، والكلب يراهم، فأدخلوه الدار ودخل الكلب معهم فقتلوا الرجل وألقوه في بئر وطموا رأس البئر، وضربوا الكلب، فأخرجوه وطرده، فخرج يسعى إلى بيت صاحبه فعوى فلم يعبأوا به، وافتقدت أم الرجل ابنها، وعلمت أنه قد لفق، فأقامت عليه المأتم وطردت الكلاب عن بابها، فلزم ذلك الكلب الباب ولم ينطرد فاجتاز يوماً بعض قتلة صاحبه بالباب، والكلب رابض، فلما رآه وثب عليه، فخمش ساقه ونهشه وتعلق به، واجتهد المجتازون في تخليصه منه، فلم يمكنهم، وارتفعت للناس ضجة عظيمة، وجاء حارس الدرب وقال: لم يتعلق هذا الكلب بالرجل إلا وله معه قصة؟ ولعله هو الذي جرحه.

وسمعت أم القتيل الكلام فخرجت فحين رأت الكلب متعلقاً بالرجل، تأملت في الرجل، فتذكرت أنه كان أحد أعداء ابنها وممن يتطلبه، فوقع في نفسها أنه قاتل ابنها، فتعلقت به فرفعهما إلى أمير المؤمنين الراضي بالله، فادعت عليه القتل، فأمر بحبسه بعد أن ضربه فلم يقر، فلزم الكلب باب الحبس، فلما كان بعد أيام أمر الراضي بإطلاقه، فلما خرج من باب الحبس، تعلق به الكلب كما فعل أولاً، فتعجب الناس من ذلك وجهدوا على خلاصه منه، فلم يقدرُوا على ذلك إلا بعد جهد جهيد، فأخبر الراضي بذلك فأمر بعض غلمانه أن يطلق الرجل، ويرسل الكلب خلفه ويتبعه فإذا دخل الرجل داره بادره، وأدخل الكلب معه فمهما رأى الكلب يعمل يعلمه بذلك، ففعل ما أمره به، فلما دخل الرجل داره بادره غلام الخليفة ودخل وأدخل الكلب معه، ففتش البيت فلم ير أثراً ولا خبراً وأقبل الكلب ينبح، ويبعث عن موضع البئر التي طرح فيها القتيل، فتعجب الغلام من ذلك وأخبر الراضي بأمر الكلب، فأمر بنبش البئر فنبشوها، فوجدوا الرجل قتيلاً، فأخذوا صاحب الدار إلى بين يدي الراضي فأمر بضربه فأقر على نفسه، وعلى جماعته بالقتل. فقتل وطلب الباقون فهربوا.

وفي عجائب المخلوقات، أن شخصاً قتل شخصاً بأصبهان وألقاه في بئر، وللمقتول كلب يرى ذلك، فكان يأتي كل يوم إلى رأس البئر، وينجي التراب عنه، ويشير إليها، وإذا رأى

القاتل نبج عليه، فلما تكرر ذلك منه حفروا البئر، فوجدوا القتييل بها، ثم أخذوا الرجل وقرروه فأقر فقتلوه به.

### الكلب في الشعر العربي:

اشدد يدك بكلب إن ظفرت به فأكثر الناس قد صادوا خنازيرا  
أنشد أبو العباس الأزدي:

لكلب الناس إن فكرت فيهم أضرّ عليك من كلب الكلاب  
لأن الكلب تخسّو، فيخرب وكلب الناس يريض للعقاب  
وإن الكلب لا يؤذي جليسا وأنت الدهر من ذا في عذاب  
ووصل الأمر بالسلطان مسعود أن وجد الكلب خير عند من أمين الدولة ابن التلميذ  
الطبيب النصراني الذي قال:

من كان يلبس كلبه وشيئا يقنع لي بجلادي  
فالكلب خير عنده مئّي وخير منه عندي  
حضرت بعض الأعراب الوفاة، وكتب في جانب خيمته فقال لأكبر ولده:

أوصيك خيرا به لأن له صنائعا لا أزال أحملها  
يدل ضيفي عليّ في غسق الليل إذا النار نام موقدها  
وقال إبراهيم بن هرمة:

ويدل ضيفي في الظلام إذا سرى إيقاد ناري أو نباخ كلابي  
وقال أيضا:

عوني في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نؤم  
وقال أيضا:

ومستنبح نهب كلبي لصوته وقلت له قم في اليفاع فجارب

وقد وصف أبو نواس صيد الكلب للظبي بقوله:

أيمهل الظبي على أقداره حتى يرى بين شبا أظفاره  
وقال أيضاً:

أعددت كلباً للطراد فظا إذا غدا من تهم تلظى  
يکظ أسراب الظباء كظاً حتى تراها فرق تشظى  
وقال أيضاً:

أكرم بهذا الكلب من محتال أتيح حتف الظبي والأوعال  
وقال أيضاً:

أنعت كلباً أهله في مكده قد سعدت جدودهم بجده  
وكل خير عندهم من عنده يظن مولاه له كعبده  
يأحسن شذقيه وطول خده يلقى الظباء عننًا من طرده  
يا لك من كلب نسيح وحده<sup>1</sup>

وقال أيضاً:

أنعت كلباً لقن النحاس محمداً قطار شؤون الرأس  
نعم الخليل والأخ المواسي من غير ما بيع ولا مكناس  
كم تيس رمل لاح في الكناس عقره بجاني أوطاس<sup>2</sup>

وكان أبو نواس (ت: 198هـ/814م) على معرفة تامة بالكلاب، فقد لعب بها فترة طويلة وعرف منها، لا تعرفه الأعراب، وفي ديوانه الكثير من الطرديات تتعلق بالكلاب رغم أن الرواة أخبروا أنه نظم في ذلك تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد وما زاد فهو منحول إليه لشهرته الواسعة في هذا الباب وقدرته البارعة على وصف الكلاب

<sup>1</sup> ديوان أبي نواس، ص 642

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 624-646، أوطاس: هو واد بديار هوازن

وصفاتها وأسمائها وسماتها وأنسابها وألقابها، وله في وصف الكلاب أشياء حسان ومعان مختارة.

وأشد الفقيه منصور اليميني الشافعي الضرير:

الكلبُ أحسنُ عشرة وهو النهاية في الخساسة  
ممن ينازع في الرياسة قبل إبان الرياسة

ولقد أجاد علي بن عبد الواحد البغدادي المعروف بصريع الدلاء<sup>1</sup> في قوله:

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدّ سوا

ذكر ابن عبد البرّ في كتابه بهجة المجالس وأنس المجالس، أنه قيل لجعفر الصادق رضي الله عنه، وهو أحد الأئمة الإثني عشر: كم تتأخر الرؤيا؟ فقال: خمسين سنة لأن النبي ﷺ رأى كان كلبًا ابقع ولغ في دمه، فأوله بأن رجلاً يقتل الحسين ابن بنته رضي الله تعالى عنه. فكان الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين، وكان أبرص. فتأخرت الرؤيا بعده خمسين سنة:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورةً وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا  
إن الكلاب لتهدا في مرائبها والناسُ ليس بهمادٍ شرهم أبدا  
وفي الميزان للذهبي، في ترجمة أحمد بن زرارة المدني بسند مظلم، عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: إن النبي ﷺ قال: "كيف أنتم إذا كان زمن يكون الأمير فيه الأسد، والحاكم فيه كالذئب الأمعط، والتاجر فيه كالكلب الهرار، والمؤمن بينهم كالشاة الولهاء بين الغنم ليس لها مأوى، فكيف حال شاة بين أسد وذئب وكلب!"

وفي أمالي أبي بكر القطيعي، عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى مات. فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلواته،

<sup>1</sup> صريع الدلاء: علي بن عبد الواحد، أبو محمد أبو الحسن، شاعر بصري المنشأ، أقام ببغداد ثم بمصر ومات فيها سنة 412هـ. والبيت مع ترجمته في وفيات الأعيان، 484/3.

قال: "من الداعي على هذا الكلب أنفًا؟" فقال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. فقال: "ما قلت؟" قال: قلت: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام اكفني هذا الكلب بما شئت.

وروي الإمام أحمد في الزهد، عن جعفر بن سليمان، قال: رأيت مع مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه كلبًا فقلت: ما تصنع بهذا يا أبا يحيى؟ فقال: هذا خير من جليس السواء؟ حقيقة كلب أصحاب الكهف ولونه: اختلف العلماء في تفسير الآية الكريمة (وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُعبًا<sup>1</sup>) فأكثر علماء التفسير على أن كلب أهل الكهف كان من جنس الكلاب.

وروي عن ابن جريح أنه قال: كان أسدًا، ويسمى الأسد كلبًا لأن النبي ﷺ دعا على عقبة بن أبي لهب "أن يسلط الله عليه كلبًا من كلابه، فأكله الأسد. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان كلبًا أغير.

وفي رواية عنه أحمر، واسمه قطمير، وقال مقاتل: كان أصفر، واسمه قطمير وقال مقاتل: كان أصفر وقال القرطبي: صفته تضرب إلى الحمرة، وقال الكلبي: كان خلنجي اللون، وقيل: كان لونه لون السماء، وقيل: كان أبلق أبيض وأسود وأحمر.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: اسمه ريان وقال الأوزاعي مشير، وقال سعيد الحمالي: حران، وقال عبد الله بن سلام: بسيط، وقال كعب الأحبار: صبيها، وقال وهب: نقيًا. وقصة الإمام مالك في ذلك مشهورة معروفة. وقال فرقة: كان رجلًا طباحًا لهم، حكاه الطبري. وقال فرقة: كان أحدهم، وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سمي النجم التابع للجوزاء كلبًا. لأنه منها كالكلب من الإنسان، وهذا القول يضعفه بسط الذراعين، فإنه في العرف من صفة الكلب.

وحكى أبو عمرو المطرزي في كتاب اليواقيت وغيره، أن جعفر بن محمد صادق قرأ: (وكالبهم) فيتحمل أنه يريد هذا الرجل.

<sup>1</sup> سورة الكهف: 18

وقال خالد بن معدان: ليس في الجنة من الآداب سوى كلب أهل الكهف، وحمار العزيز وناقاة صالح.

عجيبة من العجائب: قال السدي: لما خرج أصحاب الكهف، مروا براعٍ معه كلب، فقال الراعي: إني أتبعكم على أن أعبد الله معكم، قالوا: سر، فسار معهم، وتبعهم الكلب، فقالوا: يا راعي! هذا الكلب ينبح علينا، وينبه لنا فما لنا حاجة، فطردوه، فأبى إلا أن يلحق بهم، فرجموه، فرفع يديه كالراعي، وأنطقه الله تعالى، فقال: يا قوم لم تطردوني، لم تخربوني؟، لم ترجموني؟ فو الله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة، فتعجبوا من ذلك، وزادهم الله بذلك هدىً.

وقال كعب الأخبار: مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك مرارًا، فقال لهم الكلب ما تريدون مني؟ لا تخشوا جانبي، فأنا أحب أحب الله، فناموا حتى أحرككم.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إن أصحاب الكهف هربوا ليلاً من دقيانوس بن حلانوس حين دعاهم إلى عبادة الأصنام، وكانوا سبعة، فمروا براعٍ معه كلب، فتبعهم على دينهم، فخرجوا من البلد فأووا إلى الكهف وهو قريب من البلدة، فلبثوا فيه.

إن أصحاب الكهف جميعًا كانوا على أمر واحد وإذا كهف في الجبل قريب منهم، فقال بعضهم لبعض، فأووا إلى الكهف، ينشر لكم ربكم عن رحمته، ويهئ لكم من أمركم مرفقًا، فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم، فناموا ثلاث مائة سنة وازدادوا تسعًا.

الكلاب كلها نجسة المعلمة وغيرها الصغير والكبير وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيدة ولا فرق بين الكلب المأذون في اقتنائه وغيره ولا بين كلب البدوي والحضري لعموم الأدلة.

ويحدث ابن عمر رضي الله عنه، قال: كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله أو تبول، فلم يكونوا يرشون شيئًا من ذلك، ذكره البخاري في صحيحه واحتجوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فيلرقه وليغسله سبع مرات، إحداهن بالتراب".

الإنسان هو أشرف المخلوقات لكن في طبيعته الغدر والخيانة والجفاء، وإن الكلب كما يزعم كثير من الناس أنه نجس وحقير.

ولكن الله ذكر الكلب في كتابه مشيرًا إلى وفائه وحسن صحبته.

وجاء في بعض الأحاديث ذكر وفائه وحسن سيرته مع أوليائه.

وفي الكلب كثير من الفوائد في الصيد والحراسة فقالوا فيه المدح والرثاء، واهتم به بعض الخلفاء والسلاطين، فكان يزيد بن معاوية يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبدًا يخدمه.<sup>1</sup>

وكان السلطان مسعود يباليغ أيضًا في ذلك ويلبس الكلاب الجلال الأطلس الموشاة ويسورها بالأساور ومطرب هارون الرشيد إسماعيل بن جامع والذي يعرف بابن أبي وداعة قد اقتنى الكلاب واشتهر يحب الكلاب وولعه بالكلاب.<sup>2</sup>

والشاعر المعروف أبو نواس قال أجود شعره في الكلاب التي كان على معرفة تام لها وذكر عدة الكتاب وتفضيل الكلاب وإيثارها ووفائها:

(1) الجاحظ (ت: 869/255) دافع عن الكلب في كتاب "الحيوان" وأبان محاسنه وصفاته الحميدة وحكى بعض القصص في وفائه، متوجهًا إياها بقصة كلب أهل الكهف الذي يزعم البعض أن مأواه الجنة.

(2) القاضي القنوجي (ت 1994/384م) قد اعتمد على المرزبان في الحديث عن القصص المتعلقة بالكلاب، لكن هدفه لم يكن الدفاع عن الكلاب أو تفضيلها على الإنسان.

(3) الدميري (1415/808م) وضع الدميري كتاب (حياة الحيوان الكبرى) فأكثر من القصص والحكايات حول الكلب ما لم يذكره الجاحظ في "الحيوان" أو ابن المرزبان في "تفضيل الكلاب" وقد جعله رمز للقوة والأمانة والإخلاص وذكر

<sup>1</sup> الفخري في الآداب السلطانية، ص 55

<sup>2</sup> المصدر نفسه

القصص المختلفة في وفاء الكلب وما ذكره بعض الشعراء مثل أبي نواس والفلاسفة مثل أبي العلاء المعري.

(4) القليوبي: (ت: 1069هـ/1659م) فقيه شافعي، ذكر في كتاب (حكايات وغرائب وعجائب ولطائف ونوادر ونفائس) ما يضع الكلب في حكاية الزهاد والمحرومين والمؤدبين والخاشعين والمريدين والمتواصفين فجمع الخصال الحسنة في الكلب وتمنى لو كانت في بني آدم لبلغ على الدرجات وهذا تكريم عظيم للكلب.

(5) ابن المرزبان (ت 309هـ/921م) قد ذكر في كتابه "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب" حوالي 24 قصة في وفاء الكلب الذي يموت على قبر صاحبه، أو ينقذ صاحبه من الموت أو يكشف عن القاتل أو يحمي أطفال صاحبه وكذلك فيمن أفسد الصديق حرمة صديقه فأقام الكلب حرمة، وفي حماية قافلة الحج من اللصوص وفي الترحيب بصاحبه وضييفه وفي أنه خير الندماء ويقوم بمهمة ساعي البريد، حتى اللص يتوب على يديه.

وذكر الكثير من أقوال الفقهاء والحكماء والأدباء ليدعم رأيه، مثل ابن عباس، والأحنف بن قيس وأشعبي ومالك بن دينار وأبي بكر والجاحظ.

وكان الخلفاء مغرمين بالصيد والقبض ويغدقون في سبيله الأموال الفادحة، وكان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفًا من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبدًا يخدمه، وكان السلطان مسعود يباليغ أيضًا في ذلك ويلبس الكلاب الجلال الأطلس الموشاة ويسورها بالأساور، ويحكي أن هشام بن عبد الملك. (ت: 743/125م) كان يذهب إلى الصيد، ويصطاد الطي بواسطة الكلاب، وكان المعتصم العباسي مولعًا بصيد حمر الوحش.<sup>1</sup>

والكلب منافعه كثيرة، فاضلة على مضاره، بل هي غامرة لها وغالبه عليها، ولم تزل القضاة والفقهاء والعباد والولاة والنسك الذين يأملون بالمعروف وينهون عن

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 53-56

المنكر لا ينكرون اتخاذها وهم على ذلك يشاهدونها في دور الملوك، فلو علموا أن ذلك نكرة لتكلموا ونهوا عن اتخاذها بل عندهم إذا قتلوا الكلب كان له عقوبة وإن من كان أمر بقتله في قديم الدهر إنما كان لمعنى ولعلة، وإن هذه الكلاب بمعزل عن تلك<sup>1</sup>. جمع بعض النساك والزهاد الخصال الحسنة في الكلب وتمنوا، لو كانت في بني آدم لبلغ أعلى الدرجات ويحكى عن صوفي إيراني، يدعى أبا سعيد (1049/440م) اهتم بكلب جريان وعلم بالرؤيا أن الله راض عنه لاهتمام بهذا الكلب الجريان أكثر مما هو راض عنه لتقشفه وتصوفه وتحكى نفس الحكاية عن معروف الكرخي (ت815/200م) وهو أحد الزهاد والمتصوفين<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> كتاب الحيوان، 298/1

<sup>2</sup> حكايات وغرائب، ص 221

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الكتاب المقدس
3. ابن المرزبان: تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، دار الثقافة من الطباعة والنشر والتوزيع ص 18
4. ابن المقفع: كليلة ودمنة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
5. أبو الحسن المسعودي: أخبار الزمان، طبعة مصر، 1938م
6. أبو عثمان الجاحظ: كتاب الحيوان (تحقيق: عبد السلام هارون)، طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1938م
7. أردو دائرة معارف إسلامية، داتش غاه بنجاب، لاهور، الباكستان، 1980م
8. أي. وتسفك وي. ب. منسج: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مطبع بريل، لندن، 1942م
9. توني هاري: Animal Habitats، اسم المطبع لم يذكر، 2001م
10. جامع أردو انسائيكلوبيديا (الموسوعة الأردنية الشاملة)، قومي كونسل براءة فروغ اردو زبان،، وزارة التنمية للموارد البشرية، حكومة الهند، نيو دلهي، 110066
11. جون، سيدنيستيكار: Riding the Tiger Conservation in Human Dominated Landscapes، مطبعة جامعة كيمبريج، سنة الطبع لم تذكر
12. ديوان أبي نواس (تحقيق: إيقاظ فاغنر وغريغور شولر، طبعة سلسلة النشرات الإسلامية، سنة الطبع لم تذكر

13. الشهرستاني: الممل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
14. عدد من المؤلفين: المنجد، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1960م
15. كمال الدين محمد بن موسى الدميري: حياة الحيوان الكبرى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة
16. المعجم الوسيط، المكتبة الحسينية، ديوبند، سنة الطبع لم تذكر
17. نعمان علي بسّام: الثدييات العربية، رحلة علمية حيوانية في ربوع فلسطين والبلاد العربية وأوربا بين الأعوام 1980-2006م، المطبع لم يذكر، تموز 2006م
18. ويكيبيديا الموسوعة الحرة

## "القيظ" حلقة ثالثة لسلسلة الرواية (الرواسي الشامخات والنفط الفرات)، دراسة تحليلية

- د. محمد فضل الله شريف<sup>1</sup>

الحمد لله الذي أمر عباده سياحة الأرض لكي يشاهدوا آيات قدرة الله عز وجل، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي أبلغ رسالة الله سبحانه وتعالى إلى أنحاء البلاد وأرجائها، وبث روح الإسلام في قلوب المؤمنين في كافة نواحيها.

مسقط بلدة مشهورة نالت إعجاب جميع العالم بموقعها الجغرافي، وتاريخها الإسلامي وتجارها الواسعة واقتصادها القوية، وهي في عمان، أنها أصبحت محط أنظار التجار لإحاطتها بالجبال الشاهقة من ثلاث جوانب، ولها طريق واحد بالبحر للاتصال بالعالم، فكذلك قامت هذه البلاد بدور حيوي عن طريق البحر في تنمية التجارة وازدياد الاقتصاد، كما كانت هذه البلاد تتميز بنفسها بخصائص، وطقوس وتقاليد تبنّاها أهلها، وكان الدكتور- صالح البلوشي- أحدًا منهم، أنه جعل مولده ومنشأه موضوع نقاشه، فتحدث في كتبه المختلفة عن تاريخ مسقط، وذكر تراثها، وعادات أهلها، وطبائعهم، وقد سبقت له كتب عديدة تنطق عن مسقط وأحوالها، وتاريخها وبيوتها، وأزقتها، وحراراتها، وعادات أهلها، ومنها كتابه "مسقط في الأربعينات من القرن العشرين".

وفيما نقدّم إحدى رواياته باسم "القيظ" وهي حلقة من سلسلة رواياته (الرواسي الشامخات والنفط الفرات). هذه رواية تاريخية مهمة توضح عن جانب مهم من حياة أهالي مسقط في أيام الصيف، بأنها تبحث عن رحلتهم الصيفية، عندما ترتفع درجة

<sup>1</sup> أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها في كلية A. K. M الشرقية العالية، حيدرآباد

الحرارة بدخول الصيف في مسقط، وترفع الحرارة فيها بمستويات لا تطاق، وإن كان هناك لأهلها وسائل عدة لتخفيف حرارة فصل الصيف، بأنهم يسكنون بيوتًا ومنازل بنيت من الطين أو سعف النخيل، وحتى في الخيام، ولكنهم أكثر ما اعتادوا منذ القدم أنهم يقومون بالهجرة المؤقتة، فيغادر السكان منازلهم ويسافرون برًا أو بحرًا إلى قرى زراعية، وواحات حيث يسكنون هناك خلال أشهر القيظ الذي يستمر لأربعة أشهر، فأدلى المؤلف الضوء على هذه الرحلة التي يقومون بها في فصل الصيف هارين عن الحرارة وأشعة الشمس اللاهبة في مسقط في النهار، وحرارة صخورها وجبالها الشاهقة التي خزنت الحرارة طول النهار في الليل، وأورد في الكتاب عن تفاصيل الأسفار الصيفية، بأنهم يقضون في "الحاضرات" فترات النهار ينشدون النسيم البارد والهواء العليل تحت ظلال الأشجار وبين مياه الأفلاج والوديان، وأما فترات الليل فيقضونها في السمر تحت ضوء القمر إن كان ساطعًا، فإن غاب عنهم سهروا على ضوء النار الذي يظل مشتعلًا ولو وقت متأخر من الليل حيث تقدمت أنواع شتى من الفواكه كالتين والعنب والرمان يجود بها أصحاب الأملاك.

أورد المؤلف رحلة القيظ وما حدث خلال تلك الأشهر في النهار والليالي، فكل ذلك في عبارة أدبية ممتعة سهلة عذبة بحيث يزود القارئ المعلومات المهمة ويوفر لديه خزانة التاريخ، وهو يساير معهم خلال مطالعة الرواية حيث ساروا، ويحل معهم حيثما نزلوا، ويشاطر معهم في حلهم وترحالهم، ويعاش معهم طوال الفترة في أيام القيظ، ويشاهد بأم عينيه ما يتمتع به أهل مسقط في القيظ، فيشاركهم فيما يسرههم ويحزنهم، ويبصر معهم ما عانوا من متاعب، ومشاكل، فيذكر المؤلف دور الرجال والنساء والأطفال خلال الرحلة، وأشغالهم وأعمالهم، وما يهتمهم خلال رحلتهم المستغرقة لأربعة أشهر.

وإن مؤلف هذه الرواية له علاقة وطيدة بالهند بحيث إنه من المستشارين في مجلة الهند التي تصدر تحت إدارة الدكتور أورنك زيب الأعظمي، هذه الصداقة والوداد جعل المؤلف أن يسلم روايته إلى الدكتور الأعظمي لمراجعتها وطبعها في حلة قشبية، فقام الدكتور بهذا العمل خير قيام.

وإن مؤلف الرواية يستحق التقدير والتحييد من قبل أهالي مسقط خصوصاً والعالم العربي والإسلامي، وللمولعين باللغة العربية عموماً بأنه قدم باقة من تاريخ مسقط ورحلات أهاليها بأسلوب ممتاز ممتع.

### محتويات الرواية

الرواية تحمل مئة وثمانين وتسعين (198) صفحة. تبتدئ الرواية من كلمات الشكر، والإهداء، ثم تشرع في مقدمة مؤلف الرواية، ومقدمة الرواية تحتوي على ثلاث صفحات؛ ثم يردف أصل الرواية.

وأصل الرواية يشرع كالقصص الروائي، وقسم المؤلف الرواية كلها في اثني عشر حلقة:

### الحلقة الأولى:

إنها تغطي سبع عشرة (17) صفحة، وهي تبحث عن الحرارة الشديدة خلال فصل الصيف في مسقط، وتذكر عادة أهلها في السفر والهجرة إلى القرى الزراعية، والواحات حيث يسكنون خلال أشهر القيظ الذي يستغرق أربعة أشهر، كما تبين خلاله عن فوائد تلك الهجرات بأن الأغنياء والتجار يقصدون مزارعهم ويقطفون التمور، والفقراء يحصلون على بعض التمور مجاناً يتصدق عليهم الأغنياء، فوصفت بيوتهم وأبنيتهم في المزارع والواحات، بأن الأغنياء لهم المناطق الزراعية، تنوعت أحجامها واختلفت أنواع الأشجار، فبنى الميسورون غرفة من الطين اختلف حجمها حسب رغبة صاحبه، إضافة إلى سقيفة، أو "عريش" بني في ناحية بارزة من المزرعة لاستقبال الضيوف، والفقراء لم يشيدوا البناء، فدأبوا على اختيار قطعة أرض صغيرة قريبة من ضفة واد أو فلج أو مورد ماء لينصبوا عليها، بعد استئذان أصحاب الأملاك خيمة بسيطة جداً أو عريشاً ليكون لهم سكناً، وللتخفيف من حدة الحرارة يرشون هؤلاء الماء حول السكن، كما تقدم هذه الحلقة المنظر بهيجاً ليوم الخروج بأن كلهم أعدوا استعداداتهم من شراء المواد الغذائية من قهوة وطحين وأرز وسكر وملح وحبوب وبهارات وغيرها حسب وسعهم.

كما وصف المقيظ الذي قاموا بالرحلة إليه بأنه يقع في منطقة "سيب". هناك خمس مزارع شاسعة يمتلكها "نصيب" وقد حوّلها بعد مجهود كبير إلى جنان تطيب العيون لرؤياها، كما جعلها مصايف جميلة ومشاريع تجارية ضخمة تجلب لها الكثير من المال، وكان بنى هنالك بيته من الطين، وكان به مجلس كبير للرجال، وعريش كبير بني بالقرب من أشجار وارفة الظلال كثيرة الثمار، ومطبخ لخدمة الضيوف، به الكثير الكثير من المراجل والدلال وكافة أدوات الضيافة.<sup>1</sup>

ثم تصف البدن أي المركب الذي يسافرون بها، ويذكر سعتها وما يحوي العدد الكبير من المسافرين وأمتعتهم، كما تسرد الوجبات الغذائية خلال السفر القهوة والشاي إضافة إلى الأسودين، التمر والماء، ويبين كيفية تقديمها أمام الضيوف، كما يذكر الموضع الذي يوضع فيه الماء في سعن قرية ماء، وتعليقها في مكان بارز من المركب حتى يتعرض لها الهواء الذي يعمل على تبريد الماء، وكما وصف السعن وبما يصنع به، كما يدلّ أن البدن التي يسافرون بها يملكها ابن نصيب، فكما يأتي المنظر للرجال والأطفال والنساء وحركاتهم وسكناتهم وفرحهم وترحمهم وكيف يبدأ السفر في الموعد المضروب، وكان من بين الركاب الكثير أم محمد وولداها، محمد وخميس، وأختها خديجة وأطفالها، كان محمد فرحًا مسرورًا بالرحلة، وكان كل شيء أمامه جميلًا، يفوق الوصف والخيال، من لون الرمل، ولون ماء البحر، والهواء الندي المشوب بالرطوبة غير الخانقة، إلى طيور النورس، إلى مراكب الصيادين، وكان محمد يرى بلدته مسقط من البحر لأول مرة، ويرى له من بعد كل ما في مسقط، من مبان ضخمة، هكذا يسرد الرقم الأول ما يرى محمد خلال سفره إلى المقيظ من مناظر بهيجة ممتعة والأماكن مثل "المكلا" و"كلبوه" وعادات أهلها كما يذكر من آبارها، ومياهها، ومزارعها ومحصولاتها، وأشغال وأعمال أهلها، كل ذلك يذكر أحدهم، ويسمع الجميع، وكل ذلك ذكر الشيخ الطاعن في السن، كما لفت خلال ذلك انتباه محمد وغيره على إحدى الشعاب الجبلية الواقعة على البر ما بين الجزيرة الدوحة

---

<sup>1</sup> الرواسي الشامخات والنفط الفرات "القيظ" للدكتور صالح البلوشي، روز ورد بوكس، نيو دلهي الهند، 2015م، ص 12

وكلبوه أشخاص بالملابس التقليدية الهندية تجمهروا وقد تحلقوا متسمرين حول كومة كبيرة من الخشب أوقدت فيها النيران التي كانت ألسنتها تزداد كما أن دخانها بدأ يرتفع شيئاً فشيئاً إلى السماء، وهي جثة رجل تأكله النيران، فدلّت أم محمد ابنها بأن الهندوس يحرقون جثة موتاهم حسب معتقدات دينهم.<sup>1</sup> كما ذكر المؤلف إقامة جاليات الهندوس في عمان وما يقومون بتجارة المواد الغذائية التي يجلبونها من موطنهم الأصلي الهند.

### الحلقة الثانية:

تضم تسع (9) صفحات:

فأورد المؤلف ذكر ورود المركب إلى قرية "ريام" الصغيرة، وذكر خلالها منازلها البسيطة، كما ذكر هناك القوارب مصطفة على شاطئ الصخري، وقليلًا من أشجار النخيل بالقرب من سفح الجبل، وحولها نزر يسير من الزراعة، وهناك رأى محمد ذلك الجبل الأشم والقلعة ذات الأبراج الدائرة الثلاثة بناها البرتغاليون، كما رأى محمد هناك في جبال مطرح قرية الشطيفي التي كانت أصغر قرية يراها، منازل محدودة ومعدودة، كما ذكر المؤلف القرية "عينت" في الطريق إلى السيب، ووصفها وذكر موقعها وماءها ومزارعها؛ كما ذكر هناك في الطريق إلى السيب قرية "دارسيت" وهي أكبر حجمًا وأكثر سكانًا، تختلف عن "عينت" في أن أرضها رملية خصبة والوصول إليها سهل، كما ذكر قرية "سمح المالح" أو "الصحراء المالحة" التي تجاور دارسيت، ولا يوجد بها مياه عذبة؛ فلذا لا يوجد بها أحد من البشر، هكذا ذكر المؤلف سير البدن إلى الأمام، وكما ذكر حال المسافرين بأنهم منشغلون بما يظنه مهمًا، بالنسبة للأطفال يقطعون المركب جيئة وذهابًا، يلعبون ألعابهم البريئة، يراقبون السحب في السماء البعيدة تتجمع تارة ثم تتفرق تارة أخرى، ينظرون إلى الموج وهو يضرب بجسم البدن، يقلدون الكبار في جلوسهم وحركاتهم وسكناتهم، أما النساء فقد تحلقن في ركن من المركب حول دلة القهوة وقد شغلن منذ بداية الرحلة

<sup>1</sup> القيظ، المصدر نفسه، ص 23

في حديث طويل ومتشعب ومتعمق في القيل والقال، وكثرة السؤال، مواضيع تنطرق  
لأمور شتى من الزواج إلى الخطبة، والطلاق، والهجران... وغيرها.

وأما المسافرون من الرجال فقد اختاروا ركنًا بعيدًا عن حلقتهم متحلقين حول دلال  
القهوة يتحدثون، في أمور شتى، والملاحظ فيهم أن رجلًا واحدًا منهم يتكلم، بينما  
ينصت الآخرون، ولا يبدأ شخص آخر الحديث أو يعلق على ما سمعه إلا بعدما ينهي  
المتحدث حديثه.<sup>1</sup> وهنا ذكر المؤلف أن محمدًا وأصحابه رغم صغر سنهم دنوا من  
حلقة الرجال ليسمعوا منهم تجارب الحياة وما يهمهم في حياتهم المستقبلية، فتطرق  
الحديث خلال ذلك إلى النفط، فأوضح الشيخ عمر عن النفط، وذكر عن الشركات  
الإنجليزية التي تحاول الكثير الكثير لإخراج النفط في البحرين وغيرها من المواضيع،  
ويذكر المؤلف أن محمدًا مصغ أذنه إلى أحاديث الرجال، ففهم من ذلك القليل، ثم  
أوضح المؤلف: بأن البدن يسير سيره الطبيعي، هنالك استرعى انتباه المسافرين ما  
يشبه أبراجًا صغيرة منصوبة على الشاطئ، هنالك قال البحار "هاشم" هنا يعمل  
الصاروج، وهي طين محروق يستخدم في بناء الكثير من المنشآت، كان هاشم ألقى  
الضوء كاملاً لصناعة الصاروج، والكل مرهفون آذانهم إلى كلام هاشم، هنا أكمل  
المركب سيره ليرى ركابه قرية "الغبرة" وما هي بعد ذلك وقت قصير إلا ولاج في الأفق  
البعيد عدد من المزارع، لقد وصل المركب إلى مقصدهم "السيب".

#### الحلقة الثالثة:

هذا الرقم يتدئ من صفحة ست وثلاثين (36) وينتهي على سبع وأربعين (47)، هذه  
الحلقة تذكر أن الركب وصل إلى المقيظ، هنا متعة وفرح وترح، الجلوس مع الأعباء،  
وسرد حكايات وذكريات وأحوال، وأخبار حدثت في الماضي، هنا محمد في موطنه  
واقامته لابسًا ملابس الصيفية البسيطة، جالسًا على الحصير من الدعن تحت  
أغضان شجرة شريش تحركها رياح خفيفة، كما يذكر هذه الحلقة المنظر الهيج في  
مزرعة ابن نصيب، حال الثيران الضخمة تخرج المياه من البئر، والشمس في السيب

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 29

أقل حرارة من المسقط، وأشعتها تسقط على حوض الماء الذي يحوطه عدد من أشجار الأمبا وغيرها، وهناك جو صامت، وطيور تنبعث من حناجرها أصوات مختلفة، وهنا رأى محمد حشرة الصرناخ تترد في المكان، كما وصف خلاله حشرة الصرناخ، هنا يذكر المؤلف بأن أم محمد في اهتمام كبير بتربية أولادها حيث تعلمون هنا تحت إشراف المعلم عبد الرحمن الذي هنا إمام مسجد، وكما يذكر المؤلف الأعمال الأخرى لمحمد وأقرانه بجانب تعلم قراءة القرآن السباحة في الحوض وكما يجرى فيما بينهم مسابقات في السباحة، وكما ذكر الأمر الآخر لهم التجوال بين المزارع بحثاً عن الأشجار والفواكه، بأنهم يقطفون الأثمار بالأشجار فلما يسمعون صراخ صاحب المزرعة يهربون في غمضة عين، وكانت إنجازاتهم وقطوف الأثمار أكثر ما يكون في مزرعة حامد الذي كان رجلاً بخيلاً، كما ذكر متعة آخر حقيقية لمحمد وأقرانه عندما يرون خلية دبي معلقة على شجرة أو مبنى طيني قديم فيأخذ أحدهم حصاة فيقذفها على تلك الخلية، فهناك هجمات الدبي الغاضبة لتخريب خليتها، فتلدغه الدبي في كل مكان، ثم ذكر عن معلم القرآن عبد الرحمن وماله قدرة في العلم وبعض كراماته، وحضوره في المواليد والمناسبات الدينية التي تقام في المزارع، ثم ذكر إقامة ابن نصيب مالد في مزرعته، وأورد الطقوس والتقاليد التي تقام في المولد، وإنشاد عبد الرحمن المعلم أبيات المولد وكراماته.

#### الحلقة الرابعة:

الحلقة الرابعة تستغرق تسع عشرة (19) صفحة.

فتشير هذه الحلقة إلى ألعاب الأطفال البريئة التي كانوا يداومون على لعبها، منها لعبة "لعبة العنبر" كانت من أحب الألعاب عند محمد وأقرانه، ففسر المؤلف عن هذه اللعبة، وذكر اللعبة الأخرى "لعبة العنبر" وذكر تفاصيلها، والآخر التي عشقها محمد وأقرانه "لعبة اللوماه" ثم فصل عن هذه اللعبة ثم ذكر "لعبة العصا" المحببة للنفوس، كما ذكر ألعاب البنات باسم لعبة "طاق طاق طاقية" وكذلك لعبة "الغميضة أو الاستخفاء"، كما لمحمد وأقرانه في الأيام الصيفية الكثير من البهجة

والسرور، ومن بين أمور أخرى دأبوا على عملها بناء منزل أو قلع من الرمل قريباً من البحر بحيث تهدمه أمواج البحر، في الموجة الأولى، أو الأخرى أو الثالثة، فمن مبناه صامداً لأطول فترة من الزمن أمام الأمواج يعد فائزاً، كما ذكر من متعتهم الصيفية أنهم يمشون على الشاطئ مع الأصحاب والأحباب يراقبون أمور الصيادين، من إنزال مراكبهم في البحر، ورجوعهم إلى الشواطئ، ومنظر تخليص صيدهم من الشباك وغيرها، وكان من بين الأمور الكثيرة التي أحياها محمد وأقرانه هو التوجه إلى ساحل البحر لجمع الدوك، فلذلك استعدت أم محمد مع نساء عائلة المرحوم نصيب، فجمعت ما شاء الله، وهي وجبة غذائية يومية هامة في فصل الصيف، فذكر المؤلف كيف جمعت النساء وطبخت الدوك.

ثم يذكر المؤلف عملهم في فترة الظهيرة:

"في فترة الظهيرة يهمد الجميع دون استثناء، الرجال والنساء، والأغنام والأبقار في الزريبة، والطيور وزغاليلها في وكناتها، والغربان في أوكارها وعلى قمم الأشجار، فلا يسمع أحد نعيقها، وفي بعض الأحيان يقل نعيقها لحد كبير، كما تتوقف الحمير عن إصدار أنكر الأصوات، النهيق، وكذلك تأخذ الدجاجة صيصانها إلى القن هرباً من الحر، أما ثور المنجور فيمنح راحة ليستعيد قوته بعد ساعات عمل مضنية، صمت مطبق، الجميع صامت، أو نائم، أو مسترخ، أو مستلق خلال تلك الفترة، وذلك لإراحة النفس والجسد استعداداً لفترتي العصر والمساء"<sup>1</sup>

ويذكر المؤلف بأن الأطفال استثنوا أنفسهم عن ذلك الالتزام المزعج، بأن قلوبهم الصغيرة مسكونة بشوق غامر للعب والطواف على المزارع وقطف الأثمار، كذلك حال محمد، كان يراقب كأقرانه نهاية فترة الظهيرة، وسماع أذان العصر، وهو يحدق أنظاره على الأشجار والمناظر البهيجة أمامه، حرص محمد على إيفاء عهده مع أمه بأن ينام أو حتى يتمدد قريباً منها وقت القيلولة، ليتجنب أشعة الشمس الحارقة، ومن بين النواقض الأخرى لذلك العهد الهش سماعه لأصوات أقرانه وهم ينادون

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 57

عليه بصوت خافت ليرافقهم في الذهاب للبرك وموارد المياه العديدة في السيب ليراقبوا الغزلان والحيوانات البرية التي تأتي من الوهاد والقفار والجبال البعيدة مستغلة فترة الهدوء المطبق وقت الظهيرة، ومحمد فرح مسرور بمغامراته الممتعة بدون أن تعلم أمه، ولكن تعلم أمه بتقديمه المتسخين مدى مغادرة المكان.

ثم ذكر المؤلف عندما يؤذن المؤذن صلاة العصر وهي إيدان حقيقي لنهاية فترة الظهيرة الطويلة، عند سماع الأذان يلبي أغلب الرجال النداء، ويؤدون الصلاة، ثم يجلسون في مجموعات تحت ظل المسجد أو تحت ظلال الأشجار لقضاء الوقت في أحاديث متنوعة، كذلك حال النساء وهي أنسب وقت لهن لزيارة الجوار، والأطفال من محمد وأقرانه يذهبون إلى شاطئ البحر حيث السباحة، ثم التجوال في سوق السيب لشراء المشاكيك، كما يقضون أوقاتهم في لعبة طلوع النخيل، والفترة المسائية ليست جذابة لمحمد وأقرانه، لأنه لم يكن يسمح لهم بالخروج من المزرعة بسبب الظلام الدامس، وخوفاً من الجن والعفاريت وتجنباً عن زواحف الأرض، أن هناك رقعة محدودة داخل المزرعة للعب في الليالي خاصة في الليالي المقمرة، وزيادة في المتعة عندما يجلس الأطفال محلقيين وينشدون أناشيد رنانة، هكذا ذكر المؤلف ليالهم ونهارهم وأعمالهم وأشغالهم.

#### الحلقة الخامسة:

تبتدئ من الصفحة الثمانية والستين (68) وتنتهي على الصفحة الخامسة والسبعين (75):  
هذه الحلقة تدلي الأضواء على مجالس السمر في الليالي، ومشاغليهم فيها، وكيفية الظلام الحالك السائد تحت أديم السماء.

يذكر المؤلف جلسات السمر هكذا:

"ما من شك في أن جلسات السمر تعيد للجسد نشاطه، وللروح عنفوانه كما تطيب الخواطر، وتصفي ما في قلوب المتسامرين الذين ينتمون لأطياف متنوعة من هذا المجتمع الصغير المترابط لحد كبير، كما ينتهي لمستويات اجتماعية متعددة، فتزِيل

منها الهم والكرب والضيق، وتذهب الوحشة بالنفوس ليحل محلها الأناج والوئام، وهو ما يقوي العلاقات بينهم فيعرض كل فرد منهم حضور إحدى جلسات السمر القريبة من منزله للإنصات لما يدور فيها والمساهمة بما تيسر من مناقشات وتداول الأخبار، ومن ثم نقلها لمجالس أخرى في ليلة لاحقة بغض النظر عما إذا كانت الأخبار التي سمعها موثقة أم لا، لذا يتشعب الحديث، أو لنقل تتشعب الأحاديث، التي تتطرق لكل شأن من شؤون البلاد والعباد، لا في عمان وحدها؛ بل في بلاد الله الواسعة التي زارها المتحدث، الأحاديث مفعمة بأخبار الحوادث وصروف الدهر وبها الكثير من العظات والعبر"<sup>1</sup>.

يشير المؤلف إلى بعضها بأن ابن نصيب في كثير من الليالي يستضيف الكثيرين من مزرعته من أهله، وأقاربه، وأصحابه، وأحابيه، وجيرانه، خاصة الشيوخ أمثال عبد الرحمن، ودرويش، وعمر وصديقه الحميم التاجر الصغير موسى.

المكان الذي يعدّ لجلسات السمر يرش عليه العاملون بعد العصر الماء؛ لكي تخفف حرارتها، ويثبت الرمل، ثم تفرش السجاجيد بألوان بديعة، ليجلس عليها الضيوف، ويتكأوا على المساند المصنوعة، كما وضع العديد من المصابيح لإضاءة المكان، بعد تناول العشاء المعدّ يشرع السمر، يقدم الشاي والقهوة على الحضور مع قدومهم وبعد العشاء وفي أي وقت يطلبونها، التمر أيضاً موجود للتناول، ويذكر المؤلف بعد ذلك أن المتعة الحقيقية والأناج الجميل لا يكتمل إلا بوجود عنصر هام وفاعل يعد المزاج ويريح الأعصاب سجائر، وتمباك، نشوق وغيرها، فيجري الحديث عن قلم المؤلف بعد ذلك عن أنواع التمباك المختلفة مع ذكر فوائدها وأسلوب استخدامها ونوع استعمالها، وما يجلب منها من الأوربا.

وحال النساء في مجالس السمر كحال الرجال في كثير من الأمور.

وأما محمد وأقرانه انضموا إلى مجلس الرجال، والبنات لمجلس النساء.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 59

### الحلقة السادسة:

الحلقة السادسة تشرع من ست وسبعين (76) صفحة وتنتهى على أربع وتسعين (94) صفحة.

هذه الحلقة تناقش عن السمر وأحاديث وحكايات يوسف، وبيان أسفاره ورحلاته البحرية من الهند وإفريقيا.

يوسف وهو من أقارب أم محمد، وأحد المتسامرين الكثر الذين اجتمعوا في مزرعة ابن نصيب في تلك الليلة، وهو يعمل بحاراً على متن المراكب التجارية الكويتية التي تطوف وبشكل دؤوب على مختلف البنادر، ... وكانت جعبة يوسف عامرة وبشكل دائم بالقصص والحكايات الكثيرة، هناك تلهف الجميع دون استثناء لسماعها بشوق غامر، بما فهم ابن نصيب، ومحمد وأقرانه أتوا مسرعين لمجلس الرجال ليسمعوا ما لم يسمعوا، فذكر يوسف حياة البحر، وذكر أنها عسيرة، وكل ذلك في طلب المعيشة، فقاطع كلام يوسف ممدوح الشهي للكلام، وتغير مجرى الأحاديث الشائقة، فبدأ تدمر واضح على محيا الجمع بما منهم ابن نصيب، فذكر يوسف أنه يعمل منذ مدة مديدة على المراكب الكويتية الكبيرة مثل البوم والبيغلة التي يشحن على متنها الاحتياجات الأساسية للتجار والناس من بندر إلى آخر، كما تنقل هذا المراكب المسافرين، كما تنقل المياه العذبة من شط العرب إلى الكويت لعدم توفير المياه العذبة في الكويت، فيشرع سفرنا من الكويت مروراً على شط العرب في الجانب العراقي، ثم إلى الهند، كما أتى خلال ذكر النفط، وتوافد الشركات الأجنبية إلى الخليج للبحث عن النفط وهذا السائل الأسود، وقصص ظهر النفط في البحرين، فلما جاء ذكر ظهور النفط في البحرين ارتسمت على محيا ابن نصيب وعدد من جلسائه ابتسامات رجاء وأملاً أن يرزق الله عمان النفط، وتناوب كل من ابن نصيب وموسي في إيضاح وتفصيل فضائله وآثاره على البلاد والعباد، كما ساهم الشيخ عمر قليلاً في الحديث عن محاولات البحث عن النفط في عمان، وكما شارك كل من عبد الرحمن ودرويش في ذكر آلائه الله ونعمه على عباده مذكرين السامعين بوجود الشكر

والحمد له في كل الأحوال. ثم ذكر يوسف أن المركب يشحن بالتمور بالكويت أو البصرة بحيث يتم تعبئة المركب بالتمور خلال ثلاثة أسابيع، خلال تلك الأيام ذكر يوسف تنزهه في الأسواق المختلفة في الكويت والبصرة، فقال يوسف: عند الخروج من شط العرب نيمم جهة الهند مقترين من ساحل فارس، وبعد فترة من الإبحار يظهر أول معلم على اليابسة وهو جبل بوريال ... ثم نستمر في الإبحار مروراً بالقرب من العديد من البنادر الصغيرة والجزر مثل جزيرة الشيخ شعيب، وجزيرة قيس، وجزيرة فرور، وجزيرة طناب الكبرى، وجزيرة سلامة وبناتها، ثم بعد نعب مضيق هرمز وأول معلم نراه بعد العبور هو كوه مبارك (جبل مبارك)<sup>1</sup>.

ثم ذكر المؤلف بلسان يوسف تفاصيل القراصنة الذين يسطون على البضائع والنقود وكل ما له قيمة بقوة السلاح، ثم ذكر عن عبور مضيق هرمز ورؤية القرى الصغيرة الزراعية، وإعداد الملح هناك، ثم وصول المركب إلى "فناز أم نير" القريب من كراتشي.

#### الحلقة السابعة:

وهي تبتدئ من الصفحة الخامسة والتسعين (95) وتنتهي إلى المائة والسادسة عشرة (116). وهو يذكر عن السفر إلى كراتشي، ومومبائي، ومنجلور، وكاليكوت، ثم الرجوع قافلاً إلى الكويت، ثم بداية السفر إلى إفريقيا، والرجوع عنها.

فذكر المؤلف بأن يوسف لما بلغ إلى ذكر كراتشي، فأخذ ابن نصيب أطراف الحديث لأنه يعرف كراتشي حق المعرفة، وأنه يملك بيتاً هنا، كما له العديد من الوكالات والأنشطة التجارية، فعرف ابن نصيب الكراتشي حق معرفة، وأبرز للسامعين صورة جليلة عن كراتشي، ثم أوماً إلى يوسف ليكمل حديثه، ثم ذكر يوسف رسو المركب في البندر، وبيع التمر بالوسطاء، وبغيرهم، ثم يبحر المركب مروراً بالعديد من البنادر مثل كوباري وماندوي، ودواركة، وخور ميان، إلى بندر راول، هناك تعرض التمور للبيع، ثم وصف عن بندر راول، ثم لما جاء ذكر مومبائي أخذ ابن نصيب دلو الحديث ليدلوه لما

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 91

يعرف مدينة مومبائي، وزارها مرات عديدة، فوصفها أمام الحاضرين وصفًا جميلًا، ذكر خصائصها وامتيازاتها، ثم جعل يوسف يتحدث بعد نهاية الأعمال في مومبائي ببحر المركب إلى منجلور، ومن ثم إلى كاليكوت ثم العودة إلى الكويت.

ثم ذكر المؤلف بالتفصيل عن لسان يوسف أمام المتسامرين عن سفره إلى مثل ذلك إلى إفريقيا مرورًا بالبنادر المختلفة كمثل عدن، وبندر بربرة الصومالي، وبندر حافون، حاملاً على متن مركبه البضائع، والتمور، والناس وغيرها، ذكر خلال ذلك خصائص تلك البلاد والعباد وعاداتهم وطقوس، ومحصولات أراضيهم ونبذة قليلة عن تاريخ تلك الأماكن، كما سرد الذكر عن دلتا الروفيجي دلتا عظيمة ومربعة وتفرعاتها كثيرة وأغصانها، والأشجار فيها متشابكة وكثيفة ومياهها في بعض المواقع عميقة، وذكر جوها ومخاطرها ثم الرجوع إلى الكويت من غير توقف بعد إبحار ثلاثة أشهر، وهذه الرحلة تستغرق تسعة أشهر.

#### الحلقة الثامنة:

وهي منتشرة ومبسوطة من الصفحة المائة والسابعة عشرة (117) إلى المائة والثلاثين (130)

وهي تحدث عن تهريب الذهب عن لسان يوسف، وكيفيته، وأسلوبه، وما يحدث الإنسان لعمليته.

فذكر المؤلف بعد ذلك أن يوسف المسامر ذكر عملية تهريب الذهب أمام السامعين بعد تردد يسير، وهي تهريب الذهب ما بين الخليج والهند، بحيث يشتري الذهب من السوق التي تكون فيها الأسعار رخيصة ثم يباع في السوق التي فيها الأسعار مرتفعة، ويحقق بذلك أرباحًا كبيرة نتيجة الفارق بين السعيرين، على الرغم من أن الحكومة البريطانية منعت إدخال وإخراج الذهب من وإلى الهند إلا تحت إشرافها وبعد دفع الرسوم الجمركية المقررة، نظرًا إلى الضرائب التي فرضت على تجارة الذهب، وفي ذات الوقت كان الفارق في سعر الذهب بين السوق كبيرًا جدًا حث الكثيرين على دخول معترك التهريب والتفنن في أساليبه طمعًا في تحقيق أرباح لا يمكن تحقيقها بأي مهنة أخرى، ثم ذكر وسائل التهريب

من الخليج والوصول إلى الهند، وعملية التفيش من قبل الجماركة، وذكر سبيل تسليم الذهب إلى التاجر الهندي بأساليب مختلفة، ثم طرح خلال ذلك السامعين أسئلة عديدة إليه، فأجاب يوسف جوابًا شافيًا مطمئنًا، ثم ذكر عن العقوبات عند العثور على عملية تهريب الذهب، ولذا لا يدخر النواخذة والبحرية أي جهد للإفلات من ثبوت تهمة التهريب عليهم، ومن بين وسائلهم تلك رمي الذهب في البحر حال التيقن من أن رجال الجمارك سيكتشفون لا محالة مكان إخفائه.<sup>1</sup>

ثم أتى المؤلف بحديث يوسف في جواب أحد المزارعين بأنهم يكابدون المشاق العظيمة خلال رحلتهم البحرية؛ رحلة الهند تستغرق حوالي ستة أشهر، والرحلة لسواحل شرق إفريقيا حوالي تسعة أشهر، ونقضى هذه الأشهر الطويلة على ظهر المركب ليلاً ونهارًا، تهب علينا من كل الاتجاهات رياح تكون قارصة في الشتاء وحارقة في الصيف، السماء فوقنا، والبحر تحتنا، والصبر والتوكل على الله من شيمتنا، ثم ذكر عن أيامهم الحلوة خلال السفر تارة وأخرى مرة فمثلًا عندما يطلع "الأحيمر" نجم في المساء يتميز عن غيره بلونه الأحمر، ويظهر عادة بعد المغرب، يتزامن من ظهوره مع غبار أحمر اللون يغطي الأفق، ثم تظهر غيوم شديدة السواد، وتهب رياح رعديّة قوية، وأمواج عاتية متلاطمة، وتسقط الأمطار، بل لنقل أن السماء تنشق عن ماء منهمر تسكبه السماء التي لا يمكننا رؤيتها لحلقة العتمة وهو ما يجعل المركب رغم ضخامته كريدشة في مهب الريح في تارجح البحرية يمنة ويسرة، ومن مكان لآخر، وليس من المستبعد سقوط أحدهم في البحر، في تلك الأثناء لا يملك المرء إلا التوجه إلى الله بالدعاء والإلحاح فيه حتى يزح الهم ويفرج الكرب ويذهب البأس ويسهل الحال ولخطورة الأحيمر الشديدة فإن أحدًا من النواخذة لا يركب البحر إلا بعد التيقن من اختفائه وزوال أثره، لكن يحدث وأن يخطئ بعضهم الحساب فيخرجوا قبل وقت قصير من هبوه، لكنهم دفعوا ثمن ذلك الخطأ من الأموال والأرواح.<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 125

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 128

### الحلقة التاسعة:

وهي تستغرق سبعاً وعشرين (27) صفحة، وتحدث عن الأطباء الأوروبيين المسيحيين، ومعالجاتهم، وشفاء القاطنين عن علاجهم.

يذكر المؤلف بأن يوسف لما سكت بعد ذكر الحكايات الكثيرة من أسفاره ورحلاته البحرية، فلما أتى ذكر العواصف، وقصص الغرق، والموت، والقراصنة، فتشعب الحديث وأتى ذكر الأمراض والعلل والأفات التي تزور عمان بين فينة وأخرى، فأخذ عبد الرحمن زمام المبادرة، وبدأ الحديث بأننا وأبائنا عشنا في أيام صحة وأيام مرض، وعندما يمرض أحدنا كان يتجه إلى أقرب معلم أو عطار ليشتري منه الأعشاب التي فيها الدواء والشفاء، لكن هناك وقع تحول تاريخي غير مسبوق في التطبيب حينما جاء شخصان أمريكيان الأول اسمه صموئيل، والثاني زويمر، مبشرين بالدين المسيحي بين المسلمين، فعملوا لعلاج الأمراض بجانب الدعوة إلى الدين المسيحي، ولكنهما لم ينجحا إلا في تحويل أقل من اثني عشر مسلماً إلى المسيحية.

ثم جاء المبشرون الآخرون للتبشير بين المسلمين ولعلاج الأمراض كما بين عمر الدكتور الجراح جاياكار الذي كان من شبه القارة الهندية، وأنه قام بالتجوال في عمان، ودرس الحياة البرية بما فيها من نباتات، وحيوانات وحشرات، كما كتب عن الأمراض التي كانت تفتك بالعمانيين مثل الملاريا، والسل وأمراض العيون، وغيرها، والتي عزاها إلى أمور عدة من بينها سوء التغذية، وقلة النظافة، والحرارة الشديدة، وهو عمل في عمان لفترة تزيد عن عشرين عامًا.

ثم أرسلت الكنيسة الإصلاحية في أمريكا المبشرة اليزابيت دي بري إلى عمان، حيث أنشأت عيادة طبية في مطرح لرعاية المرضى والعناية بهم، والمبشرة اليزابيت أوصت كنيسةها بإرسال طبيب جراح إلى عمان، وبعد دراسة توصيتها أرسلت الكنيسة برقية إلى الدختر شارون تومان ليتوجه إلى عمان ويعمل به.

وهو جاء كمبشر مسيحي، وأنشأ مستشفى به خمسة عشر سريرًا، ونظرًا للحاجة منقطعة النظر للرعاية الطبية التي مهر فيها توافد الناس إليه زرافات ووحدانًا من داخل مسقط وخارجها، كل ينشد الصحة والعافية.<sup>1</sup>

ثم دل بعض الحاضرين على وفاته، وذكروا إخلاصه وتفانيه في العمل، والحب بالناس، وتواضعه ولطفه مع المرضى، رغم شعبية الدختر بين الناس، لم ينجح في مهمته التبشيرية، ولم تحقق غايته وأهدافه، ثم ذكروا عن بعض الأمراض المهمة التي يصاب ويعاني بها أهل عمان مثل الملاريا، والسل، والجذام.

وأضاف أحد الحاضرين على ما سمعه بقوله: صنوف شتى من الأمراض استوطنت عمان، وصنوف أخرى كانت تزورها بين فترة وأخرى حاصدة عددًا غير قليل من الأرواح مع كل زيارة مشؤومة لها.<sup>2</sup> أتى خلال ذلك ذكر مرض "الجذري" والبيت الجدر، ثم جاء ذكر الطبيب هاريسون واحدًا من الأطباء البعثات التبشيرية التي أرسلتها الكنيسة الإصلاحية في أمريكا للمنطقة، ولكن رغم الجهود الجبارة التي بذلتها كنيسته طوال خمسين عامًا لنشر المسيحية في المنطقة إلا أنه اعترف صراحة في أكثر من مناسبة أنها لم تنجح إلا في تحويل خمسة من المسلمين للدين المسيحي.

### الحلقة العاشرة:

هذه الحلقة تحتوي على خمس عشرة صفحة (15) بداية من الصفحة المائة والثمانية والخمسين (158) ونهاية إلى الصفحة المائة والخامسة والسبعين (175)، وهذه الحلقة تذكر مسابقة مناطقة الثيران.

فيذكر المؤلف بأن محمدًا وأقرانه بعد دراسة حصص القرآن الكريم، يطوفون في كل مكان، ومن أمتع الأخبار التي تلتقطها آذانهم الصغيرة مرهفة السمع، بين فترة وأخرى، هو خبر إجراء مناطقة الثيران، وهو خبر مشوق ومغر ينتظرونه، وينتظره

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 137

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 148

الكثيرون غيرهم، صغارًا وكبارًا، وكان عصر ذلك اليوم مشهودًا، والشوق بلغ بمحمد وأقرانه مبلغًا عظيمًا، لمشاهدة المناطحة، وكان مالك الثيران تنافسوا في شراءها وإعدادها للمناطحة ورعايتها خير قيام، المناطحات جرت كما تجري في كل مرة، جمهور كثيف، ثيران عملاقة، نزال شديد، التحام قرون صلبة أصلب من الصخر، رسوخ حوافر غليظة في الرمال، كتل اللحم الجبارة ترتطم ببعضها، أرض حارة سكتكلوه تهتز، وما كان ذلك بغريب في أي يوم من الأيام عناد مريع، جروح وقطوع، هتافات الجماهير، صيحات وتشجيع، فحرص البعض، غضب البعض، استياء البعض، عدم اكتراث البعض لما يدور حولهم لا لشيء إلا لأن ذلك طبعهم رغم أنهم حضروا إلى الميدان منذ وقت باكر<sup>1</sup> هكذا انتهت المناطحة بإعلان العقيد خليفة عن الثور الفائز، أمتع محمد عينه، بل كحلها، بمشاهدة ما شرح صدره، وأسعد يومه، ذكر المؤلف شروق شمس الصباح بأن قرّر محمد بعد تفكير كبير وبحث كثير الذهاب إلى مزرعة السلطان تيمور بن فيصل من بين الأماكن الكثيرة التي يشترك ويتلطف لزيارتها ليقضى بها أوقاتًا طيبة خلال موسم القيظ بين المزارع، والأشجار وارفة الظلال، والطيور والمياه، ثم ذكر المؤلف فلما عاد محمد إل منزله رأى أصحابه قد اتفقوا على الخروج لصيد الطيور، خاصة الصفرد، هو وأقرانه يعرفون حق المعرفة صناعة فخاخ صيد الطيور على هيئة صندوق مربع الشكل مصنوع من جريد النخل بفتحات ضيقة على جوانبه وأعلاه يمكن خلالها رؤية الطائر، أما المدخل في الجزء السفلى منه ويكون بحجم ذراع واحد تقريبًا<sup>2</sup> ثم ذهبوا لصيد الصفرد، فقد اصطاد الأطفال العديد الكبير من الصفارد، امتد الفرح ليشمل أمهات أولئك الفتية، هكذا يقضى محمد وأقرانه قضا أيامهم في كثير التنقل، وكثير الاختلاط بالآخرين، صغارًا وكبارًا، وكثير الاستحمام في المياه، حلوها ومالحها، في الصباح، والظهيرة والعصر، وكثير التعرض للنسائم بأنواعها الرطبة والدافئة والباردة والجسم والثياب فقد وقع محمد طريحًا، ثم بعد جهد جهيد من قبل أمه أصبح صحيحًا، قويًا.

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 162

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص 167

### الحلقة الحادية عشرة:

وهي تحتوي على عشرين صفحة (20):

هذه الحلقة تشير إلى أهمية النخلة، ويذكر فوائدها الجمة بالبسط والتفصيل.

يقول المؤلف: النخلة وما أدراك النخلة؟ وهي شجرة ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما ذكرت في الأحاديث النبوية الشريفة أيضاً عدة مرات وكرات، عرف الإنسان قيمتها وقدرها منذ أزمان سحيقة، لذا كل حريص على زراعتها، عمرها طويل يمتد لسنين ليست بالقليلة.

نظراً إلى الفوائد الجمة للنخلة لم يتوان ابن نصيب عن زراعتها في مزارعه الشاسعة والموزعة في العديد من القرى والبلدات متخيراً أجودها وأفضلها مثل الفرض، والخلاص، والخنيزي، والمبسلي، والهلالي، وغيرها، وكان في مزرعة ابن نصيب النخيل المعمرة غرسه والده، وبعضها إهداءات من بعض أقاربه، وأصحاب وأحاب.

ويذكر المؤلف أن محمداً لما يصل إلى إذنيه المرهفتين الأحاديث عن قرب حلول موعد نبات التلقيح، فهو يقصد المزارع لحيه عمل التلقيح ليساعد البیدار في عمل التلقيح، فعندما تنضج التمور فيشرع الناس في البيع والشراء، ويصدق بعضها على الفقراء، فكل يقصد المزارع ليحصل نصيبه من الأعمال المختلفة بمساعدة أصحاب المزارع في تفريق النضج عن الرطب، بما فيهم محمد وأمه وغيرها من النساء، فكل فرح مسرور. فيبين المؤلف فوائد النخلة الكثيرة في عبارته الأدبية الممتعة في أسلوب يأخذ بمجامع القلوب:

"النخلة راسخة في الأرض، وشماء شامخة في السماء، وكريمة مكرمة، وعزيزة معززة، ولا تركع ولا تثني، ولا تنحني لأحد، ورغم أنها سمحة ووهابة ورياضة العطاء، إلا أنه يتوجب على كل من يرغب في التنعم بطيبات ثمارها وخيراتها أن يعتني بها ويرعاها حق رعايتها بلا كل ولا ملل ولشهور طويلة من الزمن، شجرة تظل من طلب الظل، وتطعم من طلب الطعام، الإنسان والحيوان معاً، سخية، وأي سخاء، في حياتها وحتى بعد

مماثها، الخير في كل جزء من أجزائها، الثمار، والسعف، والليف، والجذع، والجريد، والخوض، والعنق".

"في حياتها تمنح النخلة أجود أنواع الطرب والتمور التي يتمتع بها الإنسان، وقيم بها أوده، ويصل رحمه وأهل بيته ويتقرب بها عند الوجهاء والأعيان، ويقدمها للضيوف والأحباب والخلان، ويتصدق بها على المحتاجين والمعوزين، كما تمنح أنواعاً أخرى رديئة، لا تصلح إلا كعلف للحيوان الذي يقبل عليها بنهم فتتقوى أبدانها وتسمن ضروعها فتكثر من إنتاج الحليب واللبن لصغارها وللإنسان أيضاً، ولجودها وكرمها طوال حياتها المديدة فإنها تحرض على أن لا تسقط أي ورقة من أوراقها، رطبة كانت أم جافة، بل تحبسها لديها، وكأنها تنتظر اليوم الذي يأتي فيه البیدار وبيده المخلب ليقطع سعوفها الجافة لتستخدم كل جزء منها في صنع عدد وعتاد، وأثاث ومتاع، تسهل حياة ومعاش الإنسان".<sup>1</sup>

#### الحلقة الثانية عشرة:

تبتدئ من الصفحة المائة والخامسة والتسعين (195) وتنتهي على الصفحة المائة والثمانية والتسعين (198).

تجمع هذه الحلقة عادات أهالي مسقط في فصل الصيف، بأنهم يوزعون في أماكن مختلفة لقضاء فصل الصيف، يقصدون السيب وغيرها من الأماكن القريبة مثل قريات، وغلا وبوشرن، والبعيدة مثل فنجا، والعمقات، وبدبد، وسمائل وغيرها، ويعود سبب تفضيل مكان على آخر إلى أن بعضهم تعود الرجوع لذات المكان كل عام، أو أن لهم معارف وصدقات يرغبون في زيارتهم، أو لرب العائلة مصالح تجارية في المكان المقصود، ومن بين الأسباب الكثيرة التي عززت هذا الإدمان أن أهل المقايظ اشتهروا بحسن استقبالهم للغريب وإكرام الضيف، مع حرصهم الشديد على توريث هذه الخصال الحميدة لأبنائهم وأحفادهم من بعدهم حتى أصبحت سمة التصقت

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 188

بهم، وخلقًا تحلوا به، وعرّفًا تعارفوا عليه فتأصلت فيهم وأصبحت جزءًا من شخصيتهم لا يفارقهم ولا يجافهم ولا يحيد عنها إلا شاذ مرفوض من مجتمعه.<sup>1</sup>

وكان لعبد الرحيم وهو من وجهاء مسقط يعمل في الجمارك وكان قد توارث من والدته أملاكًا كثيرة، بحيث تمكن من شراء مزرعتين صغيرتين اثنتين، الأولى في غلا، والثانية في بوشر زرعت فيهما أنواعًا شتى من الأشجار المثمرة، والمحاصيل المتنوعة الكثيرة، وهو أيضًا يقضي كذلك صيفه في المزارع والحقول في الصيف، بين السمر والحديث والحكايات والقصص، والأخبار، وبيان مختلف الأشياء بذكر فوائدها.

هكذا تنتهي الرواية، مزودة القارئ بمعلومات جمّة عن قيظ عمان، والسمر والحديث، والرحلات، والحكايات والقصص، والأشياء المختلفة وفوائدها، من النفط والنخلة وغيرها، كل ذلك في أسلوب أدبي رشيق يرسخ في القلب قبل أن يبلغ إلى الأذن، فالمؤلف جدير بالحمد والثناء من قبل أهالي مسقط أنه أخرج تاريخها في حلة قشبية وأسلوب ممتع، جذاب، وفي نهج أدبي، يهوى المتعة الكثيرة للمولعين باللغة العربية، بحيث إن القارئ عندما يقرأ هذه الرواية يساير حيث ما سار المؤلف، ويشاهد ما شاهده من المناظر، ويشارك في جميع الأعمال والأشغال، ويشاطر في جميع الألعاب والألغاز للأطفال والبنات، ويساهم في ما يهم الرجال والنساء من الأمور العديدة خلال الرحلة وخلال الإقامة في المقيظ.

ندعو الله عز وجل أن تجعل هذه الرواية نافعة للناس وللمولعين باللغة العربية، ويجعلها الله ذخراً للمؤلف في الآخرة.

---

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص 195

قراءة في كتاب:

- محمد معتصم الأعظمي<sup>1</sup>

عنوان الكتاب: شاعر الحب والجمال ابن زيدون

الكاتبة: الدكتورة هيفاء شاكري

الناشر: روزورد بوكس، نيودلهي، الهند

سنة الطبع: أبريل 2015م

السعر: 500 روبية هندية

إن الأندلس لها مكانة عظيمة في التاريخ الإسلامي منذ الدولة الأموية من حيث التاريخ والعلوم والفنون والمدارس والجبال وغيرها، وهي دخلت في الخلافة الأموية في عام 711هـ حينما أرسل موسى بن نصير القائد طارق بن زياد مع الجيش الذي تغلب على القوط الغربيين حتى ظلت الأندلس إحدى الولايات الرئيسية، وأقام الأمويون حضارة إسلامية قوية في مدينتها المختلفة. ونقلوا إليها الحضارة والأدب والفن والعمارة الإسلامية، وجعل الخليفة عبد الرحمن الداخل مدينة قرطبة وأحاطها بأسوار عالية وشيّد فيها بالمباني الفخمة والحمامات والمدن الإسلامية والمدارس والمنتديات والمكتبات.

وقد برز فيها العديد من الشخصيات والأعلام خاصة الأدباء والشعراء، ومنهم الشاعر العربي أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي (ولد سنة 394هـ/1003م) والذي نال شهرة فائقة بين الشعراء العرب واشتهر بـ"ابن زيدون" نسبة إلى جده، ولد في أسرة نبيلة فتربى متمتعاً بكل العناية من الوالدين

<sup>1</sup> باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند

وكيان الأسرة فنشأ واسع العلم غزير الأدب كريم المحتد، وكان والده عبد الله بن أحمد فقيماً كبيراً ومتقناً في ضروب العلم وعظيماً في الأخلاق، والذي عاش في عصر الفتن الثائرة والثورات العارمة بين العرب والبربر والصقالبة وفي عصر القتل والعدوان ومصادرة الأموال قد استطاع لمنزلته العلمية ومكانته الاجتماعية وصلته بجمع الزعماء المعروفين على اختلاف نزعاتهم وبخاصة بني ذكوان استطاع أن ينجو من الفتن والثورات.

وتوفي والده والشاعر لم يتجاوز حتى إحدى عشرة سنة من عمره فكفلته أمه كما رعاه جده لأمه، وظل يرعاه حتى وفاته سنة 432هـ حينما كان قد بلغ أربعين سنة من عمره فله أثر واضح كبير عليه سواء عن طريق الوراثة أو عن طريق التوجيه والإرشاد والتربية.

وفي بداية عمره تعلم ابن زيدون على يد أبيه ثم على يد أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة في قرطبة وكان جده لأمه عالماً أيضاً فتعلم عليه كذلك وكان أبو بكر مسلم بن أحمد القرطبي النحوي الأديب المتقدم في علم العربية واللغة والشعر، فقد وسّع ابن زيدون أفق معلوماته الدقيقة بقراءته للكتب في المكتبات.

وهكذا فخرج ابن زيدون واسعاً علمه وغزيراً أدبه وكريماً محتده بأنواع الطرب واللهو والشغف بالملذات حتى قد وقع في حب ولادة حفيدة عبد الرحمن الناصر أشهر خلفاء بني أمية في الأندلس، وهي بنت الخليفة المستكفي بالله. قرض ابن زيدون كثيراً من الأبيات فيها حتى اشتهر بـ"شاعر الحب والجمال" ولكن وقع بينهما شقاق لأسباب لا حاجة إلى ذكرها حتى حدثت فتنة إشبيلية في قرطبة عهد المعتمد، وكان ابن زيدون حينئذ ابن سبعين سنة، وتوفي مدفوناً في إشبيلية. حزن عليه الناس حزناً عظيماً. يقول ابن خلكان: "وكانت وفاته في صدر رجب سنة 463هـ بمدينة إشبيلية رحمه الله تعالى ودفن بها وكانت ولادته سنة 394هـ/1070م".

والكتاب الذي نحن بصدد استعراضه يعنون بـ"شاعر الحب والجمال ابن زيدون" وألفتها الكاتبة الهندية الدكتورة هيفاء شاكري وهي أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية بالجامعة الملوية الإسلامية وحازت بجائزة "مهاريثي بادريان فياس سمّان" للسنة 2015م والتي ستمنح في حفل يقام في قصر الرئاسة الهندي إن شاء الله تعالى.

هذا الكتاب يحتوي على 163 صفحة ويتناول حياة ونشأة وثقافة وشعر ابن زيدون. ففي الحديث عن عصر ابن زيدون تحدّثت الكاتبة بإيجاز عن تاريخ موجز للأندلس حيث ذكرت الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية. وفي غضون هذا الحديث لم يجانبها الحديث الممتع عن منزلة المرأة في هذا المجتمع. هذا الحديث يبتدىء من الصفحة السابعة وينتهي على الصفحة السادسة والخمسين.

وبعد ذلك توجّهت الكاتبة نحو حياة الشاعر فتناولت أسرته وأساتذته وأصدقاءه، وهذا الحديث يحتوي على عشر صفحات ثم ألفت الكاتبة نظرة عابرة على سمات ابن زيدون حيث نطقت عن حبه لولادة وسجنه كما تكلمت عن بلاط بني جمهور بقرطبة وأشارت إلى درجة الشاعر السياسية فيه وهكذا تكلمت عن وجوده في بلاط بني عباد بإشبيلية.

ثم رجعت الحديث إلى شعر ابن زيدون والذي هو المحور الأساسي لحديثها فتناولت بالبحث المشبع آثار ابن زيدون، ومكانته في الشعر العربي، وأغراض شعره من الغزل والحنين والشكوى والدعائية وشعر الطبيعة وفن الإخوانيات وغيرها من أغراض الشعر. هذا الحديث يبتدىء من الصفحة 112 وينتهي على الصفحة 125.

ثم قامت الدكتورة بتحليل عام لشعر ابن زيدون فذكرت الحب والجمال والعاطفة والوجدان في شعره كما قامت بالموازنة بينه وبين البحري وعلى هذا ينتهي الحديث على الصفحة 156.

---

---

## مجلة الهند

---

---

وذيّلت الدكتوراة حديثها هذا بفهرس طويل للمصادر والمراجع ذكرت فيه ما وصلت إليه يداها من المصادر الأولية والثانوية والتي عددها 35 مصدرًا ومرجعًا. إن هذه دراسة قيّمة وبديعة من نوعها في الهند، ونرجو أنها ستفسّح لها المجال في الكتب المنشورة في حياة الشاعر وثقافته وشعره لاسيما عن جانبه للحب والجمال.

## مباراة الكركت

- بريم تشاند<sup>1</sup>

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري<sup>2</sup>

1/ يناير 1935 م.

لا أستطيع أن أعبر عن اليأس الذي شعرت به أثناء مباراة الكركت اليوم، كان فريقنا أقوى من منافسه لكننا هزمنا وغادر الفريق المنافس رافعاً الكأس ومنشداً أناشيد النصر والفوز. لماذا؟ فقط لأنه لا يشترط عندنا الاحتراف لأجل القيادة. إنما نعتبر الغنى ضرورياً لذلك. فقد انتخب سمو الأمير قائداً للفريق واضطر الجميع أن يستسلموا لقرار دائرة الكركت، ولكن كم من القلوب احترقت وكم من الناس استسلموا لهذا القرار باعتباره أمر الحاكم؟ اسألوا اللاعبين. وموضع الرياء أين فيه الأمل والحماس؟ وأين العزيمة؟ وأين رغبة إسالة آخر قطرة من الدماء؟ لعبنا ولعبنا بقلوبنا في الظاهر ولكن الحق أنه لم يكن جيشاً يحارب لأجل الفوز ولم يكن أحد يرغب في هذا اللعب.

كنت واقفاً في المحطة أفكر في أن أقطع لنفسي تذكرة الدرجة الثالثة عندما اقتربت مني تلك الجميلة التي نزلت لتوها من السيارة وصافحتني قائلة: "السيد ظفر؟ أنت أيضاً معنا في نفس القطار؟"

تحيرت! من هذه الحسنة؟ وكيف تعرف اسمي؟ بهت للحظة وكأن كل تقاليد الأدب والأخلاق طارت من رأسي. إن الجمال له سطوة تجعل رؤوس الأكابر تخضع، ولم

<sup>1</sup> كاتب شهير للقصاص والروايات الأردوية والهنديّة

<sup>2</sup> أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربيّة وأدائها، الجامعة المليّة الإسلاميّة، نيو دلهي، الهند

أشعر بعجزِي مثلما شعرت به في ذلك الوقت. قد صافحت نظام حيدرآباد، والحاكم الإنجليزي، ومهارجا ميسور وتناولت طعامي جالسًا معهم، لكن هذا الشعور بضياح النفس لم أشعر به في ذلك الوقت. وكانت نفسي أن أقبل قدميها بأهدابي، لم تكن مليحة لدرجة أن نضجِي حياتنا من أجلها ولم تكن فيما تلك النعومة التي يتحدث عنها الشعراء لكنها كانت تمتلك الذكاء والثقة والوقار، وقلبًا حيًا ورغبة في إظهار الشوق دون حجاب. وقد أجبته بقولي: نعم.

كيف أسألها كيف تعرفنا، انفتاحها يدل أنها تعرفني، فكيف لي أن أتجاهلها، وقد أدّيت واجبي قائلاً: "أي خدمة؟"

قالت مبتسمة: "نعم، هناك أشغال كثيرة، تفضّل نجلس في صالة الانتظار، إنك ذاهب إلى لكتناؤ؟ أنا أيضًا."

أجلستني على الكرسي الهزاز بعد دخولنا صالة الانتظار، وجلست هي على كرسي عادي ومدّت إليّ علبة السجائر قائلة: "كانت طريقة رميك للكرة اليوم مهلكة وإلا كنا قد هزمتنا بفارق كبير."

بلغت حيرتي الذرورة، وهل لهذه الجميلة رغبة في لعبة الكركت أيضًا؟ كنت أشعر بالحرج وأنا أجلس أمامها على الكرسي الهزاز، لم يصدر مني هذا التصرف غير اللاتق من قبل، وكنت منتهمًا لذلك. شعرت بانقباض وفقدت في نفسي ذلك الإحساس الوردى والحماس الذي كان من الطبيعي أن أشعر به في موقف كهذا.

سألته: "وهل كنت موجودة هناك؟"

قالت وقد أشعلت سيجارتها: "نعم، من البداية إلى النهاية. أعجبتني لعبك أنت فقط، أما البقية فكانوا يلعبون بغير رغبة وأنا أعلم سرّ ذلك. لا يوجد لدينا الشعور بإدراك القيمة الصحيحة للفرد، وكأن التخلف السياسي قد قضى على جميع صفاتنا الحسنة، فمن يملك الثروة هو القادر المطلق، ويمكنه أن يكون رئيسًا لندوة علمية أو أدبية أو اجتماعية سواء كان مؤهلاً لذلك أم لا، فيفتتح المنشآت الجديدة، ويضع الحجر الأساس بيده، ويقود الحركات الأدبية، ويقوم بإلقاء الخطابات في حفلات

التخرج، ويوزع الهدايا على الطلاب، كل هذا ببركة تفكيرنا المستعمَر. ولا عجب بأن أصبحنا في قعر المذلة والانحطاط. في مجال الحكم والاختيار نحن مضطرون، لكن في المواضع التي نستطيع أن نبرز فيها خيالنا الحر وعلمنا، لا تتركنا مراعاتنا للتقاليد وتبجيلنا للنعم، كان من اللازم أن تكون أنت كابتن هذا الفريق، حينها كنت أرى كيف يمكن الفوز للفريق الآخر، أما قدرة المهارجا على تحمّل قيادة الفريق هي نفسها التي تملكها أنت لترأس البرلمان، أو أنا لأكون ممثلة السينما.

نفس المشاعر التي كنت أشعر بها! ولكن كم أصبحت مؤثرة ومفيدة بعد أن نطقها بلسانها. قلت لها: "قولك صحيح، إن هذا من ضعفنا."

"كان عليك ألا تكون عضوًا في هذا الفريق."

"كنت مضطرًا."

اسم تلك الحسناء الأنسة هيلن موكرجي، قادمة من إنجلترا، وتوقفت في بومباي لمشاهدة هذه المباراة، درست الطب في إنجلترا، وخدمة الإنسانية هو هدف حياتها، وقد شاهدت صورتي هناك في إحدى الصحف وقرأت عني ومنذ ذلك الوقت وهي تحسن الظن بي، وعندما شاهدتني ألعب هناك تأثرت أكثر. وتنوي أن تكون فريقًا جديدًا للهند يكون أعضاؤه من الذين يستحقون فعلاً أن يمثلوا الشعب. وفكرتها أن أكون كابتن الفريق، ولذلك تنوي أن تجوب الهند كلها. قد ترك لها والدها الراحل الدكتور ن. موكرجي ثروة طائلة دون أن يشاركها فيها أحد، طار عقلي عاليًا عندما استمعت إلى أفكارها ونياتها، من كان يظن بأن يتحقق حلمي الذهبي بهذه الطريقة المفاجئة، لا أؤمن بالغيب ولكن اليوم امتلأت كل خلية من خلايا جسدي بمشاعر الشكر والاحترام.

شكرت الأنسة هيلن بكلمات مناسبة ومتواضعة.

دقت صفارة القطار، طلبت الأنسة موكرجي تذكرتين للدرجة الأولى، ولم أستطع الاعتراض. جعلت الحمال يحمل أمتعتي، وحملت قبعتي بيدها، ثم جلست في كابينة من كبائن القطار واستدعتني إلى الكابينة نفسها. ركب طبّاخها في الدرجة الثالثة.

وكأن قوة عملي قد سلبت مني، لم أدر لماذا كنت أدعها تتصرف بإقدام في كل هذه الأمور التي كان من اللازم أن أقوم بها لكوني رجلاً. ربما تأثرت وخضعت لحسنها ووقارها الذهني وعلو هممتها، وكأنها قد سحرتني مثل سحرة كامروب وسلبت مني قوة إرادتي، وقد ذابت شخصيتي في هذه المدة القليلة في رضاها، كان من عزة نفسي أن لا أدعها تتطلب لي تذكرة الدرجة الأولى وأن أركب الدرجة الثالثة وإن كنت قد ركبت الدرجة الأولى فكان عليّ أن أطلب تذكرتين لكلينا بكل سخاء، ولكنني في الواقع سلبت قوة العمل.

2/ يناير:

أنا متعجب من هذا العطف الكبير لهيلن عليّ، وهذا ليس عطف الصداقة فقط، بل فيه إخلاص الحب، إن العطف لا يكون كريماً إلى هذه الدرجة، واعتراف مهارتي في اللعب! لست خالياً من العقل لدرجة أن لا أدرك ذلك، إن اعتراف المهارة يحصل على سيجارة وفنجان شاي على الأكثر، وأحصل على هذا التكريم في الأماكن التي أدعى إليها للعب، ولكنها تخلو من هذا الترابط القلبي، وتكون الضيافة بطريقة رسمية. أما هي فكأنها قد وقفت نفسها لراحتي، وليس بإمكانني أن أعامل أحداً بهذه الطريقة غير حبيبتي، تذكروا قلت حبيبة وليست زوجة. نحن لا نحترم الزوجة، إنما طلب التكريم والخدمة منها أصبحت طريقتنا، وربما هي الصحيحة. ولكنني في الوقت الحاضر لا أتمتع بأي نعمة من هاتين النعمتين.

شاركتها الفطور والغداء والعشاء، في كل محطة (كان القطار قطار بريد، وكان يتوقف في محطات معينة فقط) تطلب الفواكه وتصبر على أن أتناولها، وتعلم جيداً ما هو الشيء المعروف في كل مكان، قامت بشراء هدايا منوعة لأقاربي ولكن العجيب أنني لم أمنعها ولو مرة واحدة، كيف لي أن أمنعها، فهي لم تشتريها بمشورتي؟ عندما تحضر شيئاً وتقدم لي بكل حب كيف أستطيع أن أرفض؟ لا أدري لماذا بالرغم من كوني رجلاً أشعر أمامها بخجل وأصبح قليل الكلام كامراً؟.

أصابني الأرق طوال الليل بسبب تعب النهار، وكنت أشعر بصداع خفيف، ولكني بالغت في ذلك، لو كنت وحيداً لم أكن لألتفت إليه، ولكني كنت أشعر بلذة في إظهاره أمامها، بدأت تفرك رأسي بعد وضع الزيت، وتهالكت من غير سبب، وازداد خوفها كلما زاد اضطرابي، وكانت تسألني بين الحين والآخر: "كيف الصداع؟" وكنت أردّ عليها بطريقة عادية: "أحسن". كنت أشعر بدغدغة في روعي بإحساس كفيها الرقيقتين، وجهها الجذاب ينحني على رأسي وأنفاسها الحارة تقبل جبهتي، وأنا... كأني أتلذذ بنعيم الجنة، إن رغبة الانتصار عليها قد تولدت في نفسي، أريدها أن تجبر خاطري ويجب أن لا يكون هناك شيء من جانبي يشعرها بهيامي بها. في خلال 24 ساعة كيف حدثت هذه الثورة في ذهني؟ كيف أصبحت راغباً، لم أفهم، لا أعلم متى غلبني النوم ولكن عندما استيقظت وجدتها جالسة بنفس الانهماك واضعة يديها على رأسي، شعرت بالعطف عليها وقلت لها: "لا تكلفي نفسك، أنا بخير"، من الذي ليست لديه بعض الخبرة في العشق؟ وأنا لست خارجاً عن ذلك. لكن ما شعرت به من اللطافة في كوني معشوقاً أستطيع أن أضحي من أجلها كوني عاشقاً، عندما تُحبُّ تكون عبداً وعندما تُحبُّ تكون ملكاً.

قلت بلهجة عاطفية: "عانيت الكثير بسببي".

"لا لم أعان من شيء، وأيّ معاناة؟ كنت مضطرباً بسبب الصداع وأجلس أنا؟! يا ليت كان هذا الصداع قد أصابني".  
وطرت إلى أعالي العرش.

5/ يناير:

وصلنا إلى لكتاؤ مساء أمس وفي الطريق تحدّثت مع هيلين في الأمور السياسية والأدبية والتطور. بفضل الله أنا خريج جامعة وأطالع الكتب منذ ذلك الوقت في فراغي، أجالس العلماء أيضاً، ولكني شعرت بقلّة بضاعتي بين الحين والآخر أمام سعة علمها، لها رأيها الخاص في كل قضية ويظهر أنها اتخذت رأيها هذا بعد بحث وتحقيق كبير وعلى عكسها فأنا من الأشخاص الذين إذا كانوا في الروم عملوا مثلهم، وتؤثر

علمهم الحركات المؤقتة بشكل كبير. كنت أحاول أن أسلّط عليها تفوقى الذهني، ولكن نظرياتها كانت تفحمني، وعندما رأيت أنني لا أستطيع أن أتفوق عليها في القضايا العلمية، تحوّلت إلى قضية شبه جزيرة سيناء وإيطاليا، والتي حسب اعتقادي قرأت عنها الكثير وصرفت كل طاقتي الخطابية في مدح الضغط الذي مارسه إنجلترا وفرنسا على إيطاليا.

قالت مبتسمة: "إن كنت تعتقد أن إنجلترا وفرنسا تتحركان بسبب مشاعر الإنسانية فأنت مخطئ، إنهما وبشعورهما بامتلاك العالم لا تتحلمان أن تنشأ قوة أخرى في العالم وتنتشر. إن موسيليني يفعل نفس ما فعلته إنجلترا وتفعله إلى اليوم. وكل هذه الدراما هي فقط للحصول على الفوائد السياسية والتجارية من جزيرة سيناء. إن كانت إنجلترا تحتاج إلى أسواق لتجارتها وإلى أرض لسكانها المتزايدين، ولخطط كبيرة للمتعلمين منهم، فلم لا تصبو إيطاليا لذلك؟! إنما تفعله إيطاليا تفعل علانية وبأمانة! ولم تدع في يوم من الأيام إلى الأخوة العالمية، ولم تجاهر بأناشيد الأمن أبدًا. إنها تقول وبكل وضوح إن الحرب هي علامة الحياة، وإن تطور الإنسانية لا يكون إلا بالحرب، وتطور الصفات الملكوتية للإنسان لا يكون إلا في ميدان القتال، وهي تعتبر نظرية المساواة جنونًا، وتعدّ نفسها أيضًا من ضمن الشعوب المختارة التي لها الحق في تعبيد الأمم، ولذلك من الممكن أن نفهم تصرفاتها، أما إنجلترا فقد تصرفت دائمًا بالمكر والخداع، إما بالتفرقة بين الشعوب أو الإمالة بجعل خلافاتهم مدارًا للسياسة. وأتمنى أن تتقدم إيطاليا واليابان وألمانيا تقدمًا كبيرًا وتقوم بكسر سلطة إنجلترا وبذلك تتحقق الجمهورية الحقيقية في العالم ويتحقق الأمن. ولا يروج الأمن إلا بمحو الثقافة الحالية. يجب أن لا يسمح للشعوب الضعيفة بالعيش، مثل النباتات الضعيفة ليس فقط لأن وجودها يضرّ بها نفسها، بل لأنها هي المسؤولة عن هذا النزاع والدمار في العالم.

كيف كان لي أن أتفق معها! رددت عليها وخالفت أفكارها بكل شدة، ولكني رأيت أنها لا تريد أن تستخدم عقلها السليم في هذا الموضوع أو أنها لا تقدر على ذلك.

حال النزول على المحطة فكّرتُ في كيفية استضافة هيلن، إذا أنزلتها في فندق فماذا ستقول عني؟ وإذا استضفتها في بيتي فالخجل يغمرنني، كيف لي أن أوفّر أسباب الراحة لجميلة تعيش حياة رغدة. والصدفة أنني ألعب الكركت جيداً وتركت الدراسة من أجل اللعبة، وأنا أيضاً معلّم في مدرسة، ولكن المنزل على ما كان عليه، بيت قديم مظلم ومتهالك، في زقاق ضيق على نفس الطريقة القديمة، أما الوالدة فيمكن أنها لا تسمح لهيلن أن تدخل إلى البيت، وما الذي يبلغ الأمر إلى هذا الحد؟ هيلن نفسها ستعود أدراجها من باب البيت. يا ليت لو كنت أملك بيتاً لنفسني جميل مزين، وليتني كنت قادراً على استضافتها، كنت أعتبر نفسي سعيد الحظ حينها، ولكن تبّاً لهذا البؤس!

كنت غارقاً في هذا التفكير عندما استدعت هيلن حمالاً وطلبت التاكسي، لم يكن بوسعي إلا أن أركب التاكسي مع يقيني بأنني إن كنت قد دعوتها إلى بيتي بالرغم من بؤسي لكانت قد سرّت بعلمي، هيلن ذات ذوق رفيع لكنها ليست ضعيفة، إنها مستعدة دائماً لكل اختبار وتجربة، وكأنها تستدعي هذه المحن والتجارب غير المرغوب فيها ولكني لا أملك أيّاً من التخيل والجرأة.

إن كانت قد نظرت إليّ بامعان لعلمت مدى الندامة والرجاء اللذين يشوبان وجهي، لكن كان عليّ التظاهر فاحتججت: "كنت أريدك أن تكوني ضيفة عندي وعلى العكس من ذلك تأخذيني إلى الفندق".

قالت بشقاوتها المعهودة: "حتى لا تخرج من قبضتي، وماذا يكون أكثر سعادة بالنسبة لي أن أكون ضيفة لديك. لكن الحب حسود وأنت تعلم هذا. ففي بيتك يستغل أحباؤك أكثر أوقاتك، ولن تجد وقتاً للتحدث إليّ، ولديّ خبرة في معرفة حال الرجال في شدتهم وسرعة تناسيمهم، لا أستطيع أن أتركك ولو للحظة واحدة. عندما تشاهدني أمامك لا تستطيع أن تنساني حتى لو أردت ذلك".

يا لحظي السعيد! شعرت كأنني أعيش حلمًا! فهذه الجميلة التي رغبت في أن أضحيّ بنفسني لإشارة واحدة من عينها، تعترف أمامي بحبها. وتمنيت مع اعترافها هذا أن أضم قدميها إلى صدري وأغرقيهما بدموعي.

وصلنا إلى الفندق وكانت لي غرفة مستقلة. تناولنا العشاء معاً ثم مشينا على العشب الأخضر، وكانت المشكلة في كيفية اختيار اللاعبين. تمنيت لو أمشي طوال الليل ولكنها قالت: اذهب لكي تستريح، غداً لدينا عمل كثير. استلقيت على السرير في غرفتي، ولكني لم أذق طعم النوم أبداً. إن ما يكمن داخل هيلن مخفي من نظري إلى الآن، وتزداد غموضاً بالنسبة لي كل لحظة.

12/ يناير:

تجمع اليوم الكثير من لاعبي الكركت لمدينة لكتاؤ، وكانت هيلن كشمعة تهافتت عليها الفراشات، من هنا (أي من مدينة لكتاؤ) أعجبت هيلن بلعب اثنين من اللاعبين غيري: بروجندر وصادق. تريد هيلن أن تضمهم إلى منتخب عموم الهند ولا شك أنهما ماهران في هذا الفن، ولكن الطريقة التي ابتدأ بها اللعب تظهر أنهما لا يلعبان الكركت وإنما يلعبان فرصة حظهما.

ما هو طبع هيلن؟ إن الفهم صعب جداً، فبرجنندر أكثر وجاهة مني وأنا اعترف بهذا، هو سيّد بمظهره لكنه مغازل وخبيث. لا أريد لهيلن أن ترتبط معه بأي طريقة. وكان الأدب لم يمسه، بذيء اللسان، وقح السخرية، لا يعرف كيف يتحدث وماذا يقول، وفي بعض الأحيان يقول لهيلن كلمات ذات معنى أخفض رأسي خجلاً لها، ولكن هيلن لا تشعر بابتذاله وسوقيته، بل وكأنها تستمتع بهذه المعاني والكنائيات. فلم أشاهدها وقد قطبت جبينها في يوم من الأيام، لا أقول بأن الانفتاح شيء سيء، ولست بعدو للظرافة، لكن علينا أن نراعي حديثنا جيداً إن كان أمام سيدة محترمة.

وصادق نجل عائلة مكرمة، بارد الأعصاب ومتكبر، فظ لكنه دخل أيضاً في فهرس المتغازلين. بالأمس كان يلقي أشعاره على مسامع هيلن وكانت مسرورة، أما أنا فلم تعجبني أشعاره أبداً. لم أره يقول الشعر قبل هذا! فمن أين خرجت هذه الأشعار فجأة؟ إن الجمال يمكنه أن يفعل العجائب. وماذا بيدي أن أقول غير هذا. وإن كان يريد أن يلقي عليها الشعر فكان عليه أن يحفظ بعضاً من أشعار حسرت أو جفر أو

جوش<sup>1</sup>. ومن أين لهيلن أن تقرأ لكل هؤلاء! وما ضرورة قولك الشعر؟ ولكني إن قلت له ذلك فسيغضب ويعتقد أنني أحسده. ولم أحسده؟ أنا من معجبها أيضًا، ولكني أريدها أن تميّز بين الصحيح والغلط. ولا أحبّد الانفتاح مع كل شخص ولكن الجميع سواسية في عيني هيلن، وهي بالدور تتجنب الجميع وتلتفت إلى الجميع، وتميل من أكثر؟ من الصعب تحديد ذلك. إنها غير متأثرة تمامًا بثراء صادق. ذهبنا بالأمس إلى السينما وأبدى صادق سخاء غير عادي إذ كان يودّ شراء التذاكر للجميع. السيد صادق والذي يعتبر بخيلًا بل شحيحًا بالرغم من غناه، أيقظت فيه هيلن روح السخاء، ولكن هيلن منعتة وذهبت بنفسها لشراء التذاكر، وهي تهدر المال بطريقة تجعل السيد صادق حائرًا متعجبًا، فحينما يدخل يده في جيبه لإخراج النقود، تكون نقودها قد وصلت إلى طاولة الحساب. على كل، فأنا أعتز بإدراكها لطبيعة الآخرين، وكأنها تنتظر طلباتنا وتشعر بسرور بالغ بعد تلبيتها. وقد أهدت السيد صادق ألبومها الذي يحتوي على صور مشابهة لصور أوروبية نادرة رتبها بعد زيارتها للمتاحف هناك. وكم هي محبة للجمال عيناها. عندما جاء برجندر في المساء لابسًا بذلته الجديدة قالت مبتسمة: "أبعد عنك العين كأنك اليوم يوسف الثاني". وفرح برجندر لقولها. عندما ألقى عليها قصيدتي الغزلية بشيء ممزوج من الألحان دهشت وفرحت لكل شعر فهي تفهم الكلام جيدًا. ولم أفرح لذوق الشعر في يوم أكثر من ذلك اليوم. ولكن لا قيمة للمديح إن كان عامًا. السيد صادق لم يدع الوجاهة أبدًا وبالقدر الذي يتمتع به من الحسن المعنوي لم يمنح له الجمال الظاهر. ولكن عندما بدت الحمرة في عينيه بعد أن دارت كأس الخمر بيننا قالت له هيلن: "إن عينيك هاتين اخترقتا فؤادي"، أما السيد صادق فكاد أن يسجد لها ولكن منعه الخجل. أعتقد أن أحدًا لم يمدح عينيه بهذه الطريقة من قبل. لم أتمنّ في يوم من الأيام أن يمدحني أحدٌ بمظهري، فأنا أعزف بنفسني ولا أحسب نفسي وجميًا أبدًا، وأعلم أيضًا أن كرم هيلن هذا ليس له معنى، ولكني بدأت أقلق، كنت أريد أن أعرف مدى كرمها عليّ، لم يكن

<sup>1</sup> هؤلاء شعراء فحول للأردنية فالأول حسرت الموهاني والثاني جغر المرادابادي وأما الثالث فهو جوش المليح بادي.

شيئاً مهمّاً لكني كنت مضطرباً، وعندما عدت من ميدان الجامعة مساءً بعد التدريب الرياضي صار شعري أشعث غير مرتب. نظرت إليّ نظرة ملؤها الهيام وقالت: "أريد أن أضجّي بنفسي من أجل لمتك المضطربة هذه. انبسطت أساريري وبدأ قلبي كأن عواصف شديدة تمرّ بي.

ولكن لا أعلم لماذا لا يستطيع أحدٌ منا أن يمدح ويصف دلالتها وحسنها وجمالها، كأننا لا نملك الكلمات المناسبة فنحن متأثرون بها أكثر مما نقول ولا نملك الجرأة لقول شيء.

1/ فبراير:

قدمنا إلى دلهي وفي هذه الأثناء زرنا مرادآباد ونيويتال ودهرادون وغيرها من الأماكن، ولكننا لم نفلح بالحصول على أي لاعب. وأملنا أن نحصل على لاعبين جيدين من علي كره ودلهي. لذلك سوف نبقى هنا لأيام عدة وحالما يكتمل عددنا (11 لاعباً) نذهب إلى بومباي ونتدرب هناك. يغادر فريق أستراليا الهند في شهر مارس ويكون قد انتهى من لعب جميع المباريات، والمباراة الأخيرة ستكون معنا ونأمل أن نثار لجميع هزائم الهند إن شاء الله. صادق وبرجنندر كانا معنا أيضاً، لم أكن أريدهما أن يأتيا ولكن هيلن وكانها تحبّ تجمع العشاق حولها. كلنا نزلنا في فندق واحد وكلنا ضيوف هيلن. عندما وصلنا إلى المحطة كان مئات من الناس موجودين لاستقبالنا. كان هناك عدد من النساء أيضاً ولكن هيلن تتجنب النساء وتهرب منهن خاصة الجميلات، مع أنها لا تحتاج إلى ذلك فمع الاعتراف بأن الجمال لا ينتهي حده عندها لا يمكن للحوار العين أن تنافسها، فليس الشكل الظاهري كل شيء إنما لحسن الذوق وحسن الكلام وحسن الدلال له قيمته، هل يترعع الحب في قلبها أم لا، الله أعلم، ولكنها تمتلك اليد الطولى في إظهاره، فنحن أصحاب القلوب نشعر بالخجل أمام مواساتها ودلالها وكرمها. في المساء خرجنا للتزهر في دلهي الجديدة، إنها منطقة ذات هواء نظيف، شوارعها واسعة، وحدائقها جميلة، قد صرفت الحكومة في تعمييرها وتزيينها أموالاً طائلة ومن غير ضرورة لذلك، كان من الممكن صرف هذه الأموال لتطوير الخدمات للشعب ولكن الناس يتأثرون بال عمران أكثر من الخدمات، كان من الممكن صرفها في بناء عدة مدارس إضافية وترميم الطرق

والتحقيق الزراعي، ولكن عامة الناس تحب المظاهر والفخامة حتى اليوم أكثر من الأعمال البناء، فما يتصوره الناس عن الحاكم قد تسرّب إلى كل ذرة في وجودهم ولن يمعى أثره لعدة قرون، والحاكم يحتاج إلى هذه الفخامة، والتبذير ضروري في هذه الحالة، أما الحاكم القانع أو البخيل ولو صرف كل روبية لمصلحة الشعب لا يمكن أن يكون محبوبًا من قبل شعبه. إن الإنجليز ماهرون في معرفة نفسية الآخرين، ولمّ الإنجليز فقط؟ كل حاكم حصل على الحكم بشدة وقوة الفكر يكون بالطبيعة ماهرًا لعلم النفس ولا يكون باستطاعته أن يحكم قبضته على الناس بدونه. على كل، كانت هذه جملاً اعتراضية. أفكر أحياناً أن تكوين فريقنا قد أصبح حلمًا لن يتحقق، فنحن قد بدأنا نختلف فيما بيننا، برجندر يخالفني في كل خطوة أخطوها، فإذا قلت نهارًا قال ليلاً، وهيلن ماثلة إليه، حلمت أحلامًا جميلة لحياتي لكن تبًا لبرجندر هذا! فهو أناني يكاد يدمر حياتي، والشيء المسلم به هو أننا لا يمكن أن نكون معًا عند حسن ظن هيلن، فعلى واحد منا أن يغادر الميدان.

7/ فبراير:

الحمد لله إن مساعينا قد أفلحت في دلهي، وأضيف إلى الفريق ثلاثة لاعبين جدد: جعفر، ومهرا، وأرجن سينغ، وما شاهدته من مهارتهم قد أزال إعجاب اللاعبين الأستراليين من قلبي. ثلاثتهم يرمون الكرة. فجعفر يمتلك القدرة الكاملة، ومهرا صبور ومثابر، وأرجن سينغ شاطر. وثلاثتهم أقوياء صادقوا النظر ولا يتعبون، ومن العدل أن أقول إن أرجن يلعب أفضل مني، قد زار إنجلترا مرتين ويعرف طريقة عيش الإنجليز ويفهم طبيعتهم، وهو مؤدب وذو خلق رفيع. زال أمامه لون برجندر، والآن يحظى أرجن بالعناية الخاصة، وليس من السهل أن أفوز عليه، إني أخاف أن يصبح منافسي في حياها.

25/ فبراير:

قد اكتمل فريقنا، وحصلنا على لاعبين من علي كره، ثلاثة من لاهور، وواحد من أجمير، وقدمنا إلى بومباي أمس، وقد نافسنا فرق أجمير ولاهور ودلهي وفزنا عليهم

فوزًا ساحقًا، واليوم مباراتنا مع الفريق الهندوسي من بومباي، وأنا واثق من أننا سنفوز، يعتبر أرجن أحسن لاعب في فريقنا، وهيلن تكرمه لدرجة أنني لا أشعر بالحسد، فهذا التكريم لا يكون إلا للضيف، وما الخوف من الضيف، والطريف أن كل شخص يعتبر نفسه أثيرًا لدى هيلن ويجعلها تهتم به، فإذا أصاب شخصًا منا صداع فمن واجب هيلن أن تسأل عنه وتضع الصندل في رأسه، ولكن مع ذلك فإن رعبها غالب على قلب كل واحد، ولا يستطيع أحد أن ينتقد ما تفعله، وكأن الجميع عبيد لمشيئتها، فإذا كانت تكرمهم كلهم فهي تحكمهم أيضًا. إن الملعب تتجمع فيه أجمل الجميلات ولكن من المستحيل أن يلتفت إليهن أو يبتسم لهن أحد من أسرى هيلن، الجميع يخشاهن وكأنها موجودة وحاضرة في كل مكان، فقد نظر أرجن إلى آنسة نظرة واحدة وحدقت هيلن إليه بنظرات قاهرة جعلت لونه شاحبًا، الكل يحسب أنها المتصرف في أقدارهم، فإذا جعلوها تسيء بهم الظن استحال عليهم الحياة، وماذا أقول عن الآخرين، كأني بعث نفسي لها، وكأن مشاعر الحسد قد انطفت وفنيت في داخلي، فمهما تحدثت هيلن مع أحد أو غازلت شخصًا لا أغضب، أشعر بضربة في قلبي ولكن أعبر عن ذلك بإسالة الدموع وحيدًا بعيدًا عن الأنظار، أين طارت عزة نفسي، لا أدري ففي لحظة ينكسر قلبي بسبب زعلها وعدم رضاها، وفي لحظة أخرى نظرة واحدة غافلة أو ابتسامة تهزني إلى أعماق، لا أدري ما هي القوة التي تمتلكها لتحكم كل هذه القلوب الشابة، هل أقول إنها الجرأة أو المبادرة؟ ماذا أقول؟ وكأننا دمي بين أيديها، لا نملك أي صفة ذاتية أو شخصية أو ميزة خاصة، قد سيطرت على قلوبنا بجمالها وفرادتها ومالها وأكثر من كل ذلك بشموليتها.

1/ مارس:

انتهت بالأمس مباراتنا مع الفريق الأسترالي أمام جمع لا يقل عن خمسين ألفًا، هزمناهم هزيمة نكراء ونعمنا بتكريم كبير، كل منا عمل بكل جد واجتهاد، وكنا مسرورين جدًا، وعقدت حفلة رائعة من قبل أهالي المدينة للاحتفاء بنا، حفلة قد لا تعقد حتى للحاكم نفسه، وكأنني أثقلت بحمل التهاني والتبريكات، فقد قضيت على خمسة لاعبين مقابل أربعة وأربعين نقطة، وكنت مستغربيًا من الطريقة المهلكة التي

لعبت بها، وكأن قوة غير مرئية كانت تساندنا، وقد تجمّع كلّ جمال مدينة بومباي بكل روعته وفخامته في هذا الحشد، وأنا واثق أن الجمال الذي تتمتع به مدينة بومباي لم يمنح لأي مدينة أخرى في العالم، ولكن هيلن كانت مركزاً للأُنظار في هذا الحشد من الحسن والمهياء، فهذه الظالملة ليست حسناء فقط، وإنما هي عذبة الحديث وصاحبة دلّال أخاذ، كل الشباب كانوا يلتقون حولها مثل الفراشات وهم من الوجهاء والمتغازلين، وكانت هيلن تلعب بمشاعرهم مثلما كانت تلعب بمشاعرنا، لم أشهد في حياتي شخصاً أكثر وجاهة من مهاراجكمار، فهو قوي الشخصية، من يدري كم من الجميلات أصبن بسهامه، يسحر اللبّ بوجاهته، ولكن هيلن التقتت به هو أيضاً بعدم الكلفة، وحرمتها المعهودة مثلما تلتقي بالشباب الآخرين، لم تؤثر فيها وجاهته وماله أبداً، لا أدري من أين حصلت على هذا الغرور والثقة بالنفس، لا تزلّ قدمها أبداً ولا تتأثر بأحد، ولا تميل إلى أحد. نفس طريقة الحديث الجميلة ونفس الاعتراف بالحب لا تخص به أحداً، تهتم بالجميع ولكنها مستغنية عن الجميع.

عدنا إلى الفندق بعد التنزه الساعة العاشرة ليلاً ونحن نحلم أحلام الحياة الجديدة، كانت القلوب مضطربة في انتظار ما سيكون الآن. كلّ القلوب كانت تعيش في أمل ورجاء وكأن كلّ واحد منا سيكون له اليوم ما يتذكره طوال حياته، ما هو البرنامج الآن؟ لم يكن في علم أحد، وكل قلب كان يخفي أمنيته، وكل واحد منا كان متيقناً أن هيلن تنظر إليه بنظرة خاصة، ولكن كان هناك الخوف من عدم وفاء هيلن، لا قدر الله، حينها سيضحّي كل بنفسه عند أقدامها، ستقوم القيامة إن عاد من هنا حياً.

في نفس اللحظة استدعتني هيلن إلى غرفتها، وصلت ورأيت أن جميع اللاعبين موجودون في الغرفة، كانت هيلن تبهّر العيون في هذه اللحظة في ساربهيا العسلي المشغول بالتل، شعرت بالانزعاج في داخلي، لماذا استدعتني في هذا الاجتماع العام بينما أستحق منها معاملة خاصة، كنت قد نسيت أن كل واحد هنا يعتقد أنه يستحق معاملة خاصة. اتخذت هيلن مكانها على الكرسي وقالت: "أمها الأصدقاء! لا أملك الكلمات لأعبر لكم عن شكري وامتناني، لقد حققتم لي أمنية كبيرة في حياتي. هل تتذكرون السيد رتن لال؟"

رتن لال؟ ومن يمكنه أن ينسى رتن لال؟ الشخص الذي منح الفرصة للفريق الهندي أن يظهر قدراته على أرض إنجلترا، صرف مئات الآلاف لأجل هذه المهمة، ثم انتحر هناك بعد أن يئس من الهزائم المتوالية للفريق، إن وجهه يدور في مخيلتي إلى الآن.

قال الجميع: "تذكره جيداً، لم تمر على هذه الحادثة أيام كثيرة".

"أهنتكم على هذا الفوز الساحق وإن شاء الله سوف نزور إنجلترا العام القادم. فاستعدوا من الآن لهذه المهمة وسيكون ممتعاً جداً أن لا نخسر ولو مباراة واحدة هناك، ونسيطر على الميدان كاملاً، أصدقائي! هذا هو هدف حياتي، والعمل على تكميل الهدف هو الحياة، إننا نحصل على النجاح في الموضع الذي نعمل فيه بكل جهودنا ويكون ذلك الهدف حلمنا وعشقنا ومركز حياتنا، ولا يحيل بيننا وبين هدفنا أي رغبة أو أمنية أخرى، سامحوني! لم تتعلموا كيف تعيشون لهدفكم، إن لعبة الكركت بالنسبة لكم ما هي إلا أداة للترفيه، إنكم لم تعشقوا اللعبة، وكذلك مئات من أصدقائنا، قلوبهم في وادٍ وعقولهم في وادٍ آخر، وهم فاشلون طوال حياتهم، كنت أنا شيئاً أكثر جاذبية لكم، وكانت لعبة الكركت وسيلة لإدخال السرور إلى قلبي، ولكنكم نجحتم، ويوجد في وطننا آلاف الشباب لو تعلموا أن يعيشوا أو يموتوا من أجل تكميل هدفهم لحدثت المعجزات. اذهبوا واحصلوا على ذلك الكمال، إن جمالي وليالي ليست ميداناً للعب النفوس، وأنا أخجل من أن أعيش من أجل إسعاد عيون الشباب وإدخال السرور إلى قلوبهم، إن هدف الحياة أسمى من هذا بكثير، والحياة الحقيقية هي التي نعيشها من أجل الآخرين وليس من أجل أنفسنا".

كنا نستمع لها خافضين رؤوسنا ومكذبين لما نسمع، وخرجت هيلن من الغرفة لتركب السيارة، كانت قد جهّزت لرحيلها من قبل. وقبل أن يعود كلّ منا إلى رشده وصوابه ونفهم ما حدث، كانت قد غادرت المكان.

فتشنا كل ركن من أزقة وفنادق وفلل بمباي لأسبوع كامل بحثاً عنها، ولكننا لم نجدها، وللأسف فإن النموذج الذي كوّنته لحياتنا يستحيل الوصول إليه. وغاب كل حماس ونشاط من حياتنا مع غياب الجميلة هيلن.

الشيخ نظام الدين أحمد الفاروقي<sup>1</sup>:

قال يمدح الرسول العربي ﷺ

السقم يفني القوى والقلب مختول<sup>2</sup>      والعين ينفي<sup>3</sup> الكرى والجسم مهزول  
من زفرتي يسهد الجيران كلهم      من أدمعي يخجل السيجان والنيل  
من عبرتي ظلت الغبراء ناضرة      لكنني بغليل الوجد مملول  
الحزن يحزن عند البين عن خلدي      إن الرضيع بحبّ الثدي مجبول  
إن التي فتت الأكباد من نظر      أفقت بأن دم العشاق مطلول  
لو كان يمكن لي وصل رجوت به      لكن حبل الرجا منه لمقصول  
أكثر في لومي<sup>4</sup> يا عاذلي فرطاً      مت في الملام فأمر الله مفعول  
قل ما بدالك يا من يدعي حكماً      فليس ينفعني قال ولا قيل  
فبغيتي أحمد المختار من مضر      وحبّه من إله الخلق مسؤول  
محمد سيد السادات أشرفهم      وأكرم الخلق عند الله مقبول  
أتقى وأفضلهم، أذكى وأشرفهم      أعلى وأرفعهم، نزلاً ومشمول  
بالله معتصم، في الله منتقم      بالمجد متسم، بالجود مشمول<sup>5</sup>  
الشمس طلعتة، والبدر جهته      نور الضحى منه مكسوب ومنقول

<sup>1</sup> كاتب وشاعر من أعظم كره، له مجموعة كلامه المنشور والمنظوم باسم "حمامة النطق"

<sup>2</sup> مفتون ومخدوع

<sup>3</sup> في الأصل "تنفي" وهو خطأ طباعي

<sup>4</sup> لومي بالتحريك كثرة الملامة

<sup>5</sup> المرضي الأخلاق

صدق مقالته، حقّ شريعته  
 خذ هديه، واترك الأديان قاطبة  
 حتّمًا ففي أثره لو كان عاصره  
 كل الصحائف بعد البعث قد نسخت  
 فاق النبيين طرًا في فضائله  
 كلّ يقول لكلّ يوم حشرهم  
 وأنت تشفع عند الله جملتا  
 وإنّ حوضك صافٍ وهو موردهم  
 وأنت يا سيدي ساق لهم كرمًا  
 وإن طار<sup>2</sup> طير لهم من طين أرضهم  
 أروى غليل جيوشٍ نبغ<sup>4</sup> إصبغه  
 وأمطرت سحبك إذ ما دعا غدقًا  
 حتى إذا اشتكت الزّراع كثرت<sup>8</sup>  
 ونور<sup>11</sup> الغار من أنوار غرته

من زاغ عنها عنادًا فهو طمليل<sup>1</sup>  
 فكل دين سواه اليوم تضليل  
 موسى وعيسى، وداؤد وحزقيل  
 توراته وزبور، ثم إنجيل  
 فهم رؤوس البرايا وهو إكليل  
 نفسي نفسي وإنني عنك مشغول  
 وإن قولك مسموع ومقبول  
 والكل إذ ذاك عطشان ومغلول  
 وإن جودك ذاك اليوم مبذول  
 فللحصاة<sup>3</sup> بكفّ منك تهليل  
 وليس ظمآن إلا وهو معلول<sup>5</sup>  
 فجاء خصب وتوسيع<sup>6</sup> وتأثيل<sup>7</sup>  
 دعا فردّ الهوامي<sup>9</sup> وهي عسقول<sup>10</sup>  
 من بعدما كان قد أغشاه غيطول<sup>12</sup>

<sup>1</sup> طمليل بالكسر فاسق

<sup>2</sup> إشارة إلى قول عيسى عليه السلام: وإنني أخلق لكم من الطين إلخ

<sup>3</sup> إشارة إلى معجزته ﷺ حيث سبج الحصى في كفه الشريفة

<sup>4</sup> برجستن آب از چشمه

<sup>5</sup> علّ: دوباره سيراب گردیدن از آب

<sup>6</sup> يقال وسّع الله عليه أي أغناه

<sup>7</sup> أثل أتله أي كساهم أفضل ثياب وأحسنّت السهم وأثل المال تأثيلاً أي كثر أي رفع الضيق وكثر المال

<sup>8</sup> أي شدته

<sup>9</sup> السحب الهوامي، بارش

<sup>10</sup> ابره آب يا سراب

<sup>11</sup> أي روشن شد لازم

<sup>12</sup> ظلمت وتاريكى

إلا وقد نزلت فيهم عراقيل<sup>2</sup>  
خطف وهتك وإحراق وتنكيل<sup>3</sup>  
أصحاب فيل، وترميمهم أبايل  
وكلّ عقد بحول الله محلول  
فتك وأسر وإهزام وتقتيل  
في كل معركة، والسيف مسلول  
فكيف يغلبهم قوم مخاذيل  
أفنوا رموا أنصروا نالوا وما نيلوا  
نالوا فأقمعهم غالوا<sup>5</sup> وما غيلوا  
وسط السماء وقد ولى الأباطيل  
والآل والصحب ما انهلت أهاليل<sup>6</sup>  
لنفسه فهو بالأوزار محمول  
من حمل أثقاله عيت هزاجيل  
فيها من النفس والشيطان تسويل  
فعفوك الواسع المنجاة<sup>7</sup> مأمول  
فلا يفرّعه هم وتهويل

ما سلّ قطّ على العاتين<sup>1</sup> صارمه  
كأنه البرق يبدو عند سلته  
مأكول عصف تراهم أو كأنهم  
ردّت مكائدهم في نحر كلهم  
أصحابه أسد يوم الوغا ولهم  
جالوا فما زال نصر الله يصحهم  
والله أرسل أملاًكاً لنصرتهم  
كروا أفرّوا، أغاروا ضرغموا كبتوا<sup>4</sup>  
جالوا فأفزعهم صالوا فأفجعهم  
حتى غدا الحق والإسلام شمس ضحى  
يا رب صلّ على الهادي إلى شرف  
وارحم نظاماً جنى الأسواء من فرط  
قد أذنب الذنب كثر الأعداد له  
ورب معصية حقّت سريرته  
فاغفر له بالنبي المصطفى كرمًا  
ثقل موازينه في الحشر مرحمة

<sup>1</sup> از حد گزندگان و متکبری

<sup>2</sup> الدواهي

<sup>3</sup> عقوبت کردن، جمرت دیگران گردانیان

<sup>4</sup> کبتوا بر وزن فعلوا: ذلیل و خوار کرد و براد بر زمن افگند

<sup>5</sup> غالوا أي ملکوا

<sup>6</sup> أهاليل جمع أهلة وهو جمل هلال يعني باران

<sup>7</sup> أي سبب النجاة

## الندوة العالمية

### حول القيم الإنسانية في الأدب العربي

- د. ك. ع. م. أحمد زبير<sup>1</sup>

لولاية تامل نادو الكائنة في جوب الهند أسبقية في عديد من المجالات. فهي أول بقعة هندية أشرقت بنور الإسلام. لا يخفى على من له إلمام بعناية ولاية تامل نادو واهتمامها بالدراسة العربية والإسلامية. وكانت العلاقة الأخوية والصلة الودية بين العرب وأهل تامل نادو متينة منذ زمن بعيد جداً قبل المسيح عليه السلام.

اعتبرت اللغة العربية قبل قدوم الإسلام لغة تجارية بين الشعبين ونالت قبولاً حسناً. وفي بداية الأمر كانت اللغة العربية تدرس في أكناف المساجد وأجنحتها ولكن عندما كثر عدد الطلاب أنشأت عمارات مستقلة لتعليم القرآن والحديث والفقهاء بالإضافة إلى اللغة العربية وآدابها ولتعليم العلوم الأساسية والعصرية وبمرور الزمن سميت هذه العمارات المدارس الإسلامية والمعاهد التعليمية والكليات العصرية. فازدادت وتكثفت جهودهم لإنشاء المدارس والكليات فبفضل هذه المساعي المباركة جاء إلى حيز الوجود عديد من الكليات والمعاهد ومنها الكلية الجديدة (حكم ذاتي) التي قامت بعقد ندوة عالمية عن القيم الإنسانية في الأدب العربي.

في الهند توجد جامعات وكليات عديدة تعقد وتنظم من حين لآخر ندوات ودورات ثقافية وعلمية وأدبية وإسلامية حول الموضوعات المتعلقة بالأدب العربي وعباقرته الأفاضل الذين أثروا اللغة العربية بكتاباتهم القيمة ومن ضمن الجهود والمساعي كانت الندوة العالمية التي قد نظمها حالياً الكلية الجديدة – الكائنة بمدينة تشنائ

<sup>1</sup> أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الكلية الجديدة، تشنائ، الهند

التي قد حضرها عديد من الباحثين والأكاديميين من مختلف أنحاء الهند والتي كان موضوعها القيم الإنسانية في الأدب العربي. تم انعقاد هذه الندوة العالمية في الفترة ما بين 2 - 3 فبراير 2015م واستهلت فعاليات هذه الندوة بتلاوة آيات قرآنية رتلها الأستاذ سيد فضل الله البختياري العمري الندوي وبعد ذلك رحب الأستاذ ش. عبد المالك رئيس الندوة بالضيوف والمشاركين وعبر في كلماته الترحيبية عن تقديره وامتنانه على أن المثقفين والعارفين باللغة العربية قد لبوا ندائه وحضروا الندوة بعدد كبير. وهذا الأمر في الحقيقة قد حفزه على مزيد من الجد والكد في سبيل نشر اللغة العربية في الأرجاء المختلفة لبلاد الهند. الشيخ محمد أشرف - السكرتير العام، اللجنة الإدارية للكلية الجديدة. فإنه ألقى كلماته الرئاسية عن تعليم وتعلم اللغة العربية في تامل نادو من النزعات الإسلامية. وأكد على ضرورة المزيد من الإقبال على عملية تعليم وتعلم لغة كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم بصفتها أداة لإسعاد البشرية جمعاء. ركز على حفظ القرآن الكريم بين طلاب الكلية. وبالتالي فقد قام الأستاذ نثار أحمد رئيس قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية سابقًا من جامعة مدراس بتقدير كلمته التعريفية ببرامج هذه الندوة وقيمها المقبلة متحدًا عن مكانة القيم الإنسانية في الأدب العربي والإسلامي لدى العرب والعجم وجهودهم في إثراء الإنسانية العامة.

وكان على رأسهم الشيخ أنمر ناصر حسن من جامعة العنبر، العراق. إن الكلام منه يحمل إحساسًا معنويًا والنشاط الإنساني في مجال الأدب العربي. فالقيم الإنسانية هي النافذة التي يطل عليها الشخص على الأثر على شخص آخر مهما كان.

وألقى الضيف الشرف مولانا محمد شاهد خطابًا جامعًا شاملاً وقال فيما قال: إن موضوع هذه الندوة هو موضوع كل عصر ومصر ويعم العالم كله في كل مكان. وكان الأستاذ مولانا محمد شاهد، عميد مظاهر العلوم بسهارنبور ضيفًا شرفًا لهذه الندوة العالمية المباركة. وألقى الأستاذ مولانا محمد شاهد، عميد مدرسة مظاهر العلوم بسهارنبور من ولاية أوترا براديش في كلمته الافتتاحية الضوء على أهمية القيم الإنسانية من تعاليم الإسلام مؤكدًا على أهمية الموضوع. وإنه أحاط في انطباعات

الإنسانية في المجتمع بأكثر نواحي الاجتماعية الإنسانية وجامعتها ومن ثمة أفكارها وآرائها تسرب إلى أعماق النفوس بمنتهى السهولة. وفي هذا السياق قال المولوي محمد شاهد إن في تشكيل أشخاص نصيباً وافراً. وفي خطبته الخاصة ألقى الأستاذ نثار أحمد ضوء مستفيضاً على القيم الإنسانية في الأدب العربي وجهود أدباء في مجال الجامعة الإنسانية فإنه أفاد المستمعين إفادة تامة. قدم الدكتور سيد مسعود الجمالي رسالته التشجيعية واستفاد الحضور من هذه الخطبة. ومما يجدر بالذكر والمدح أنه تم إصدار كتاب جديد على يدي المولوي شاهد محمد بهذه المناسبة السعيدة. وهو "التراث العربي في ولاية تامل نادو الهندية" لصاحبه الأستاذ ك.م.ع. أحمد زبير. وإجراء كتاب "التراث العربي في ولاية تامل نادو" بيد مولانا شاهد محمد الذي قال إن مثل هذه الجهود الأدبية خير شاهد على أن جذور اللغة العربية في القارة الهندية عميقة للغاية. ثم توجه الأستاذ عبد اللطيف بكلمة الشكر وتقدير. قدم الدكتور عبد اللطيف كلمة الشكر لجميع الضيوف الكرام والمستمعين.

تمت الجلسة الأكاديمية الأولى برئاسة الدكتور سيد مسعود الجمالي، عميد الدراسات الإسلامية من جامعة بي.يس. عبد الرحمن. تم تقديم تسع مقالات تالية بإدارة الدكتور أحمد إبراهيم من الكلية الجديدة:

1. الأستاذ ك.م.ع. أحمد زبير- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في قصيدة المساء لـ"إيليا أبي ماضي")
2. الأستاذ عبد اللطيف- الأستاذ المشارك بالقسم العربي ونائب عميد الكلية، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في حياة الصحابة)
3. الأستاذ عبد القادر- الأستاذ المشارك بالقسم العربي، كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (عناصر القيم الإنسانية في الشعر العربي القديم)
4. الأستاذ نجم الدين- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، كلية ايتام المسلمين بوياناد، ولاية كيرلا، الهند (الحكمة والقيم في شعر زهير بن أبي سلمى)
5. الأستاذ عبد الصمد- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في النثر الفنى للقرآن الكريم)

6. الباحث مشتاق أحمد- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (أسرار الأخلاق بقلم فضيلة الشيخ الدكتور. عائض بن عبد الله القرني في الأدب العربي)

7. الباحث محمد شريف- جامعة جواهرلال نهرو، نيو دلهي، الهند (ما القيم الإنسانية في الأدب العربي إلا من تعاليم القرآن)

8. الباحث شياس- الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند (النزعة الإنسانية في قصائد عبد الرحمن العشماوي)

9. الباحث صيف الدين بشير- جامعة كاليكوت، ولاية كيرلا، الهند (القيم الإنسانية في مؤلفات المنفلوطي)

أما الجلسة الثانية لهذه الندوة فهي استهلت برئاسة الدكتور أحمد زبير من الكلية الجديدة والتي عبرت في كلمته الرئاسية عن الجامعة الإنسانية وأنواعها. أُلقيت سبع مقالات في هذه الجلسة كما يلي:

1. الأستاذ سيد كمال الله البختياري الندوي- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (مساهمة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في ترويج الثقافة الإسلامية وتطوير القيم الإنسانية في الأدب العربي)

2. الأستاذ أحمد الله- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية الأساسية في خطبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

3. الأستاذ سيد عبد القادر- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، كلية "حاجي كرت راوتر الغوثية"، مديرية، مدورائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في ضوء الأحاديث للنبوية)

4. الأستاذة نفيسة مسعود- الأستاذة المساعدة ورئيسة القسم العربي، كلية قاضي بشير أحمد سعيد للبنات، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (الحرية وحقوق الإنسان في ضوء الإسلام)

5. الأستاذ شيخ فريد ولي الله- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (حقوق الجار في ضوء الإسلام)
6. الحافظ عبد الواحد- مدرسة الرحمن للحفظ (تلميح إلى العدل والوافي في الأدب العربي المقدس)
7. الباحث عبد الرحمن- كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (الحرية والمساوات والتسامح والديني في الشعر المهجري)
- والجلسة الثالثة تمت بإدارة الدكتور مجيب الرحمن من نفس الكلية وترأسها الدكتور ذاكر حسين من جامعة مدارس تقدم فيها المساهمون تسع مقالات تالية:
1. الأستاذ أحمد إبراهيم- الأستاذ المشارك بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (نبذة من الشعر العربي للقيم الإنسانية)
2. الأستاذ علي إبراهيم الجمالي- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في الأحاديث النبوية مع إشارة خاصة إلى العدالة)
3. الأستاذ زهير- الأستاذ المساعد، مدرسة روضة العلوم بفروق، ولاية كيرلا، الهند (القيم الإنسانية في مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي)
4. الأستاذ سيد شجاع الدين القادري العزيز، الأستاذ المساعد ورئيس القسم العربي، كلية الماجستير للآداب ملحققة بالجامعة العثمانية، مدينة حيدرآباد، الهند (القيم الإنسانية في القرآن الكريم والسنة النبوية)
5. الباحث شفيق- جامعة مولانا أبو الكلام آزاد القومية، مدينة حيدرآباد، الهند (القيم الإنسانية في كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لأبي الحسن علي الحسيني الندوي و"لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟" لشكيب أرسلان)
6. الأستاذ عبد الرحمن- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإجتماعية في الإسلام)

7. الأستاذ تميم الأنصاري- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في ضوء سورة الحجرات)
8. الباحث نشاد علي- جامعة مدراس، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (قضايا المرأة روايات سحر خليفة)
9. الأستاذ محبوب علي خان - الأستاذ المساعد بالقسم العربي، كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في القرآن الكريم)
- وفي اليوم التالي صباحًا استهلّت الجلسة الرابعة برئاسة الدكتور جمال الدين الفاروقي. بدأت هذه الجلسة بكلمة الدكتور جمال الدين الفاروقي. ألقى ثمان مقالات في هذه الجلسة كما يلي:
1. الأستاذ محمد سليمان العمري- مدير، مركز ميا سي (MEASI) للدراسات الإسلامية، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في الأدب الإسلامي)
2. الأستاذ نياز أحمد الجمالي- عميد الكلية العربية الجمالية، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في الأدب العربي)
3. الأستاذ محمد- الأستاذ المساعد بكلية سلم السلام، ولاية كيرلا، الهند (ملاحم النزعة الإنسانية في الرواية العربية مع إشارة خاصة إلى رواية "عصفور من الشرق")
4. الأستاذة مه جين أختر- رئيسة القسم العربي، الجامعة العثمانية، مدينة حيدرآباد، الهند (القيم الإنسانية في كتابة محمود تيمور)
5. الأستاذ محمد فضل الله شريف- الأستاذ المساعد ورئيس القسم العربي، كلية "أوندي" ملحقة بالجامعة العثمانية، مدينة حيدرآباد، الهند (القيم الإنسانية في أدب المنفلوطي)
6. الأستاذ حسين أحمد- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية الرئيسية في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

7. الأستاذ عثمان علي- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في أبيات أحمد شوقي)

8. الباحث جليل أحمد- جامعة مدراس، تشنائى، ولاية تامل نادو، الهند (الاتجاهات الأنسانية في الأحاديث النبوية)

والجلسة الخامسة تمت بإدارة الدكتور فضل الله شريف من مدينة حيدرآباد والدكتورة مه جبين أختروهي رئيسة لهذه الجلسة. تقدم فيها المساهمون بتسع مقالات كما يلي:

1. الأستاذ جمال الدين الفاروقى- الأستاذ المشارك ورئيس القسم العربى وعميد كلية أيتام المسلمين بوياناد، ولاية كيرلا، الهند (ملاحم القيم الإنسانية في شعر إيليا أبى ماضى)

2. الأستاذ كلیم الله العمري- جامعة دار السلام بعمرآباد، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في شعر زهير بن أبى سلمى)

3. الأستاذ همايون خان- الأستاذ المساعد بالقسم العربى، كلية جمال محمد، ترشى، ولاية تامل نادو، الهند (الحلم والأناة في التراث العربى)

4. الأستاذ عبد الشهيد- كلية نجاة الأنعام، ولاية كيرلا، الهند (القيم الإنسانية في أدب محمد الفيتورى)

5. الأستاذ سيد فضل الله البختيارى- الأستاذ المساعد بالقسم العربى، الكلية الجديدة، تشنائى، ولاية تامل نادو، الهند (تعليم القيم الإنسانية في ضوء السيرة النبوية)

6. الأستاذ عبد الناصر- كلية أنوار الإسلام للبنات، ولاية كيرلا، الهند (جمالية الإنسانية في ميزان الإسلام)

7. الباحث عبد الغفور- جامعة مدراس، تشنائى، ولاية تامل نادو، الهند (تجليات الأفكار الصوفية عند الشاعر أدونيس: دراسة تحليلية)

8. الباحث زبير- جامعة جوهرلال نهرو، نيو دلهي، الهند (الاتجاه الإنساني في شعر فدوى طوقان)

9. الأستاذ عبد العظيم العمري- جامعة دار السلام بعمراباد، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في الأدب العربي)

الجلسة السادسة تمت بإدارة الأستاذ سيد امتياز من الكلية الجديدة. وترأسها الأستاذ الفاضل نياز أحمد الجمالي عميد الكلية الجمالية. أقيمت عشر مقالات في هذه الجلسة كما يلي:

1. الأستاذ عبد الحي الندوي- جامعة بي.يس. عبد الرحمن، وندلور، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي)

2. الأستاذ عاشق أحمد- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (الق أخاك بوجه طلق)

3. الأستاذ سيد سجاد عناية- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائ، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في ضوء القرآن الكريم)

4. الأستاذ مجيب الرحمن- الأستاذ المساعد بالقسم العربي، الكلية الجديدة، تشنائ، ولاية تامل نادو، الهند (المفاهيم الإنسانية في ضوء سورة لقمان)

5. الباحث عبد الله نجيب- جامعة جوهرلال نهرو نيودلهي، الهند (القيم الإنسانية في أعمال معروف الرصافي)

6. الباحثة سنيرة- جامعة جوهرلال نهرو نيودلهي، الهند (النزعة الإنسانية في كتب خالد بن خالد)

7. الباحث شريح- كلية جمال محمد، ترشي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية في مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي)

8. الباحث أمين أحمد- جامعة مدراس، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم المستنبطة من خطب المصطفى صلى الله عليه وسلم)

9. الباحث محبّ الله - الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (الأمثلة اليسرة من القرآن الكريم)

10. الباحث ظفر الله الندوي - الكلية الجديدة، تشنائي، ولاية تامل نادو، الهند (القيم الإنسانية من القرآن)

الجلسة الوداعية كانت مخصصة لرئاسة الشيخ ع. خليل الله رئيس اللجنة الإدارية للكلية الجديدة. شرفنا سماحته بقدمه الميمون مشكورًا. إلا أنه اعتذر. فتكرم الدكتور سيد كمال الله البختياري الندوي برئاستها مشكورًا. فشجع في كلمته الرئاسية الختامية المهتمين باللغة العربية على قرارات الندوة. بما فيها فكرة لإنشاء بناء خاص للقسم العربي من خلف مسجد الكلية. وأدار الدكتور أحمد إبراهيم هذه الجلسة. ثم ألقى الدكتور جمال الدين الفاروقي والدكتور محمد سليمان العمري والدكتور محمد الفاضل من جامعة بغداد، العراق والدكتور سيد كرامة الله بهمني والدكتور ذاكر حسين انطباعتهم بخصوص ما لا حفلوه من موضوع الندوة ومقالاتها البارزة خلال الندوة. وانتهت الندوة بكلمة الشكر والتقدير التي وجهها الدكتور سيد كمال الله البختياري في تمام الساعة الخامسة مساءً.

وقدمت في هذه الندوة العالمية 52 مقالة بحثية تقريبًا حول القيم الإنسانية في الأدب العربي. وأبرز الباحثين: الأستاذ جمال الدين الفاروقي والدكتور عبد القادر والدكتورة مه جبين أختر والدكتور عبد المالك والدكتور عبد اللطيف والدكتور محمد سليمان العمري والأستاذ عبد العظيم العمري وغيرهم.

استمرت الندوة إلى يومين وألقيت أكثر من خمسين مقالة قيمة تتعلق بالموضوع. وشارك فيها الأساتذة والباحثون من الجامعات والمعاهد والكلليات والمدارس تعني بتعليم اللغة العربية وآدابها ووصلت الندوة إلى نهاية المطاف بعدما تقدم الأستاذ سيد كمال الله البختياري الندوي بكلمة الشكر إلى الجميع.

## الدكتورة هيفاء شاكري تنال جائزة رئيس جمهورية الهند

### لخدمتها للغة العربية للسنة 2015م

- د. أورك زيب الأعظمي<sup>1</sup>

تمنح حكومة جمهورية الهند أربع جوائز على خدمة اللغة العربية وأدائها. إحدى هذه الجوائز تمنح لمن لم يتجاوز عمره خمسًا وأربعين سنة، وأما الجوائز الثلاث الباقية فهي تمنح لمن تجاوز عمره ستين سنة. الجائزة الأولى تسمى " Maharishi Badryan Vyas Samman" بينما الجائزة الثانية تسمى "Certificate of Honour".

الدكتورة هيفاء شاكري بنت الأستاذ شاكر عناية الله بدأت دراستها من قريتها حيث شدت من العلم ثم رافقت والدها الأستاذ شاكر إلى مكة المكرمة حيث أتمت الثانوية في 1994م ثم نالت شهادة في التربية من جماعة تحفيظ القرآن بمكة المكرمة في 1995م وبعدما أصيب والدها بالمرض ورجع إلى الوطن رافقته السيدة إلى الهند فنالت شهادة البكالوريوس في 2003م كما نالت شهادة ماجستير في 2005م وأما الدكتوراه فقد حصلت عليها في 2009م في موضوع "باحثة البادية أدبية ومصالحة لشؤون المرأة". طبعت رسالتها للدكتوراه من روزورد بوكس في 2015م.

بدأت الدكتورة حياتها العملية من مدرسة أم رومان بمكة المكرمة كمدرسة للقرآن واللغة العربية منذ 1996م وعملت فيها حتى 1999م ثم عيّنت كمدرسة للغة العربية في مدرسة سفارة المملكة العربية السعودية في الهند منذ 2006م وعملت فيها حتى 2011م. خلال هذه الفترة تم اختيارها كمدرسة ضيف في قسم اللغة العربية وأدائها بالجامعة المليية الإسلامية بنيو دلهي منذ شهر نوفمبر 2008م حتى 2011م. وفي 19/ سبتمبر

<sup>1</sup> مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدائها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

2011م تم اختيارها كأستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية بنيو دلهي (الهند) وهي تدرّس فيها الآن على هذا المنصب الجليل.

بدأت الدكتورة تكتب المقالات والبحوث منذ 2006م حين نشرت مقالها الحائزة على الجائزة الدولية للمجلس الهندي للعلاقات الثقافية بنيو دلهي ثم نشرت مقالها عن حق القرآن الكريم في مجلة "صوت الأمة" ولها أكثر من ثلاثين مقالة وترجمة عربية نشرت في مختلف مجالات الهند وخارجها. أبرز هذه المقالات والترجمات ما يلي:

1. كتاب رجال السند والهند، دراسة نقدية
2. تدريس اللغة العربية في الجامعات الحكومية بشمال الهند
3. "سير العارفين" مصدر لتاريخ الهند وثقافتها
4. مساهمة العلامة شبلي النعماني في تطوير الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية
5. علاقة مولانا آزاد بجامعة الأزهر
6. الشيخ عبد العزيز المباركفوري من أعلام الفكر التعليمي والتربوي
7. حريق مكتبة الإسكندرية
8. العلامة شبلي النعماني والمستشرقون، دراسة نقدية
9. خطاب صاحب الفخامة نائب رئيس جمهورية الهند السيد محمد حامد الأنصاري رعاه الله تعالى

صدرت لها خمسة كتب قامت بمراجعتها أو كتابتها أو ترجمتها إلى العربية. وكل هذه الكتب صدرت في السنة 2015م وهي كما يلي:

1. Muscat during 40s of 20<sup>th</sup> Century: هذه ترجمة عربية لكتاب "مسقط في الأربعينيات من القرن العشرين" للدكتور صالح البلوشي. قام بترجمته الإنجليزية الأخ العزيز محمد تابش خان، مدرّس ضيف للغة العربية وآدابها في قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، جامعة فيسفا-باراتي المركزية في بنغال الغربية (الهند). قامت الدكتورة بمراجعة هذه الترجمة.

2. القيظ: هذه حلقة ثالثة للرواية التاريخية الرواسي الخوالي والنقط الفرات. أول هذه الحلقات هي الجذور ثم الخوالي. ساعدني الدكتورة هيفاء في مراجعتها.
  3. مقالات شبلي في الإسلام والمستشرقين: هذه ترجمة مقالات شبلي عن الإسلام والمستشرقين. وهي تشتمل على خمس مقالات؛ حريق مكتبة الإسكندرية، ورواج المكتبات الإسلامية، ورواج البيمارستانات، وعلم الميكانيكا والمسلمون، ورأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية. صدرت الترجمة من روزورد بوكس في الهند والألوكة من السعودية العربية.
  4. باحثة البادية أدبية ومصالحة لشؤون المرأة: هذه رسالتها للدكتوراه. وهي تتحدث عن حياة باحثة البادية وخلفيتها الثقافية ومساهمتها لإصلاح شؤون المرأة. قدّم لها الدكتور ظفر الإسلام خان مدير تحرير "Milli Gazette" الصادرة عن نيودلهي (الهند). صدرت هذه الرسالة من روزورد بوكس المذكورة أعلاه.
  5. شاعر الحب والجمال ابن زيدون: هذا الكتاب يعلمنا عن حياة وشعر ابن زيدون بخصوص ما كتبه عن الحب والجمال. هذا عمل رائع صدر من الهند والسعودية العربية معاً.
- نهى الدكتورة على فوزها بهذه الجائزة التي أعلن عنها يوم عيد استقلال الهند 15/أغسطس لهذه السنة وسيتم تسليم الجائزة في حفل يقام في قصر الرئاسة الهندي إن شاء الله تعالى. والجدير بالذكر أن الأستاذة هي أول سيدة هندية تنال هذه الجائزة الفخمة.